
التراث المجهول
إطلالة على عالم المخطوطات

بسم الله الرحمن الرحيم
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
صدق الله العظيم

دار الأمين

طبع * نشر * توزيع

٨ شـارع أبـو المعـالى
(خلف المعهد البريطانى) العجوزة
تليـفون / فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق
(خلف قاعة سيد درويش) الهرم
تليفـون / فـاكس ٥٦٣٤٦٩٩
ص.ب:١٧٠٢ العتبـة ١١٥١١

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع ١١٦٨٩/ ١٩٩٧

ISBN

977-279-168-4

تُراثُنا

التُراثُ المجهُول

إطلالة على عالم المخطوطات

دكتور يوسف زيدان



تراثنا

سلسلة كتب تصدرها دار الأمين بإشراف الدكتور *يوسف زيدان*، تُعنى بنشر الأعمال الأصيلة فى مجال التراث العربى، مما لم يسبق نشره من أعمال تراثية محققة أو مؤلفة؛ وتراعى السلسلة فيما يصدر عنها من كتب، القواعد العلمية الرصينة، المعمول بها فى مجال التأليف والتحقيق التراثى الجاد.

صدر منها:

- **التراث المجهول**

  للدكتور / يوسف زيدان (تأليف)
- **حديقة الحقيقة، لسنائى**

  تحقيق الدكتور / إبراهيم الدسوقى شتا
- **حقيقة العبادة عند ابن عربى**

  للدكتور / كرم أمين أبو كرم (تأليف)
- **ابن القطّاع الصقلى**

  للدكتور / أحمد محمد عبد الدايم

الإهـــداء

إلى المثقـــف المصرى الأصيـــل

الصـــديق / ســـامى خشبـــة

.. اعتـزازًا بـرفقةٍ جمعتنـا على درب :

الوعى بالماضى

وفهم الحـاضر

واستشراف المستقبـل .

يوسف زيدان

مقدمة الطبعة الثانية

كـان لصـدور هذا الكتـاب ، فى طبعتـه الأولى ، صـداه الطيب .. حتى إننى دُهشتُ من الصدى الواسع لهذا الكتاب ، سواء لدى المتخصصين فى فنون التراث وعلومه ، أو لـدى جمهرة المثقفين والقراء . وقد نفـدت الطبعة الأولى فى زمن يسير ، مما حـدا بنا لتقديـم هذه الطبعة الثـانية التى تأتى بعد فترة طـويلة من نفـاد طبعته الأولى ، والتى أرى من المناسب ، التقديم لها بالوقوف عند بعض الآراء التى أثارها الكتاب فى طبعته الأولى .. فمن ذلك :

* رأى البعضُ أن الكتـاب يمثـل مقـدمةً عـامة فى الـتراث العـربى ، لكنه لا يغـوص فى بواطن هـذا التراث على نحـو تفصيلى مشبع ، فهو محضُ تلـويحٍ من بعيد ، لا يكـاد يقترب من المواطن البعيدة ، حتى يرحل عنهـا إلى غيرها .. والحقُّ ، فلا أجـد عندى اعتراضٌ على هذا الرأى ، بل هـو عينُ ما أردته ! وقـد نصَّ عنوان الكـتاب على أنـه (إطـلالة) على العـالم التراثى الفسـيح ، المتنـوع ، المجهـول .. ولم يكن المراد استكناه أعماق التراث وسَـبْر أغـواره ، فقد فعلتُ ذلك - أو حاولت فعلـه - فى أعمال أخرى ، تنـوعت ما بين فهـرسةٍ ، وتحقيقٍ ، ودراسـاتٍ أكاديميـة متخصِّصة .. غير أننى انتبهت إلى أن الشقـة تبعد ما بين القارئ المعـاصر وتراثه ، الذى هو فى حقيقة الأمر : عـالمه الجُوَّانى العميق . فأردتُ وَصْلَ ما انقطع ، وتنويرَ ما أَظْلَم ، وتَقْريبَ ما ابتعد ؛ ولم تكن الغايةُ الغوصَ فى الدقائق والرقائق التراثية .. فالكتابُ ، بالفعل ، تلويحٌ وتشويقٌ .

* واعتبرنى البعض مغاليًا فى قولى إن التراث (مجهول) واحتجُّوا علىَّ بهذا القدر الكبير من الكتب التراثية التى أخرجتها المطابع ، ولا تزال تخرجها كل يوم ، فالتراثُ معروفٌ مألوف .. وأصحاب هذا الرأى ، هم المشتغلون بالتراث ، أو هم - بالأحرى - البقيةُ الباقية من المشتغلين بالتراث . والحقُّ ، فهذا الكتاب لم يوضع لهم ! وإن كانوا بالفعل فى حاجةٍ إليه .. فالعمل التراثى ، ظل دومًا عملاً تخصصيًا ، يغرق صاحبه فى بحرٍ من البحور التراثية ، ولا يهتم بما سواه .. مما أدى به إلى انصراف نظره عن المنظومة المتكاملة للتراث ، تحت وَهْمِ التخصُّص الدقيق ! وما هذا التخصُّص المزعوم إلا خرافة ، منعت الرؤيةَ المعاصرة من فهم التراث ، وعاقها من نقل التراث من مستوى (النصّ) إلى مستوى (الخطاب) المعرفى المتواصل . ومن هنا كانت النظرة العصفورية المحلّقة ، للتراث ، تصيب هؤلاء بالدوار .. لارتفاعها من جهة ، ولإطلالها على جوانب أخرى - لم يتعوَّدوها - من الجهة الأخرى . ولعلهم انزعجوا من قولى إن التراثَ مجهولٌ ، لمَّا أدركوا أنهم كانوا يجهلون - بالفعل - رحابته ! ولا يعنى ذلك تقليلاً من شأن المتخصِّصين ، وإنما هى مجرد دعوة : أن اخرجوا من المسارب الضيقة ، إلى المسالك الفسيحة .

* وأخيرًا .. فقد قرَّر البعضُ أن المخطوطات (الثلاثين) التى ضَمَّها الكتاب ، لا تكفى رغم تَنَوُّعِهَا ، للإطلال على العالم التراثى الزاخر ، الحافل بآلاف الكتب البديعة المطوية فى نُسَخها الخطية ، فكان لابُدَّ من تقديم المزيد .. والحقُّ ، فهؤلاء لم يُجانبوا الصواب كثيرًا ، بيد أن المزيد من فصول الكتاب ، كان سيخرج به عن الشكل اللائق به ، من حيث أن الغرض هو استكشاف التراث ، لا تقديم موسوعة تراثية . وما اشتمل عليه الكتاب ، هو محضُ نماذج من زوايا مهجورة ، وفى كل زاوية منها ، الكثيرُ من التراث المجهول .

.. وبعد ، فـلا يسعنى فى ختام هذا التقديم ، إلا الترحيب بكل الآراء النقـدية التى أثارها الكتاب عند هـؤلاء الإخوة ، وهـم جميعًا - وهذه ثقتى - مخلصين فى كل رأى قرَّروه ؛ وما أرادوا فى نهـاية الأمــر إلا التمـام والاكتمـال ، لكن الكمـال لله . ولا يسعنى أيضًا ، إلا التوجُّه بالشكر لهذه النخبة من مثقفينا ، الذين تلقُّوا الكتاب بكل ترحـاب ، وفاضت أقلامهم بمقالات بـديعة عن الكتاب ومؤلِّفـه ، ربما بأكثر مما يستحقان .. وقد اختار ناشرُ الكتاب مجمـوعة من تلك المقالات ، جعلها بمثابة ملحق فى هذه الطبعة الثانية ؛ وهو شعورٌ طيبٌ منه .. فجزاه الله خيرًا .

والله ولى التوفيق ،،،

دكتور / يوسف زيدان

الإسكندرية فى ربيع الأول ١٤١٨ هجرية

الموافق شــهر أغســطس ١٩٩٧ ميلادية

مقدمة عامة

هل التراث مجهول ؟

هناك أسبابٌ عديدة دعتنى لاختيار هذا العنون للكتاب (التراث المجهول) برغم ما يبدو فيه من استفزاز للقارىء العام ، بل والقارىء المتخصص .. فالتراث، على ما أرى ، لم يزل مجهولاً ، وأقصد بالتراث هنا : ما تركه السابقون من كتابات وكُتب خَطُّوها بأيديهم أو نسخها النُّسَّاخ على امتداد قرون الحضارة العربية الإسلامية ذات التاريخ الطويل .

تراثنا -بهذا المعنى - لا يزال مجهولاً بحكم الواقع الإحصائى ، وذلك لأن إحصاء ما نُشر من تراثنا - محققًا أو بدون تحقيق - ومقارنته بما لم يزل مخطوطًا ، وبما ضاع مع الزمان ؛ يدل على أن نسبة المنشور المعلوم من التراث لا يزيد على خمسة بالمئة من مجموع التراث ، أو أقل من ذلك .. وعلى ذلك فالجانب الأعظم من تراثنا مجهول ، لأنه رهين النسخ الخطية الحبيسة فى خزائن المخطوطات ببلدان الشرق والغرب .

وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم الوعى به ، وذلك لأننا حين ننظر فى أعمال الأساتذة المعاصرين الذين قدموا رؤية للتراث ، أو بحسب ما نسميه اليوم : قراءات التراث ؛ لا نجد فى مراجع هؤلاء الأساتذة مخطوطةً واحدة ، ومعنى هذا أنهم اعتمدوا على المنشور المعلوم ، ليكون هو (المقروء) بينما هذا المنشور لا يمثل إلا أقل القليل من جملة التراث .. وهكذا تأتى القراءات متضاربة ، مردودة ؛ لأنها أغفلت الشِّقَّ الأكبر ، المخطوط ، من التراث .

وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم منطق الإلغاء والتغييب ، هذا المنطق الذى ساد اليوم وأباد النظرة الموضوعية للتراث .. وذلك لأن تراثنا رحيبٌ متنوع ، لكن

التوظيف المعاصر للتراث يقتضى الانحياز التام لجانب من التراث وإلغاء الجانب المقابل لـه ، فنرى بعض البلدان التى تأخـذ بمذهب معين ، تؤكد مـذهبها وتنشر كتب المتون والشروح حـوله ، وتلغى لصالحه تـراث الفرق الإسلاميـة الأخرى ، وفى بلد آخـر ، يكون الانتصار للمذهب السلفى والترويج لكتب ابن تيميـة ومن سار على نهجه من علماء الحنابلـة ؛ فى الوقت الذى يصل إلغاء التصـوف إلى حد الحظر والمنع ومخاصمة دور النشر العربية التى تقـوم بطبع كتب الصوفية .. ولا يقف الأمر عند حـد الحكومـات وجماعات المصلحـة ، بل يتعدى منطق الإلغـاء والتغييب إلى أفراد النـاس ، سواءً من المتخصصين أو عـوام الخَلْق ؛ فبعض الذيـن تخصَّصوا فى دراستهم وتوفروا على تراث فرقـة أو شخصية كبيرة فى التراث ، ينحازون تمامًا إلى ما درسوه ، ويهدرُون لصالحه كل ما لا يوافقـه ؛ وقد يصل الإلغاء والتغييب عندهم إلى حَدٍّ مَرَضِـيٍّ ، مثاله هذا الأستاذ الـذى ظنَّ أنه الآن المتحدث الوحيـد باسم (ابن رشد) فإذا به ينهمك فى الخلاف ويَلْعن كل أعلام التراث المختلفين مع ابن رشد ، ويُعْلن الأستاذ فى محفل ثقافى كبير ، صـائحًا : لا يوجد أمامنـا طريقٌ إلا ابن رشد ، وليذهب الغـزالى وابن تيمية إلى الجحيم ! وعلى مستوى عوام النـاس ، يرفض ذهن الواحد منهم الاعتراف بثراء التراث ، فيتخيل عهود الخلفاء الأوائل فى دول الإسلام عهودًا نقيـة طاهرة من كل الشـوائب ، فإذا واجه وعيـه المتواضع صورًا منـاقضة لما استقر بذهنه ، صورًا عن خلاف الأئمة أو مجون القدماء أو منحط الأعمال ؛ أخذته الأزمـة وأصَّر على إلغاء وتغييب كل مـا يكـدر الصورة الهنيـة التى لا توجـد إلا فى خياله الخاص .

وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم اغترابنا عنه ، وذلك لأن التراث العربى الإسلامى ظل ممتدًّا فى الزمـان والمكان ردحًا طويلاً من الـوقت ، فمرَّ بمنحنيات كثيرة وارتفع

وانخفض فى معدلات التحضر ولم يعرف ثبات الأحوال ، لكنه لم ينقطع .. حتى جاءت الحملة الفرنسية ، ومن بعدها الاستعمار ، فلَوَت أعناق الأجيال الجديدة ، بقوة ، بعيدًا عن تراثها المتصل ؛ موجهةً لها ، بنفس القوة ، نحو سياق الحضارة الغربية المعاصرة ، فكان ما كان من تقسيمٍ لدول الإسلام وفقًا لأغراض الغرب ، وتحقير التراث .. وغير ذلك من مظاهر الاغتراب عن (التراث) الذى صار عند هؤلاء ، ليس مجهولاً فحسب ، بل هو مذمومٌ مكروهٌ مرتبطٌ بالتخلُّف الحضارى .

وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم انعدام الخطة المنهجية للتعريف به ، وذلك لأنه بعد انقضاء الفترة النشطة فى نشر التراث ، أيام كانت مطابع بولاق الرائدة تخرج أمهات الكتب التراثية ، ومعها دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، والجمعيات العلمية العربية والاستشراقية ، وأعلام الرجال المتحمسين للتراث ونشره .. صار نشر التراث اليوم عملاً تجاريًا لدى دور النشر ، دعائيًا لدى أصحاب الأغراض ، غثًا لدى المرتزقين من متأخرى المحقِّقين ، رديئًا فى ثوب طباعته ، وبالقطع ، فهناك استثناءات قليلة ، لكن الغالب الأعم هو فوضويات نشر التراث ، وانعدام الجهة التى تنظم عملية الاهتمام بالتراث ، فهرسةً ونشرًا ودراسةً ، ولكَمْ ناديتُ طيلة السنوات الماضية بإنشاء هيئة عربية - أو مصرية - للتراث تتولى هذه المهام ، ناديتُ حتى جَفَّ حلقى وكَلَّ القلم ، ثم اكتشفت أننى أصرخُ فى بئر قديم .. فسكتُّ .

على هذا النحو صار التراث مجهولاً ، وعلى ذلك اخترتُ عنوان الكتاب ، فهل سيظل التراث كذلك ؟ إذا كانت الإجابة التى نتمنَّاها ، بالنفى .. فالواجب علينا إذا أردنا تبديد حالة الجهالة العامة بالتراث ، أن نطلّ على

المخطوطـــات ؛ ومن هنــا جـاء العنــوان الجانبى : إطلالــــة على عالــــم المخطوطــات .

الإطـلالة على المخطـوطـات تعنى : أن نتعرَّف على الكثير من ذخـائر التراث العربى المنزوى فى الخزانات الخطية ، يشكو الإهمال ويتهدده الفقد وتتصرَّف فيه يد الزمان ، فلعلنـا بذلك نقبل على تحقيقه ونشره فتزيد نسبة المعـروف من تراثنا ويقل المجهـول . وتعنى : أن نعى التراث وعيًا مـوضوعيًّـا علميًّا ، ونتمكن من (قـراءة) التراث قـراءةً صحيحـة تكشف عن حقيقـة تكـوين العقليـة العربيـة الإسـلاميـة وتتلمس ملامح شخصيتنـا الحضارية على نحو دقيق لا يركـن إلى إصدار الأحكام الإطلاقية العامة استنادًا إلى وقائع جزئية ؛ فيسعى الوعى المعاصر لاكتشاف ورؤية (الماضى) على نحـو متكامل ، فيكـون وعيـه هذا مقـدمـةً لفهم الحاضر وقاعـدةً لاستشراف المستقبل ، وتعنى : أن نـدرك كَمَّ الثراء والتنـوع فى تراثنا ، وأنـه من غير الصواب إلغـاء جانب منـه لصالح جانبٍ مقـابل ، فكل الجوانب محكومـة بسياقٍ تاريخىٍّ واحدٍ أبرز هـذا وذاك معًا وفقاً لشروط تاريخية خاصـة ، فلولا الغزالى لما كان ابن رشـد ، ولو لم يكـن (تهافت الفلاسفـة) مـا كان (تهافـت التهافت) وبـدون مدرسـة ابن عربى لا يكـون فكر ابن تيميـة ، وبعيدًا عن وجود المعتـزلة مـا كانت الأشعريـة لتوجد .. وهكذا نعـرف أن التراث متساند ، ومؤسس على نحـو عضوى داخل بناء معرفى خاص به ، بناء محكوم بالتاريخ .. وهكذا نتحرر من أوهام الجهالة بالتراث ، ونتأكد من استحـالة الفصل بين كون ابن رشد فيلسوفًا عقـلانيًّا ، وكونـه فقيهًا مـالكيًّا - بل قـاضى قضـاة المالكيـة فى عصره - وندرك أن نصيب ابـن سينا والفـارابى وابن رشـد من العقلانيـة ، وهـم الفلاسفـــة ، لا يقـــل عن نصيب الـصوفية من أمثال السهروردى وابن سبعين .. وهكذا نرى حقيقة أن الماضى أنتج

متون الفقه ورقائق الزهد ، فى نفس الوقت الذى أنتج فيه ماجن الشعر وساقط الأغنيات ؛ وأن الإسهام العلمى العربى - المدوَّن - لا يقل فى حجمه أو أهميته عن الجانب الدينى واللغوى والأدبى ، فالكل موجود ، والكل لا يمكن إغفال بعضه لصالح البعض الآخر ، والكل لن يتكرر فى مقبل الأيام فما كان كان ، ولن نفيد منه إلا بمقدار ما يؤدى إلى فهم ما هو كائن ، والتخطيط لما نرجو أن يكون ، ذلك هو درس التراث الأول ، والاعتبار الموضوعى لطبيعته .

وأخيرًا ، فالإطلالة على المخطوطات قد تفضى إلى تخطى الهوة التى أدت إلى اغتراب وعينا المعاصر ، وقد تطلعنا على نهج للتعامل مع الحضارة الغربية المعاصرة ، وقد تدعونا إلى إنشاء هيئة قومية للتراث ! .

* * *

بدأت عندى فكرة هذا الكتاب منذ سنوات ، حين طلبت منى إحدى الجرائد العربية كتابة مقال يومى فى التراث ، فكتبت مجموعة من مقالات التعريف بالمخطوطات ، فلاقت قبولاً طيبًا وصارت من بعد ذلك نهجًا سار عليه غيرى ، فى تلك المقالات - القصيرة - كنت أكتفى بالتعريف بالمخطوطة الواحدة والإلماح إلى أهميتها ، وفى أثناء الكتابة كانت تثور فى ذهنى قضايا كثيرة تتعلق بهذه المخطوطة أو تلك ، فقمت بتدوين تلك القضايا وما يدور حولها من أفكار ووجهات نظر ، ثم أعدت الكتابة لتكون فصول هذا الكتاب .

يقع الكتاب فى ثلاثين فصلاً ، قد يطول كل فصلٍ منها أو يقصر ، بحسب مقتضيات التعريف بالنص المخطوط ، ومؤلفه ، وما يدور حولها من أفكار ، ومع

أن جملة فصول الكتـاب تسعى لإلقاء نظرة عامـة على التراث من خلال الجمع بين مخطـوطاتٍ من شتى العلـوم والفنون ، إلا أن مخطـوطـات العلوم كـالطب والفلك والكيمياء سنراهـا أكثر من مخطوطات المعارف الـدينية والأدب والتصوف .. وليس فى الأمر انحيازٌ أو إهدارٌ وإلغاء ، وإنما هى محاولة (التوازن) فى رؤية التراث الذى زعمتُ أنـه لم يزل مجهـولاً . ذلك أن الاهتمام ينصبُّ دومًـا على الـــتراث الـدينى والأدبى ، دون الـــتراث العلمى .. مع أنـنا فى عصر العلم ، وفى العـالم الغـربى اهتمامٌ كبير بتـــاريخ العلوم العـــربية ! من هنــــا كانت العنايـــــة بالـــتراث العلــمى الـــعربى متمثلاً فى هذا القدر من المخطـوطات ، والموضوعـات ، التى تناولتهـا أكثر فصـول الكتاب .. وأزعمُ أن بعض هـذه الـفصول تتعـرض لأمورٍ لم تُطرح من قبـل ، وفيهـا من التراث المخطوط مالم يكتب عنه قبـل ذلك سطرٌ واحدٌ -رغم أهميتــه - ومن الشخصيــات التراثــية مَنْ طـواهم الـزمــان وسهـا عنهم المعاصرون ، وتلك هى حـدود المحاولــة المخلصـــة التى أقدمهــا بغيـة تضييق مساحـة المجهول التراثى .

وعلى ذكـر المجهـول ؛ سوف يـلاحظ القـارىء أن بعض المخطـوطـات التى تنــاولتهــا الفصــول ، هى لمؤلفين مجهـــولين .. وفى التراث العــربى الكثير من المخطوطات مجهولة المؤلف ، والمواقف الرائعة والأقوال البديعة مجهولة الصاحب . ولكم تفكـرتُ فى هؤلاء المجهـولين الـذين كان أثـرهـم فى بعض الأحيـان أبلغ من المشهـورين ، ففى خضم الوقـائع الكثيرة فى التراث عن شجـاعة الأبطـال وروائع الأعمال ، أشعر أن أكثـر المسلمين شجاعـة فى التاريخ هـو ذلك الرجـل المجهول الذى وقف فى المسجد أمـام أشهر سفاح فى تاريخنـا ، الحجَّاج بن يوسف الثقفى ، وكان الحَجَّـاج آنذاك يُلقى إحـدى خُطبه الرهيبـة المتوعِّـدة ، فأنهاها بما معنـاه أنه

سيفعل ما يريد رغم أنف كل معارض ، فقام الرجل المجهول وقال : أنا مرغمٌ أنفه! وفى سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الخليفة المهيب الذى أعز الله الإسلام به، وهاجر علانية يوم كان المسلمون يتسللون للمدينة ؛ أنه كان فى المسجد يلقى خطبة ينهى فيها الناس عن المغالاة فى المهور ، فترد عليه امرأة مجهولة ، وتورد الآيات القرآنية الدالة على عدم تقييد المهور بمقدار كقوله تعالى: ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا ﴾ فإذا بالخليفة يسلِّم بالأمر ، قائلاً : ويحك يا عمر ، كل الناس أفقه منك ! أو يقول : أصابت المرأة وأخطأ عمر ! وفى تاريخ الزهد والتصوف ما لاحصر له من أقوالٍ وأشعارٍ ، على بلاغتها ، مجهولة المؤلف .. وفى التاريخ الفكرى عددٌ كبير من الكتب التى أثرت تأثيرًا كبيرًا ، مثل كتاب أثولوجيا (= الربوبية) ، ظلت مجهولة المؤلف .. بل إن أشهر موسوعة إسلامية ، ولعلها أول موسوعة فى تاريخ الإسلام ؛ أعنى (رسائل إخوان الصفا وخلَّان الوفا) مجهولةُ المؤلف ! فلله در هؤلاء المجهولين .

* * *

وفصول الكتاب مرتَّبة على حسب التسلسل الألفبائى لعناوين المؤلفات الثلاثين التى نعرض لها ، وأغلبها مؤلفات مخطوطة لم تنشر من قبل ، لكن فيها عدد ضئيلٌ من المؤلفات التى نُشرت قديمًا فى طبعات محدودة اختفت مع الأيام وصارت فى حكم المخطوط .. وقبل الفصول الثلاثين ، أوردنا مجموعة من النماذج المزخرفة ، بديعة التلوين والتأطير المذهَّب والخطوط العربية المختلفة ؛ وهى مجموعةٌ منتقاة من نوادر المخطوطات القرآنية ، أردنا بها أن تكون للقارىء وقفةُ تأملٍ مع جماليات التراث العربى ، قبل الدخول فى رحلة الفصول الثلاثين ..

وبعـد .. فما هذا الكتـاب إلا دعـوة للقارىء العـام كى يتعـرَّف على الجوانب الرحيبة فى التراث .. وللمثقف المعاصر كى يتفكر فى القضايا المطروحة بين الثنايا.. وللمحققين الجدد كى يُقبلـوا على نشر نصـوص تـراثيـة جيـدة .. وللـدارسين المتخصصين كى يتعمَّقوا فيما ورد هنا من موضوعات .

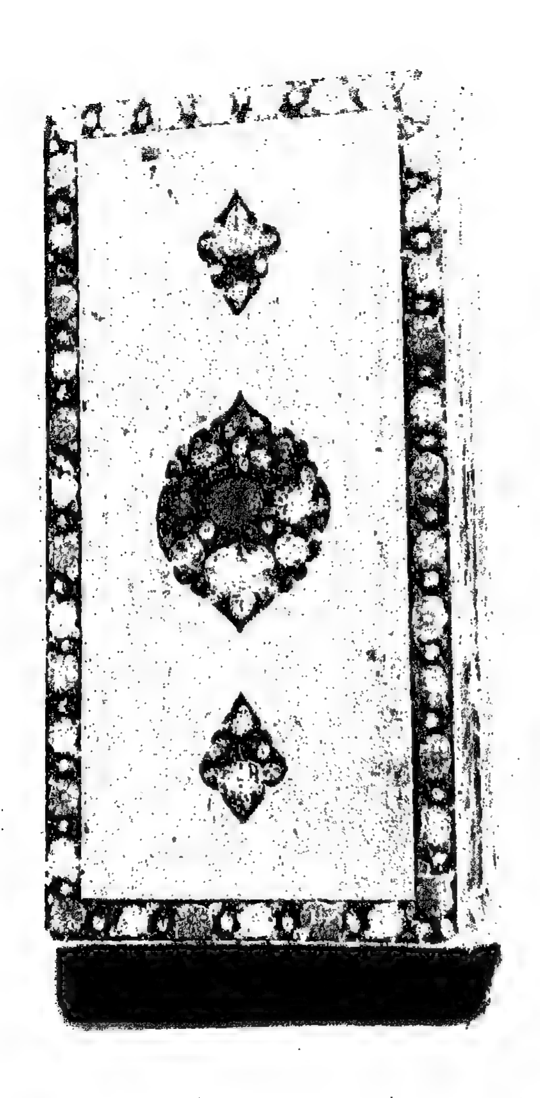
والله الموفق ،،،

دكتور / يوسف زيدان

الإسكندرية فى ربيع أول ١٤١٥ هجرية

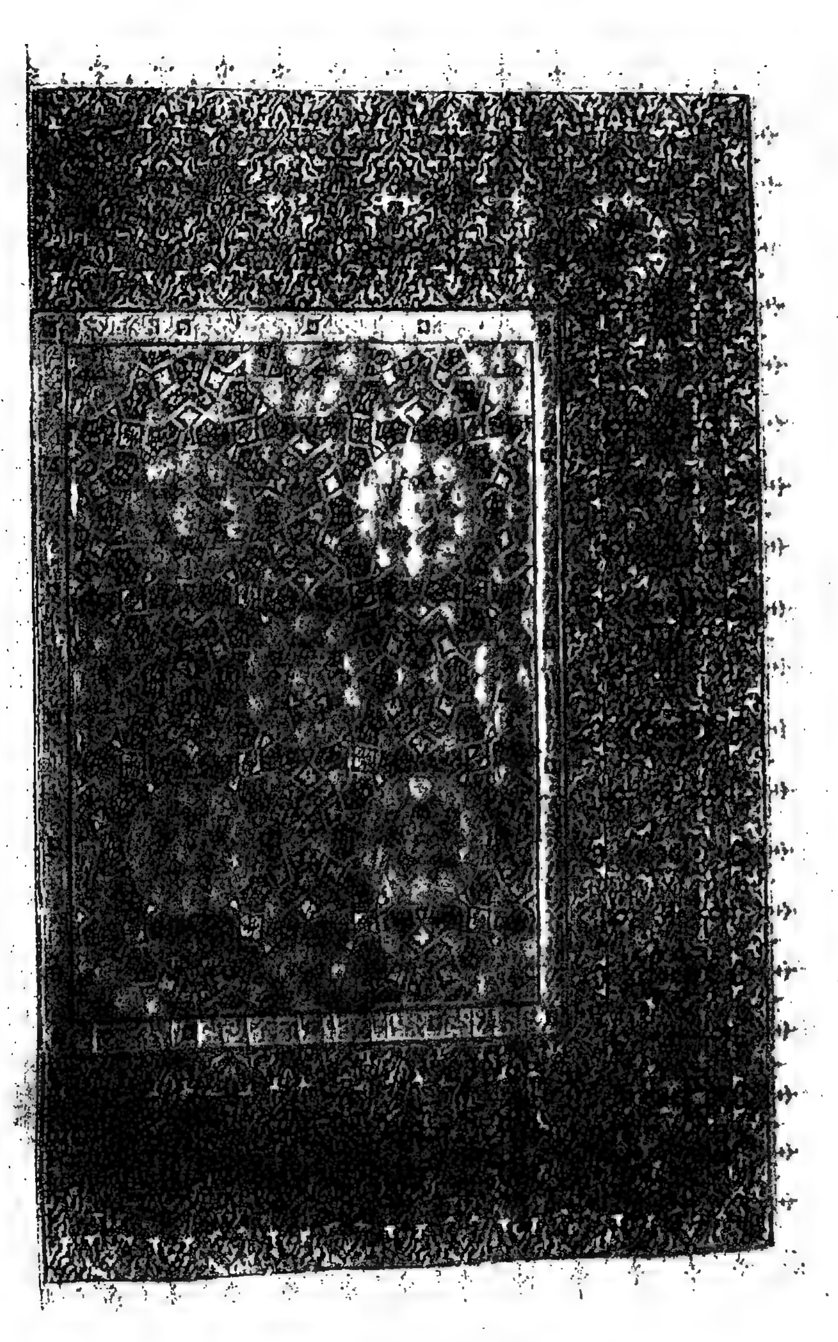
الموافق شهر أغسطس ١٩٩٤ ميلادية

نَمَـاذِجُ فَنِّيَّــةٌ
مِنْ مخْطُوطَـاتٍ قُرْآنِيّــةٍ



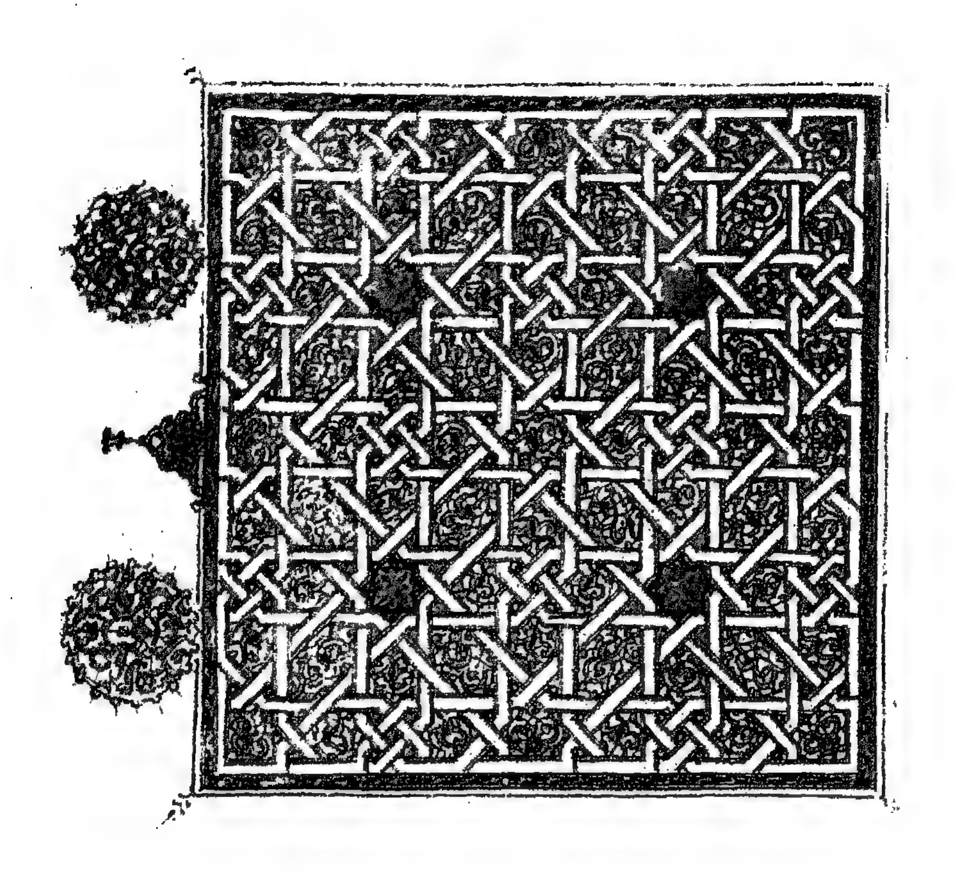
غلاف خارجي مذهب

مكتبة جامعة الإسكندرية



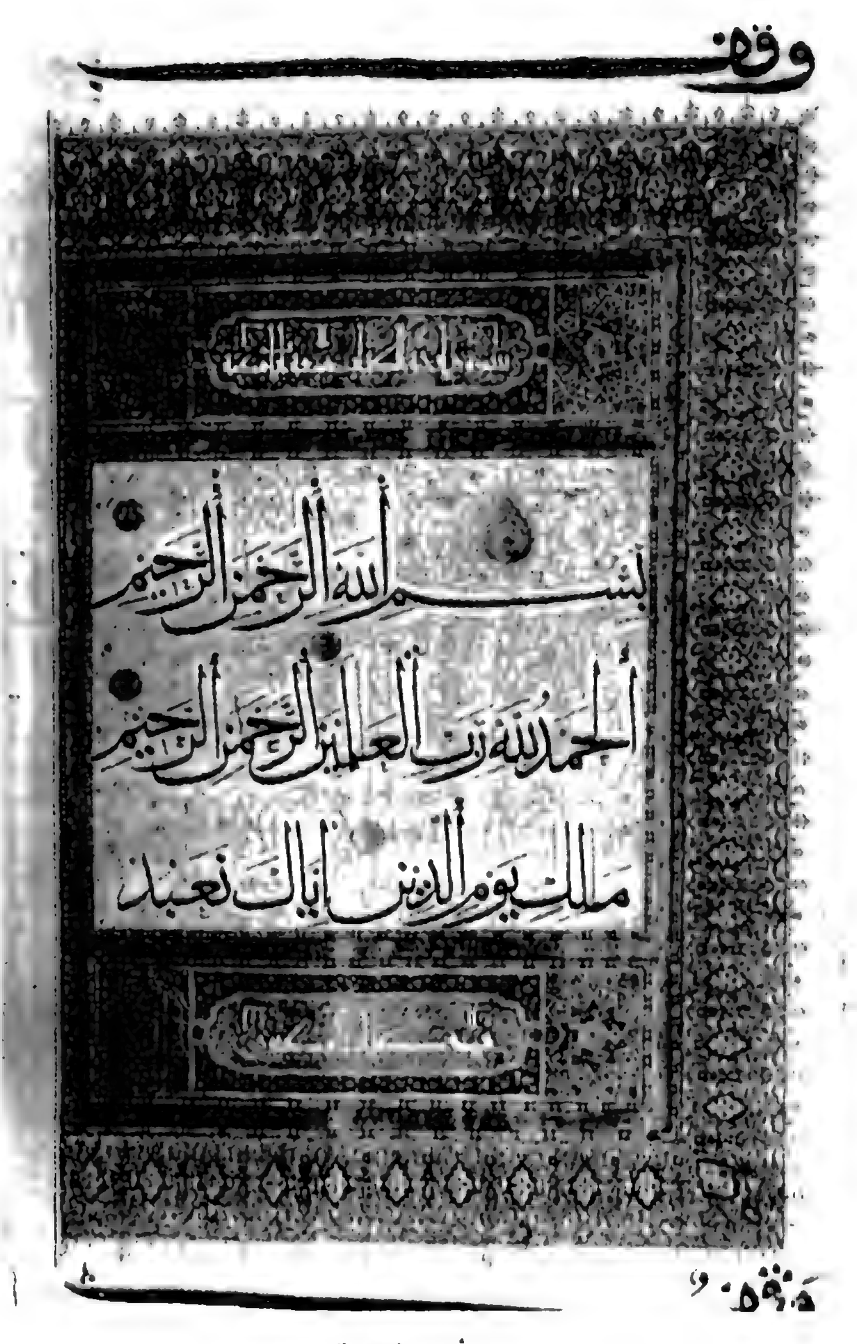
غلاف داخلى مزخرف

دار الكتب المصرية



غلاف داخلى مزخرف

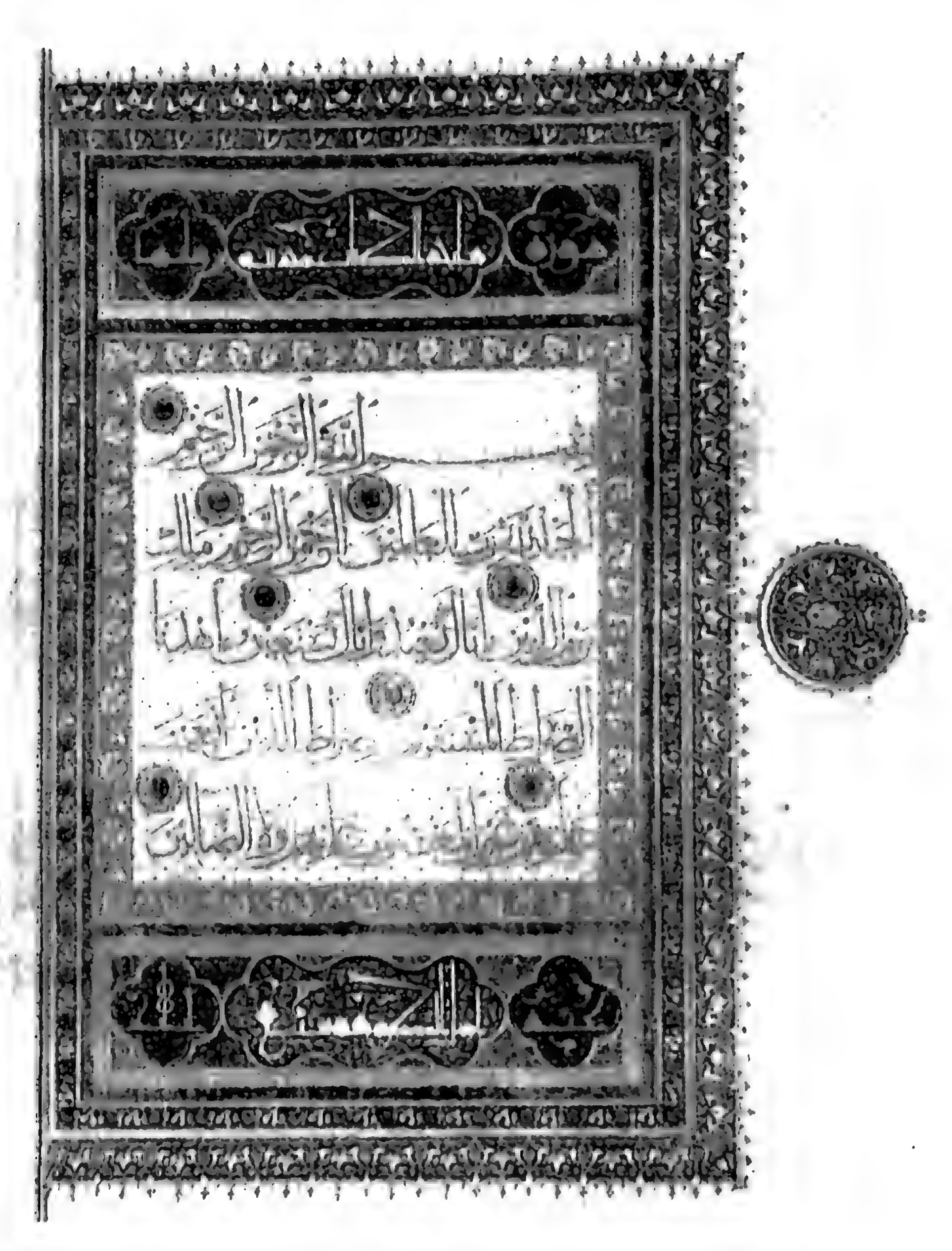
المكتبة الوطنية (باريس)



أول الفاتحة

خط ثُلُث

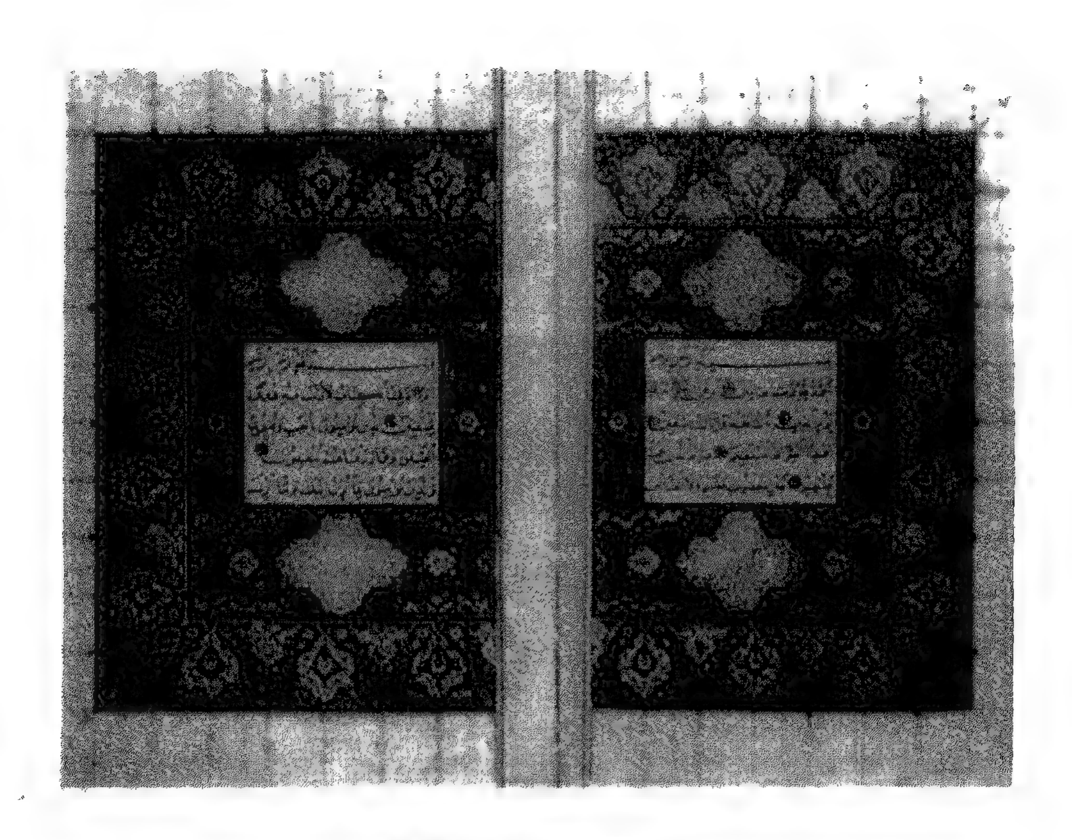
دار الكتب المصرية



الفاتحة

خط ثُلُث

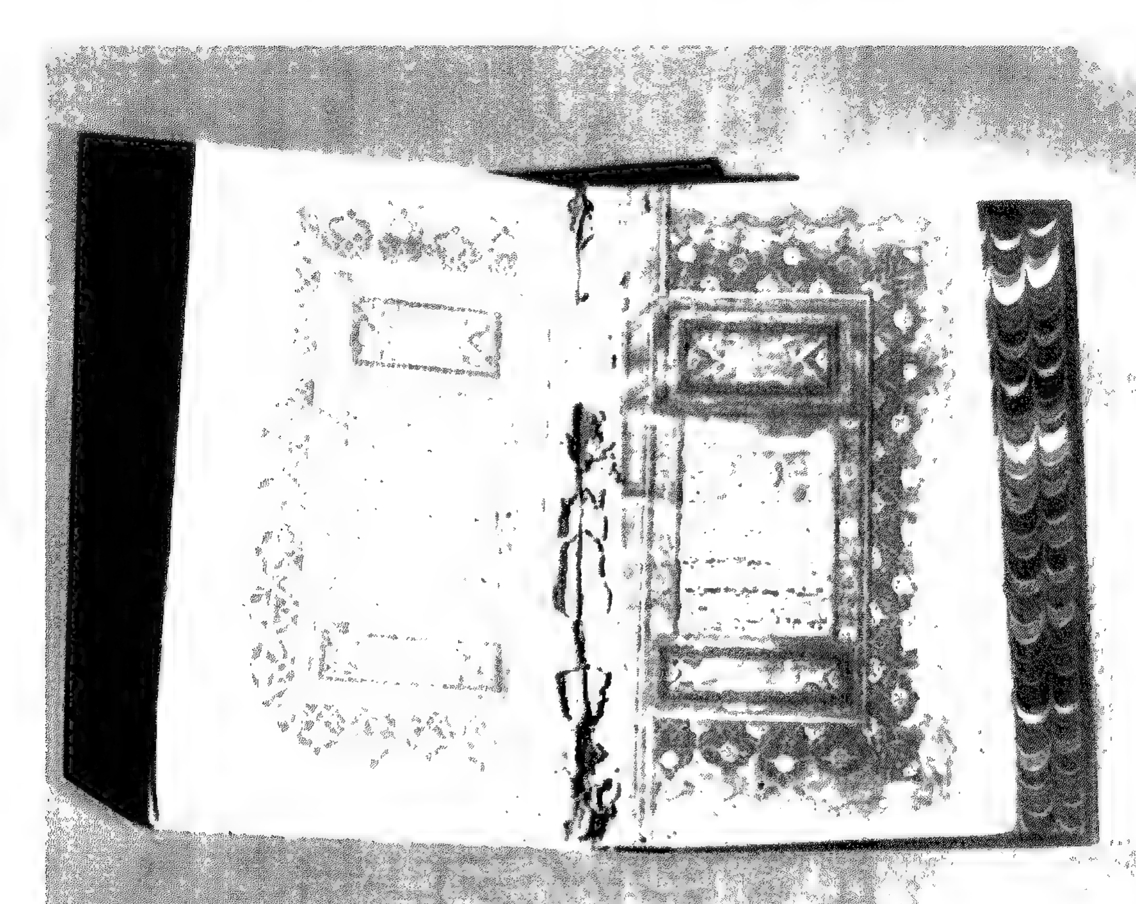
دار الكتب المصرية



الفاتحة وأول سورة البقرة

خط نسخ

مكتبة جامعة جون رايلندز (مانشستر)



الفاتحة وأول سورة البقرة

خط النسخ

مكتبة جامعة الإسكندرية





آيات من سورة النساء
خط مغربى
مكتبة تشيستربيتى (دبلن)


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي خلق السموت والارض وجعل
الظلمت والنور ثم الذين كفروا بربهم
يعدلون ۝ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى
اجلا واجل مسمى عنده ثم انتم تمترون ۝
وهو الله في السموت وفي الارض يعلم سركم
وجهركم ويعلم ما تكسبون ۝ وما

تأتيهم من اية من ايت ربهم الا كانوا عنها
معرضين ۝ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم
فسوف يأتيهم انبؤا ما كانوا به يستهزءون
۝ الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن
مكنهم في الارض ما لم نمكن لكم وارسلنا
السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهر تجري
من تحتهم فاهلكنهم بذنوبهم وانشانا
من بعدهم قرنا اخرين ۝ ولو نزلنا عليك
كتبا في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال
الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ۝ وقالوا

أول سورة الأنعام

خط نسخ

مكتبة جامعة الإسكندرية



سورة العاديات والقارعة

خط مغربي

دار الكتب المصرية



أول سورة مريم

خط ريحاني

مكتبة تشيستر بيتي (دبلن)



آخر سورة العنكبوت وأول الروم

خط ثُلُث

مكتبة تشيستر بيتي (دبلن)



آخر سورة الشعراء وأول النمل

خط مغربى

مكتبة المتحف الإسلامى (اسطنبول)


فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات
فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك
هو الفوز المبين وأما الذين كفروا
أفلم تكن آياتي تتلى عليكم
فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين

آيات من سورة الجاثية

بخط أحمد السهروردى تلميذ ياقوت المستعصمى

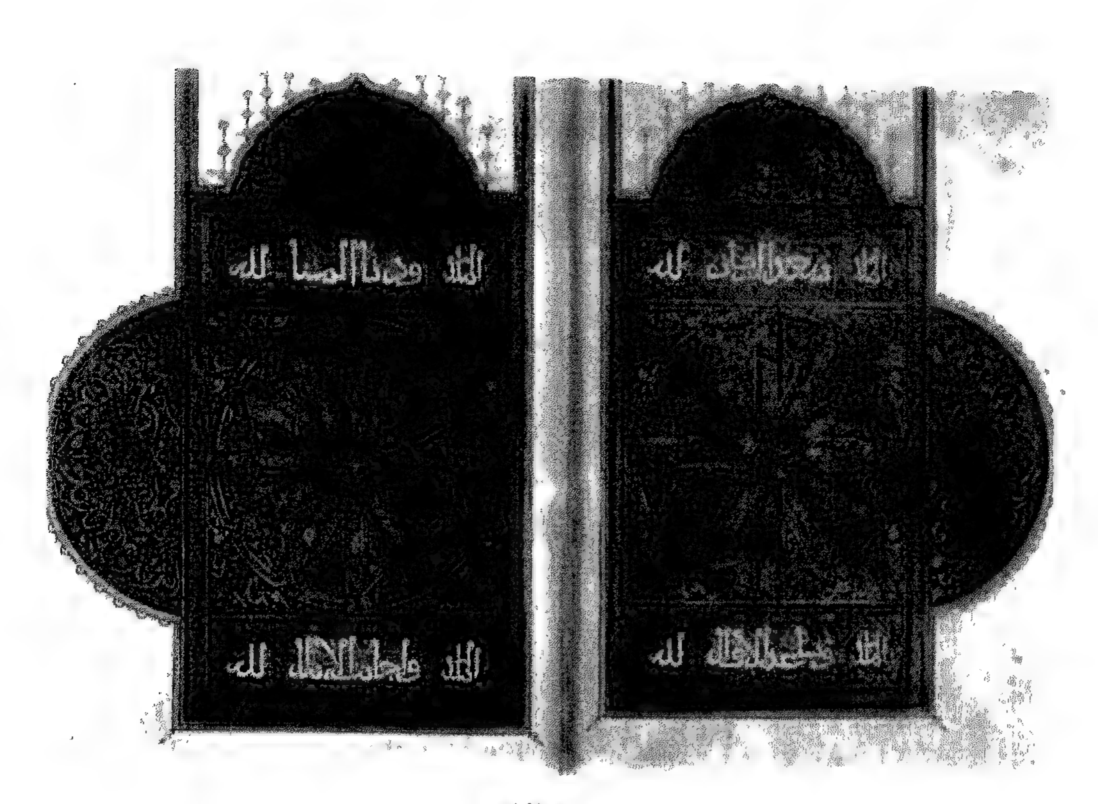
دار الكتب المصرية



آخر المصحف

خط كوفي

دار الكتب المصرية



سورة الفلق

خط ثُلُث

دار الكتب المصرية

تُحفةُ المجَاهِدِينَ فِى العَمَلِ بِالمَيَادِين

للطَرَابُلسى

لم ينل التاريخ العسكرى للمسلمين ، ما يستحقه من عناية الباحثين المعاصرين .. ربما لأن الأنظار تتجه فى مثل هذه البحوث إلى الغرب المتقدم اليوم فى هذا المجال ، وربما لأن مادة البحث فى تاريخنا العسكرى غير متوفرة للباحثين ، وربما لأن المعاصرين لا يرون فى مثل هذه البحوث نفعًا كبيرًا .

لكن هذه الأسباب الداعية إلى إهمال هذا الجانب المهم من التاريخ العربى الإسلامى ، هى فى حقيقة الأمر أسبابٌ واهيةٌ لا تبرِّر هذا الإهمال ، ولا تشفع لأصحابه ، فإذا كانت الأنظار تتجه إلى التقنيات الغربية المتقدمة فى المجال العسكرى – وهذا واجبٌ – فما الضرر فى الإحاطة ، أيضاً ، بالأساليب العربية والإسلامية فى هذا المجال ، خاصةً أن الغرب ذاته يهتم بتلك النواحى التى يهملها أهلها ، أما قلة المادة المتوفرة فى العسكرية العربية الإسلامية ، فهو أمر غير صحيح بالمرة ، فهناك الكثير من هذه المادة فى كتب السير والطبقات وفتوح البلدان ، بالإضافة إلى قدرٍ هائل من المخطوطات لم تُنشر[1] .. وأخيرًا ، فإذا كان المعاصرون لا يرون نفعًا فى بحث هذا الجانب من الحضارة العربية الإسلامية ، فهم فى وَهَمٍ عظيم ؛ فمن وجوه النفع فى تلك البحوث : تأسيس المعرفة الدقيقة بتاريخ العرب والمسلمين – إثبات الدور العربى

(١) انظرْ ما سنذكره من هذه المخطوطات أثناء عرضنا لمخطوطة « تفريج الكروب فى تدبير الحروب » فى الفصل بعد القادم .

الإسلامى فى تطوُّر العسكرية العالمية - تفسير الكثير من الوقائع الخاصة بالمواقع الحربية وتعليل الانتصارات والهزائم ، وبالتالى فَهْم فترات الازدهار والانكسار - رفع معنويات المعاصرين بتلقينهم مآثر أجدادهم فى هذا المجال - معرفة ما استفادته أوروبا من العرب فى بناء نهضتها الحديثة قبل بضعة قرون .. إلخ .

وهناك بضعة بحوث فى التاريخ العسكرى الإسلامى ، لا يتعدى الجيد منها عدد أصابع اليدين ، أما المخطوطات العربية المنشورة فى هذا المجال ، فلا أعرف منها إلا مخطوطةً واحدة هى كتاب « الأنيق فى المنجنيق » لابن أرنبغا الزرد كاش ، وقد حقَّقها الدكتور إحسان هندى ونشرها معهد المخطوطات العربية بالكويت منذ فترة وجيزة .

* * *

ومخطوطة « تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين » واحدةٌ من النصوص العسكرية المهملة فى تراثنا ، مؤلفها هو الأمير المملوكى : لاجين بن عبد الله الذهبى الحسامى ، المعروف بالطرابلسى .. توفى سنة ٧٣٨ هجرية .

ولانكاد نعرف الكثير عن مؤلِّف المخطوطة ، وإن كان اسمه وألقابه وأُسلوب كتابته ، دال على أنه واحدٌ من زمرة المماليك الكبار الذين تولوا مهام الجندية فى مصر إبَّان القرن الثامن الهجرى ، ولقب « الحُسامى » هو مبالغة فى الوصف ، اعتاد المؤلِّفون والكُتَّاب فى العصر المملوكى إطلاقها على كل مملوك يحمل اسم حُسام الدين [١].

ويبدو أن حُسام الدين الطرابلسى كانت له ذريةٌ من المشتغلين بأمور الحرب والقتال ، ففى موسوعة « تاريخ الأدب العربى » يذكر لنا بروكلمان مؤلفًا باسم : محمد بن لاجين الحسامى الطرابلسى الرَّمَّاح ، المتوفى ٧٨٠ هجرية [٢] . ويظهر من اسمه وتاريخ وفاته ، أنه

---

(١) بخصوص الألقاب المملوكية ، يمكن الرجوع إلى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، للقلقشندى .

(2) Geschichte der arabischen .. 1,905.

أحد أبناء حُسام الدين الطرابلسى ، كما يظهر من لقب « الرَّمَّاح » أنه كان مشتغلاً بفنون الرُّمح والرمى بـالنشاب ، وهى من الفنون العسكـرية المهمة آنـذاك ، وقد ألف محمد بن لاجين كتـابًا على نفس منوال كتاب والده ، إذ تحمل مخطوطته عنـوان « بغية القاصدين بالعمل فى الميادين » وله أيضًا كتاب آخر - مخطوط - يحمل عنوان : بنود الرمح فى الفروسية برسم الجهاد[1] .

* * *

ويبدأ الطرابلسى مخطوطته « تحفة المجاهدين » بقوله :

« الحمد لله الذى أعلى قـدر من اتَّصف بالشجاعة واشتهـر ، وأعلى رتبة من جعل الفضل له بضـاعة ، وجعل عُقبى الصبر الظفر ؛ القـوى الذى أعان على الحروب وأهوالها ، والمُصَـافَّات وتبينُّ أحوالها ، وأعظم أجـر الجهاد ، وفـرضه على العبـاد ، ونصر أهل الحق على أهل العناد[2] . نحمده على ما أنعم به من النصر على الأعـداء ، ورفع منازل الشهداء ، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك لـه ، القادر القاهر . وأشهـد أن محمدًا عبده ورسـوله ، صاحب الوجـه الزاهى الزاهر ، والنور البـاهى الباهر ، صلى الله عليه وعلى آله أُولى الفضل الوافى الـوافر .. وبعد ، فإن للحروب لـوازم لابد للمُتَّصف بالشجاعـة منها ، وجوازم لا يُستغنى عنها ، وقـد ضُمِّن فى هذا الكتـاب ما يجب لمتعـاطى الحرب من الوقـوف عليه ومعـرفة رسمـه ، ومعرفـة كيفيته وفهمـه ، والامتثال لمرسومه والاتسـام برسمه ، وخبرة ما تضمَّنه من إقبال وإدبـار ، وإيراد وإصدار ، وكَرٍّ وفَرٍّ .. وشرحنا فيـه ما يجب الوقوف عليه والوقـوف عند حده ، وأن يجعله الشجاع عمـدته حال هزله وجده .. إلخ » .

---

(١) توجد من هذا الكتاب المخطوطات التالية :
مكتبة الفاتح (تركيا) رقم ٣٥٠٩ - مكتبـة رامبور (الهند) رقم ٣٥٢٤ - المكتبة الأحمدية (حلب) رقم ١٣٧٢ - مكتبة نور عثمانية (تركيا رقم ٢٢٩٤ - مكتبة أحمد الثالث (تركيا) رقم ٢١٢٩ .

(٢) الـذى يتأمَّل فى المخطوطـات العـربية ، يكتشف أن الحمـدلـة تلعب دورًا فى الكشف عن طبيعة محتـوى المخطوطة ، فلكل فنٍّ من الفنون صيغة تناسبـه من حمد الله .. بل تلعب الحمدلة بصيغتها الخاصة دورها فى الكشف عن المؤلفين - فى حـالة عدم ذكـرهم بالمخطـوطة - إذ لكل مـؤلف صيغة خـاصة لها ، ومن النادر جداً أن نجد نَصَّين يبدآن بنفس الحمدلة .

والمخطوطة صغيرة الحجم ، تقع بعض نسخها فى ٢٤ صفحة ، والبعض الآخر فى أكثر من ذلك ، لكن ما يميز المخطوطة - فى نسخها المختلفة - هو تلك الرسوم والأشكال التوضيحية التى تعرف اليوم باسم « الرسم الكروكى » وفيها يوضح المؤلف عمليات التعبئة العسكرية ، وطرق المبارزة والاقتحام ، وأساليب الهجوم والتقهقر مستفيدًا فى ذلك كله من الخبرة العسكرية المصرية التى كانت - قبل نصف قرن - قد كسرت المغول فى عين جالوت ، وكسرت الصليبيين من قبلهم فى حطين .

* * *

وهناك قدر كبير من النسخ المخطوطة لكتاب « تحفة المجاهدين » ذكر بروكلمان أرقامها فى المكتبة الوطنية بباريس ، والمتحف العراقى ببغداد ، بالإضافة إلى ثلاث نسخٍ بمكتبات تركيا[1]. وفى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة سبع نسخ نفيسة من المخطوطة[2] ، كلها مزدانة بالرسوم والأشكال التوضيحية .

وقد اعتمدنا هنا على إحدى النسخ المخطوطة ، وهى المحفوظة فى مكتبة « نور عثمانية » تحت رقم ٢٢٩٤ وقد كُتبت سنة ٨٠٠ هجرية بخط محمد بن تمراز ؛ وتضم هذه النسخة كتاب « تحفة المجاهدين » وكتاب « الفروسية برسم الجهاد » الذى ذكرنا من قبل أنه من مؤلفات الرَّمَّاح « محمد بن حسام الدين » ابن « حسام الدين الطرابلسى » .

---

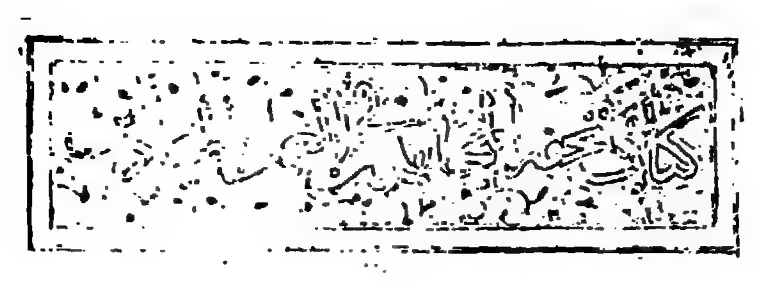
(1) Geschichte .. 2,135.

(٢) انظر ، فهرس المخطوطات المصورة (معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٩٦٤) الجزء الرابع ، ص ١٠ وما بعدها .

والمخطوطة التى تضم الكتابين ، عبارة عن نسخة خزائنية مكتوبة بخط الثلث ، برسم الخزانة العالية المولوية الأميرية الكبيرية المجاهدية العضدية السيفية .. وهى مكتبة بهادر الشهابى ، مقدم المماليك السلطانية الملكية الظاهرية (*).

(*) أثناء طبع الكتاب ، عرفت - مصادفةً - أن الدكتور محمد عيسى صالحية ، نشر « تحفة المجاهدين » بمجلة معهد المخطوطات العربية التى كانت تصدر بالكويت . فرجعت إلى عدد (يوليو - ديسمبر ١٩٨٤ / شوال ١٤٠٤هـ - ربيع الأول ١٤٠٥) فوجدت نشرة الدكتور صالحية تحتل من ص ٣٨٩ إلى ص ٤٢٤ ، وهى نشرةٌ طيبة ، قدَّم لها المحقق بمقدمة مفيدة ، جاء فيها :

« اعتاد سلاطين المماليك أن يشاهدوا المماليك الفرسان وهم يتمرَّنون على فنون الفروسية فى المدارس الحربية المعروفة بالطباق .. وقد دأب سلاطين المماليك على المحافظة على أجناد حلقاتهم فى حالة تدريب دائم ، لأنهم قلب الجيش المملوكى ، وقد عالجت كتب الفروسية طرق التعليم وأوقاته وفنونه . ويبدو أن التدريب على الفروسية يُفتتح بإتقان علم البنود (الرِّمَاح) من حيث جودتها وطريقة اللعب بها والتصويب والإرسال ، وغيرها ، فإذا أتقن الفارس علم البنود ، انتقل إلى علم الميادين فيتعلَّم كيف يُقابل الخصم ويحاوله بإقبالٍ وإدبار .. وقد أشار الأقصرائى إلى ذلك فى كتابه « فضل الجهاد » إذ جاء فى ورقة ٥٧ : أول ما يريد المتعلم تعليمه بعد علم البنود وإتقانها هو علم الميادين ، لتتمرن أعضاؤه الدخول والخروج مع الفرسان ، والانعطاف والكسرات يمنةً وشمالاً ومقبلاً ومدبرًا ، ويعلم مقامه مع معلمه ومقامه مع غيره ، فيصير بصيرًا بذلك » .





غلاف المخطوطة

نسخة مكتبة نور عثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم ٥ وبه توفيقي

الحمد لله الذي أعلى قدر من اتصف بالشجاعة واشتهر

وأعلى رتبة من جعل الفضل له بضاعة وجعل عقبى

الصبر الظفر ❁ القوي الذي أعان على الحروب

واهوالها ❁ والمصافات في بين أخوالها ❁ وأعظم

أجر الجهاد ❁ وفرضه على [illegible] ❁ ونصر أهل

الحق على أهل العناد ❁ نحمده على ما أنعم من

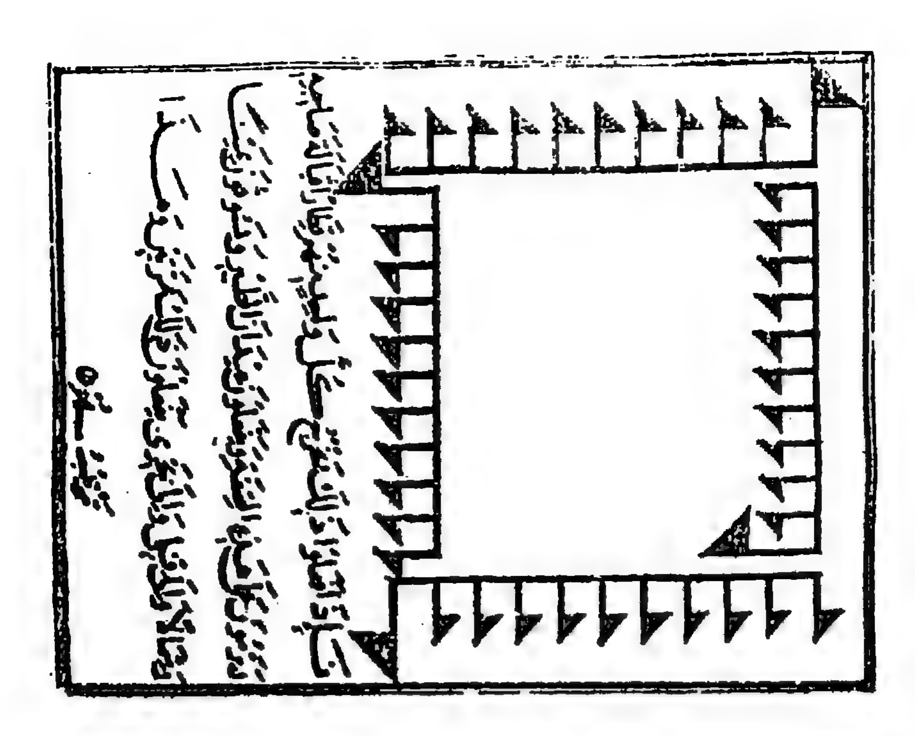
النصر على الأعداء ❁ ورفع منازل الشهداء ❁

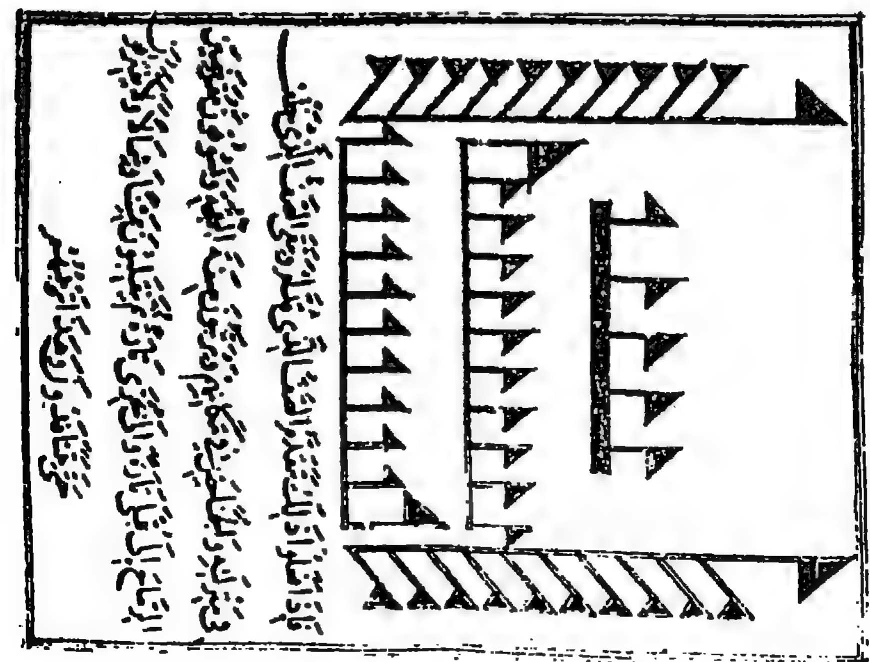
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القادر

القاهر ❁ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صاحب

الوجه

الورقة الأولى من المخطوطة





ترتيب الصفوف فى مخطوطة

تحفة المجاهدين



صورة الاستعداد للحرب فى مخطوطة تحفة المجاهدين

التَّصريفُ لمنْ عَجَزَ عَنِ التَّأليفِ

للزّهْـراوِى

لم تظهر حضارة إنسانية إلا كـان للطب نصيبٌ فيها ، ذلك أن الحضارة لابد لها أن ترتفع بقيمة الإنسـان وتلبى مطالبه الملحة .. ومن هـذه المطالب : الحاجة إلى التـداوى من الأمراض والأوجاع المختلفـة . وهكذا ظهـرت المعارف الطبيـة المتنوعـة المنازع والأشكـال فى حضارات الصين والهند وفارس ومصر واليونان .

وكانت للحضـارة العربيـة الإسلاميـة إسهاماتها الكبرى فى مجال الطب ، حيـث برع من المسلمين طائفـةٌ من الأطباء الذين طـوَّروا أصول الطب وفـروعه حتى وصلوا إلى منتهى الـدقة العلمية المتاحـة فى وقتهم .. فمن هؤلاء الأطباء : الشيخ الرئيس أبـوعلى (ابن سينا) والطبيب الماهـر أبو بكـر (الرازى) والعـلامة عـلاء الدين (ابن النفيس) ومنهم أيضًـا : أبو القـاسم الزهراوى ، الذى سنتوقف عبر السطور التاليـة عند موسوعته الطبية (التصريف لمن عجز عن التأليف) .

* * *

نشأ أبو القاسم الزهراوى فى بلاد الأنـدلس ، وهو ينتسب إلى بلدة (الزهراء) وقد أمضى حياتـه مشتغلاً بالطب والجراحة ، حتى تـوفى سنة ٤٠٤ هجريـة بعد حياة طويلـة اقترب فيها عمره من السبعين عامًا[١]. يصفه ابن أبى أصيبعة ، فيقول : كان طبيبًا فاضلاً ، خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العـلاج ، وله تصانيف مشهورة فى صناعة الطـب ، أفضلها كتابة الكبير

---

(١) انظرْ ترجمته فى :
بغيـة الملتمـس ، للضبى ص ٢٧١ - الصلـة ، لابن بشكـوال ١٦٦/١ - جـذوة المقتبـس للحميـدى ص١٩٥ - كشف الظنون لحاجى خليفة ص ٤١١ - . Brockelmann .. 1,239

« التصريف لمن عجز عن التأليف » وهو أكبر تصانيفه ، وهو كتابٌ تامٌّ فى معناه[1].

وموسوعة (التصريف) عبارة عن عمل علمى ضخم يقع فى ثلاثين جزءًا ، بعضها مخصَّص للطب ، وبعضها الآخر للصيدلة ، وبعضها الأخير للجراحة .. ولقد كان الإسهام الأعظم للزهراوى فى مجال الجراحة بالذات ، فعلى الرغم من أن الجراحة كانت قبله تعانى من قلة الشأن ، ويُنظر إلى الجراحين على أنهم أقل مرتبة من الأطباء - وهى نظرة موروثة عن الحضارات السابقة للإسلام - إلا أن مجىء الزهراوى أعطى للجراحة مكانها المتميز بين فروع الطب ، ولنتصفح موسوعة (التصريف) حيث نقرأ فى بداية الجزء الخاص بالجراحة - التى أطلق عليها الأطباء العرب اسم : عمل اليد - ما يلى :

« لما أكملتُ هذا الكتاب ، وبلغتُ فيه الغاية من وضوحه وبيانه ، رأيتُ أن أكمله لكم بهذه المقالة التى هى جزء العمل باليد ، لأن العمل باليد مخسّةٌ فى بلدنا ، وفى زماننا معدوم ألبتةَ، حتى كاد يندرس علمه وينقطع أثره » .

فى هذه الفقرة نرى تألُّمَ الزهراوى من هوان أمر الجراحة والجراحين فى زمانه ، وإقباله - من ثَمَّ - على تتويج موسوعته الطبية بمقالة فى الجراحة وأدوات الجراحين وفنون العلاج ، مما كان له أكبر الأثر فى الارتفاع بشأن الجراحة ، ليس عند العرب والمسلمين فحسب ، بل أيضًا عند الأوربيين الذين تتلمذوا على كتاب (التصريف) بعد أن ترجمه إلى اللاتينية (جيراد الكريمونى) وجعله بعنوان : Medical Vade Mecani[2].. فأتاح لأوروبا أن تستفيد من إنجازٍ علمىٍّ عربى كانت آنذاك فى أشد الحاجة إليه ، وقد قام جيراد الكريمونى بترجمة الكتاب سنة ١٥١٩ ميلادية ، وهو تاريخ يحمل دلالة خاصة فى تاريخ أوروبا ، إذ تعد هذه السنوات بداية العملية الكبرى التى قامت فيها أوروبا بترجمة العلوم العربية ، لتنطلق بعد ذلك إلى آفاق علمية رحيبة ، بينما يختنق العلم فى ديار الإسلام .. إلى أن يأتى العصر الحديث فنجد أنفسنا واقعين تحت (رحمة) التقدم العلمى الغربى ، هذا إن كانت له رحمة ! .

---

(١) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ص ٥٠١ .

(٢) د/ حسان حلاق : تاريخ العلوم عند العرب (مكتب كريديه إخوان - بيروت ١٩٩١) ص ١٧٤ .

ونعود لموسوعة (التصريف) ، وليس همُّنا أن نتسلى عن الحاضر المهين بالماضى العظيم ، بل نعود لتراثنا المخطوط والمنشور لكى نتعرَّف على طبيعة العقلية العربية فى تجلياتها المختلفة ، ونتيقَّن من إمكانية انتعاش هذه العقلية فى المستقبل ، مثلما كانت منتعشة فى الماضى .

ازدانت مخطوطة التصريف بما لا حصر له من رسوم الأدوات الجراحية التى طوَّرها الزهراوى أو ابتدعها ابتداعًا ، وفى وسع القارىء أن يتأمل فى النماذج التى صوَّرناها هنا من المخطوطة ، ليرى دقة الآلات الجراحية التى أوردها الزهراوى ، وهذه النماذج مصورة من مخطوطة التصريف الموجودة فى الهند بمكتبة خدابخش بتنه تحت رقم ٢١٤٦ ، وهى نسخة مخطوطة يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ٥٨٤ هجرية[(١)] ولقد نبَّه الزهراوى الجراحين قائلاً للواحد منهم : اعلمْ أن هذه الآلات كلما كثرت أنواعها وكانت معدَّة عند الصانع ، كانت أسرع لعمله، وأرفع عند الناس لقدره .

ومن لطائف إسهامات الزهراوى الجراحية ، أنه كان يعقِّم آلاته قبل إجراء العمليات الجراحية بمادة (الصفراء) وهى المادة التى أثبت الطب المعاصر أنها تقلِّل من وجود البكتريا على تلك الآلات ، ومن لطائف أعماله أيضًا ، أنه لم يقتصر على إجراء العمليات الجراحية بهدف علاج الأمراض فقط ، بل أجرى أيضًا العديد من الجراحات التجميلية التى كانت آنذاك ترفًا .

وقد اهتم الزهراوى بالأمراض التى لا تزال تحيِّر الأطباء ، كمرض السرطان ، ومن خلال (التصريف) نقرأ هذا النص الذى يعترف فيه الزهراوى بخطورة هذا المرض إذا استفحل ، ويصف الجراحة اللازمة له إن كان فى بدء أمره بحيث يُمكن استئصاله ؛ وهو أيضًا ينتبه إلى علاقة الورم السرطانى بالدم .. يقول الزهراوى :

---

(١) هناك نماذج أخرى مصورة من مخطوطة الزهراوى ، موجودة فى ملحق كتاب الدكتورة زيجريد هونكه : شمس العرب (الله) تسطع على الغرب ، الترجمة العربية ، ص ٥٦٩ - ٥٧١ .

« ذكر الأوائل أنه متى كان السرطان فى موضع لا يمكن استئصاله كله ، لا سيما متى قَدُم وعَظُم ، فلا ينبغى - للطبيب - أن يقربه ، فإنى ما استطعت أن أُبرىء منه أحدًا ، ولا رأيتُ الغير .. أما إذا كان مركزه حيث يمكن إخراجه ، كالذى فى الثدى أو فى الفخذ ونحوهما من الأعضاء ، ولا سيما إذا كان مبتدئًا صغيرًا ، فالعمل فيه أن تُسْهل العليل مرات من السوداء، ثم نفصده إن كان فى العروق امتلاء من دم ، ثم ننصب المريض نَصْبَةً تتمكن فيها من العمل ، ثم نلقى السنانير التى تصلح له ، ثم نقوِّره من كل جهة ، بعد التخدير ، ونترك الدم يخرج ، ولا نقطعه ، حتى لا يبقى من الدم شيءٌ فى أصول الورم .. واتركْ الدم الغليظ يسيل كله، بيدك أو بما أمكنك من الآلات ، فإن عرض فى أثناء عملك نزفُ دمٍ عظيم ، من قطع شريانٍ أو وريد فَاكْوِ العرق حتى ينقطع الدم ، ثم عالجه بسائر العقاقير » .

وهذا الوصف لجراحة السرطان الخبيث ، ظل لقرون عديدة تالية على عصر الزهراوى ، هو الطريقة التى يحاصر بها الأطباء ، العرب والأوروبيون ، هذا الداء العضال الذى لم يستطع الأطباء تخليص البشر منه ، حتى اليوم .

ولم تكن الجراحة هى الإسهام الوحيد والجديد فى كتاب « التصريف » ، ففى الكتاب إسهامٌ على مستوى الصيدلة ، يقول الدكتور مرحبا : وأهم أجزاء (أو مقالات) الكتاب من الناحية الصيدلانية ، هما المقالتان الثامنة والعشرون ، والتاسعة والعشرون ، ففى المقالة الثامنة والعشرين بحث الزهراوى تحضير العقاقير المعدنية والنباتية والحيوانية وتنقيتها وتصفيتها ، وهى أشهر مقالةٍ صيدلانية كُتبت فى الأندلس ، وقد نُقلت إلى اللغة اللاتينية بعنوان Liber Servitoris وطُبعت فى مدينة البندقية سنة ١٤٧١ ؛ وأما المقالة التاسعة والعشرون ، فقد قسَّمها المؤلِّف خمسة أبواب ذكر فيها ما يلى :

أولاً : تسمية العقاقير بخمس لغات هى اليونانية والسريانية والفارسية والعربية والبربرية .

ثانيًا : أسماء الأدوات والأجهزة الكيميائية والصيدلانية .

---

(١) د/ عبد الرحمن مرحبا : الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٣٠٢ .

ثالثًـــا : أبدال الأدوية المفردة مع الكلام على بعض مصادرها .

رابعًـــا : أعمار الأدوية المفردة والمركبة .

خامسًا : شرح أسماء الأكيال والأوزان مرتَّبة بحسب حروف المعجم .

هذا ، والـزهراوى هـو أول مَن استعمل الفحم فى ترويق شراب العسل البسيـط ، كما أنه أول مَنْ استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية[1] .

ولكى نشير إلى فضل الزهـراوى وأهمية كتاب (التصريف) يكفى أن نتوقَّف عنـد ريادته وأولياته فى النواحى الآتية :

* كـان الزهـراوى أول من جعل الجراحة قسمًا خـاصًّا من أقسـام الطب وتخصصاتـه المعروفـة آنذاك.

* وكان الزهـراوى أول من قام بربط شرايين الدم لإيقاف النـزيف ، وهو اكتشاف علمى كبير ينسبـونه اليـوم إلى الجراح الفرنسى الشهير إمبرواز بـارى ، الذى جـاء بعد الـزهراوى بستـة قرون.

* وكان الزهراوى أول من أجرى للنساء عملية استئصال المثانة من طريق المهبل ، وهى عملية دقيقة تحتاج لبراعة كبيرة .

* وهو أول من انتبه إلى دور الوراثة فى الاستعـداد للنزيف ، وذلك حين لاحظ حدوث النزيف فى أفراد أسرة واحدة كان قد عالجهم بالكى ، فنزفوا على غيرالمعتاد .

* والزهراوى أول من نجح فى إجراء العمليـة الجراحيـة المعروفـة باسـم Trachiomie أو (شَقّ القصبة الهوائية) وذلك حين اضطر لإجراء تلك الجراحة الخطيرة على خادمه .

* وكـان الزهـراوى أول من لفت أنظـار الأطبـاء إلى ضرورة فتح حيز فى ربـاط الجبس الخاص بالكسور المفتوحة ، وبينَّ للأطباء طريقة عمل هذه الفتحة الضرورية .

* والـزهـراوى أول مبتكـرٍ للعديـد من الأدوات الجراحيـة التى طـالما استخـدمهـا من بعـده الجرَّاحون والكَحَّالون (أطباء العيون) فوصف هذه الآلات ورسمها فى موسوعته .. وقد كان يقوم بصنع تلك الآلات بمسـاعدة العمال المهرة فى سبك المعادن ، وكـان يُشرف بنفسه على مراحل تصنيع كل آلةٍ جراحيةٍ منها .

* وكان الزهراوى شديد الاهتمام بالتهاب المفاصل وبالسُّلِّ الذى يصيب فقرات الظهر ، وهى الحالة المرضية التى ينسب اكتشافها ظلماً للطبيب الإنجليـزى (برسيفال بوت) ولا تزال إلى اليوم تُعـرف لدى الأطبـاء باسم : داء بـوت .. هذا ، مع أن الـزهراوى سابـق على « بوت » بسبعة قرون .

* * *

وبعد .. فلقد كان الزهراوى لحظة مجيدة فى التاريخ العقلى لهذه الأمة ، وأظنه من الواجب علينا اليوم - ونحن نحاول تعويض ما فاتنـا من العلم والمعرفة - أن نرد للرجل اعتباره ونعترف بفضلـه الذى لم يعترف بـه الأوروبيـون .. وردُّ اعتبـار الزهـراوى والاعتراف بفضلـه ، يعنى أن نستكمل المسيرة العلمية الإنسانية ، فنضيف إليهـا كما أضاف ، وأن يحظى كتابه (التصريف) بعنايتنـا ، باعتباره جـزءًا مهماً من تاريخنا العلمى ، فنقوم بنشر مخطـوطاته على النـاس فى طبعةٍ محقَّقةٍ تليق بمكانة الزهراوى ومكانة التصريف[1].



---

(١) للزهـراوى كتاب آخـر غير (التصريف) لا يزال مخطـوطاً ، عنـوانه : مقـالة فى العمل باليـد .. (انظر : كحالة : معجم المؤلفين ٤ / ١٠٥) .

بُستَانُ الأَطِبَّاءِ وَرَوْضَةُ الألِبَّاءِ

لابن المطران

للطِّبِّ العربى الإسلامى تاريخه الطويل ، المجيد ، الذى امتد طيلة عشرة قرون من الزمان أو يزيد .. وإذا كانت لعرب الجاهلية ، وصدر الإسلام ، بعض المعارف الطبية[1] ، إلا أن النهضة العلمية الكبيرة فى مجال الطب ، حدثت بعد (حركة الترجمة والنقل) حيث نشطت عملية التعريب وانتقلت علوم الأوائل - الهند واليونان [2] - إلى اللغة العربية ، فكانت فاتحةً لإسهامٍ عظيمٍ قام به العرب فى مجال الطب ، وفى غيره من مجالات العلوم المختلفة .

ومنذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بدأت المؤلفات الطبية العربية فى الظهور - بكثرة - وتوالت أعمال الأطباء العرب فى كافة التخصُّصات الطبية : حفظ الصحة ، العلاجات ، الطب النظرى ، منافع الأعضاء ، الكحالة (طب العيون)، عمل اليد (الجراحة)،

---

(١) يقول صاعد الأندلسى : كانت العرب فى صدر الإسلام لا تعنى بشىءٍ من العلم ، إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا صناعة الطب ، فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم ، غير منكرة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طُرًّا - جميعًا - إليها .. (طبقات الأمم ، نشرة لويس شيخو - بيروت ١٩١٢ ، ص ٤٧) .

ويقول ابن خلدون : وللبادية من أهل العمران طِبٌّ يبنونه فى غالب الأمر على تجربةٍ قاصرةٍ على بعض الأشخاص ، متوارثٌ عن مشايخ الحى وعجائزه .. وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباءٌ معروفون كالحارث بن كلدة وغيره (المقدمة ، طبعة المطبعة الأزهرية ١٣٤٩هـ ، ص ٤١٤) .

(٢) بخصوص انتقال الطب الشرقى واليونانى إلى العالم الإسلامى ، راجع :

- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، لابن أبى أصيبعة .
- دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى ، للدكتور ماهر عبد القادر محمد .
- من الإسكندرية إلى بغداد ، للدكتور ماكس مايرهوف (وهى مقالة بالألمانية ، ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه : التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية) .

طب الأطفال .. إلخ ؛ كما نشطت حركة التأليف فى العلوم القريبة من الطب ، كالصيدلة .

وفى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كانت حصيلة الخبرة الطبية العربية قد اتسعت وتنوعت ، فانعكس ذلك على التأليف الطبى ، وظهر آنذاك فنٌّ جديد من التصنيف الطبى العربى ، هو : المجاميع الطبية[1] .

وتعد مخطوطة ابن المطران (بُستان الأطباء وروضة الألباء) واحدةً من أكثر المجاميع الطبية طرافةً وتشويقًا ، وهى تبدأ بما يلى : « قال جامع هذا الكتاب ، أبو نصر أسعد بن إلياس ابن المطران ... إنى جامعٌ فى كتابى هذا مذاكر ممَّا أُطالعه وأسمعه من الشيوخ وأنسخه من الكتب الطبية ، وقد وسمته ببُستان الأطباء وروضة الألباء ، (وجزَّأْتُه) جزءين، وابتدأت به ، وأنا أسأل الله عَزَّوجَلَّ المعونة على إتمامه ، وأسأل قارئه أن يكون مُفضيًا لا منتقدًا ، سامعًا لقول من يقول: رحم الله من قرأ فأخذ من كل شىء أحسنه » .. ثم يبدأ ابن المطران بوضع قاعدة علمية عامة ، فيقول :

« ينبغى للطبيب أن يكون ، إذا قدم على مداواة قوم فى بلد ، أن ينظر فى وضع المدينة، ومزاج الهواء المحيط بها ، والمياه الجارية فيها ، والتدبير (الغذاء) الذى يستعمله قومٌ دون قوم، فإن هذه هى الأصول ؛ ثم من بعدها : النظر فى سائر الشرائط » .

* * *

والمؤلف « موفق الدين بن المُطران » من أشهر الأطباء العرب فى القرن السادس الهجرى ، أصله من دمشق وبها تعلَّم الطب على يد الطبيب الشهير « أمين الدولة ابن التلميذ »[2] ثم

---

(١) يُعرف الكتاب من هذا النوع باسم : الكُنَّاش .

(٢) بخصوص ترجمة ابن التلميذ (المتوفى ٥٦٠ هجرية) يمكن الرجوع إلى : عيون الأنباء ص ٢٥٩ – وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٢ – معجم الأدباء ١٩/ ٢٧٦ – معجم المؤلفين ١٣/ ١٣٨ – شذرات الذهب ٤/ ١٩٠ – هدية العارفين ٢/ ٥٠٥ - Brockelmann (S) 1,891

مارس العلاج فى البيمارستان (المستشفى) الكبير بدمشق ، حتى وفاته سنة ٥٨٥ هجرية ... وقد ترك إلى جانب « بستان الأطباء » مجموعة أخرى من المؤلفات ، منها : المقالة الناصرية فى التدابير الصحية - آداب طب الملوك - كتاب على مذهب « دعوة الأطباء » لابن بطلان ..

وكل هذه المؤلفات مخطوطة ، لم يُنشر منها شىءٌ إلى اليوم ، رغم مكانة صاحبها المرموقة فى تاريخ الطب العربى[١] .

* * *

والكتاب ملىء بالمعلومات الطبية والطرائف العلاجية وتراجم الأطباء السابقين على ابن المُطران ، وفيه أيضًا ما لا حصر له من أقوال الحكماء وتعريفات المصطلحات والحكايات الشيقة .. فمن ذلك :

- تنبيه : ينبغى أن تعلم أن اليرقان الأصفر إنما يحدث فى الأكثر عن ضعف القوة الدافعة التى فى الكبد ، وذاك أنها إذا ضعفت لم تدفع المرار إلى المرارة فيبقى مع الدم ويسير معه إلى سائر البدن فيعرض اليرقان .

- توقيف : أفلاطون يسمى الحرارة الغريزية « النار الإلهية » وذكره فى (محاورة) طيماوس فى الكلام عن تولُّد الشعر .

- تنبيه : إذا أردت أن تغسل السرطانات بماء الرماد ، فلا ينبغى أن يكون الرماد الذى يُؤخذ ماؤه إلاَّ رماد خشب التين أو البلوط لا غير .

---

(١) بخصوص ابن المطران ومؤلفاته ، يمكن الرجوع إلى :
- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (بيروت ١٩٦٥) ص ٦٥١ .
- د/ أحمد عيسى : معجم الأطباء (دار الرائد العربى - بيروت) ص ١٣٥ .
- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (دار الفكر - بيروت) ص ٢٤٣ .
- عمر كحالة : معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربى - بيروت) ٢/ ٢٤٥ .
- Brockelmann: Geschichte der Arabischen Litteratur, Supplementband (Leiden - Brill 1937) 1,892 .

- تنبيه : لا يُتشاغل بمداواة مرضٍ دون إزالة سببه ، وإلا فلن تستفيد شيئًا .

- توقيف : قال جالينوس فى كتاب « إيبديميا »[1] السرْسَام معناه اختلاط الذهن الدائم مع الحمى .

- إشارة : متى تَفَقَّدت علامات الصداع أو داويته بمداواة أنواع الصداع فلم ينجح علاجك ، فانظره فى وضع عظام الرأس ، فإنها كثيرًا ما تكون مسفطة أو حادة أو مستطيلة ، فإذا رأيت ذلك فاعلم أنها هى سبب الصداع ، وكثيرًا ما تُحدث هذه الأوضاع سيلان المواد من الأُذنين أو من العينين .

- حكاية : لروفس فى كتابه « فى شرى[2] المماليك » قال : أتيت مرةً بغلام فوجدت فى رأسه نقصانًا من العظام فى الجانب الأيمن منه نحوًا من الثلث من جملة رأسه ،وكان موضع النقصان من رأسه لينًا تحت المجسَّة حتى كان يتبين منه بعض الشرايين فى ذلك الموضع ، وكان به هوج ، وكان لا يملك حركة رجله اليسرى .

- نكتة : قال جالينوس فى كتاب « تشريح الرحم » : إن رحم المرأة الحامل أعظم ما يكون من الأرحام ، ورحم المرأة التى لم تحمل بعد ، أصغر منها ؛ ورحم المرأة التى لم تُجامع كثيرًا أصغر ؛ ورحم المرأة التى تُجامع كثيرًا أكبر .

نكتة : العروق غير الضوارب التى تأتى الرحم ، من العرقين المنحدرين على الصلب ؛ ومنشأ الضوارب من (أوريطى) المارة على الصلب أيضًا ، وأوريطى هو الذى تسميه العرب الأبهر .

- إشارة : إن أحببتَ أن تشق عن قلب حيوان لبحث حال نبض القلب والعروق الناشئة منه عيانًا ، فينبغى أن تفعل ذلك فى بيت يكون هواه حارًا ، فإنه إن لقى القلبَ الهواءُ البارد ،

---

(١) الإشارة إلى شرح جالينوس على كتاب : إيبديميا Epidemecs لأبقراط ، وهو معروف لدى الأطباء العرب باسم آخر هو : كتاب المرض الوافد (الحميات) .

(٢) يقصد : شراء .

تلف الحيوان بسرعة ولم يبق النبض على مجرى طبيعته ، لكن يحدث اختلافٌ وتشويش كثير ، فينبغى أن يكون ذلك الفعل فى حَمَّام أو بيت يشبه به .

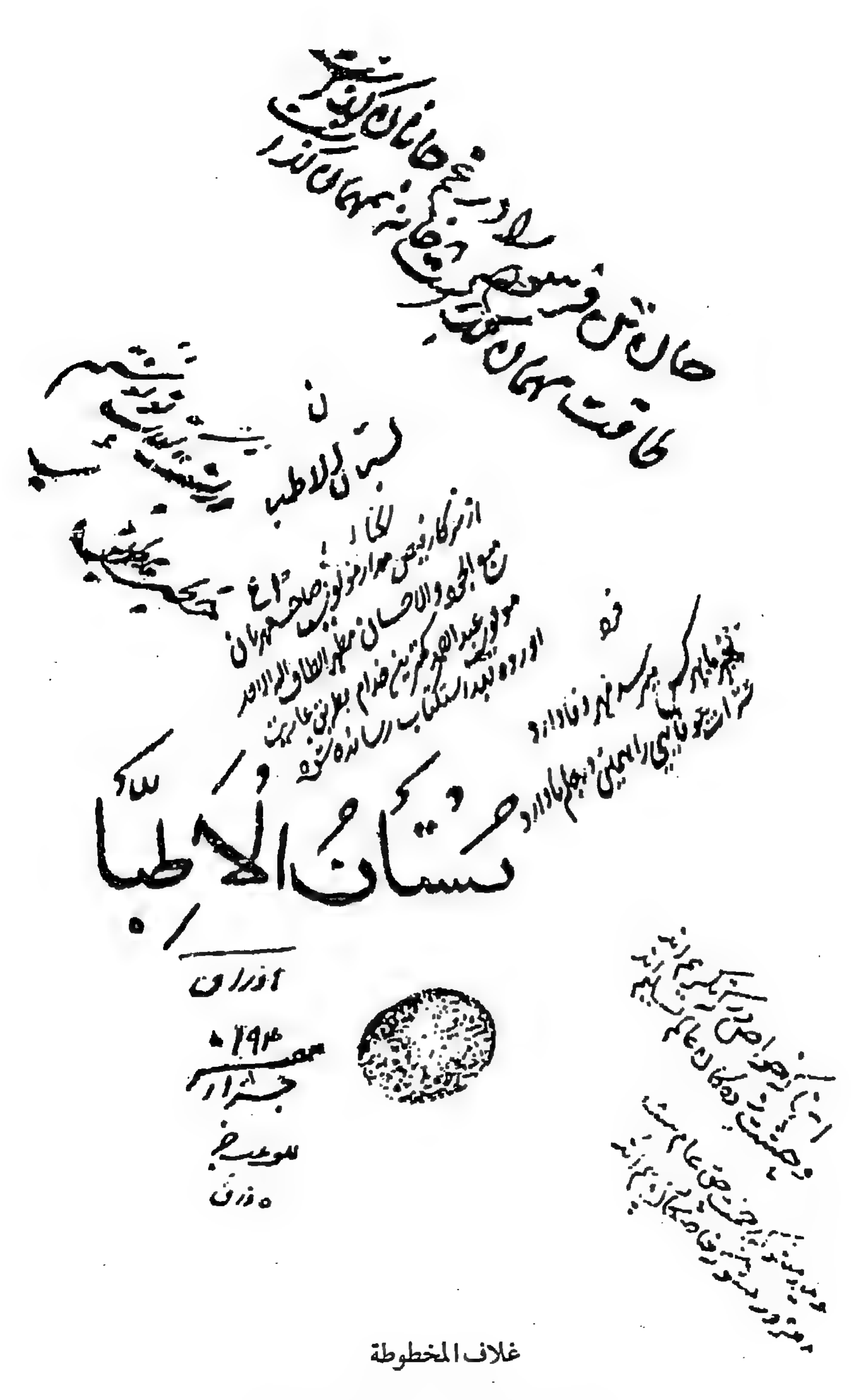
- حكاية : من الكتاب المذكور (الجوامع) اتفق لنا أن عليلاً كان فى صدره ناصور كان بلغ إلى العظم الذى فى وسط قَصه ، فلما التمسنا مداواته كشفنا عن عظم القَصِّ جميع ما يحيط به من الأجسام ، فوجدنا القصَّ قد أصابه فسادُ الجوهر ، فاضطرنا ذلك إلى قَطْعه ، وكان الموضع الفاسد من القَصِّ هو الذى عليه مُستقر غلاف القلب ، وهو الموضع الذى من عادتنا التشريح فيه للكشف عن غلاف القلب ، فلما رأينا ذلك توقفنا شديدًا فى انتزاع العظم الذى كان قد فَسَدَ ، وقد كانت عنايتنا إنما هى باستبقاء الغشاء المغشى له من الداخل وحفظ سلامته، غير أنا لم نجد هذا الغشاء سليماً .. فكنا ننظر إلى القلب نظرًا بيِّنا كمثل ماتراه إذا كشفنا عنه بالتعمُّد فى عمل التشريح ، وسلم ذلك الغلام ، ونبت اللحم فى ذلك الموضع الذى قُطع له من القَصِّ حتى امتلأ واتصل بعضه ببعض وصار يقوم من ستر القلب وتغطيته بمثل ما كان يقوم به من قبل ذلك رأس غلاف القلب ؛ والغلام أفلت ، فإنه لم يحدث هناك من العِلَّة شىءٌ أكثر مما يكون فى كل يوم من الخُرَّاجات التى تثقب الصدر ، ومع هذا فليس يأتى من قبل غلاف القلب ، خاصةً ، شىءٌ من الإشراف على التلف كما يأتى من قِبَلِ باقى أجزائه .

* * *

وتلك الفقرات التى نقلناها من موضع واحد من المخطوطة ، توضح لنا طبيعة الكتاب ومضمونه ، وما يتميز به من طرافة وتشويق وحشد للمعارف الطبية السائدة آنذاك .. وإذا تصفحنا بقية المخطوط فسوف نجد المزيد مما يجعلنا نعرف الكثير عن الطب العربى ، وحدود معرفة الأطباء العرب بالتشريح والجراحة وخواص الأدوية وطبائع الأمراض وسُبُل الشفاء[1] .

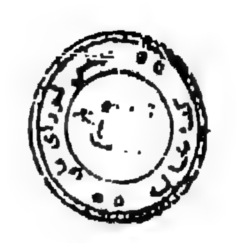
ولا تزال تلك المخطوطة - كغيرها من المخطوطات التى ستعرَّض لها عبر فصول هذا الكتاب - تنتظر اليوم الذى تمتد فيه يد التحقيق إليها ، لتخرج منشورة على القراء المعاصرين .

(١) هناك عدة نسخ مخطوطة من (بستان الأطباء) محفوظة بمكتبات : رامبور - بغداد - وقد اعتمدنا هنا على مخطوطة طهران (مكتبة - شوراى ملى) وهى المخطوطة التى توجد منها نسخة ميكروفيلمية بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .



غلاف المخطوطة

نسخة شوراى ملى (طهران) رقم ٨٥٦٢٨



كتاب بستان الاطباء لابو نصر سعيد بن الياس ابن المطران

بسم الله الرحمن الرحيم

قال جامع هذا الكتاب ابو نصر اسعد بن

الياس بن المطران قدس الله روحه انى جامع فى كتابى

هذا ما ذكر مما طالعه واسمعه من الشيوخ والنسخه

من الكتب الطبية وقد وسمته ببستان الاطباء

وروضة الالبا وجزيته جزان وابتدات بروانا

اسال الله عز وجل المعونه على اتمامه واساله [illegible]

ان يكون منفضيا لا [illegible] القول من يقول

رحم الله من قرا فاخذ من كل شى احسنه [illegible]

الورقة الأولى من المخطوطة

ان يكون اذا قدم على مداواة قوم فى بلدان ينظر

فى وضع المدينة ومزاج الهوى المحيط بها والمياه الجارية

فيها والتدبير الخاص الذى يستعمله قوما دون قوم

ما ان هذه هى الاصول ثم بعدها النظر فى سائر الشرائط

تمثيل ظريف الطبيعة كالمدعى والعلة كالخصم والعلامات

كالشهود والقارورة والنبض كالبينة ويوم البحران

كيوم القضاء والمريض كالمتوكل والمتطبب كالقاضى اسم

اليرقان مشتق من اسم طائر ذهبى اللون يكون موجودا

كثيرا فى شبك الجدران وما بين القبور والخراب فى الاكثر نكتة

العلة فى ان اصحاب اليرقان يذوقون الحلو فيحسبونه

مرا ان الصفراء قد غلبت على ابدانهم جميعا وعلى حواسهم

فاذا ورد طعم اخر فى الفم ولاقى الحاسة اثار الكامن

فى الحاسة من ذلك الخلط المر الاثر على جهة الذوق

فيبقى المذوق فاحس المر الاثر اول ملاق وسابق

تَحْرِيرُ المجسطى

للطُّوسى

فى كتابه الشهير (الفهرست) يتحدث ابن النديم عن الفلكى اليونانى العظيم « بطليموس » فيقول : « هو صاحب كتاب المجسطى .. وهو أول من عمل الاسطرلاب الكرى والآلات النجومية والمقاييس والأرصاد » . ثم يتحدث عن كتابه « المجسطى » فيقول : وهذا الكتاب ثلاث عشرة مقالة ، وأول من عنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية ، يحيى بن خالد بن برمك ، ففسرَّه جماعة فلم يتقنوه .. وقد قيل: إن الحجاج بن مطر نقله إلى العربية أيضًا ، ونقله إسحاق بن حنين نقلاً غير مُرضٍ ، لأن إصلاحه الأول أجود[1] .

* * *

وكتاب المجسطى هو أهم كتب الفلك عند اليونان والمسلمين ، وكان يحيى البرمكى - كما يقول ابن النديم - هو الذى أمر بترجمته عن الأصل اليونانى الذى كان بعنوان : التصنيف العظيم فى الحساب Megal Syntaxis Mathematike ومن كلمة Megal استمد العرب كلمة : مجسطى .

وعن بطليموس وكتابه المجسطى ، يقول الدكتور مرحبا : كان بطليموس عالمًا فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، وأهم ما أقلقه هو حركات الكواكب (المتحيرِّة) فهى تتقدَّم على الشمس أحيانًا ، وتتأخَّر عنها أحيانًا أخرى ، كما يختلف ترتيبها بعضها بالنسبة إلى بعض من وقتٍ إلى آخر ، وتتغير مواقعها فى السماء بين الحين والحين

(١) ابن النديم : الفهرست ، تحقيق رضا المازندرانى (دار المسيرة - الطبعة الثالثة ١٩٨٨) ص ٣٢٧ .

بالقياس إلى النجوم الثابتة ؛ ولتفسير هذه الظاهرة وتعليل ما فيها من حيرةٍ وتشويش ، جاء بطليموس بنظرية أفلاك التدوير ، فالأفلاك الكبيرة تقع على محيطها مراكز الأفلاك الصغيرة ، وبعبارة أخرى فإن كُلّا من الكواكب السيارة (التائهة أو المتحيرة) يتحرَّك فى مدارٍ (فلك أو محيط) خاصٌ به ؛ وهذه المدارات بعضها أكبر من بعض ، ولكل مدارٍ من هذه المدارات مركزه الخاص به ، وجميع الكواكب بما فيها الشمس تدور حول الأرض ، فالأرض هى مركز العالم ، وبهذه النظرية ظَنَّ بطليموس أنه فسر حيرة الكواكب السيارة ، والحَقُّ أنه عَقَّد علم الفلك وزاد فى مشاكله وصعوباته دون أن يفسر شيئًا؛ وقد دُوِّنت هذه الأفكار جميعًا فى كتاب بطليموس المعروف بالمجسطى .. وظل (المجسطى) المرجع الأول والأخير لعلم الفلك القديم كله ، ولم يفقد سيطرته على الأذهان إلا عندما قَلَبَ كوبرنيقوس علم الفلك رأسًا على عقب (١).

والمجسطى مليءٌ بالأرصاد الفلكية لأجرام السماء ، لكنه كتابٌ معقَّدٌ جداً ، نظرًا لتعقيد نظام الرصد الذى سار عليه مؤلفه « بطليموس » .. ولهذا احتاج الكتاب من العلماء العرب جهودًا طويلة فى ترجمته وتحريره ، فقام عدة مترجمين بنقله من اليونانية والسريانية ، وقام غيرهم بتنقيح الترجمة وإصلاح لفظها حتى يتسنَّى للفلكيين الاستفادة منها .

ولكن المجسطى ظل بعد ترجمته بحاجة إلى ما كان يسميه العرب (التحرير) وهو لفظٌ يُقصد به المراجعة والتدقيق وإصلاح الأخطاء . . ولقد اعتنى بتحرير المجسطى جماعة كبيرة من الفلكيين العرب فى القرون التالية لترجمة الكتاب للعربية ، فمن هؤلاء : جابر بن الأفلح الإشبيلى المتوفى ٥٤٠ هجرية فى كتابه (إصلاح المجسطى) وعبد الرحمن بن عمر الصوفى المتوفى ٣٧٦ هجرية فى كتابه (صور الكواكب الثمانية والأربعين) .. أما أشهر تصحيحٍ وإصلاحٍ لهذا الكتاب ، فهو ما قام به العلامة نصير الدين الطُّوسى فى كتابه : تحرير المجسطى؛ وهو الكتاب الذى نتوقف فيما يلى عند مخطوطته ، لكننا سنلقى - أولاً - بعض

(١) د/ عبد الرحمن مرحبا : الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب (منشورات عويدات بيروت ١٩٨٨) ص١٧٤ .

الضوء على العَلاَّمة الطوسى صاحب (التحرير) لنتعرف إلى شخصيةٍ مهمةٍ لها مكانتها المتميزة ، ليس فى تاريخ العلم العربى فحسب ، بل أيضًا فى تاريخ العلم الإنسانى على وجه العموم .

* * *

هو العَلاَّمة المحقِّق : نصير الدين أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى (نسبة إلى مدينة طوس الفارسية) صاحب المؤلفات العديدة فى العقيدة والأخلاق والمنطق والفلسفة والرياضيات والفلك .. كانت وفاته - بعد حياة علمية وسياسية حافلة - سنة ٦٧٢ هجرية[1].

وهناك الكثير من التفاصيل التاريخية الخاصة بحياة العلامة الطوسى وانتمائه العقائدى وموقفه من سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هجرية على يد المغول وصحبته لقائدهم « هولاكو » إلى غير ذلك من تفاصيل خلوته - أو اعتقاله - بقلعة « أَلَمُوت » معقل الشيعة الإسماعيلية .. وكلها تفصيلات يضيق المقام هنا عن ذكرها والدخول فى تناقضاتها العديدة ؛ إذ أن ما يهمنا الآن هو إلقاء الضوء على الجهد العلمى الكبير لهذه الشخصية الإسلامية المرموقة علميًّا .

تجلَّت جهود الطوسى العلمية فى أمرين أساسيين ، الأول هو بناؤه لأكبر مرصد فلكى فى القرون الوسطى ، وهو (مرصد مراغة) الذى يعدُّ أول مجمع فلكى علمى فى تاريخ الإسلام ،

---

(١) هناك العديد من التراجم التاريخية لنصير الدين الطوسى ، أشهرها وأوفاها ترجمته الواردة فى (أعيان الشيعة) للعاملى . ومن الدراسات المعاصرة حول الطوسى :
- د/ عبد الأمير الأعسم : الفيلسوف نصير الدين الطوسى (دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٠) .
- عارف تامر : نصير الدين الطوسى فى مرابع ابن سينا (مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٣).
- شتروتمان : مادة « الطوسى » بدائرة المعارف الإسلامية .
وقد قام الدكتور / عباس سليمان بعمل دراسة مطولة عن الطوسى ، نال بها درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية (١٩٩٠) ويمكن الرجوع إلى عرضنا النقدى لهذه الرسالة بمجلة معهد المخطوطات العربية (القاهرة - يوليو ١٩٩١ - المجلد ٣٥) ص ١٦٣ : ١٩٥ .

وقد تكلّف هذا المرصد أموالاً باهظة ، استطاع الطوسى تدبيرها عن طريق إقناع (هولاكو) بأهمية بناء المرصد لمراقبة النجوم والتنبؤ منها على أحوال المستقبل ، وكان (هولاكو) يؤمن بالتنجيم ويعتقد فى المنجمين ، فاستغل الطوسى هذا الأمر ليصل إلى غرضه العلمى .. وقد احتوى هذا المرصد على أعظم الآلات الفلكية اللازمة للرصد ، والتى صمّمها الطوسى وأشرف على صنعها بنفسه ، كما ألحق مكتبة ضخمة بالمرصد كانت تضم أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ كتاب ، استطاع الطوسى أن ينقذها من يد المغول الذين كانوا يكرهون الكتب ويغرقونها فى الأنهار .. ولقد جمع الطوسى فى هذا المرصد ، نخبة من كبار علماء الفلك المسلمين ، أمثال ابن الفوطى وفخر الدين المراغى وابن البواب البغدادى ومؤيد الدين العرضى ومُحيى الدين المغربى ، وغيرهم الكثير من الفلكيين الذين حملوا راية هذا العلم .

والجهد العلمى الآخر ، لنصير الدين الطوسى ، هو ذلك العدد الكبير من (التحريرات) التى قام بها على أُمهات كتب العلم اليونانى القديم ، فاستطاع ببحوثه العلمية الخاصة أن يُعيد كتابة العلوم القديمة من خلال تلك المجموعة الكبيرة من المؤلفات ، مثل : تحرير كتاب ظاهرات الفلك لإقليدس - تحرير كتاب ثاوزوسيوس فى حركة الأيام والليالى - تحرير كتاب أرسطرخس فى جرم الشمس والقمر - تحرير كتاب ثاوذوسيوس فى حركة الأيام والليالى - تحرير كتاب أرسطرخس فى جرم الشمس والقمر - تحرير كتاب الطلوع والغروب لأوطولوقس - تحرير كتاب أبسقلاوس فى المطالع - تحرير كتاب المساكن لثاوزوسيوس - تحرير كتاب الأكر..إلخ . هذا فى علم الفلك ، أما فى الرياضيات فقد كتب الطوسى : تحرير أصول الهندسة لإقليدس - تحرير كتاب مساحة الأشكال لبنى موسى بن شاكر - تحرير كتاب مُعطيات الهندسة - تحرير كتاب الكُرة والأسطوانة لأرشميدس - تحرير كتاب الكرة المتحركة لأوطولوقس .. وغير ذلك من الكتب .

أما مخطوطة (تحرير المجسطى) فهى ، كما يقول مؤرخ العلم المعاصر ، جورج سارتون ، « تدل على عبقرية الطوسى وطول باعه فى الفلك ، وإن الانتقادات التى وجّهها الطوسى إلى

بطليموس كانت هى الأساس للنظرية الفلكية المعاصرة كما قدَّمها كوبرنيقوس »[1].

لقد أعاد الطوسى صياغة كتاب المجسطى وفقا للأرصاد الفلكية التى قام بها بنفسه ، فصحَّح الأخطاء التى وقع فيها بطليموس ، خاصةً أن الطوسى كان قد توصل إلى نظام فلكى أبسط كثيرًا من نظام بطليموس المعقَّد ، مما سهل له التوصل إلى نتائج أدق .

* * *

وتبدأ المخطوطة التى بين أيدينا - وهى واحدةٌ من عدة مخطوطات لا تزال باقية إلى اليوم[2]- بما يلى : « الحمد لله مبدأ كل مبدأ وغاية كل غاية ، ومفيض كل خير ، وولىُّ كل هداية .. وبعد ، فقد كنت برهة من الزمان عازمًا على أن أُحرر لنفسى ولسائر طلبة العلم من الإخوان ، كتاب المجسطى المنسوب إلى بطليموس ، الذى هو الدستور العظيم لأصحاب صناعة الهيئة والتنجيم ، تحريرًا لا تفوته مقاصد ذلك الكتاب حتى فى ترتيب الفصول وأبواب الحساب ، ورسوم الجداول وأوضاع الأشكال .. بشرط الإيجاز والافتقار والاحتراز عن الإسهاب والتكرار » .

وقد أهدى الطوسى هذا الكتاب إلى « حسام الدين بن الحسن السيواسى » وجعله فى ثلاث عشرة مقالة ، ووضع فيه ١٩٦ شكلاً هندسيًّا ، يشرح فيها نظرياته الفلكية ونتائج رصده لأجرام السماء .

وعلى الرغم من وجود العشرات من النسخ الخطية لكتاب (تحرير المجسطى) ، ووجود عشرات الشروح - المخطوطة - عليه ، إلا أنه لم ينشر على القارىء العربى المعاصر حتى اليوم، ولقد ذكر لى الدكتور عباس سليمان أنه ينوى - يومًا - تحقيق هذا الكتاب ونشره ، بعد طول احتجابه طيلة القرون الماضية .. وها نحن ننتظر ، كما انتظرت مخطوطات الكتاب ، صدور هذه النشرة المحققَّة .

(1) G. Sarton : Introduction to History of Seince.

(٢) بخصوص النسخ الخطيَّة من مخطوطة « تحرير المجسطى » يمكن الرجوع إلى الحصر الشامل الممتع الذى قام به الدكتور / عباس سليمان فى رسالته سابقة الذكر .. وانظر أيضًا :

- Brockelmann: Gieschichte der Arabieschen Littetatur (Lieden) 1/ 924, 925

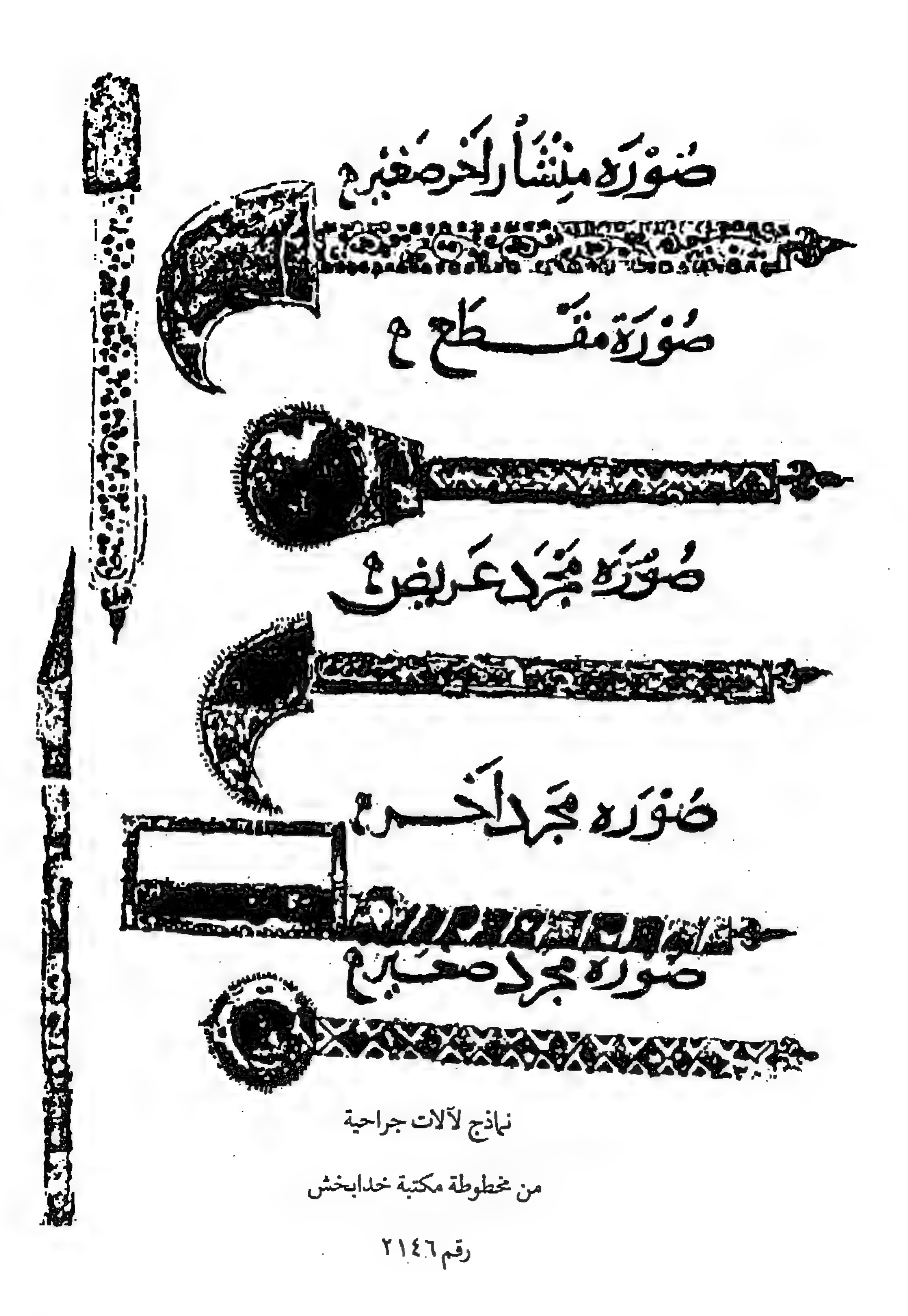
الصفحة الأولى من كتاب تحرير المجسطي

(مخطوطة مكتبة أحمد الثالث رقم ٣٤٥٣ / ١٨)

كتبت بتاريخ ٦٧٨ هجرية

صفحة من المخطوطة تحتوي على بعض الأشكال

الهندسـيـة



نماذج لآلات جراحية

من مخطوطة مكتبة خدابخش

رقم ٢١٤٦


وهذه صورة المشداخ الذي يشدخ
به رأس الجنين يشبه المقص له أسنان في
الطرف كما ترى

وقد تصنع مستطيلة كالكلاليب على
هذه الصورة كما ترى له أسنان كأسنان المنشار
تقطع بها وترض

اعلم أن هذه الآلات كلما كثرت أنواعها وكانت معدة
عند الصانع كانت أسرع لعمله وأرفع عند الناس لقدره فلا تستحقر

نماذج أخرى

من مخطوطة مكتبة خدابخش

رقم ٢١٤٦

تفريجُ الكُرُوبَ فِي تَدْبِيرِ الحُرُوبِ

لمؤلف مجهول

فى الفصل قبل السابق ، عند تقديمنا لمخطوطة حسام الدين لاجين الطرابلسى ، « تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين » تحدثنا عن أهمية الالتفات إلى التاريخ الحربى والعسكرى للعرب ، ونشر مخطوطاته التى لقيت منا أشد الإهمال .

وفى بدء الكلام عن مخطوطة « تفريج الكروب » التى نستعرض فيما يلى محتواها ، أرى من الواجب أن نتوقف قليلاً عند بعض المخطوطات العسكرية المهملة ، لنلقى الضوء عليها ، خاصةً تلك المخطوطات التى تَمَّ تدوينها فى العصر المملوكى الذى دوِّنت فيه « تفريج الكروب » لمؤلِّفها المجهول .

* * *

شهد النصف الأول من العصر المملوكى - القرنانِ السابع والثامن الهجريان - نهضةً كبيرة فى شتى مجالات الحياة ، ومن بينها مجال الفنون الحربية والفروسية ، وكانت للعسكرية المصرية المملوكية فى القرن السابع الهجرى ، انتصاراتها الباهرة على الصليبيين والمغول ، مما مهَّد السبيل أمام مرحلة الاستقرار الأمنى فى مصر والشام ، وهو الاستقرار الذى أثمر الكثير من الإنجازات الحضارية فى ميادين المعرفة العلمية والعمارة والتنظيم الإدارى وإحياء التراث العربى الإسلامى بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هجرية [١].

---

(١) بخصوص هذه الفترة يمكن الرجوع إلى :
د/ سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام فى عهد الأيوبيين والمماليك (دار النهضة العربية - بيروت).

وفى إطار الاهتمام المملوكى بالأمور العسكرية وفنون القتال ، وُضعت عدة مؤلفات فى هذا الباب ، فمن ذلك كتاب « الأدلة الرسمية فى التعابىء الحربية » لمحمد بن منكلى الناصرى نقيب الجيش فى زمن السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ : ٧٧٨ هجرية) وفيه يقول المؤلِّف : والسبب الداعى لهذا التأليف أمور ، أحدها : ليُعلم أن فى العسكر الإسلامى مَنْ له عناية من ربه تعالى بخدمة أولى الجدِّ والاجتهاد .. إلخ[١] » وقد ذكر ابن منكلى فى أثناء كتابه هذا ، بعض أسماء كتبه الأخرى فى فنون الحرب ، مثل : المنهل العذب لورود أهل الحرب - الرسالة المرضية فى صناعة الجندية - الكشف والبيان[٢].

وفى مجال الرماية ، وضع عبد الله بن ميمون كتاب « الإفادة والتبصير لكل رامٍ مبتدىء أو ماهرٍ نِحرير ، بالسهم الطويل والقصير » فقال فى مقدمته : جعل سبحانه الرمى نكاية العدو ، واستطاعةَ القوة فى الغزو ، ووعد من رمى بسهم فى سبيله بدرجة فى الجنة .. ولما كان الجهاد من أعظم العبادات ، وكان فرضٌ بيِّنٌ فيما قيل ، دعانى ذلك إلى تأليف كتاب فى الرماية عن القوس بالعربية ، لا بالطويل فيُمَلّ ، ولا بالمختصر[٣].

ويكتب مرضى بن على الطرسوسى « تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الإعلام فى العدد والآلات المُعينة على لقاء الأعداء »[٤].. ويكتب الحسن السنجارى « هداية الرامى إلى الأغراض والمرامى »[٥] ويكتب محمد بن لاجين «الفروسية برسم الجهاد ، وما أعدَّ الله للمجاهدين من العباد» .. وغير ذلك الكثير ، مما يضيق المقام هنا عن ذكر المزيد منه .

---

(١) محمد بن منكلى : الأدلة الرسمية (مخطوطة أيا صوفيا - اسطنبول ، رقم ٢٨٧٥) الورقة الثانية .
(٢) راجع فهرس مخطوطات « معهد المخطوطات العربية بالقاهرة » ٤ / ٣ .
(٣) عبد الله بن ميمون : الإفادة والتبصير (مخطوطة كوبر يلى زاده - اسطنبول ، رقم ١٢١٣) الورقة الأولى .
(٤) توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث - اسطنبول - تحت رقم ٢١١٤ .
(٥) توجد منه نسخه مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث - اسطنبول - تحت رقم ٢٣٠٥ .

وقد استفـاد العسكريون المسلمون فى تأسيس معـارفهم الحربية من كل المصادر السـابقة عليهم ، فهـا هـو محمـد بن منكلى يقـول فى كتـابـه « الحيل فى الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب» ما نصُّه : هذا كتاب الحيل فى الحروب .. من حِكَم ذى القرنين الإسكندر بن فيلبـس اليونانـى ، وُجِـدَ فى ديماس بالإسكندرية بين حجـرين مطبقين ، أحدهما على الآخر ، مكتـوبًا باليونـانية فتُرجم بالعربية ، وهـذا الكتاب فى جميع أبوابه يُحتـاج إليه فى أنواع الحرب من الحيل والمكـر والخديعـة ومخادعة العـدو والاحتراس من مكـره وعمل الآلات والسـلاح .. إلخ [1].

وقد تزايد هذا الحرص على تحصيل العلـوم الحربية وتطويرها ، نظراً للـرباط الدائم الذى كانت مصر فيه آنذاك ؛ بالإضافة إلى تشجيع الحكـام للفروسية لمصلحتهم العامة والخاصة ، ولم يقف التشجيع عنـد حد الحكـام ، بل تعدَّاه إلى رجال العلـم والدين ، فهـا هو السيوطى يُفرد للفروسية كتابًا بعنوان : تحفة الأحباب فى الرمى بالنشاب .

وتجدر الإشارة إلى أن هـذه المؤلفات العسكرية التـى ذكرناها - وغيرهـا الكثير - لا تزال حتى اليوم مخطوطة لم تُنشر [2].

* * *

ومخطوطة « تفريج الكروب » وضعها مؤلِّفها المجهول للملك الناصر فرج بن برقوق الذى تولَّى الحكم من سنة ٨٠١ إلى سنة ٨٠٨ هجرية .. وهى تبدأ بقول المؤلف :

« الحمد لله مؤيد الإسلام من سلطانه الناصر بعزيز نصره ، ومُرغم أنف الخارج عن طاعته بتعجيل هلاكه وردّ كيده فى نحره ، ومُريه من مصـارع أعدائه ما يتَّعظ به العاقل ويعده المتأمِّل من عجائب دهره .. وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة يتوارثها عظماء الملوك

(١) محمد بن منكلى : الحيل فى الحروب (مخطوطة أحمد الثالث ، رقم ٣٤٦٩) الورقة الثانية .

(٢) أغلب المخطوطـات المذكورة هنـا - وغيرها الكثير من المخطوطـات العسكرية - تـوجد منهـا مصورات ميكروفيلمية بمعهد المخطوطـات العربية بالقاهرة .. أما مخطوطة السيوطى (تحفـة الأحباب) فتوجد منها نسخة جيدة بالمكتبة المركزية لجامعة الإسكندرية .

كابرًا عن كابر ، ويُوصِى بها على الدوام أبدًا الأولُ منهم الآخر .. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله المخصوص بالتأييد عن تتابع الدهر ، والمنصور بالرعب المؤثِّر فى قلوب أهل الكفر على مسيرة شهر[1] .. إلخ » .

ومع أن المؤلِّف وضع كتابه فى السنوات الأولى من القرن التاسع الهجرى ، وهى بالنسبة للتاريخ المملوكى فترة ضعف واضطراب ، إلا أن المؤلِّف يُضفى على السلطان من الألقاب ، ما لم يحمله من قبله السلاطين العظام ؛ وتلك ظاهرة معروفة فى التاريخ .. فكلما ازداد التأخُّر وسادت أحوال التخلُّف ، لجأ الحكام إلى تعويض عجزهم بإضفاء الألقاب على أنفسهم ، وشجَّعوا الناس على التملُّق لهم ، عوضًا عن تهافت سلطانهم على البلاد والعباد ، وفى المخطوطة التى بأيدينا ، نرى المؤلف يعدِّد ألقاب الملك فرج بن برقوق ، فيقول :

« وبعد ، فلما كان السلطان الأعظم ، الملك الناصر ، العالم العادل المجاهد المرابط المتاغر ، المؤيد المظفَّر المنصور ، زين الدنيا والدين ، سُلطان الإسلام والمسلمين ، مُحيى العدل فى العالمين ، وارث مُلك ملوك العرب والعجم والترك ، ظِلُّ الله فى أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، إسكند ر الزمان ، مُملِّك أصحاب الأسِرَّة والتيجان ، واهب الأقاليم والأمصار ، مُبيد الطغاة والكفار ، حامى الحرمين جائز القبلتين ، جامع كلمة الإيمان ، ناشر لواء العدل والإحسان ، سيد ملوك الزمان ، إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ، أبو السعادات فرج بن السلطان الشهيد الملك الظاهر أبى سعيد بن برقوق .. » .

وتزداد دهشتنا ، بعد هذه الألقاب كلها ، حين نعلم أن فرج بن برقوق كان من أسوأ الحكام ، وأنه تولَّى السلطنة بعد مقتل أبيه ، لمدة سبع سنوات ، ولم يكن قد أتمَّ عشر سنين من عمره ، وقد توقَّف ابن حجر العسقلانى عنده فى « ذيل الدرر الكامنة » فلم يذكر عنه إلا

---

(١) الإشارة للحديث الشريف : نُصِرتُ بالرعب مسيرةَ شهر . (أخرجه السيوطى بلفظ قريب عن ابن عباس وابن هريرة وغيرهما – راجع : الجامع الكبير ، المجلد السادس ، ص ٧٣٢ ، ٧٣٣) .

الآتى : « ذِكْر من مات سنة خمس عشرة (٨١٥ هجرية) : فرج بن برقوق ، الناصر بن الظاهر ، بدمشق ! »[1] مما جعل محقِّق الذيل يقول فى هامش الصفحة :

« هكذا اكتفى شيخ الإسلام بذكر اسم السلطان ولم يذكر شيئًا من سيرته ، وهو السلطان ، وكذلك فعل فى الإنباء (إنباء الغُمر بأنباء العُمر ٧/ ٨٠) فلم تزد ترجمته هناك على أربعة أسطر ؛ وفى « الضوء اللامع » يقول السخاوى :

« فرج بن برقوق .. وُلد سنة ٧٩١ فى وسط فتنة يلبُغا الناصرى ومنطاش ، فسماه أبوه بلغاق ! ثم سماه فرجاً ؛ فكان اسمه الحقيقى هو الأول .. استقر فى المملكة بعهدٍ من أبيه ، فى شوال سنة ٨٠١ ، وسِنُّه دون عشر سنين ، واختلف مماليك أبيه عليه كثيرًا .. وخُلع فى غضون مملكته سنة ٨٠٨ بأخيه المنصور عبد العزيز ، نحو شهرين ، ثم أُعيد فى جمادى الآخرة من نفس السنة ، وأمسك أخاه فحبسه ثم قتله .. واعتُقل سنة ٨١٥ ، واستفتوا العلماء فأفتوا بوجوب قتله ، لما كان يرتكبه من المحرمات والمظالم والفتك العظيم ، فقُتل ودُفن بمقابر دمشق ، وكان سلطانًا مهيبًا فارسًا كريماً فتَّاكًا ظالمًا جبارًا منهمكًا على الخمر واللذات ، طامعًا فى أموال الرعايا[2].

* * *

ونعود للمخطوطة ، فنرى مؤلِّفها المجهول وهو يقول عن نفسه : وكنت ممن نظر فى كتب التاريخ على اختلافها ، وتدبر وقائع الحروب منها على تباين أصنافها .. فدعانى ذلك إلى أن أخدم خزانته الشريفة (يقصد خزانة كتب فرج بن برقوق) بكتابٍ أضعه فى تدبير الحروب وترتيبها ، ومعرفة أحوال القتال وتقديرها ، ليهتدى بذلك من يقف عليه من أُمرائه الأنجاب وقواد عساكره .. إلخ .

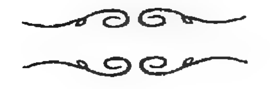
(١) ابن حجر العسقلانى : ذيل الدرر الكامنة ، تحقيق د/ عدنان درويش (نشرة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٩٢) ص ٢٢٢ .

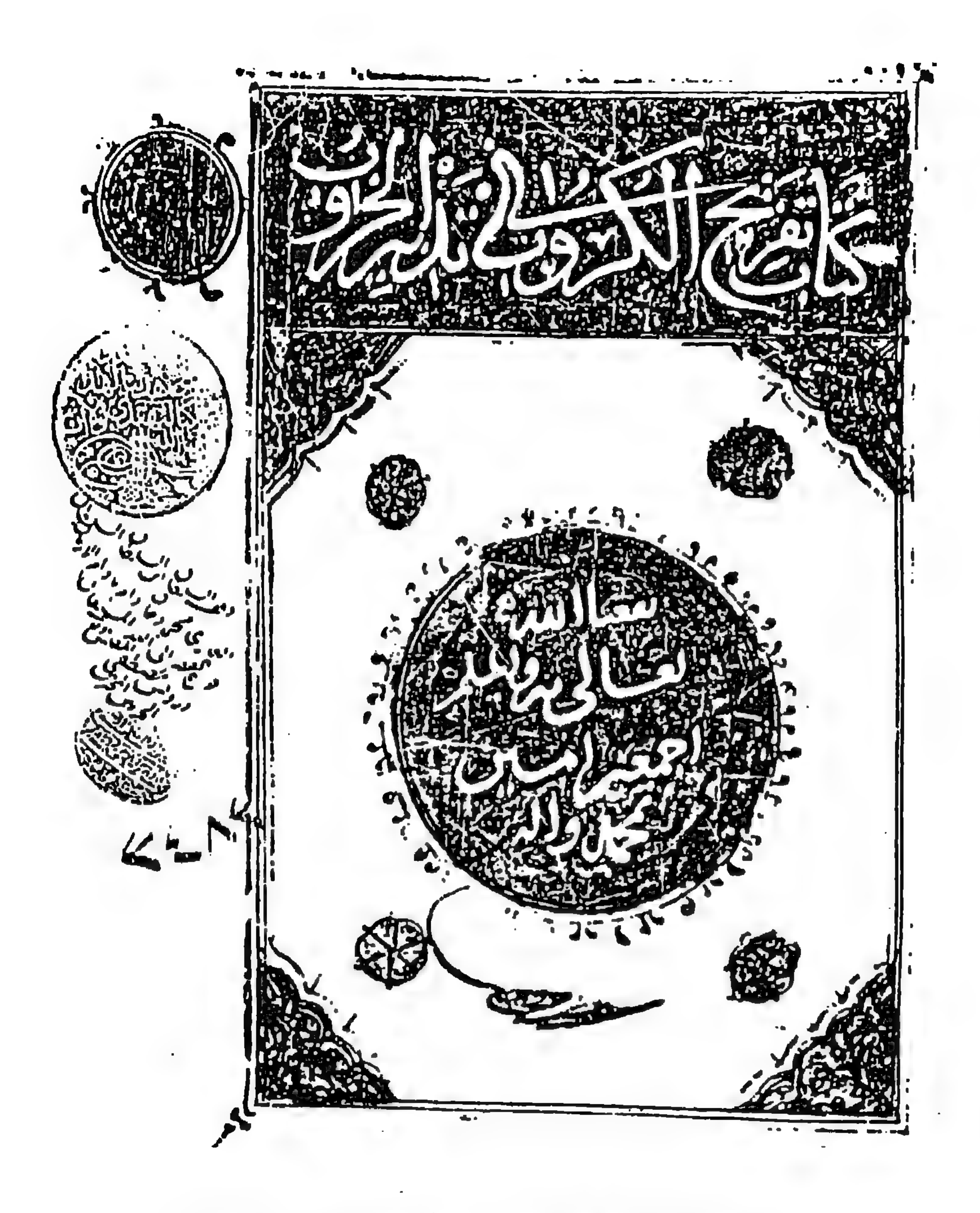
(٢) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (منشورات دار الحياة - بيروت) ٦ / ١٦٨ .

وهناك مخطوطة جيدة من « تفريج الكروب » وهى نسخة نفيسة ، خزائنية ، مكتوبة بخط الثلث الجميل ، مشكولة ، تقع فى ١٥٢ ورقة ، وناسخها هو أبو الفضل بن عبد الوهاب السنباطى .. وتوجد المخطوطة فى مكتبة الفاتح باسطنبول ، تحت رقم ٣٤٨٣ .

وتنتهى المخطوطة من استعراض الفنون الحربية المختلفة ، بجملة نصائح عامة للسلطان وأمير الجند ، فتقول : وعليه أن لا يُناهض عدوه ولا يناجزه للقتال إلا عند الضرورة والحاجة إلى الدفع عن نفسه ، ولا يُقاتل ما وجد إلى الحيلة والخديعة سبيلاً (وتلك قاعدة ميكافيللية !) وعليه بالمطاولة والمدافعة وإن دام الحصار ، ويغتنم اليوم والساعة واللحظة لتتهيأ له الحيلة ، وينتظر حوادث الزمان وما يقع من الفرج ؛ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ ، أن النصر مع الصبر ، وبالجملة ، فإنه يجب عليه أن يملك قلوب الرعية بالعدل والإحسان ، فإنه ليس غاية مراد الرعية إلا ذلك ، ومن عان العدل والإحسان ، كانت رعيته من أنصح الجند له ، لطمأنينة قلوبهم إليه ، وربما ضبطوا مكانهم إذا غاب عنهم جُند الملك إلى حين حضور مَنْ يثق به الملك من المندوبين لذلك ، والله أعلم ، وبه التوفيق ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن الواضح أن فرج بن برقوق لم يستمع إلى تلك النصائح الخاصة برعاية الرعية - كما لايستمع أغلب الحكام - فلقى مصيره المشئوم وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ؛ واستحق كلام العسقلانى عنه بصيغة التجهيل والتهميش .. ولم تنفعه تلك الألقاب الخدّاعة التى أغدقها عليه مؤلِّف مخطوطة التفريج .





مخطوطة كتاب تفريج الكروب (نسخة مكتبة الفاتح ب ١ سطنبول)

وتظهر عليها الأختام السلطانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤيد الإسلام من سلطانه

الناصر بعزيز نصره ومرغم أنف

الخارج عن طاعته بتعجيل هلاكه

ورد كيده في نحره ومريه من

مصارع أعدائه ما يتعظ به العاقل ويعده

المتأمل من عجائب دهره ومسعد جده

العالي بإبادة عداه الطغاة المارقين

والله غالب على أمره على أن

الصفحة الأولى من المخطوطة

نجومها ولا يتغير على ممر الزمان

إن شاء الله تعالى رسمها وسلم تسليما كثيرا

وبعد فلما كان السلطان الأعظم

الملك الناصر العالم العادل المجاهد

المرابط المثاغر المؤيد المظفر المنصور

زين الدنيا والدين سلطان الإسلام

والمسلمين محيي العدل في العالمين

وارث ملك ملوك العرب والعجم

والترك ظل الله في أرضه القائم

صفحة من المخطوطة ، يرد فيها ذكر

السلطان وألقابه الكثيرة

لذالك، والله أعلم وبه التوفيق،

وعليه التكلان ولا حول ولا قوة

إلا بالله العلي العظيم،

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

مركاتبه الفقير إليه تعالى أبو الفضل بن علي الونائي

السنباطي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الورقة الأخيرة من المخطوطة

وفيها اسم الناسخ

جَامِعُ الأَسْرَارِ

للطُّغْرائي

صاحب هـذه المخطوطة هو : فخـر الكُتَّاب أبو إسماعيل الحسـين بن على بن محمد بن عبد الصمد ، الأُستـاذ ، الوزيـر ، الطُّغْرَائِي (ولـد سنة ٤٥٣ هجـرية بأصبهـان ، وتوفى ٥١٥ هجـرية) ولقب الطُّغْـرَائِى مستمـد من كلمة « طُغْـرَاء » وهى الطُّـرَّةُ التى كانت تُكتب فـوق الرسائل متضمنة البسملة ، حيث كان الطُّغْرَائى يقوم برسمها وكتابتها بخطِّـه الذى عُـدَّ آيةً فى الجمال[١] .

وقامت شهرة الطغرائى على كونـه صاحب القصيدة المشهورة المسماة « لامية العجم »[٢] والتى يقول مطلعها (من بحر البسيط) :

---

(١) أفاضت كتـب المؤرخين والمترجمين فى سيرة الطغرائى ، نظرًا لكـونه شـاعرًا ورجل سيـاسة – وليس لكـونه كيميائيا ! – فمن تلك الكتب نجد سيرته مبسوطةً فى :

مُعجم الأدبـاء لياقـوت الحموى ١٠ / ٥٦ – وفيـات الأعيان لابن خلكـان ١ / ٢٠٠ – تاريخ الإسـلام للذهبى ٤ / ٢١٣ – سير أعلام النبلاء للذهبى ١٩ / ٤٥٤ – الـوافى بالوفيات للصفدى ١٤ / ٤٣١ – شـذرات الذهـب لابن العماد ٤ / ٤١ – مرآة الجنـان لليـافعى ٣ / ٢١٠ – البـداية والنهـاية لابن كثير ١٢ / ١٩٠ – مفتاح السعادة لطاش كُبرى زاده ١ / ١٩٧ – روضات الجنات للخوانسارى ٢٤٨ – نزهة الجليس للموسـوى ٢ / ١١٨ أعيان الشيعة للعـاملى ٢٧ / ٧٦ – النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥ / ٢٢٠ – كشف الظنـون لحاجى خليفـة ٦٨ ، ٣٩٤ ، ٥٣٤ ، ٦٧٢ ، ٧٩٨ ، ٨٢١ ، ٨٣٨ ، ١٥٣٧ ، ١٧٥٥ – معجم المؤلفين لكحالة ٤/ ٣٦ .. وأيضًا :

- De Slane, catalogue des manuscrtis arabes 473 - K.

- Brockelmann : Geschichte der arabischen Litterature (Sup.) 1,244.

(٢) سُميت القصيدة بذلك ، قياسًا على قصيدة « لامية العرب » للشَّنْفَرَى .

أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِى عَنِ الخَطَلِ   وَحِلْيَةُ الفَضْلِ زَانَتْنِى عَنِ العَطَلِ

وهى من أشهر القصائد، تزيد أبياتها على الستين .. ومن أجود أبياتها قوله:

يَا وَارِدًا سُؤْرَ عَيْشٍ كُلُّهُ كَدَرٌ   أَنْفَقْتَ صَفْوَكَ فِى أَيَّامِكَ الأُوَلِ

فِيمَ اقْتِحَامُكَ لُجَّ البَحْرِ تَرْكَبُهُ   وَأَنْتَ يَكْفِيكَ مِنْهُ مَصَّةُ الوَشَلِ

مُلْكُ القَنَاعَةِ لاَ يُخْشَى عَلَيْهِ وَلاَ   يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الأَنْصَارِ وَالخَوَلِ

تَرْجُو البَقَاءَ بِدَارٍ لاَ ثَبَاتَ لَهَا   فَهَلْ سَمِعْتَ بِظِلٍّ غيْرَ مُنْتَقِلِ

وَيَا خَبِيرًا عَلَى الأَسْرَارِ مُطَّلِعًا   أَصْمِتْ فَفِى الصَّمْتِ مَنْجَاةٌ مِنَ الزَّلَلِ

وقد قام صلاح الدين الصفدى بوضع شرحٍ مطوَّل على هذه القصيدة، وهو مطبوع فى مجلدين. وللطغرائى ديوانٌ شعرىٌّ كامل، جمعه بعض أحفاده بعد وفاته بزمن؛ فمن رقيق شعره قوله فى بعض الأبيات (من بحر كامل):

يَا قَلْبُ مَالَكَ وَالهَوَى مِنْ بَعْدِ مَا   طَابَ السُّلُو وَأَقْصَرَ العُشَّاقُ

أَوَ مَا بَدَا لَكَ فِى الإِفَاقَةِ وَالأُلى   نَازَعْتَهُمْ كَأْسَ الغَرَامِ أَفَاقُوا

مَرِضَ النَّسِيمُ وَصَحَّ وَالدَّاءُ الَّذِى   تَشْكُوه لاَ يُرْأَى لَهُ إِفْرَاقُ (١)

وقد توفى الطغرائى مقتولاً بأمر السلطان محمود السلجوقى، وقد كان الطغرائى وزيرًا لأخيه مسعود، فاقتتل الأخوان وانتصر السلطان محمود وأخذ الطغرائى أسيرًا .. وتروى المصادر التاريخية أن السلطان محمود لما عزم على قتل الطغرائى، أمر به أن يُشَدُّ إلى شجرةٍ، وأن يقف أمامه جماعةٌ بالسهام، وأن يقف إنسانٌ خلف الشجرة ليكتب ما يقوله الطغرائى وهو ينتظر لحظة الموت .. وعندما توجَّهت السهامُ ناحية الطغرائى، أنشد (من الكامل):

(١) بخصوص الطغرائى – شاعرًا – يمكن الرجوع إلى:
– د/ على جواد الطاهر: الطغرائى حياته وشعره ولاميته (منشورات مكتبة النهضة – بغداد ١٩٦٣).

وَلَقَــدْ أَقُــولُ لِمَنْ يُسَــدِّدُ سَهْمَــهُ   نَحْــوِى وأَطْــرَافُ المَنِيَّــةِ شُرَّعُ

وَالْمَوْتُ فِى لَــحَظَاتِ أَحْــورَ طَــرْفُــهُ   دُونِى وَقَلْبِى دُونَــــــــهُ يَتَقَطَّعُ

بِــالله فَتِّشْ عَـنْ فُــؤَادِى هَلْ يُــرَى   فِى لِغَيْرِ هَــوَى الأَحِبَّــةِ مَــوْضِعُ

وهنا رَقَّ السُلطـان وأمر بإطـلاق سراحه ، لكن الوزيـر « السميرمى » ظَلَّ يُغريـه بقتله ، ويـؤكّد لـه أن الطُغْرَائِى مُلْحِـدٌ ! ولابدَّ من قتلـه .. فاستجـاب السلطان ، ولقـد لقى الوزيـر السميرمى جزاء فعلته ، إذ قتله أحد عبيد الطغرائى بعد عامٍ واحد ثأراً لسيده .

* * *

وحديثنا الآن عن الطغرائى ، لا بوصفه شاعرًا مجيدًا ، وإنما من حيث هو واحدٌ من أشهر الكيميائيين العرب أو - كما كان يُقال لهم - أهل الصنعة [1].. إذ كان الطغرائى ، على ما يشير الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » ذا باع طويل فى هذه الصنعة[2] .

وضع الطغرائى عـدة مؤلفات فى الكيمياء - لا تـزال مخطوطة - منها : مصـابيح الحكمة ومفاتيح الرحمة فى الكيميـاء ، كتاب الرد على ابن سينا فى إبطال الكيميـاء ، حقائق الاستشهاد والإرشاد للأولاد ، رسـالة إلى مارية بنت سـايه الملكى القبطى فى الكيمياء ، قصيدة بـالفارسية وشرحها بالعربية فى الكيمياء .. وله أيضًا : جامع الأسرار [3].

وهناك عدة عنـاوين لهذا الكتاب الأخير ؛ فبعض المؤرخين يذكره بـاسم « جامع الأسرار وتـراكيب الأنوار فى الإكْسير » ، وعلى الغـلاف الخارجى للمخطـوطة « جـامع الأسرار » ، وفى

(١) بخصوص الطغرائى - كيميائيًّا - يمكن الرجوع إلى :

- د/ فاضل أحمد الطـائى : أعلام العـرب فى الكيمياء (الهيئـة المصرية العامـة للكتاب ، القـاهرة - دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد : سلسلة الألف كتاب الثانى ، ١٩٨٦) .

(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ١٩ / ٤٥٤ .

(٣) راجع مؤلفات الطغـرائى فى : كشف الظنون ، معجم المؤلفين ، أعلام العرب فى الكيميـاء ، تاريخ الأدب العربى لبروكلمان .

الورقة الأخيرة نرى عنوان « التقريب فى معرفة سر التركيب » ولعل هذا العنوان الأخير هو عنوان الجزء الثانى من الكتاب الذى يقع فى جزأين .. وعلى أى الأحوال ، فإن (جامع الأسرار) كتابٌ مشهورٌ للطُّغْرَائى ، بقطع النظر عن تلك الاختلافات فى عنوانه ، إذ كثيرًا ما يقع الاختلاف فى عناوين المخطوطات ، وهناك من الكتب المخطوطة ما يكون له أكثر من عنوان .. ويرجع ذلك فى بعض الأحيان إلى رغبة المؤلِّف ، وأحيانًا إلى تصرُّف النُّسَّاخ .

وهناك نسختان من مخطوطة الطُّغْرَائِى « جامع الأسرار » إحداهما فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٧٣١ / طبيعة ، والأخرى بنفس الدار تحت رقم ١٦٩ / طبيعة .. وقد اعتمدنا فيما يلى على النسخة الثانية .

تدخل بنا هذه المخطوطة إلى عالم طريف هو عالم (الصنعة) أو تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب والفضة ، ولقد كانت لتلك المحاولات أكبر الأثر فى تطوُّر علم الكيمياء ، فعبر محاولات لا حصر لها للوصول إلى هذه الغاية البعيدة ، توصَّل العلماءُ المشتغلون بالصنعة إلى معرفة الكثير عن تركيب العناصر وتفاعلاتها الكيميائية وخصائص المركَّبات .

وتبدأ المخطوطة بقول الطُّغْرَائِى : .. الحمد لله ذى الآلاء ، يُؤتى الحكمة من يشاء ، وبعدُ - زيَّنك الله بالتقوى وجمع لك خيرات الدنيا والآخرة - فقد انتهى إلىَّ أنك قد أخذت برأى جمهورٍ من العوام وكثيرٍ من الخواص ، فى إنكار الصنعة الشريفة المُنجية من مسكنة الدنيا ، المُعيذة أهلها المتحققين لها من الظلم والشر ومقابح الأخلاق التى تدعو إليها الحاجة ومخافة الفقر والتكذيب بالحكمة .. حتى كدتَ تلحق بطبقة المقلدين فى إنكار دعاويهم والإكثار لما شرعوا فى ذكره من تدابيرهم وأعمالهم ، وتُخرج أقاويلهم من أقسام العلوم ، وتطردها - جملةً - من حيز الإمكان إلى حيز الامتناع ، وأنك لا تتحاشى من أن تشتم أصحابها .. » .

وبعد هذا التقديم إلى القارىء ، يقول الطغرائى مؤكِّدًا إمكانية تحويل العناصر الخسيسة إلى شريفة ، ومحذِّرًا من إشاعة هذا العلم فيمَنْ هم ليسوا أهله : « فإن سَهَّل الله تعالى لك الوقوف على ما جمعته لك فى هذه الرسالة ، فاشكر الله عليه ، ولا تُطلع على هذه الرسالة إلَّا مَنْ

وثقت بعقله ودينه وصحة رأيه فى الباقية (الآخرة) على الفانية (الدنيا) وكان ممَّنْ قال الله تعالى فيـه وفى أمثالـه : ﴿ تلك الـدار الآخرة نجعلهـا للذين لا يـريـدون علوًّا فى الأرض ولا فسـادًا والعاقبة للمتقين ﴾ .

ثم يقول ما نصُّه : « وأبتدىء فأقول: إن الذين من قبلنـا تكلَّموا فى شرف هذه الصناعة ، وصنَّف فيها ابن زكـريا (الـرازى) تصنيفًا مفـردًا فى جملة كتبه الاثنى عشر ، فإذا صَحَّ للعاقل وجـود هذه الصنـاعة ، إمـا عيـانًا - فهـو أشفى للنفـوس وأذهب للشكوك - و إمـا بالقيـاس والحَدْس الصحيح ، وتلك رتبة الحكماء والعلماء ؛ فلا شك عنـده فى شرفها وحُسن معونتها على صلاح المَعَاد والمَعَاش جميعًا ، أما المعاش فلأنها وجهٌ يكفى الوجوه كلها ، وأما المعاد فلأنها رزقٌ حلال هو قوت الأنبيـاء وطعمة الأولياء ومنية الأتقياء ، وهو ممَّـا مَنَّ الله تعالى به على سليمان بن داود ، عليه السلام ، حيث قال له : هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب[1] » .

ويشير الطُغْرَائى إلى أن هـذا اللون من المعرفة قـديم ، لكن الناس أهملوه ولم ينتبهـوا له ، نظرًا لأن الاشتغال بـه يقتضى أمورًا ، منها على حـد قوله : « إن صاحب هـذه الحكمة ، الذى يصل إليها باستنباطه ، يجب أن يكون متـدربًا بسائر أوضاع الحكماء واصطلاحاتهم فى استعمال عباراتهم ، ويستفيـد من مزاولة هـذه الصنعة وممـارسة أعمالها ، مشاهـدة أعمال الطبيعة وأسرار الخليقة التى ذكـرها الحكيم بلينـاس فى كتابـه ، فذهل عنها السـواد الأعظم حتى ظَنَّ كثيرٌ من أفاضل القـدماء والمحـدثين المعاصرين أنها لغوٌ وهـذيان ، ولم يفطنـوا لها مع ارتفاع طبقتهم فى سائر العلوم .. » .

وأخـذ الطُغْرَائى بعـد ذلك فى بيـان العمليات الكيميـائيـة المعقـدة ، الراميـة إلى تحويل المعادن ، لكنه يجعل لكل مادة رمزًا معينا لا يعـرفه إلاَّ هو ، وبعض تلاميذه ، حفاظًا على أسرار هذه الصناعـة .. وقد صرح الطُغْرَائى فى مرات عديـدة بأنه تمكَّن من تحويل المعادن إلى ذهب وفضة ، ومن أشعاره الموحية بذلك (من الطويل) :

(١) سورة ص ، آية ٣٩ .

وَلَـــوْلَا مُلُـوكُ الجُورِ أَصْبَحْتُ وَالحَصَـــا   لَـــدَيَّ إِذَا مَـــا شِئْتُ دُرٌّ وَيَـــاقُـــوتُ

* * *

وتنتهى المخطوطة بقوله : .. فهذه نهاية ما امتدَّ خاطرى إليه وعملته بيدى ، فاتق الله أيها الطالب ، ودع عنك المراء والمخالفة والمفاخرة ، إن كنت أدركت شيئا مما تطلب ، واستعمل مع ذلك الصمت والوقار ، فإنَّ بذلك تدعو إلى صيانة نفسك وعلمك ، وإن أنت طلبت المراء واتبَّعت مكابرة أهل الجهل وأظهرت لهم شيئًا من علمك ، فلا تلومنَّ غير نفسك ، والله يخلف عليك فى نفسك بخير ، فإن الملوك وغيرهم من العوام إذا وصلوا إلى شىءٍ من ذلك لم يحبوا أن يكون لهم شريكٌ ولا شبيهٌ فيما علموا ، وتحملهم الغيرة وشره الدنيا على إتلاف كل مَنْ ساواهم أو علم علمهم حتى لا يكون لهم مساوٍ ولا مُشَاكل ، إلَّا الحكيم الكامل ، فإنه إذا رأى رجلاً من أهل الحكمة لم يغيِّره ذلك شيئًا وكان يشتهى لو أن مثله عددٌ كبير ، والحكيم يرى نفسه دون الغاية ، وإن فوق علمه علمًا ، فهو يتواضع ، والجاهل يرى إذا بلغ اليسير أنه قد بلغ الكثير ، وأنه لا غاية بعده ، والحكيم لعلمه أن فوق علمه علمًا فهو أبدًا متواضعٌ لتلك الزيادة ، والجاهل يظنُّ بنفسه أنه قد بلغ الغاية ، فهو متكبِّرٌ أبدًا .. فانظرْ يا أخى كَمْ بين العالم والجاهل ، والمتواضع والمتكبر ، والكاتم لسره ، والفاضح له ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، تم الجزء الثانى من الكتاب المضنون به على العامة ، على غير أهله ، وهو الموسوم بالتقريب فى معرفة سر التركيب .



الاسرار
للطغرائي

بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ ابو اسمعيل الحسين بن علي بن محمد الاصفهاني الطغرائي
الحمد لله [illegible] الاولى الخلد مرتبا وبعد زينك الله الشوق تتبع للتحصيلات الدنيا الازم وبعد فقد
انتهى الى انك قد احزنك ان جمهورا من العوام والرعاع من الخواص قد انكروا الصنعة الشريفة الجليلة من سكنة الدنيا
المحيطة اهلها المحققين بما من الحكم والسر ومفاتح الاخلاق التي يرجعوا اليها الخلجة ومخالفة المنتشر
والتنقص بالحكمة المكتومة التي صنعتها الحكما بالالغاز والقريبة والبعيدة والسهلة والعويصة والحرت الجهال
بما تورده من حصدها والوقيعة في اصحابها حتى دبت لحن بحقيقة المتدبرين في الطارد عليهم والانكار لما شرعوا
في ذكره من تدابيرهم واعمالهم وتخرج اقاويلهم من اقسام العلوم ونطردها جملة من حيز الامكان الى حيز الامتناع
وانك لا تجاسر ان تسم اصحابها المحققين بها والمتطلبين لها جميعا بالحذلقة وتجريهم مجرى اصحاب
في اشتغال الاباطيل وابنا المحالات وتنزل المرغبين فيها منزلة الخائضين والطالبين بمنزلة المحرومين وانك
حجتنا اقوى من اصرار على بطلان هذا النوع من النظر وخلوه من الفايدة توقف حكايات ولا تسلك على ابانة
وتعلم منها بوجود دوان من حسباه منهم في اقسام العلوم فتاحصاه في جملة علوم مختلف فيها كاستخدام
العلويات والسحر والطلسمات وجعلت دعوى اولها انما المشهور البرزين في سائر فنون الحكم كارسطو
وتلامذته ومن بعدهم من الاجلاء بين جل دورهم واخراج شواهد اعمالهم اوكد حجة في انكارها
انوع وقلت انا ان فلانا وفلانا ومن عداهما قدروا على معرفة العلوم الشريفة واستخراج المعاني العويصة
ولم يقدروا على معرفة هذا الفن الذي هو بالاضافة الى العلوم الكلية والجزوية جزء حقير وطرف
يسير وذكرت ان التناقض ظاهر في تصانيف هؤلاء القوم والخلل باد في اصول دعاويهم وفروعها وذلك
مما يشهد عليهم بالسفه والجهل والجرية رايت الاكذب اهله وشوطعوا ما صنعلتهم بالكذب والبهت وما جرب
شيء يخطوه من ظواهر دعاويهم على امر مسطور يندفع فانفتح ما حسبه وانك بعد ما عمت طلبة هذا النوع
بالمقت والتعب خصصتني من بينهم بزيادة تقريع لدي وقلت ما بال من يظن به الاطلاع على الحقائق
والتحري في المعارف يكون بمنزلة من ارتقى بين اليقين المقطوع به والموهوم المشكوك فيه بل ترخ النظر
في انواع العلوم الشريفة والمعارف للتحقيق ويتوفر على مطالعة المشكوك فيه ويضيع زمانه بالدرس له ولا
يتحامى في خرق الاجماع ومجانبة اولي الالباب وسوء المقالة عند الخواص والعوام فقد علم ان من خالف

مخطوطة الأسرار فى صناعة الكيمياء

(نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٦٩)

(الورقة الأولى)

ثم عرفت خبر التركيب [illegible] الاحمر سرا ثم عرفت العقد فقد وصلت حينئذ الى ما وصل اليه الحكماء العارفون فاشكر
الله على ما رزقك من حل الحكمة فان معناه الاسيال اعني اسيال الجسد بالشمس التي هو الصبغ الاحمر والابيض وهو
من خط الذي [illegible] والبدو [illegible] ولهم مزاج بالماء وقالوا العقد والزيبق بجسد المغنيسيا الجسد المغنيسي بما
هو للصبغ الذي [illegible] وهو [illegible] جمع المركب والزيبق هو الصبغ الرفيع الذي يظهر على المركب في اول
التركيب [illegible] اجتمعا [illegible] الاحمر [illegible] الابدان واليابس يعقد الرجراج
والرطب يحل اليابس [illegible] زيبق وكبريت فالزيبق هو الصبغ والكبريت هو الجسد ومثل هذه الاقوال كثير
واما العقد الذي ذكروا فهو ايضا يعرفون به المزاج حتى لا يرى لليابس صورة كما كان ولا للرطب صورة كما
كان بل يكون كل شيء واحدا متلازما بالذات لا يشبه ذلك الشيء احد الابوين الذين هما الاصل [illegible] ويكون
لطيفا [illegible] اصبر على قتال النار لانه من عنصر كريم لا يبيد ولا يستحيل [illegible] على مر الدهور والاعوام
والشهور وان ذاب الجسد ذاب الصبغ معه وان جمد جمد الجسد معه وهذه غاية ما انتهى خاطري اليه
وعلمته بيتك فاتق الله ايها الطالب ودع عنك المراء والمجادلة والمناظرة ان كنت ادركت شيئا فانظر
واستعمل مع ذلك الصمت والوقار فان بذلك تبلغ الى صيانة نفسك وعلمك وان انت طلبت المراء
واتبعت كثرة اهل الجهل [illegible] شيئا من علمك فلا تلومن غير نفسك والله تعالى يخلف عليك
في نفسك غيرها فان الملوك وغيرهم من العوام اذا [illegible] الشيء من ذلك لم يحبوا ان يكون لهم شريك ولا
شبيه فيما علموا [illegible] على اتلاف كل من ساواهم او علم علمهم حتى لا يكون لهم مساوي
ولا مشاكل الا الحكيم الكامل فانه اذا رأى رجلا هو اجل الحكمة لم يدر ذلك شيئا وكان [illegible] لو انه
مثله عدد كبير والحكيم يرى نفسه ابدا دون الغاية وان فوق عنده علما فهو ابدا متواضع والجاهل يرى انه
اذا بلغ اليسير انه قد بلغ الكثير وانه لا غاية بعده والحكيم يعلم ان فوق علمه علما فهو ابدا متواضع لتلك
الزيادة والجاهل يظن بنفسه انه قد بلغ الغاية فهو متكبر ابدا والحكيم لا يرى الا الزيادة في العلم
ما دام في الحيوة والجاهل لا يرى الا الزيادة في الجهل ما دام في الحياة وهذا اذا لم يحصل لجهله [illegible] الا
نفسه فانظر [illegible] العالم والجاهل والمتواضع والمتكبر والكاتم للسر والفاضح له وحسبنا الله
ونعم الوكيل تم الجزء الثاني من الكتاب المعروف [illegible] على غير اهله [illegible] بالتركيب ثم معرفة
سر التركيب الاحمر والله تعالى التوفيق ولله الحمد والشكر دائما ابدا [illegible]

الورقة الأخيرة من المخطوطة

جَلاءُ الخَاطِرِ فى الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ

للجيــــلانى

الإمام عبد القادر الجيلانى واحدٌ من كبار الأولياء فى تاريخ الإسلام ، حظى بمكانةٍ مرموقة عند معاصريه والمتأخرين عليه حتى يومنا هذا[1] ، وكان ابن تيمية يدعوه : شيخ الإسلام .. وقد توفى الإمام سنة ٥٦١ هجرية ، وترك مجموعة من المؤلفات ، أشهرها كتاب « الغُنية لطالبى طريق الحق » وهو عملٌ لطيف ذو نزعة موسوعية وضعه الإمام : استجابةً لبعض الأصحاب الراغبين فى معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسُّنن والهيئات ، ومعرفة الصانع عز وجل بالآيات والعلامات ، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية ، ومعرفة أخلاق الصالحين[2] ..

وقد نالت « الغنية » كل الاهتمام ، فتناقلها النُّسَّاخ ، ثم توالت طبعاتها ، فنُشرت فى مصر والسعودية والعراق عدَّة مرات ، وتُرجمت إلى التركية على يد سليمان جلبى فى كتاب بعنوان : عمدة الصالحين فى ترجمة غنية الطالبين ؛ وصدرت فى جزئين سنة ١٣٠٤ هجرية عن المطبعة العثمانية فى اسطنبول .. كما صدرت فى بغداد سنة ١٩٨٨ ميلادية طبعة محقَّقة - فى ثلاثة مجلدات - قام بها فرج توفيق الوليد .

وللإمام ديوان شعر ، جمعناه وأصدرناه من بضعة أعوام ، وهو يضم أشعار الإمام ومقالاته الذوقية ، وكان ذلك متفرقًا فى مخطوطات كثيرة ، فجاءت طبعتنا المحقَّقة لتجمعه فى

---

(١) بخصوص الإمام عبد القادر الجيلانى ، سيرته وترجماته ، انظر الفصل السابع والعشرين من هذا الكتاب ، حيث نتناول مخطوطة (مختصر غبطة الناظر فى ترجمة الشيخ عبد القادر العسقلانى) .

(٢) الإمام الجيلانى : الغُنية ، مقدمة الكتاب ، ص ٤٨ .

كتابٍ واحد [١].. وبالإضافة إلى « الغُنية » و « الديوان » فقد كانت للإمام الجيلانى مجالس وعظٍ وإرشادٍ وتعليم ، ظلَّ مواظِبًا عليها فترة طويلة ، وقد جُمعت هذه المجالس فى ثلاثة مجاميع ؛ الأول « فتوح الغيب » ويضم ٧٨ مجلسًا وقد وضع عليه ابن تيمية شرحًا لطيفًا ، وهو مطبوع [٢] والثانى « الفتح الربانى والفيض الرحمانى » وفيه نصُّ المجالس التى بدأت يوم الأحد الثالث من شوال سنة ٥٤٥ هجرية ، وانتهت أول رجب سنة ٥٤٦ هجرية ، وهو مطبوعٌ أيضًا [٣].

* * *

أما المجموع الثالث من مجالس الإمام ، فهو المخطوط الذى نتوقَّف عنده الآن ، وهو الأثر الوحيد من آثار الإمام الجيلانى الذى ظلَّ إلى اليوم مخطوطًا لم يُنشر

يحمل هذا المجموع عنوان « جلاء الخاطر فى الظاهر والباطن » ويبتدىء من المجلس المنعقد يوم الجمعة التاسع من رجب ، وينتهى - فى بعض النسخ - بمجلس يوم الرابع والعشرين من رمضان سنة ٥٤٦ هجرية .. وهذا يعنى أنه استكمالٌ لما ورد فى « الفتح الربانى » .

وقد ظل « جلاء الخاطر » مخطوطًا رغم وفرة مخطوطاته التى ذكر المستشرق الألمانى « كارل بروكلمان » بعضها فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » وتوجد منه - علاوة على ذلك - نسخةٌ مخطوطةٌ جيدة بمكتبة السليمانية باسطنبول ، ونسخة أخرى بمكتبة الحضرة القادرية ببغداد ، ونسخة ثالثة بمكتبة جامعة القاهرة .. وسوف نعتمد فيما يلى على النسخة الأخيرة .

(١) نشرنا الديوان بالقاهرة (مؤسسة أخبار اليوم) سنة ١٩٩١ .
(٢) نشره الدكتور محمد رشاد سالم فى : جامع رسائل ابن تيمية (مطبعة المدنى - جدة) المجلد الثانى .
(٣) توجد منه عدة طبعات ، صدرت عن مطبعة الباب الحلبى بالقاهرة .

وإذا تصفحنا مخطوطة « جلاء الخاطر » سنرى كلمات الإمام وهى تشع بالهدى الربانى ، وتأخذ بيد السامع والقارىء إلى طريق الصلاح ؛ فمن كلام الشيخ نقرأ ما يلى :

يا غلام[1] ، إيَّاك والحسد فإنه بئس القرين ، وهو الذى خرَّب بيت إبليس وأهلكه وجعله من أهل النار ، جعله ملعونَ الحقِّ عَزَّ وجَلَّ وملائكته وأنبيائه وخلقه ؛ كيف يحسن بالعاقل أن يحسد ، وقد سمع قوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقول النبى ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وقول بعض العلماء: « لله در الحسد ، ما أعدله ، بدأ بصاحبه فقتله » الحاسدُ معادى الله ، لا تنازعوه فى فعله فى خلقه ، فيقصمكم .

ثم يقول الإمام : إنى زاهدٌ فى كلامى ، وفيكم ، وما فى بيوتكم من بضائعكم وأموالكم وهداياكم ، فما دمتُ على هذا تنتفعون بكلامى إن شاء الله ، مادام عين المتكلم فى عمائمكم وقمصانكم وجيوبكم لا تنتفعون بكلامه ، مادام يثرد على دخانكم ويطمع فيكم لا تنتفعون بكلامه . يكون كلامه قشرًا فارغًا لا لُبَّ فيه (فهو) عظمٌ بلا لحم ، مرارةٌ بلا حلاوة ، صورٌ بلا معنى . كلامُ الطامع لا يخلو من مداهنةٍ ، لا يمكنه المخالفة ، الطامع فارغ كالطمع ، كلها فارغة : الطاء والميم والعين .. فيا عباد الله اصدقوا وقد أفلحتم ، الصادق لا يرجع ، الصادق فى توحيد الله تعالى لا يرجع بقول نفسه وهواه وشيطانه ، الصادق فى محبة الله - عز وجل - ورسوله والصالحين من عباده لا يرجع بقول منافق ممقوت مخذول ، الصادق يعرف الصادق ، والكاذب يعرف الكاذب .

ثم يخاطب الإمام أهل العلم فيقول : يا عالم ، لو كان عندك ثمرة العلم وبركته ، لما سعيتَ إلى باب السلاطين فى حظوظ نفسك وشهواتها ، العالم لا رجلان له يسعى بهما إلى أبواب الخَلْق ، والزاهد لا يدان له يأخذ بهما أموال الناس ، والمحب لله لا عينان له ينظر بهما إلى غيره

(١) الورقة الثانية من المخطوطة ، وما بعدها .

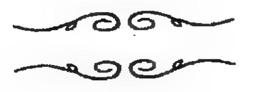
(تعالى) المحب الصادق لو لقى الخلق كلهم ما حَـلاَ له النظر إليهم ، لا ينظر إلى غير محبوبه ، ولا تكبر فى عينىْ رأسـه الـدنيـا ، ولا تكبر فى عينىْ قلبــه الأخـرى ، ولا يكبر فى عينىْ سِرِّه غير المولى.. زعاقُ المنافق من لسانه ورأسه ، وزعـاقُ الصادق من قلبه وسِرِّه ، قلبه على باب ربه عز وجل، وسِرُّه داخلٌ عليه ، لا يزال يصرخ على الباب حتى يدخل الدار .

ثـم يقول الإمام : أنت كذابٌ والله فى جميع أحـوالك ، ما تعـرف الطريق إلى بـاب الله عَزَّ وجَلّ ، كيف تـدلُّ عليه ؟ أنت أعمى ، كيف تقـود غيرك ؟ قد أعماك هواك وطبعـك ومتابعتك لنفسك ومحبتك لدنياك ورياستك وشهواتك ، ويحك ، تحب البقاء فى الدنيا ، وهو شىء لا يقع بيدك ، متى تُهدى إلى باب ربك عز وجل ؟ متى تقدِّم الآخرة على الدنيا ؟ متى تقدم الخالق على الخلق ؟ متى تقـدِّم الصـلاة على دكانك وأربـاحك ؟ متى تقـدِّم السـائل على نفسك ؟ .. كن عاقلاً ، أنت فى هوسٍ باطل ، علانيةٍ بلا سر ، تقدّم إلىّ ما دامت المعاصى على ظاهرك ، قبل أن تصل إلى قلبك فتصيرُ مُصرًّا ، ثم ينتقل الإصرارُ فيصير كُفـرًا ، تـدارك الأمـر ، احفظ بـاليسير الكثير ، تدارك مادام الحبل طـرفه بيدك ، قال النبى ﷺ : التائب مـن الذنب كمن لا ذنب له ، ولو عاد فى اليوم سبعين مرة .

* * *

ولقد كـانت كلمات الإمام الجيـلانى سيلًا ربـانيًا يغسل القلـوب من أدرانها الدنيـوية ، وآتت مواعظه ثمارها .. يقول ابن العماد وهو يعدِّد فضائل الإمام :

تاب على يده معظم أهل بغداد ، وأسلم معظم اليهود والنصارى [١].



(١) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (مكتبة القدس - القاهرة - ١٣٥٠هـ) ١٩٩/٤

مخطوطة جلاء الخاطر فى الباطن والظاهر

مخطوطة جامعة القاهرة رقم ١٥٧٤١ / تصوف

الورقة الأولى

ركبانا، ووردا عطاشا، المتقون يحشرون حشرا، والمجرمون يساقون سوقا
رحم الله عبدا ذكر هذا اليوم وزاحم المتقين اليوم حتى يحشر معهم في ذلك اليوم
يا تارك التقوى، يوم القيامة يحشر المتقون الى الرحمن وفدا ركبانا والملائكة حوله
تتصور اعمالهم صورا، يركبون النجب فيكون نجيبه عمله وخلعته وعمامته
عمله، الاعمال تتصور صورا مليحة وصورا قبيحة، مفتاح التقوى التوبة
والثبات عليها مفتاح القرب من الله عز وجل، هي اصل كل خير وفرعه
ولهذا لا يفتر الصالحون عنها في جميع احوالهم، توبوا يا مذنبين يا عصاة
صالحوا ربكم عز وجل بواسطة التوبة، هذا القلب لا يصلح للحق عز وجل
وفيه ذرة من الدنيا وطفل واحد من الخلق، فان اردتم صحبته
فاخرجوا هؤلاء كلاهما من قلوبكم وهذا لا يضركم فانكم اذا فعلتم
اتتكم الدنيا والخلق وانتم معه على بابه، هذا شيء مجرب قد جربه
الزاهدون التاركون الورعون، يا غلام عليك باخلاص العمل
لله عز وجل في صلاتك وصيامك وحجك وزكاتك وجميع افعالك،
اتخذ عنده عهدا قبل وصولك اليه، ما هذا العهد توحيدا واخلاصا
سنة وجماعة صبرا وشكرا وتفويضا وللخلق رفضا وله طلبا وعن غيره
اعراضا وعليه اقبالا بقلبك وسرك، فلاجرم يعطيك في الدنيا
قربا وفي الكل زهدا وله حبا واليه شوقا، وفي الآخرة يعطيك
من قربه ونعمه ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر
يا غلام

قوله توحيدا بدل من عهدا المنصوب قبله



الورقة الأخيرة من المخطوطة

جَمْهَرَةُ الإِسْلاَمِ ذَاتُ النَّثْرِ والنِّظَامِ

للشيزرى

فى الفترة التى خضعت فيها البلدان العربية والإسلامية لسيطرة المستعمر الغربى ، تسرَّبت ذخائر التراث العربى المخطوط من بلادنا إلى مكتبات البلاد الاستعمارية ، واستقرت المخطوطات العربية فى مكتبات البلاد الأوروبية إلى اليوم .. ومن هذه المخطوطات : جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام ، للشَّيْزرى .

* * *

مؤلِّف المخطوطة هو « أمين الدولة أبو الغنائم مسلم بن محمود الشَّيْزرى »[1] ، أحد أدباء العرب الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ببلاد اليمن[2]. والمخطوطة عبارة عن مختارات أدبية من النثر والشعر (النظم) العربى ، جمعها الشَّيْزرى وانتقاها من التراث السابق عليه .. والقيمة الحقيقية لهذه المخطوطة تتمثل فى احتفاظها ببعض النصوص والقصائد التى أصولها اليوم ضائعة ، ولم نعد نعرفها إلَّا من خلال هذه « الجمهرة » . وكان بعض المستشرقين قد أشار إلى أهمية هذه المخطوطة التى توجد منها نسخةٌ وحيدة فى العالم ، توجد الآن فى مكتبة جامعة « ليدن » بهولندا ، ولسوف نتصفح معا أوراق هذه النسخة الفريدة، لنتعرف على مشتملات تلك « الجمهرة » التى تقع فى جزأين .

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٢٩٨ - كشف الظنون لحاجى خليفة ١١٢٥ معجم المؤلفين لكحالة ١٢/ ٢٣٣ - Brockelmann 1,460

(٢) ذكر عمر كحالة أن فى معجمه أن وفاة الشيزرى كانت سنة ٦٢٦ هجرية .

يقول الشَّيْزرى فى مقدمة الكتاب : إن الجماهير الأولية دوَّنت وجمعت من أشعار الجاهلية ، نظمًا بلا نثر ، وقصائد عارية من كل خبرٍ وذكر ، وقد جمعتُ بينهما فى هذا الكتاب ، من محاسن فنون الآداب ، ستة عشر كتابًا ، فى كل كتاب عشرةُ أبواب ، خمسةٌ نظم وخمسةٌ نثر ، فالجميع مائة وستون بابًا ، نصفها نظمٌ ونصفها نثرٌ من حديثٍ نبوى وخطبةٍ ورسالةٍ وحكايةٍ من كل نوع ، وكلهم إسلاميون مُجيدون محقِّقون .. وقد سميته جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام ، وربما أتى باب النثر من جنس باب النظم فى معناه ، فيكون تأكيدا له ، وقوة فى المعنى ، وربما أتى بابُ النظم من فَنٍّ والنثر من فَنٍّ آخر ، فيكون زيادة فى العدد .

وأول كُتُب « الجمهرة » فى المدح ، وقد استهلَّه الشَّيْزرى بقصيدة الأعشى فى مدح رسول الله ﷺ وهى قصيدةٌ مطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَكَ أَرْمَدا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدا

وأخذ الشَّيْزرى يورد كُلَّ بيت ، ثم يعقِّب عليه بشرحٍ مفصل، ليبدأ بعد ذلك فى ذكر بعض الأخبار النبوية والأحاديث الشريفة فى فضل اسم محمد وأحمد ، ويورد مختارات شعرية فى فضل آل البيت والصحابة .

* * *

ومن النصوص الطريفة التى وردت بالمخطوطة ، تلك الخطبة التى ارتجلها واصلُ بن عطاء فى مجلس الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكان واصل يلثغ فى حرف الراء ، فإذا به يتجنَّب جميع الألفاظ التى يرد فيها هذا الحرف ، قائلاً : « الحمد لله أهل الحمد .. الذى ملأت كل شىء عظمته ، ووسع كل شىءٍ خلقه ، ونفذ فى كل شىءٍ علمه ، ومضى فى كل شىءٍ حُكمه ، فلا يعجزه شىءٌ طلبه ، ولا تخفى عليه خافيةٌ .. ومَن اهتدى ، ألهمه الله هداه ، وآتاه تقواه ، فاجعل همَّك فى الباقى عليك ولك ، لا فى الدنيا العَزُوف عنك ، وَقَوِّ أَمَلَك فى الباقية دون الفانية ، وليكن عملك لله لا الناس .. وأوصيكم إخوانى جميعًا ، ونفسى ، بتقوى الله وحده ،

ولزوم طاعته والخيفة من عقابه ، وتتّقوه حَقَّ تُقاته ..فالله الله ، عباد الله ، فى أنفسكم ؛ قبل أن لا ينفع نفساً إيمانُها ولم تكن آمنت بـه من قبل الندامـة ، فكم ثَمَّ من عينٍ باكيـة لا ينقطع دمعها ، وأُذنٍ مصمـوخة لا يـؤب سمعهـا ، وقدمٍ مسحـوب بها ، وقلبٍ معلّقٍ بنيـاطه ، ومنـادٍ لا يُجاب نـداؤه، وداعٍ لا يسمع دعاؤه ، وحُجَّـةٍ لايتتفع بها أهلهـا ؛ ثم الخلود إمـا فى جنات النعيـم أو العـذاب الأليـم الـذى جعلـه الله نكـالاً لمـن عصـى ، أعـوذ بـالله من سخطه ، وبعفـوه من عقابـه ، إنه سميـع عليـم ، ذلك أهـدى سبيلا..وصلى الله على سيدنـا محمد وعلى آله وسلم، وتجـاوز عَنَّا وعنكم ، وعفا لنا ولكم عما سلف منا ومنكـم وجميـع المؤمنـين، إنه سميـع الدعاء »

وهى خطبةٌ طويلة ، أوردهـا الشَّيْزرى كاملة ، ولم يرد فيها حـرفُ الراء مطلقًا ، مثلما الأمر فى بقية خطب واصل بن عطاء الأخرى (١).

وفى كتاب « العتـاب » نقرأ هذه القصيـدة للحسين بن على بن محمد القُمِّى وهـو يعاتب جَيّاشًا باليمن (من بحر الطويل) :

أَذَاعَ لِسَـــانِى مَـــا تُجِنُّ الأَضَـــالِعُ ... وَأَعْـــــرَبْنَ عَمَّا فِى الضَّمِيرِ المَدَامِعُ

وَمَـا أَنَـا بِـالْجَلْـدِ الفُـؤَادِ عَلَى الجَفَـا ... وَإِنْ كُنْتُ جَلْـــدًا وَالخُطُـوبُ قَـوَارِعُ

وَقَـدْ كُنْتُ أَرْجُـو أَنْ أَكُـونَ مُشَفَّعًـا ... لَـدَيْكَ ، فَهَلْ لِى عِنْـدَكَ اليَـوْمَ شَـافِعُ

فَأَصْبَحْتُ أُغْضِى الطَّـرْفَ فِى كُـلِّ مَجْلِسٍ ... وَأَكْتُمُ أَمْـرِى وَهْـوَ فِى النَّـاسِ ذَائِعُ

أُسَـايِـرُ مَنْ سَـايَـرْتُ وَالْخَطْـوُ قَـاصِرُ ... وَأَلْحَظُ مَنْ لاَحَظْتُ وَالطَّـرْفُ خَـاضِعُ

وَأُظْهِـــرُ بِشْرًا لِلْجَلِيسِ وَغِبْطَـــةً ... وَبَيْنَ حَشَـايَـاىَ الشِّفَـارُ القَـوَاطِعُ

أُعَلِّـلُ نَفْسِى كُلَّ يَـــوْمٍ وَلَيْلَـــةٍ ... لأَنْظُـرَ فِى الـوَقْتَيْنِ مَـا أَنْتَ صَـانِعُ

---

(١) واصل بن عطاء هو مؤسس فرقة المعتزلة الشهيرة بمنهجها العقلى فى فهم قضايا الدين . يقول الذهبى فى (سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٦٤) : واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد رأسا الاعتزال ، طرده ، الحسن - البصرى - عن مجلسه لما قال : الفاسق لا مؤمن ولا كافر .. مات سنة ١٣١ هجرية .

راجع ترجماته فى : معجم الأدباء ١٩ / ٢٤٣ - وفيات الأعيان ٦ / ٧ - شذرات الذهب ١ / ١٨٢ .. إلخ .

وَمَا أَنْتَ إِلَّا البَدْرُ أَظْلَمَ مَنْزِلِي ... وَكُلُّ مَكَانٍ نُورُهُ فِيهِ سَاطِعُ

أَتَرْضَى ، وَحَاشَا المَجْدُ ، أَنْ يَشْبَعَ الوَرَى ... جَمِيعًا ، وَيُمْسِي ضَيْفُكُمْ وَهْوَ جَائِعُ

ومن الأبيات الشعرية البليغة – فى العتاب – قول أبى بكر محمد (المعروف بابن اللبَّانة) من قصيدة طويلة (من بحر الكامل) :

ضَحِكَ الرَّبِيعُ بَحَيْثُ تَبْكِي الأَرْبُعُ ... لَمَّا بَكَى لِلْغَيْثِ فِيهَا مَدْمَعُ

وَعَلَى فُرُوعِ الأَيْكِ شَادٍ يَحْتَوِي ... طَرَبًا لِآخَرَ تَحْتَوِيهِ الأَضْلُعُ

يَا أَيُّهَا البَدْرُ الَّذِي قَدْ كَانَ لِي ... حَوْلَيْهِ فِي أُفُقِ السَّعَادَةِ مَطْلَعُ

وَالرَّوْضَةُ الغَنَّاءُ كُنْتُ أَرُودُهَا ... وَاليَوْمَ عَنْ شَمِّي شَذَاهَا أُمْنَعُ

مَا كَانَ أَرْفَعَ مَوْضِعِي إِذْ كَانَ لِي ... فِي جَانِبِ العَلْيَاءِ عِنْدَكَ مَوْضِعُ

أَيَّامَ أَطْلُبُ مَا أَشَاءُ فَيَنْقَضِي ... وَزَمَانَ أَدْعُو مَا أَشَاءُ فَأُسْمَعُ

عَهْدٌ مَضَى عَقِبَ الصِّبَا لَكِنَّهُ ... عَهْدٌ – إِذَا مَا شَاءَ وَصْلُكَ – يَرْجِعُ

* * *

ولم يفت الشَّيْزرى أن يتوقف عند الأراجيز ، فهو يعقد عشرة أبواب فى الأراجيز التى صاغ فيها علماءُ العرب معارفهم .. وفى هذه الأبواب : أُرجوزة فى نظائر القرآن للسَّرَّاج – أُرجوزة فى الفرائض لابن المتقنة – أُرجوزة للمؤلِّف فى التاريخ – أُرجوزة عبد الله بن رؤبة المعروف بالعَجَّاج .. وفى هذا الجزء من المخطوطة ، وضع الشَّيْزرى « رسالة أفلاطون فى وصف النساء » وهى من ترجمة الحكيم أبى بكر الرازى [1]. ومما جاء فى الرسالة :

(١) هو الطبيب الفيلسوف المشهور ، أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (المتوفى سنة ٣١١ هجرية) له فى الطب موسوعة « الحاوى » وله فى الفلسفة آراء مهمة .

« اعلمْ أن اعتدال الخلقةِ دليلٌ على صحةٍ فى الطبيعـة وبُعْدٍ عن الآفة واعتدالٍ فى المزاج .. فأما الطـويلة جدًّا والقصيرة جدًّا فليست حـالتها سواء ، فالطويلـة جدًّا التى ليس بها سِمَنٌ ؛ فتورٌ ، ضعيفـةُ الشهوة ، قليلـةُ الولـد ، بطيئةُ الإنـزال ، وأما القصيرة جـدًّا التى لا هزال بها ولا سِمَن ، فولودٌ .. وأما الحمراء فأشدُّ منها شهوة وأقل ماءً ، وأما السمراء فمعتدلة » .

بعد أن تفصِّل الـرسالـة هذه الأمـور ، يضع أفلاطـون رأيه فى النسـاء قائلاً : « واعلمْ أن النساء .. الصبرُ عنهنَّ مرفوعٌ ، والجزعُ عليهنَّ غالـبٌ ، لسخف العقول ، وقلَّة التجارب ، وقلّة النظـر فى العواقـب ، وإنما ساعتهن هى التى هُـنَّ فيها .. والعـاقلـةُ منهن مخدوعـةٌ ، فلاطفهـا واخدعها ، ولا يكـون للرجال وصلةٌ إليها ، وإن صغـر شأنهم وحقر أمرهم ، فإن المرأة ليس من شأنها الاختيار ، إنما هُنَّ لمن دنا منهن ، وتلطَّفَ لهواهُنَّ ؛ إلاَّ مَنْ أدركته منهنَّ عصمةُ التقوى أو استحياءٌ ، فاجعلْ أوثق الأشياء - بعد الاستعصام بالله - أن تُخيفها بما تخاف ، فإن استطعتَ أن تراه ولا يراهـا ، فافعلْ .. واحذرْ ذوات التجارب من النسـاء ، والبذيئـات من الإمـاء ، وعليك بالأبكـار العـزائز .. وتوخَّ رضـاها ، وأرها أن هـواك هواها ، وأنها أثيرةٌ عنـدك وأحبُّ إليك من سـواهـا ؛ فإنك إذا فعلت هـذا ، صفا لك حُبُّهـا ، وتعطَّف عليك قلبُهـا ، والتمستْ هـواك ، وطلبتْ رضاك ، واعلم أن المرأة كالصبى ، يُرضيها اليسير » .

ولا شك فى أن نسبـة هذه الـرسالـة لأفـلاطون ليست ثـابتة ، والأرجح أنها لأحـد حكماء اليونان .. والكثير من الآراء الـواردة فى الرسالة يحتاج لمراجعةٍ وإعاداة تقييـم . لكنها فى النهاية لا تخلو من طرافـة ، وتعبر عن وجهة نظرٍ قديمةٍ فى النساء .. وجهة نظـرٍ يمكن أيضًا أن تكون معاصرة ! .

* * *

ثم يعقـد الشَّيْزرى عشرة أبـواب « فى الشكوى » منهـا خمس قصـائد : قصيدة كتبهـا من الحبس عبدُ الملـك بن إدريس الأندلسى إلى ولده - قصيـدة للسَّرى الرَّفَّـاء كتبها يشكـو سرقة شعـره - قصيدة للسُّلمى يشكـو حـاله وسقطـةً فى سُكـره - قصيدة لعمارة اليمنى يشكـو إلى

صلاح الدين الأيوبى - قصيدة فى الشكوى لأبى إسحاق الصابىء[1] ، وبين كل قصيدتين ، وضع الشَّيْزرى رسالةً نثرية من روائع أدب الشكوى .

بعد ذلك تقابلنا نصوص « التهانى » الشعرية والنثرية .. ثم يختم الشَّيْزرى مخطوطته بنصوص المُثلَّث والمخمَّس ، والمُثلَّث فى الشعر هو الالتزام بحرف الرَّوِىّ فى ثلاثة أشطر من بحرٍ عروضِى كامل ، وهو فى النثر مراعاة الحرف الأخير فى ثلاثة عبارات متتالية ، كما يظهر من قول الإمام على بن أبى طالب فى بعض خطبه التى ذكرها الشَّيْزرى : الحمد لله مُبتدىء حقائق الحمد ، وأبدى سوابقه ، ومستهل طرائقه ، وموئل لواحقه ، أحمده على مظاهر نعمه ، وأثنى عليه لجلاله وكرمه ، وأعوذ به من سطواته ونقمه .. إلخ .

والتخميس يسير على منوال المثلث ، ولكن أشطره الشعرية خمسة ، وكذلك عباراته المسجوعة على نفس العدد .. وفى عصر الشَّيْزرى ، والعصور اللاحقة عليه - حتى وقت قريب شغف الشعراء بتخميس وتثليث القصائد المشهورة .

* * *

وبعد .. فها هو مخطوطٌ فريد فى الأدب العربى ، لا يزال ينتظر أن تمتد إليه أيدى المحققين ، فتنشره على الناس مطبوعًا مضبوطًا محقَّقًا ، حتى يمكن أن نتعرف على المزيد من روائع تراثنا العربى ، ونقرأ تلك المختارات الأدبية التى جمعها الشَّيْزرى من التراث الممتد قبله خلال ستة قرون من تاريخ الأدب العربى (*).



(١) الصابىء نسبة إلى (الصابئة) وهى فرقة تعبد الكواكب .

(*) قام - مؤخراً - باحثٌ مصرى بنيل درجة الماجستير من قسم اللغة العربية بكلية الآداب (جامعة طنطا) عن تحقيق الجزء الأول من مخطوطة الشَّيْزرى ، ولم يُنشر هذا الجزء المحقَّق ، ولا يزال الجزء الثانى من الكتاب ينتظر التحقيق والنشر والدراسة .



الجزء الأول من جمهرة الإسلام

ذات النثر والنظام

تأليف الشيخ الفقيه أمين الدين أبي الغنائم مسلم بن محمود الشيزري

وهو ستة عشر جزءاً وهذا

منها ثمانية كتب

الكتاب الأول في المدح

الكتاب الثاني في الغزل

الكتاب الثالث في الافتخار

الكتاب الرابع في الرثاء

الكتاب الخامس في الهجاء

الكتاب السادس في الزهد

الكتاب السابع في العتاب

الكتاب الثامن في المجون

برسم الخزانة السعيدة السلطانية الملكية المؤيدية المظفرية ... ملكها

يتلوه الجزء الثاني منه وفيه أيضا ثمانية كتب وبه تمام الكتاب

نسخة ليدن الفريدة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه استعين

الكتاب التاسع في الاراجيز

عشرة ابواب خمسة نظم وخمسة نثر

قال مؤلف الكتاب مسلم بن محمود الشيزري قد اودعت هذا الكتاب عشرة ابواب
كل باب منها علم قائم بذاته [illegible] مطلوب لصفاته الاول في نظائر القرآن الثاني في
ذكر الخط والقلم الثالث ارجوزة في علم الفرائض لابي عبد الله محمد بن الحسين الرخجي
المعروف بابن المتقنة الرابع رسالة [illegible] في وصف الماء
الخامس [illegible] مؤلف الكتاب [illegible] عليه السلام [illegible] الملك المظفر [illegible] يوسف
بن [illegible] مطالع [illegible]
السادس [illegible] في علم جواهر [illegible] السابع [illegible]
[illegible] الثامن في منافع [illegible] جمع مؤلف الكتاب من [illegible]
[illegible] التاسع ارجوزة [illegible] في فن اللغة العربية [illegible]
العاشر في الباه [illegible] بن زكريا الرازي وهذا الباب لم [illegible]
[illegible] ومضاره ومداواته والاعانة عليه بما هو مثبت ان شاء الله

الباب الاول في نظائر القرآن

لابي جعفر بن احمد السراج القاري

قال مؤلف الكتاب مسلم بن محمود الشيزري [illegible] الشريف [illegible]
ابي البركات بن احمد الهاشمي العباسي [illegible] يوم [illegible]
[illegible] في سنة [illegible] وخمسمائة [illegible] الاجل العالم ابو [illegible] محمد بن
عبد الباقي بن احمد بن سلمان المعروف بابن الخطيئة قال [illegible] الامام العالم ابو محمد
جعفر بن احمد بن الحسين السراج القاري [illegible] وهي ارجوزة [illegible]

[illegible]

الباب الرابع رسالة افلاطون في وصف النسا

ورقة من المخطوطة

(رسالة أفلاطون فى وصف النساء)

الـدّرَجَـاتُ المعْـرُوفَـةُ

لبَنِى مُوسَى بن شَاكِـر

عنوان هـذه المخطوطـة ، المحفوظة بمكتبـة « نور عثمانيـة » تحت رقم ٢٨٠٠ ، جاء على الصفحة الأولى منها كـالتالى : كتاب الـدَّرَجَات المعـروفة لبنى مـوسى بن شاكـر ، فى طبائـع البروج ، منقـولاً من حكماء الهنـد وكتبهم المصحَّحـة ، ومعـرفـة المواليـد فى درجـاتها وطبـائع الكواكب السبعة وخواصها ، والحكم على ذلك درجةً درجةً على التمام والكمال .

والكتاب - كما نرى - يحمل عنوانًا طويلاً ، هـو بالأحرى بيانٌ لما تشتمل عليه المخطوطة من موضـوعات .. وهو ليس من تأليف شخصٍ واحـدٍ ، بل جماعة ، هم (بنو مـوسى) الذين كانوا من الأسر العربية الشهيرة فى مجال العلم ، فلنتوقف أولاً عند هذه الأسرة العلمية .

* * *

عرف التراث العربى العـديد من الأسر التى اشتغل أفرادها بالعلم ، وكـانوا يشكِّلون فيما بينهم ما يشبه المدرسة الواحدة ، فمنهم أسرة « بَخْتَيْشُـوع » وكان جدهم جبريل طبيبًا للخلفاء العبـاسيين ، فصار أولاده وأحفـاده من بعـدهم ، يمثلـون حلقةً متصلـة من حلقــات الطب العربى .. وعلى الجانب الآخر من العـالم العربى الإسلامى ، نجد أسرة طبيـة أخرى ، هم « بنو زُهْر » الـذين اشتغلوا أيضًا بالطب ، وكـان منهم مشاهير الأطباء فى الأندلس وبـلاد المغرب . وهنـاك أيضًا جماعـة العِبَادِيين الـذين اشتهرت منهم فى مجال الترجمة أسرةُ حنين بن إسحـاق ، وابنه إسحاق ، وابن أُختـه حُبيش بن الأعسم ، وقد قامت هـذه الأسرة - أيام خـلافة المأمون - بنقل ما لا حصر من التراث العلمى اليونانى إلى اللغة العربية ، وكان المأمون يزن لهم كُلَّ كتابٍ يترجمونه بالذهب ، تشجيعاً منه للعلم .. كان هذا فى زماننا القديم .

وأُسرة « موسى بن شاكر » تخصَّصت فى الهندسة والحيل (الميكانيكا) والمساحة والفلك والفيزياء ، وكان رب هذه الأسرة « موسى »[١] من منجمى المأمون وندمائه ، وقيل : إنه كان فى بداية أمره قاطعًا للطريق ، مُغيراً على القوافل بالليل ومتظاهراً بالتقوى وملازمة المسجد فى النهار[٢]. ويبدو أنه اهتدى على يد الخليفة المأمون ، وصار من خلصائه .. وقد عهد « موسى » بأولاده الثلاثة إلى المأمون ، وأوصاه برعايتهم حين حضره الموت المبكر ؛ فقام المأمون برعاية أبناء موسى بن شاكر (محمد ، أحمد ، الحسن) فخرجوا - كما تقول المصادر التاريخية[٣] - نهايةً فى علومهم ، وهكذا صار موسى وبنوه ، من أهم مظاهر الإسهام العربى فى مجال العلوم ، إذ برعوا فى الأرصاد الفلكية والهندسة ، وتركوا مجموعة من المؤلفات التى نالت شهرة كبيرة مثل : كتاب الحيل (مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة) - كتاب حركة الفلك - كتاب الآلات الحربية - كتاب الشكل المدور ، المستطيل[٤]..ولهم أيضًا كتاب مشهور ، ترجمه جيرارد

---

(١) توفى سنة ٢٥٩ هجرية .. على أرجح الأقوال .

(٢) هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ١١٣ .

(٣) أسهبت زيجريد هونكه فى كتابها : شمس العرب (الترجمة العربية - دار الآفاق ، بيروت - ص ١١١ : ٢١١ فى الكلام عن بنى موسى بن شاكر ، وذلك بأسلوب أدبى شائق ؛ أما عن موسى بن شاكر و أبنائه فى المصادر العربية ، فيمكن الرجوع إلى :
الفهرست لابن النديم ص ٣٣٠ - أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٠٨ .. وقد نقل القفطى كلام ابن النديم وزاد عليه أشياء ، فقال : موسى بن شاكر ، مقدَّم فى علم الهندسة هو وبنوه محمد بن موسى وأحمد أخوه والحسن أخوهما ، وكانوا جميعًا متقدمين فى النوع الرياضى وهيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وكان موسى ابن شاكر هذا مشهورًا فى منجمى المأمون ، وكان بنوه الثلاث أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ، ولهم فى ذلك تآليف عجيبة تُعرف بحيل بنى موسى ، وهى شريفة الأغراض عظيمة الفائدة مشهورة عند الناس ، وهم ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب ، وقد أتعبوا نفوسهم فيها وأنفذوا إلى بلاد الروم مَنْ أخرجها إليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السَّنى (المكافأة المجزية) فأظهروا عجائب الحكمة .

(٤) فى الفهرست : لبنى موسى من الكتب ، كتاب فى القرسطون (الميزان ذو العاتق) كتاب الحيل لأحمد بن موسى) ، كتاب الشكل المدَوَّر المستطيل للحسن بن موسى ، كتاب حركة الفلك الأولى - مقالة لمحمد ، كتاب المخروطات ، كتاب ثلث (المثلث) لمحمد ، كتاب الشكل الهندسى الذى بيَّن جلينوس أمره لمحمد ، كتاب الجزء لمحمد ، كتاب بين فيه بطريق تعليمى ومذهب هندسى أنه ليس فى خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة - لأحمد بن موسى ، كتاب مساحة فى أولية العالم لمحمد ، كتاب المسئلة التى ألقاها على سَنَد بن على - أحمدُ بن موسى ، كتاب على مائية الكلام لمحمد ، كتاب مسائل جرت بين سند وأحمد ،كتاب مساحة الأُكر (الكرة) وقسمة الزوايا بثلاث أقسام متساوية ، ووضع مقدار بين مقدارين لتتوالى على قسمة واحدة.. (انظر : ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٠) .

الكريمونى إلى اللاتينية فى مطلع الحضارة الأوروبية الحديثة ، بعنوان : كتاب الإخوة الثلاثة فى الهندسة Liber Trium Fratium de Geometria وقد استخدمته أوروبا مدةً طويلة ، فأسهم فى تطور الهندسة الأوروبية [(١)].

وقد حصر المشتغلون بتاريخ العلم ، بعض إسهامات بنى موسى بن شاكر فى العلوم ؛ فمن ذلك : اختراع ساعة نحاسية دقيقة ، اختراع تركيب ميكانيكى يسمح للأوعية أن تمتلىء تلقائيًّا كلما فرغت ، وضع نظرية لا تزال تستخدم حتى اليوم فى عمل النافورات (نظرية ارتفاع المياه) ، قياس محيط الأرض على نحو لا يختلف كثيرًا عن محيطها المعروف اليوم ، دراسة الأشكال الإهليلجية - الدوائر المتداخلة - وابتكار طرق لرسمها ، تأسيس (علم طبقات الجو) لأول مرة فى التاريخ ، تطوير (قانون هيرون) لمعرفة مساحة المثلث .. كما أسهم بنو موسى بن شاكر فى بناء الحضارة العلمية العربية حين أرسلوا البعثات إلى بلاد الروم لإحضار كتب العلوم اليونانية ، وكلَّفوا النقلة والمترجمين تعريبها ، ويقال: إنهم كانوا ينفقون على إحضار الكتب وترجمتها العربية : خمسمائة دينار كل شهر .

وفى كتب أبناء موسى بن شاكر وصفٌ دقيق للآلات الموسيقية الذاتية الحركة (الأتوماتيكية) كالناى ، ووصف لآلات صائتة تنطلق منها أصواتٌ معينة كلما ارتفع مستوى الماء فى الحقول إلى حد معين ، إلى جانب مائة تركيب ميكانيكى من اختراعهم [(٢)].

* * *

وفى (كتاب الدرجات المعروفة ..) يقدِّم الإخوة الثلاثة نصًّا مهمًّا فى الفلك والرياضة .. وتبدأ مقدمة المخطوطة بما يلى : « إن القدماء من أهل اليونانية تسلَّموا علومهم التجريبية من

---

(١) د/ حسان حلاق : تاريخ العلوم عند العرب (مع د/ ماهر عبد القادر) ص ٢١٧ .

(٢) بخصوص الإسهامات العلمية لبنى موسى بن شاكر ، وراجع :

- د/ قدرى طوقان : تراث العرب العلمى ص ١٦٤ .
- د/ محمد عبد الرحمن مرحبا : الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب ص ٣٦٨ .
- د/ أحمد عبد الحليم عطية : دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ٢٧١ .

الهند[1] .. ولما نظرنا فى الكتب الموجودة إلى الآن ، فى معرفة أحكام النجوم ، وجدنا أكثرها حايداً عن الصواب وعن ما سطَّره أولوهم ، ووجدنا لقدمائهم كتبًا قد هجرها المتأخرون لجهلهم كيفية استعمال ما فيها ، وبُعدها عن أذهانهم ، فتكلَّفنا التعب الشديد فى نقله إلى لغة العرب ، واستعنَّا فى ذلك بأفضل ما وجدناه من الناقلين (المترجمين) فى زماننا ، واجتهدنا فى تهذيب العبارة وإصلاحها » .

وفى مقدمة المخطوطة نكتشف أننا بصدد ثلاثة كتب وليس كتابًا واحدًا ، يقول الإخوة : « ووجدنا لهم ثلاثة كتب ، أحدها فى طبائع الدرج التى تسمى المتحيِّرة - كالمشترى والزهرة .. إلخ ؛ وهو هذا الكتاب . والثانى كتابٌ كبير ، وهو إثنتا عشرة مقالة فى طبائع الدرج وخواصها إذا دخلتها الكواكب العظيمة .. ووجدنا هذا الكتاب قد اختلَّ نظمه وتخلَّط وضعه ، فأصلحناه إصلاحا يشهد لنفسه . والكتاب الثالث فى كيفية حال البروج فى درج البروج مع اتصالات الكواكب المتحيرة[2] .. وهذا الكتاب لم نجده كاملاً ، وقد نقلنا ما وجدناه منه وأصلحناه » .

نحن إذن أمام مخطوطة يحاول مؤلفوها وضع موسوعة فلكية تسعى لإحياء العلم القديم ، الهندى واليونانى ، وتقديمه فى صورة منقَّحة محرَّرة من الأخطاء ، وهم يقولون للقارىء فى بداية هذه الموسوعة : « متى رأيت قضية من قضايا هذا الكتاب لم تصح ، فاعلم أن الراصد قد أخطأ فى الدرجة ، إما بنفسه أو بآلته التى رصد بها .. وهذا معنى جليل فى نفسه ، دقيق فى نيله

(١) ساد الاعتقاد أن علوم العرب مستفادة من علوم اليونان ، وهى مسألة تعبر عن جزء واحد من الحقيقة - لكنها سادت بفعل الكتابات الاستشراقية - لكن واقع الأمر أن العرب والمسلمين استفادوا ، كثيرًا ، من حضارات الشرق (فارس ، الهند) إلى جانب العلم اليونانى .
واللافت للنظر أن بنى موسى بن شاكر انتبهوا إلى أن « العلوم التجريبية » بالذات ، استفادها اليونانيون من العلم الهندى ، ذلك أن العقلية اليونانية كانت تزدرى العلم التجريبى ، وتراه أقل مرتبة من العلوم النظرية والفلسفية ، وهذا بخلاف العقلية العلمية العربية التى أسهمت إسهامًا كبيرًا فى تأسيس المنهج التجريبى .. قبل أوروبا بقرون .

(٢) الكواكب السيارة .

وإدراكه ، وينبغى أن لا تهمله ، فإنه هو الصناعة نفسها ، وهو الذى يحتاج إلى العلم أولاً ، ثم إلى الدربة»[١]ولا يخلو الكتاب من آثار علم التنجيم ، الذى هو الشِقُّ الآخر من علم الفلك عند القدماء ؛ إذ كان للفلك عندهم أقسام ، الأول (علم الهيئة) وهو دراسة الأشكال والهيئات الفلكية ، والثانى (علم التنجيم) وهو الاستدلال بأحوال البروج على وقائع الزمان[٢].. ولقد تخلَّص العقل الإنسانى من التنجيم - خلاصًا غير تام - أما الجانب الخاص بهيئة الأفلاك ورصدها ، فهو الجانب الذى تطوَّر اليوم تطوراً كبيراً ، وصار من منجزات العلم المعاصر .

* * *

وبعد .. فلقد توفَّر على دراسة مؤلفات (أولاد موسى بن شاكر) جماعةٌ من المستشرقين الغربيين ، أمثال : دونالد هيل ، فيدمان ، هونكه ؛ وغيرهم . فأكدوا أهمية هذه الأسرة فى تطوُّر العلوم الإنسانية ، أفلا يصحُّ بعد هذا ، أن يتوفر بعض الباحثين العرب المعاصرين لدراسة هذه الحلقة المُهِمَّة فى تاريخ العلم الإنسانى ، وألاّ يجب أن يلتفت المُحَقِّقون العرب المعاصرون إلى كتبهم فينشروها .. أم أنهم ينتظرون باحثًا غربيًا يقدِّم لهم تراث أجدادهم ؟ .



(١) الدربة : التجربة .
(٢) وهناك - أيضاً - من التخصصات الفلكية : الرصد - عمل التقاويم والأزياج والكرات الفلكية .. إلخ .



كتاب
الدرجات المعروفة ببني موسى بن
شاكر في طبائع البروج منقولة
من حكماء الهند [illegible] الصحيحة ومعرفة
المواليد في درجة [illegible] الكواكب
السبعة [illegible] والحكم على ذكر درجة
درجة على التمام والكمال [illegible]

صفحة العنوان

مخطوطة مكتبة « نور عثمانية رقم ٢٨٠٠ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الورقة الأولى من المخطوطة

الورقة الأخيرة

دِيوَانُ ابنِ الصَّبَّاغِ الجُذَامِى

لابْنِ الصباغ

صَبٌّ صَبَابَتُهُ شُهُودْ | وَقَتْلُهُ فِيكُمْ مُبَاحْ
مُنَاهُ لَو أَسْعَفَ التَّمَنِّى | مِنْ كَاسِرِيهِ ، جَبْرُ الجِنَاحْ

* *

قَدْ فَاقَ فِى وَجْدِهِ الوُجُودا | وَلَجَّ فِى لُجَّةِ الغَرَامْ
فَصَارَ فِى حُبِّهِ فَرِيدا | وَقَامَ فِيهِ أَعْلَى مَقَامْ
بِنَفْسِهِ جَدَّ أَنْ يَجُودا | فَلاَ اعْتِرَاضَ وَلاَ مَلاَمْ

* *

دَعُوهُ فَالنَّوْمُ لاَ يُفِيدُ | مَا أَنْ عَلَى مُغْرَمٍ جُنَاحْ
جَنَانُهُ بَاتَ فِيهِ يَجْنِى | فنونَ أَفْنَانِ الافْتِضَاحْ

* *

لاَ تبْعِدُونى فَفِى البُعَادْ | وَالصَّدُّ مَا يَصْدَعُ الفُؤَادْ
بِكُمْ وَحَقِّ الهَوَى أُنَادْ | إِذْ لَيْسَ لِى غَيْرُكُمْ مُرَادْ

وَلْهَانُ أَشْكُـــو بِكُلِّ وَادْ مُضْنَـاكُمْ بِـالْبُعَـادِ بَـادْ

* *

لَـوْ مَا عُـدْتُ بِالْمُنَى السُّعُـودِ مَـا كَـانَ لِي عَنْكُمْ بَـرَاحْ

لَكِنْ مَـا شِمْتُمُـوهُ مِنِّى هُــوَ الْمُنَى وَالاقْتِرَاحْ

أَنْفَـاسُ رِيحَانِـهِ ارتيـاحْ نَمَّتْ بِمَا بِي مِنَ الـولـوعْ

قَـدْ حَـانَ فِي حَيِّكَ افْتِضَـاحْ وَخَـدَّدَتْ خَـدِّىَ الـدُّمُـوعْ

فَيَـا لِسَكْـرَانَ فِيكَ صَـاحْ أَشْـوَاقُـهُ تُلْهِبُ الضُّلُـوعْ

* *

وَلاَ وُصَـــولٌ وَلاَ وُرُود يُعِيــدُ لَيْلِي بِكُمْ صَبَـاحْ

يَـا صَاحِ دَعْنِى وَخَلِّ عَنِّى فَلَسْتُ أَصغـى لِقَــوْلِ لاَحْ

* *

يَـا حسْرتـا قَـدْ مَضَى وَوَلَّى عُمْـرى وَمَـا مِنْكُمْ نَصِيبْ

أورثنى الْهَجْـرُ مِنْكَ خُبْـلا فَصِرْتُ أُدْعَـى وَلاَ أُجِيــبْ

أَهْـلاً بِـذَاكَ السُّقَـامِ أَهْـلا إِذْ أَنْتَ يَـا مُمْـرِضِى الطَّبِيبْ

* *

عُودُوا بِطِيبِ الـوِصَالِ عُودوا فَلِي إِلَى ذَلِـكَ ارتيــــاحْ

(ولعل) قُـربـاً مِنْك يُـدْنِى مَنْ مَـاتَ تُحيِيه بـانْشِراحْ

* *

أَنَـــا بِمَا تَـــرْتَضِيـــه رَاضٍ إِنْ كُنتَ لِى العَـوْنَ والـرِّضَى

فَإِنْ تَكُـن فِى الجَمَالِ قَـــاضٍ فَـالكُفْـرُ بِمَا شِئتَ فِى القَضَـا

وَهَبْ لِـرَاجِيك كُلَّ مَـاضٍ فَــلاَ يُعَـادُ الَّـــذِى مَضَى

* *

يَـاصـاحِ قَدْ جُـدِّدَتْ عُهـودُ الوَصْلِ تقضَّى بـالاصْطِباحْ

فَـارْشَفْ كُـؤوسَ المُنى وغَنِّ حَيَّ عَلَى الشُّرْبِ يـا مِـلاحْ

هـذه الموشَّحـة الـرقيقـة ، اللطيفـة المعنى واللفظ ، من شعـر أحمد بن الصَّبَّـاغ الجُذَامى الأندلسى ، صـاحب (الديـوان المخطوط) الذى نتـوقَّف عنده فى هـذا الفصل لإلقاء بعض الضوء عليه وعلى مؤلفه .

* * *

إن الكثير من آثار العرب فى الأندلس قد اندرس وانطمس ذكره ، ومن هذا الكثير ، سيرة الشاعر ابن الصَّبَّاغ الجذامى صاحب الديـوان ، فلا نكاد نعرف عنه إلا أقل القليل ، ولولا بقاءُ نسخةٍ مخطوطةٍ وحيدةٍ من ديوانه ، بالإضافة إلى بعض أشعاره وأزجاله الواردة فى كتاب (أزهار الرياض) للمَقرَّى ، ماكُنَّا اليوم نعلم عنه شيئًا .

عـاش أبـو عبـد الله محمـد بن أحمد بن الصبـاغ الجذامى فى الحقبـة الأخيرة مـن دولـة الموحدين، أيام الخليفـة « المرتضى » المقتول سنة ٦٦٥ هجرية على يد أعـوان أبى دبوس الذى حَلَّ محله وأعطى نفسه لقب « الواثق بالله » وهى ثقة لم تدم ، إذ انطوت فى أيام أبى دبوس هذا، آخر صفحـة من دولة الموحدين .. وقد وردت الإشـارة إلى عصر ابن الصباغ فى مقدمة ديـوانه المخطوط ، حيـث يقول جـامعه : « لما تَمَّ اعتـلاء سيدنـا الخليفة المرتضى ، حـرَّكنى نسيمٌ لأن أجعل أهم وسـائلى وأنجح أمورى ، نقل شعـر الشيخ الفقيه الصـالح ، أبى عبد الله محمـد بن

أحمد بن الصَّبَّاغ الجذامى ، شرح الله تعالى صدره ونوّر بالصفاء فكره » وكان جامع الديوان معاصرًا لابن الصباغ ، فهو يقول فى نفس المقدمة :

« وجميع ما رسمته فى هذا الديوان من نظامه ، وجمعته فيه من حسن كلامه ، فقد عهدته مرارًا بقراءتى عليه فى مواطن جَمَّة ، وسمعته أيضًا منه بقراءته ، وأملاه علىَّ فى أوراق منثورة » .

والمخطوطة الوحيدة من ديوان ابن الصباغ ، محفوظة فى الخزانة الملكية بالرباط (المغرب) تحت رقم ١٠٩ ، وهى تقع فى ٢٠٠ ورقة تقريبًا ، مكتوبة بخط أندلسى[1] . وتبدأ المخطوطة بقصيدة فى مدح النبى ، ﷺ ، يقول البيت الأول منها :

أَذْكَتْ بِإِخْتَــاءِ الضُّلُــوعِ إِوَارا　　　وَرْقٌ تُــرَجِّعُ شَــدْوَهَــا أَسْحَــارا

وفى الديوان كثيرٌ من المدائح النبوية الرقيقة المنظومة على بحور الشعر الستة عشر ، وفيه أيضًا العديد من المقاطع الزجلية ، والموشحات الأندلسية ، والمُكَفِّرات ! وكلمة « مُكَفِّرَات » من مصطلحات التوشيح ، يشرحها لنا ابن سناء الملك فيقول :

« والموشحات يُعمل فيها ما يعمل فى أنواع الشعر ، من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد ، وما كان منها فى الزهد يقال له : المُكَفِّر ، ولا يُعمل إلا على وزن موشَّح معروف »[2] .. فهى نوعٌ من الإنابة إلى الله ، والتكفير عن أشعار يكون الشاعر قد قالها فى زمن اللهو ، فيتوب ويستغفر ربه عن شعره السابق ، بشعر المكفرات ، أى يستغفر بالشعر عن الشعر ومن مكفِّرات ابن الصباغ ، ما أوردناه فى بداية هذا الفصل ، ومنها أيضًا تلك الموشحة التى يكفِّر فيها عن كل بيت بثلاثة أشطر :

---

(١) كان للدكتور محمد زكريا عنانى ، فضل توجيه نظرى إلى هذه المخطوطة الفريدة ، كما تفضل - مشكوراً - بتصويرها لى .

(٢) ابن سناء الملك : دار الطراز فى عمل الموشحات ، تحقيق د/ جودت الركابى (دمشق ١٩٤٩) ص ٣٨ .

شَجْوُ الـوُرْقِ فِى الأَفْنَـانِ　　غَـدَاة النَّـوى أفْنَـانِى

أَيَـا نَـائِحَ الأَفْنَـانِ

بُكَـاؤكَ قَـدْ أَشْجَـانِى

وَسَهْمُ النَّـوَى أَضْنَـانِى

وَتفْنَـى وَكُـلُّ فَـانِ　　مُحَالٌ يَبْقى إلْفَـانِ

كَفْكِفْ دَمْعَكَ المَطْلُـولاَ

واتْـرُكْ نَـدْبَكَ الطُّلُـولاَ

وَزُرْ أَحْمَدَ الـرَّسُـولاَ

ولا يزال ديوان ابن الصباغ مخطوطًا ، وقد حقَّق الدكتور أحمد السنوسى بعض أشعاره ، ولم تصدر بعد .. أما موشحات الديوان ، فقد نشر بعضها الدكتور محمد زكريا عنانى - الذى ندين له بفضل تعريفنا بابن الصباغ[1] - تمهيدًا لإصدار الديوان كله فى طبعة محقَّقة تحقيقًا علميًّا رصينًا .. وها نحن ننتظر .

---

(١) د/ محمد زكريا عنانى : ديوان الموشحات الأندلسية ، مستدرك يتضمن نصوصا تنشر لأول مرة (دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ، بدون تاريخ) ص ١٤٩ وما بعدها .



(عنوان الديوان)

مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد

الحمد لله ولي الحمد وأهل الثناء والمجد حمداً [illegible]

[illegible] من [illegible] ويتبرأ [illegible] الآية مزيده [illegible] والصلاة

والتسليم على سيدنا ومولانا نبيه المصطفى محمد [illegible]

في الخلق العظيم والشرف [illegible] خاتم الأنبياء [illegible] وشرعه

وخاتم كل [illegible] الشريفة [illegible] الأنام [illegible]

الضلالة من عمى التعامي ومنقذ الأمة بهذه الملة من التمادي

في الباطل والتراخي جاء بالمعجزات المعجزات مؤيدا وأعلم بالآيات

البينات [illegible] حتى قامت به ملة الهدى وراح الإسلام في [illegible]

[illegible] واعتبرا [illegible] السعيد من آثر إيثاره ولزم مآثره وآثاره [illegible]

[illegible] فلم [illegible] من تعزيره وتوقيره [illegible]

[illegible] بذكره [illegible] وذكر علاء قدره [illegible]

[illegible] في النهار [illegible] وفي الليل [illegible]

[illegible] والله [illegible]

[illegible]

الصفحة الأولى من مخطوطة الديوان

ديوان فِردَوسِ الحِكمَــةِ

لخَالِد بن يَزِيــد

من أغرب الشخصيات فى التاريخ العربى الإسلامى ، شخصيةُ الأمير « خالد بن يزيد » أحد أُمراء بنى أمية البـارزين . وغرابة شخصية هذا الأمير تنبع من تضارب الـروايات التاريخية حول حياته ، وترشيحه لخلافة المسلمين ، واشتغاله بالكيمياء فى هـذا الوقت المبكر من تاريخ الحضارة الإسلامية .

* * *

هو خالـد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، الأمير الأُمـوى القُرَشى . لم يحدِّد المؤرخون مولده بدقة ، واختلفوا فى تحديد سنة وفاته ، فجعلوها بين سنتى ٨٢ ، ٩٠ هجرية [١]..ولكنهم اتفقوا فى الثنـاء عليه ، فـذكر الذهبى أقـوالاً تصفه بأنـه : كان موصـوفًا بـالعلم ، من صالحى القـــوم، يصـوم الأعياد (أى أيـام الجمعـة والسبت والأحـد) أجاز شاعـراً بمائة ألف درهـم لقوله فيه:

سَأَلْـتُ النَّـدَى والجُودَ : حُــرَّانَ أَنْتُمَا ؟ فَقَـــالا جَمِيعًـــا : إِنَّنَـــا لَعَبِيـــدْ

فَقُلْـتُ : فَمَنْ مَـــوْلاَكُما ؟ فَتَطَــاوَلا عَلَيَّ وَقَـــالاَ : خَـالِــدُ بـن يَـزِيــدْ [٢]

(١) انظـر ترجمتـه فى : الفهرست لابن النـديم ص ٤١٩ - التاريخ الكبير لابن عسـاكر ٥ / ١١٦ - وفيـات الأعيان لابن خلكان ١ / ٢١٠ - معجم الأدباء لياقوت الحموى ١١ / ٣٥ - معجم المؤلفين لكحالـة ٤ / ٩٨ - البدايــة والنهايــة لابن كثـير ٨ / ٢٣٦ - الـنجوم الـزاهرة لابن تغـرى بـردى ١ / ٢٢١ .. وغيرها .

(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٨٢.

وذكر عنه الجاحظ أنه كان : خطيبًا ، شاعرًا ، فصيحًا ، جيد الرأى ، كثير الأدب[١].. وفى كتاب « الأغانى » نراه موصوفًا بكونه : من أكثر رجال قريش سخاءً وفصاحة[٢] . كما اتفق المؤرخون على أن خالد بن يزيد ، كان أول من ترجم كتب اليونان إلى اللغة العربية ، وأنه اشتغل بالكيمياء ووضع فيها بعض المؤلفات[٣].. وقبل الحديث عن كيمياء خالد بن يزيد ، نتوقف عند محاورتين من محاوراته التى روتها كتب التاريخ ، لنتعرف على شىء من أخبار هذا الأمير الغامض :

الحوار الأول ، ما كان قد جرى بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان ، فقد كان خالد مرشحًا لتولِّى الخلافة بعد وفاة أخيه « معاوية بن يزيد » لكن عبد الملك قفز على الأمر ، فتولى الخلافة وتزوج أم خالد - ربما لإغاظته - فكان بين الرجلين ما كان ، ومنه هذا الحوار الذى دار بينهما حين هدَّده عبد الملك بن مروان بالحرمان ، فرد عليه خالد بقوله : أتهددنى ويد الله فوقك ما نعة ، وعطاؤه دونك مبذول ؟وقال له عبد الملك : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة (الآية) فقال خالد : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (الآية) .. إلى آخر تلك الحوارات التى جرت بين الرجلين ، ولم يتورع فيها عبد الملك عن الإشارة إلى أنه يُضاجع أم خالد ، مما كان يكسر نفس الأخير[٤]. وإن كان عبد الملك بن مروان ، فى بعض الأحيان ، يستجيب لأقوال خالد ويمرر حوارهما دون صدام وتعيير .. وأعتقد أن هذه العلاقة بين الرجلين فى حاجة لدراسة تاريخية نفسية ، تكشف لنا عن صفحة مهمة من صفحات تاريخنا الثقافى والسياسى .

أما الحوار الثانى ، فهو ما يرويه الخطيب البغدادى على لسان خالد نفسه ، إذ يقول : كانت لى حاجة بالجزيرة ، فخرجت إليها مستخفيًا ، فبينما أسير بين أظهرهم ، إذ أنا بشماسة

(١) الجاحظ : البيان والتبيين (القاهرة ١٣٦٧هـ) ١/ ٣٢٨ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى (طبعة بولاق) ١٦ / ٨٨ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٤١٩ .

(٤) احتد النقاش مرة بين خالد وعبد الملك بن مروان ، فقال له الأخير « أتخالفنى يا بن الواسعة » فانسحب خالد من المجلس ، فجاءته أمه تطيِّب خاطره ، فقال لها : لقد قال شيئًا هو أعلم منى به ! .

ورهبـان ، فقلت لهم: « ما جمعكم هنـا » فقـالوا : « إن شيخًـا سَيَّاحـاً نلقـاه فى كل يوم مـرة فى مكانك هـذا ، فنعرض عليـه ديننا ، وننتهى منـه إلى رأيه » .. فقال خـالد فى نفسـه : إنه مَعْنىٌّ بالحديث النبوى ، ولعلـه لو استمع إلى هذا الشيخ يستفيد منـه شيئًا ، ولن يلحق به ضرر . فلما جاء هذا الشيخ النصرانى ، قال لخالد : إنك لست مـن هؤلاء الرهبـان ، فأنت من أمة محمد ، فقـال : نعم ، قال : مـن علمائهم أو من جُهَّالهم ؟ قـال : لست من علمائهم أو من جهـالهم ، قال : ألستم تزعمون فى كتابكم (القرآن الكـريم) أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون .. فقال خالـد : إن لهذا مثلاً فى الدنيا . فقـال : فما هو ؟ قال : الصبى فى بطن أمه ، يأتيـه بالرزق الرحمنُ بكـرةً وعشيًّا ، ولا يبـول ولا يتغوط .. هنا عـرف الرجل أنـه يحاور عالمًا ذا عقلٍ راجح ، فقال له : ألم تـزعم بأنك لست من علمائهم ؟ فتواضع خالد ، وأكَّـد : بلى ، ما أنا من علمائهم ولا من جهالهم[1].

* * *

ونأتى لمسألة اشتغال خالد بالكيمياء ، فنجد – بقطع النظر عما سنرويه من تفاصيل تلك المسألـة – أن خالـد بن يزيـد كان لـه فضلٌ كبير على الحضارة الإسـلامية ، حين ابتـدأ حركـة الترجمـة ، أو أسهم فيها ، وباهتمامه بنقـل كتب الطب والكيمياء من اليونانيـة إلى العربيـة ، لقد كان خـالد ، وأمثاله من بناة الحضـارة العربية الإسلاميـة ، على وعى بأهميـة العلـم كتراث إنسانى ، فـأقبلوا على ترجمة العلم اليـونانى ، وأتـاحوا الفـرصة أمام حضـارتهم لكى تستكمل وتضيف لتاريخ العلم الإنسـانى .. والمهم هنا أن خالـد وأمثاله من الحكام والأمـراء ، لم يُقبلوا على كتب الأدب والفن والدين اليونانى ، بل اهتمـوا بتراث اليونان العلمى فى الهندسة والفلك والميكـانيكـا والصيدلـة والطـب والكيميـاء فاهتمـوا بما يهمهـم ، وبما يخصُّ الإنسـان على إطلاقـه ، لا اليونـــان خصوصًا .. وكذلك الأمر فى تعاملهم مع التراث الهنـدى القديم ، فقد نقلوا عن الهند علـوم الرياضة والطب ، وتركـوا لها الفنون والآداب ؛ لأنها تخصُّ الهند بالذات ،

(١) د/ فاضل الطائى : أعلام العرب فى الكيمياء ص ١٩ .

تبع ذلك ، فنحن المعاصرين لا نعى الـدرس ! ولا زلنا منذ مطلع نهضتنـا الحديثة ، نترجم عن الغرب الأدبَ والفنَّ والفلسفة ، ولا نهتم بـالعلوم ، ونكتفى باستيراد التكنولـوجيا دون التعرف إلى أسرارها .. وتلك على أى حال، قصة أخرى[1] ، فلنعد إلى خالد ومسألة الكيمياء :

يؤكد معظم المؤرخين أن « خـالد » اشتغل بالكيمياء ، ويقـرر بعضهم أنه وضع فى ذلك مؤلفات ، لكن البعض الآخر – كالذهبى – يُنكر ذلك ، على حين يرى الدارسون المعاصرون ، والمستشرقـون ، أن تلك المؤلفات منسـوبـة إلى خالـد بطـريق الخطأ ، أو هى من تأليف بعض المتأخرين عنه ، لكـن مؤلفيها نسبوها إليـه لتزداد قيمتها ، ولا تزال القضيـة بحاجة إلى دراسة وتمحيص وفحص لهذه المؤلفات ونقدها نقدًا علميًّا دقيقًا ، للحكم فى صحة نسبتها إليه . وعن خالد ومؤلفـاته ، يقول ابن النديم فى (الفهرست) ما نصُّه : الـذى عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة (= الكيميـاء) خالد بن يزيـد بن معـاوية ، وكان خطيبًـا شاعرًا فصيحًا حـازمًا ذا رأى ، وهو أول مَنْ تُرْجـمَ له كتب الطـب والنجـوم وكتـب الكيمياء ، وكان جـوَّادًا (يقصد : على المترجمين) يقال إنـه قيل له: « لقـد فعلت أكثر شُغلك فى طلب الصنعـة » (أى : تحويل المعادن إلى الذهب والفضة) فقال خالد : « ما أطلب بذلك إلا أن أُغنى أصحابى وإخوانى ، إنى طمعتُ فى الخلافة فاختُـزلت دونى ، فلم أجد منها عوضا إلا أن أبلغ آخر هـذه الصناعة ، فلا أُحوج أحـدًا عرفنى يومًا أو عـرفته ، إلى أن يقف بباب سلطان رغبـةً أو رهبة » ويقال ، والله أعلم : إنـه صَحَّ لـه عمل الصنـاعـة (= تحويـل المعـادن إلى ذهب) ولـه فى ذلك عـدة كتب ورسائل ، وله شعرٌ كثير فى هذا المعنى ، رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ، ورأيت من كتبه ، كتاب الحرارات ، كتـاب الصحيفـة الكبـير ، كتاب الصحيفـة الصغير ، كتـاب وصيتـه إلى ابنـه فى الصنعة[1] ..

(١) راجع مقالنا المنشور بجـريدة الأهرام ، بعنوان : (درس تاريخى فى الترجمة) وانظرْ ما قلنـاه فى مقدمة هذا الكتاب .

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤١٩ .

وشعر خالـد بن يزيد فى الصنعة ، من أثبت مؤلفـاته إليه وأصحها نسبةً لـه ، نظرًا لقربها من عصره ، وقد جُمع هذا الشعر فى ديوان ، مخطوط ، على ترتيب القوافى وفقًا للأبجدية ، جاء فى مقدمته ما يلى :

« أعمد إلى تصنيف ديوان ، أُفَهِّـمُ به جماعةً من طلبة هذا العلـم . ونحن نبتدىء بعون الله تعالى ونبيِّه ، ونكتب أشعاره ،لأنه لم يسبقه سابقٌ ولا يتقدمه متقدمٌ ، إلا كان مقصِّرًا عنه ، لأنه لمَّ سَبْكَ أقاويلهم ، ونظمهـا ، وأتى بأمثالهم وأخبارهم ، وفَسَّر أرمـازهم ، وشرح ألغازهم بأحسن لفظ وعبارة ، وبالله التوفيق » .

ويبدو أن جـامع الديـوان هو « غالب » خـادم خالـد بن يزيد ، ففى مخطـوطة الـديوان المحفوظة بمكتبـة كوبريلى باسطنبول (بعنـوان : ديوان فردوس الحكمة لخالـد بن يزيد) تحت رقم ٩٢٤ ، جاء فى المقدمة :

« الحمـد لله الـذى بحمده نحمـده .. وبعـد ، فإنى لم أزل بحمـد الله ، مُـذ سَمَت همتى بالعلم، وعلقت نفسى بـالفهم.. جمع ديوان الأمير خالـد بن يزيد بن معـاوية.. وما جـرى بينه وبين مُرْيانُـس الراهـب ، وهـو ممـا نسختــه من كتاب غالــب مـولى خالــد ، وهو خادمــه وأمينــه وثقتــه».

ويقع الديوان ، فى نسخة كوبريلى ، فى ٩٦ ورقـة (قرابة ٢٠٠ صفحة) وهو مكتوب سنة ١٠٣٧ هجرية بيد الشيخ محمـد الميقاتى . أما « مريانس » المذكور فى مقدمـة المخطوطة ، فهو الراهب « مـارينوس الإسكندرانى » تلميـذ الكيمياوى الإسكندرانى الشهير « إسطيفـانوس » وقـد كان مارينـوس هذا ، ناسـكًا معتـزلاً النـاس فى مدينـة القـدس ، حين سمـع بأن خالد ابن يزيـد شغـوف بـالكيمياء ، فذهـب إليـه فوجـده يصبو إلى صناعــة الذهب بـالذات .. ويقــال: إن مارينــوس نجـح أمـام خالـــد ، فى تحويـل بعض المعـادن إلى ذهــب ؛ ثم اختفى مارينوس[1] .

---

(١) د/ غالب الطائى : أعلام العرب فى الكيمياء ص ٢٩ .

وتبدأ مخطوطات الديوان، بأرجوزة همزية فيها الكثير من الرموز التي لا يعرف دلالتها غير المشتغلين – قديماً – بالكيمياء .. تقول الأبيات الأولى منها :

يَا طَالِباً بُوريطسَ الحُكَماءِ يَا مُنْطِقاً حَقّاً بِغَيْرِ خَفَاءِ

هُوَ زِئْبَقُ الشرقِ الَّذِى هَتَفُوا بِهِ فِي كُتبِهِم مِنْ جُمْلَةِ الأَشْيَاءِ

سَمُّوهُ زَهْراً فِي خَفَاءِ رُمُوزِهِمْ والجِنَّ شُغْلاً أَغْمَضَ الأَسْمَاءِ

ودَعُوه بِأَنَّ النَّارَ كَيْما يَصْدُفُوا عَنْ صَبْغِهِ بُخْلاً عَنِ البُعَدَاءِ

فإِذَا أَرَدْتَ مِثَالَهُ فَاعْمُدْ إِلىَ جِسْمِ النُّحَاسِ ونَارِهِ الصَّفْرَاءِ

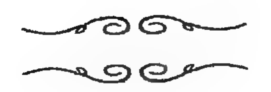
فَامْزِجْهُمَا مَزْجَ امْرِءٍ ذِى حِكْمَةٍ وَأَحْكِمْ مُزَاوَجَةِ الهَوا بِالمَاءِ

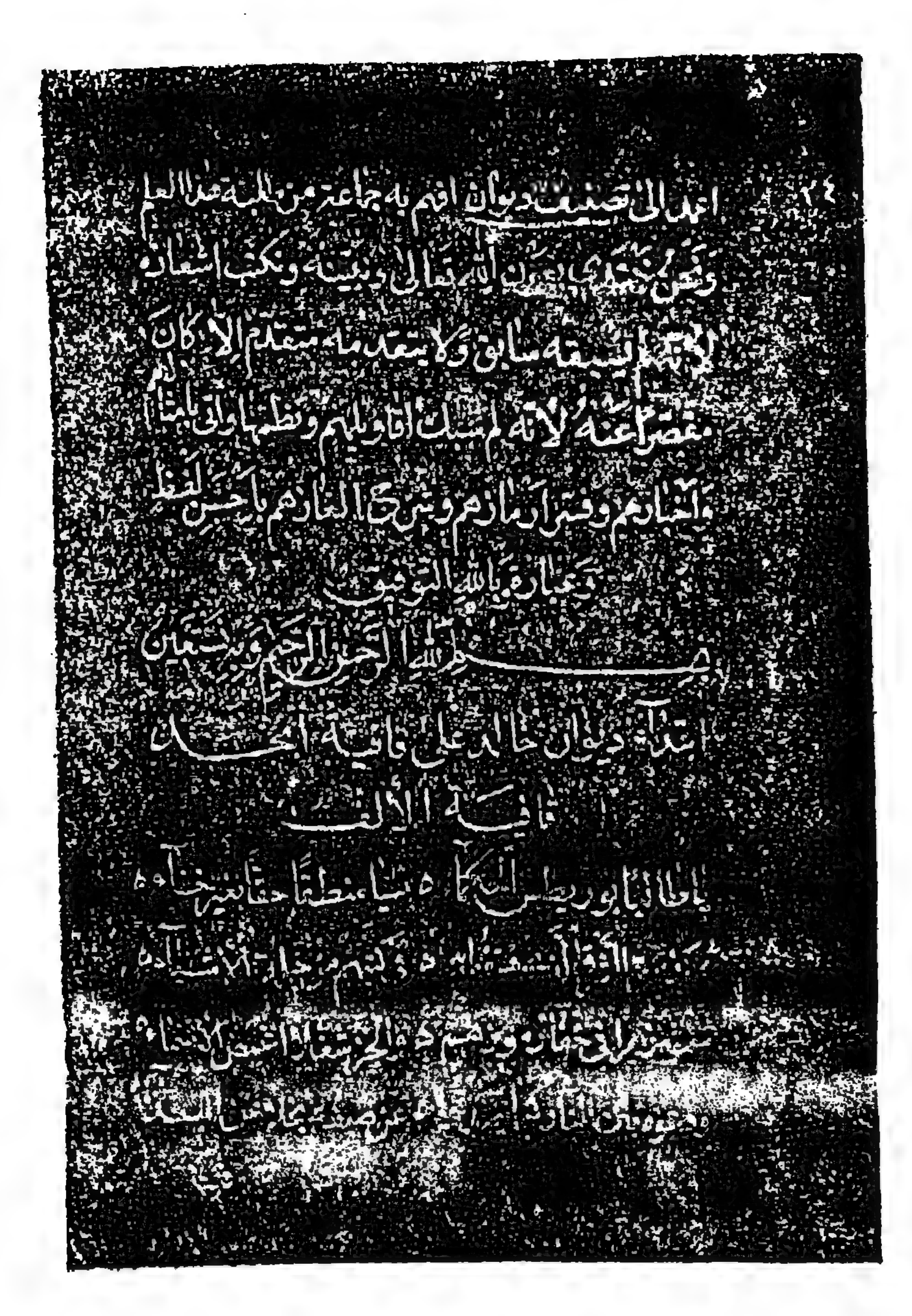
واسْحَقْ مُرَكَّبَكَ الَّذِى أَزْوَجْتَهُ حَتَّى تَرَاهُ كَزُبْدَةٍ بَيْضَاءِ

سَحْقاً يُفَتِّتُهُ ويَهْتِكُ جِسْمَهُ مِنْ بَدءِ صُبْحٍ إِلى الإِمْسَاءِ

وَاجْمَعْهُ وَادْفِنْهُ ودَعْهُ بِمَرْقَدٍ حَتَّى الصَّبَاحِ وغَطِّهِ بِغِطَاءِ

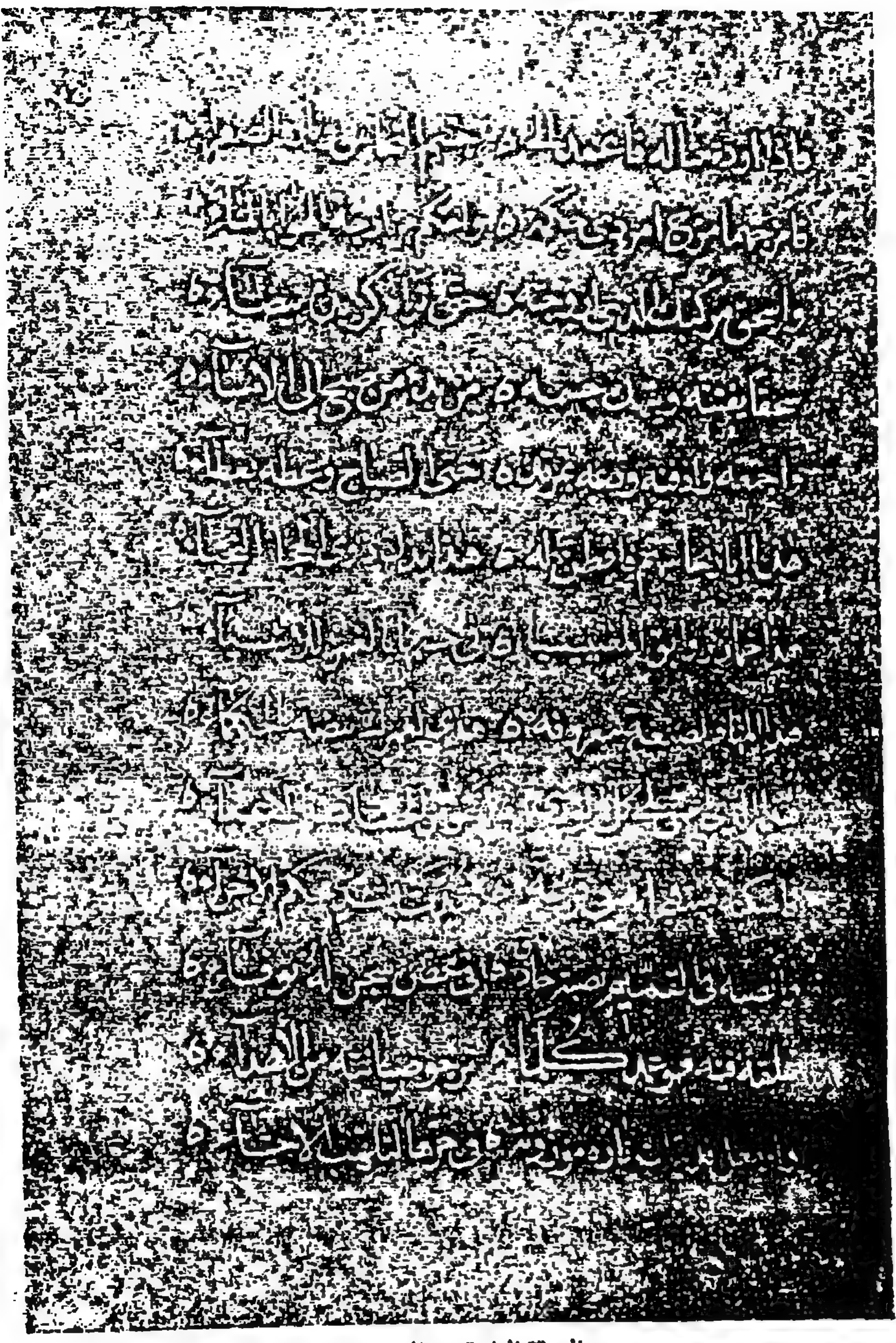
هَذَا خِمَارُ زَوَابِقِ المغنِيسِيَا فِي جِسْمِهَا بِالغَمْرِ لِلأَشْيَاءِ





مخطوطة ديوان فردوس الحكمة

القصيدة الأولى



الورقة الثانية من الديوان

الرَّوْضُ المغَرَّسُ فى فَضَائِل بَيْتِ المقْدِس

للحُسَيْنِى

من ألطف البحوث التراثية التى نُشرت مؤخراً ، كتابٌ للدكتور كامل جميل العسيلى ، صدر فى الأردن بعنوان : مخطوطات فضائل بيت المقدس ، ويضم الكتاب دراسة بيبليوجرافية مفصَّلة عن النصوص الخطية التى تناولت فضائل القدس ، مع مقدمة جاء فيها: « إن مكانة بيت المقدس فى الإسلام تستند إلى مرتكزات ثلاثة رئيسية ، الأول: أن بيت المقدس هو البيت الذى بنته الأنبياء وعمَّرته ، والدين الإسلامى جاء مصدِّقًا لنبوة الأنبياء الذين سبقوا محمدًا ﷺ والذين عاش أكثرهم فى بيت المقدس وما حوله . والثانى: أن بيت المقدس هو القبلة الأولى التى اتجه إليها المسلمون بالصلاة قبل أن يأمرهم الله بالتوجه نحو الكعبة . والثالث: أن بيت المقدس هو المكان الذى أُسرِى بمحمد - ﷺ - إليه ، ومنه كان معراجه »[1].

ويعرض الكتاب لقرابة خمسين مخطوطة ، ألفها العلماء على مدار قرون الإسلام ، كصدى لاهتمام المسلمين بهذه المدينة الشريفة التى كانت دَوْمًا من مطامع الغرب فى بلاد العرب ، فاحتلها الصليبيون حينًا ، فخلَّصها منهم المسلمون ، ثم احتلها اليوم اليهود ولم تتخلص بعد .

ومجموعة المؤلفات المفردة فى فضائل بيت المقدس ، كتبها كبار مشايخ العلم الإسلامى ، وهناك ثلاثة مؤلفات منها مجهولة المؤلف .. وقد طبعت بعض هذه المؤلفات ، لكن أغلبها لا يزال إلى اليوم مخطوطًا لم ينشر ، فمن ذلك القدر المخطوط : كتاب الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس ، لتاج الدين عبد الوهاب بن عمر الحسينى .

---

(١) د/ العسيلى : مخطوطات فضائل بيت المقدس (عمان ١٩٨٨) ص ١٥ .

يحدثنا السخاوى فى موسوعته (الضوء اللامع) عن مؤلف هذه المخطوطة فيقول : عبد الوهاب بن عمر بن الحسين بن محمد .. التاج (= تاج الدين) الحسينى الدمشقى الشافعى ، ولد بعد سنة ٨٠٠ هجرية بدمشق .. وتوفى بمكة يوم الأحد ، ثانى جمادى الأولى سنة ٨٧٥ هجرية ، ودفن بالمعلاة[1].

ويبدو أن الشيخ عبد الوهاب كان من أسرة معروفة بالعلم والفضل ، فالسخاوى يذكر أنه « ابن أخت قوام الدين ، قاضى الحنفية بالشام ، وابن عمر الشهاب أحمد بن على بن الحافظ » وهى أسرة من الأشراف الذين يرجع نسبهم إلى شهيد كربلاء : الحسين بن على بن أبى طالب .. ومن هنا جاء لقب « الحسينى » .

وبين أفراد هذه الأسرة الشريفة ، نشأ عبد الوهاب الحسينى نشأةً دينية علمية ، فبدأ يحفظ القرآن ، ثم درس الفقه على يد علاء الدين بن سلاَّم وتقى الدين بن قاضى شُهبة ، كما درس الفرائض على الشيخ الحوارى ، ونزل إلى القاهرة فاستكمل دراسته لعلوم الدين على يد القاياتى ، وزامل السخاوى فى درسه على يد الحافظ المؤرخ : ابن حجر العسقلانى .

وعاد الشيخ عبد الوهاب إلى الشام ، فقام بالتدريس فى المدرسة الأَتَابكية ، وتولَّى القضاء، وعهدوا إليه بالأوقاف .. وقد ظل يتلطَّف - كما يقول السخاوى - لإعفائه من الإشراف على الأوقاف ، حتى عُفى منه ، وانتهى إلى الانقطاع عن الناس للعبادة والتلاوة فى بيته بصالحية دمشق ، وترك مجموعة من المؤلفات منها : أوضح المسالك إلى معلم المناسك - الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس .

* * *

تبدأ مخطوطة « الروض المغرَّس » بمقدمة ، يذكر فيها المؤلف مجموعة المصادر والمراجع التى اعتمد عليها فى كتابه ، مثل :فضائل بيت المقدس لابن الجوزى ، الجامع المستقصى فى

(١) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (مكتبة الحياة - بيروت) ٥ / ١٠٦ .

فضائل المسجد الأقصى لابن عساكر ، الأنس فى فضائل القدس للقاضى أمين الدين بن هبة الله ، باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس لبرهان الدين الفَزَارى ، إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى ، تسهيل المقاصد لزوار المساجد للأقفهسى ، فضائل الشام ودمشق لأبى الحسن بن شجاع الربعى ، مُثير الغرام إلى زيارة الخليل عليه السلام للتدمرى ، مسائل الأنس فى تهذيب الوارد إلى القدس لصلاح الدين العلائى .

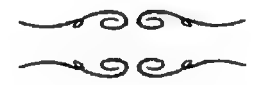
وقد اعتمد السيوطى فى كتابه الشهير « إتحاف الأخِصَّا بفضائل المسجد الأقصى » على كتاب الروض المغرَّس ، وأثنى على مؤلفه قائلاً : ولقد أغنانى بفوائده التى أهداها ، عن الافتقار إلى الاطلاع على ما لأهل الصدر الأول ، فمن بعدهم ، من الكلام .

ثم تتوالى فصول الكتاب ، لتعرض من خلال سبعة وثلاثين فصلا إلى : أسماء المسجد الأقصى - وضع المسجد الأقصى - بناء داود عليه السلام - بناء سليمان - فضل بيت المقدس - شد الرحال إليه - فضل زيارته - فضل الصلاة فيه - تضاعف الحسنات والسيئات فيه ، فضل الصدقة فيه - فضل الصيام فيه - فضل الأذان فيه - فضل الصخرة - ذكر الماء الذى يخرج من أصل الصخرة - تواضع الصخرة لله - ذكر السلسلة - ما يُستحب أن يُدعى به عند دخول الصخرة - الصلاة عن يمين الصخرة - ما يكره من الصلاة على ظهر الصخرة - النهى عن اليمين عند الصخرة - فضل البلاطة السوداء - قيام عزرائيل وإسرافيل على الصخرة - الدعاء عند قبة المعراج - ما يُدعى به عند قُبَّة السلسلة - أبواب المسجد وسوره ومحاريبه - عين سلوان - النهى عن دخول الكنائس - ذكر البرك والعيون - فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس - ذكر بناء عبد الملك بن مروان - جامع لفضائل بيت المقدس - ذكر مَنْ دخله من الأنبياء - ذكر مَنْ دخله من أعيان الصحابة والتابعين - فروع تخص المسجد الأقصى - زيارة الخليل عليه السلام - ما قيل فى قبر سيدنا موسى - فضل الشام .

* * *

ولا تذكر المصادر من مخطوطات الكتاب إلا نسخة وحيدة أشار إليها « بروكلمان » فى كتابه تاريخ الأدب العربى [1]، وهى محفوظة بمكتبة الدولة ببرلين تحت رقم ٦٠٩٨ . وعن تلك المخطوطة يقول الدكتور كامل جميل العسيلى فى كتابه سابق الذكر : وقد اطلعت على هذه المخطوطة فوجدتها ناقصة مع الأسف ، فهى تضم المقدمة وأربعة عشر فصلاً فقط عن فصول الكتاب ، وهى تقع فى ٣٠ ورقة (٥٩ صفحة) من القطع المتوسط ، أولها « الحمد لله المقدَّس عن الأشباه والنظائر ، المحتجب عن الأبصار والنواظر ، المنزه عن الحدوث بالزوال والأصوات والألفاظ والضمائر » وفى تقديرنا أن هذه النسخة تضم نصف الكتاب تقريبًا ، وفى أثناء زيارتى لمكتبة شيخ الإسلام « عارف حكمت » فى المدينة المنورة ، عثرت على مخطوطة أخرى للروض المغرس ، وهى مخطوطة كاملة ، رقمها العام فى فهرس المكتبة ٣٨٦٠ ، ورقم تصنيفها ١١٤ / ٩٠٠ ، انتهى من نسخها أحمد بن محمد بن عبد الله النابلسى عام ٨٧٣ هجرية (فى حياة المؤلف) والنسخة بخط معتاد ، وفيها ٣٤٨ صفحة [1].

أما نماذج المخطوطة التى نقدمها هنا ، فهى - بحسب ما يظهر من كتاب الدكتور العسيلى - من مخطوطة برلين وهنا مفارقة ، فإذا كانت « بيت المقدس » اليوم أسيرة فى يد إسرائيل ، فإن مخطوطة « الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس » أسيرة فى يد ألمانيا ! .



(1) Brockelann : Gieschichte..

(٢) د/ العسيلى : مخطوطات فضائل بيت المقدس ، ص ٢٥ وبخصوص مخطوطات فضائل القدس ، يمكن الرجوع - أيضًا - إلى مقالة الأستاذ عصام محمد الشنطى عن « فضائل بيت المقدس ، للواسطى » وهى مخطوطة كان كاتب المقالة يقوم بتحقيقها ، ثم فوجىء بنشرها فى إسرائيل على يد باحث يهودى ! وقد أصدرت النشرة المحققة - وفيها سقطات وعليها مآخذ - الجامعة العبرية بالقدس المحتلة (انظر : مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، المجلد ٣٦جـ ١ ص ٩ وما بعدها) والجدير بالذكر ، أن مخطوطة الواسطى هذه ، مخطوطة وحيدة ظلت قابعة فى مكتبة جامع الجزار فى عكا دهرًا طويلاً ، حتى امتدت يد اليهود فسطت عليها ونقلتها إلى الجامعة العبرية .. حدث هذا منذ بضعة أعوام. يقول الأستاذ عصام الشنطى : وهذا السطو على المخطوطات العربية بالقوة ، هو سبب من أسباب تغريب التراث العربى وبعثرة مخطوطاته فى غير العالم العربى والإسلامى (انظر المقالة ، ص ١٧) .

مخطوطة الروض المغرس

صفحة الغلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

الورقة الأولى من المخطوطة

الورقة الثانية

الرّوْضة الغَنّاء في أصول الغِناء

لمؤلف مجهول

هناك الكثير من النصـوص « مجهولة المؤلف » فى عـالم المخطوطات ، ويـرجع ذلك لعدة أمور ، منها : أن بعض المؤلفات لم يشتهر مؤلفوها بين معاصريهم ، حتى إذا توالت الأزمنة ظل النُّسَّـاخ يتناقلـون تلك المؤلفـات دون معـرفـة بصاحبهـا الأصلى .. ومنهـا : أن الكثير مـن المخطوطات ، تُفقـد الصفحات الأولى منها ، والتى تحتوى - فى الغـالـب - على اسم مؤلفها ، وذلك من كثـرة التداول ، خـاصةً إن لم تكن المخطـوطـة مجلدة ، فـلا يبقى أمام المفهـرسين إلا نسبتها لمجهول .. ومنها : أن بعض الهواة يقوم بتـدوين مجموعـة من النصوص - لنفسـه - فلا يهتم بذكر اسمه فى مقدمتها ، وفى أحيان كثيرة ، تعجب المجموعة النُّسَّاخ والقراء لما تحتويه من منتخبات ، فتتناقلها الأقلام دون إشارة لجامعها .. ومنها : أن بعض الموضوعات لا تلقى قبولاً لدى المعاصرين ، نظرًا لسطوة بعض الاتجاهـات ، فيتقى المؤلف معارضة أهل زمانه بأن يُسقط اسمه من الكتاب ، ومن أشهر الأمثلة على هذا النوع الأخير « رسائل إخوان الصفا » .

* * *

ومخطوطـة « الروضـة الغَنَّاء فى أصـول الغناء » واحـدة من تلك النصوص التـى لم يُعرف مؤلفهـا ، أو بالأحـرى : جامعهـا ، فالمخطـوطة عبـارة عن مجموعـة من الموشحـات والأزجال والنصوص الشعـرية - الفصيحـة والعامية - التى كـان يُتغنَّى بها فى بلاد المغـرب والأندلس ، والتى ظلت فى ذاكـرة الأجيال على مَـرِّ الزمن ، حتى إن الكثير منهـا لا تزال أصـداؤه تتردَّد إلى الآن بالمغرب العربى .

ويبدو أن جامع المخطوطة كان شغوفًا بالطرب والغناء ومجالس السماع ، وهذا ما يظهر فى مقدمته .. حيث يقول : « الحمد لله الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرةً وباطنة ، وأمتعنا بلذة السماع وجعله قوتًا للقلوب وشنفًا وقرطًا للأسماع ، وصحةً للأبدان تستوى به الأعضاءُ وتبلغ منتهاها فى الاستماع .. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى خصَّ بنعمة الغناء الآذان ، وتفضل عليها بنعمة الألحان ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا ، عبده ورسوله ، سرَّ الوجود والسبب فى كل موجود ، المُنتخب من أشرف الآباء وأكرم الجدود ، الذى أُعطى خلق آدم وخلة إبراهيم وقنوط داود ، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار .. وسلم .. » .

ولا توجد من « الروضة الغناء » غير نسخةٍ وحيدةٍ ، نادرة ، محفوظه بالخزانة العامة بالرباط[1] . وهى مكتوبة بالخط المغربى ذى الإيقاع المميز فى رسم حروفه – خاصةً الأخيرة من الكلمة – وذى الأسلوب الخاص فى كتابة بعض الحروف .. فالفاء تكتب نقطتها أسفل الحرف، والقاف تكتب بنقطة واحدة من أعلى (كالفاء عند المشارقة) وهى أمور قد تصعّب قراءة النصوص المغربية على غير العارف بطريقة المغاربة فى الكتابة .

وهناك العديد من النصوص التى تنفرد بها مخطوطة « الروضة الغَنَّاء » فبعضها لا يوجد كاملاً فى مصادر أخرى ، وبعضها لم يرد فى أى مصدرٍ آخر .. فيما انفردت المخطوطة بنشره كاملا ، تلك القصيدة – من بحر الخفيف – للوزير لسان الدين بن الخطيب (المتوفى ٧٧٦ هجرية) حيث يقول :

* يَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ لها مِنْ إِيَابِ	يَوْمًا وعِنْدَ الله عِلْمُ الغُيُوبِ
سَاعَاتُ أُنْسٍ تَحْتَ ظِلِّ الشَّبَابِ	خُضْرِ الحَوَاشِى طَيِّبَاتُ الهُبُوبِ
* اليَومَ لاَ نَرهَبُ وَقْعَ النَّوى	وَنَحْنُ مِن سَطْوَتِها فى أَمَانِ
غَيْرِى عَلَى الدَّهْرِ شَدِيدُ القُوى	والنَّظْمُ مَنْظُومٌ كَنَظْمِ الجُمَانِ

(١) تفضل الدكتور / محمد زكريا عنانى بتصوير هذه المخطوطة لى ، فله جزيل شكرى .

حَتَّى إِذَا لَــــذَّت كُــــؤُوس الهَوَى   وقُلْتُ: قَـدْ نَـامَتْ عُيُـونُ الـزَّمَـانِ

* جَـاءَتْ أُمـورٌ لَمْ تَكُـنْ فِي حِسَـابِ   غيْرَى وأَلْــوانُ اللَّيَــالِي ضرُوبْ

فَمَـنْ لِيَ اليَـوْمَ بِـرَدِّ الجَوَابِ   كَـأَنْ أَسْأَل الصَّبَــا والجَنُــوبْ

* لاَ كَلَّفَ الله النُّفُـوسَ الـرِّقَـاقَ   مِـن مَضَضِ الشَّـوْقِ مَـالاَ تُطِيقْ

طَعْمُ الهَوَى يَـاصَـاحِ مُـرُّ المَذَاقِ   وَقَــاكَ والكُفْـرَ عَـذَابَ الحَرِيقْ

قَـدَ بَلَغَتْ بِـالهَجْـرِ رُوحى الـتَّرَاقِ   فَهَلْ إِلَى نَيْـلِ الـرِّضَـا مِنْ طَـرِيقْ

* والله مَـا الهِجْـرَانُ إِلاَّ عَـذَابٌ   يَـا شَرَّ مَـا تَحْمِـل مِنْـه القُلُـوبْ

واليَـوْمُ فِي الطُّـولِ كَيَـومِ السَّحَـابِ   واللَّيْلُ مَـا للنَّجْـمِ فِيـه غُـروبْ

* * *

ومما يرد فى المخطوطة ولا نكاد نجده فى غير ها ، تلك الموشحة التى لم يسبق نشرها ، وهى أيضًا من إبداعات لسان الدين بن الخطيب :

* اسْقِيـانِـى لَقَـدْ بَـدَا الفَجْـرُ   وخَفَـى الكَــوَاكِبُ

قَهْــوةٌ تَــرْكُ شُــرْبِهَا وِزْرٌ   وهَـىَ لِي مَــذْهَبُ

* أَنَــدِيمى اسْقِنِى لَقَـدْ خَـلاَ   شرْبُ رَاحٍ بِـــرَاحِ

وَغُــرابُ الظَّـلامِ لَقَـدْ وَلَّــى   مِـن حَمَامِ الصَّبَــاحِ

ارْفَعِ السُّجْـفَ تَنْظُـر الطَّــلا   كَيْـفَ رَشَّ البِطَــاحِ

* وانثنَى قُضْـبُ رُوضِهـا الخُضرِ   طَـرَبًـا تَلْعَبُ

عَجَبًـا كَيْـفَ نَـالهَا السُّكْـرُ   وهَــىَ لَمْ تَشْرَبْ

* وَتَغنــــتْ حَمائِمُ القُضُــــبِ بِلَسَــنٍ بَـــــــــديــعْ

واسْتَهَلَّــتْ مَــــدَامِعُ السُّحُــبِ فَــــــوْقَ وشى الـــــرَّبِيعْ

قَــدْ أَدَرْهَــا تُضـى كَمَا الشُّهُبِ واسقِنــى بِالقَطِيــــــــــعْ

* حَيْثُ يَسْعى بِكَــاسِهـا بَــدْرُ خَــــــدُّهُ مُــــــذْهَـبُ

قَــدْ حَكَى فَـوْقَ صُـدْغِه الشَّعْـرُ كَــــــاتبــــــا يَكْتُبُ

* بِـأبِى مَنْ صِرْتُ مِنْ حُبِّــــهِ وَهْــــــوَ هَــــــاءٌ وميـمْ

أنــا مِنْ حُبِّـه كَشْطـرِ اسْمِــهِ وَهْــــــو بَــــــاقٍ سَلِيْـم

كَــوْكَبٌ يَسْتَمِــدُّ مِنْ وَجْهِـــهِ كُــــلُّ قَلْــــبٍ سَلِيــــمْ

* يَـــاطِــرازَ الجَمالِ مـــا اليُسرُ هَكَـــــــــــــذا يُنْسَبُ

نَحْنُ أَهْـلَ الهَوى لَنَــــا سِتْرُ هَتْكُــــــــــــهُ يَصْعَــبُ

* قَمَــرٌ للهَــوَى بِسُلْطَـــانِـهِ عِـــــــزَّةٌ وانتِصَــــــــارْ

وتَــرَى للسِّحْــرِ سِحْـرَ جِفَــانِـه بَيْنَ تِلْــكَ الشِّفَـــــــــارْ

أَنَــا مِـنْ صَـدِّهِ وهِجْـــرَانِــهِ بَيْنَ مَـــــاءٍ ونَــــــارْ

* عَسَى أنْ يُغَـــالِبُ الأمْــرُ والهَوَى أَغْلَــــــــــــبْ

لَــوْ رَأى العِـــذَارَ إِنَّما العُـــذْرُ فِيــــــــــــهِ لَمْ يَعْتِـبْ

ومن أشعار المخطوطة ، تلك الموشحة لأبى العباس الأعمى التطيلى (المتوفى فى حدود سنة ٥٢٥) وهى مما انفردت به المخطوطة [١]:

(١) نشر الدكتور محمد زكريا عنانى هـذه الموشحة – لأول مرة – فى كتابه : ديوان الموشحات الأندلسية ، ص٢٠ وما بعدها .

يَـا مَـنْ رَمَى اللَّـومَ رُشْـدًا ... تَـاللهِ لاَ تُبْتُ دَهْـرا

عَـنْ حُـبِّ ظَبْـى رَبِيـبٍ ... وشربِ أكْـواسِى خَمْـرا

يَـا عَـاذِلى رُويـدا فَهَـلاً ... أطَلتَ فِى الحُبِّ عَـذْلاً

أتَلُـومُ فِى الحُبِّ جَهْـلاً ... يَكْفِيكَ مِـابِى خَـلاً

مُـذْ صَـدَّ خِلٌ وسَـدًّا ... بَـابَ الـرِّضَـا وعِيلَ صَبْرِى

فَطَعْمُ هَجْـرِ الحَبِيبِ ... أمَـرٌّ مِنْ كُـلِّ صَبْرِ

يَـا مَنْ أبَى أنْ يَمُنَّـا ... عَلَى الحَبِيـبِ المُعَنَّـى

حَتَّى ثَنَـا القَلْبَ وَهْنَـا ... جَـوَى سَبِيلَيْـهِ حُـزْنَـا

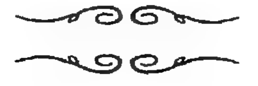
وَقَـال تِيهًـا وَعَمْـدا ... لَمَّا رَأى فَـرْطَ ذُعْـرِى:الا

مَـاقَتْلُ صَـبٍّ كَئِيبٍ ... عَلَى المِلاَحِ بِنُكْـرِ

نَـذَرْتُ لله عَهْـدا ... صِيَـامَ شَهْـرٍ وعُشْرِ

يَـوْمًـا نَـراكَ حَبِيبِى ... مَـا بَيْنَ صَـدْرِى ونَحْـرِى[1]

ولا شك فى أن قيام واحـدٍ من باحثينا المعاصرين بنشر هـذه المخطوطة الفريـدة ، سوف يلقى المزيد من الضـوء على عالم الموشحات – ذلك العالم الذى لم يـزل مجهولاً – ويكشف عن الكثير من النصـوص .. وعمـومًا ، فإن لم يقيض لنـا الله هـذا البـاحـث المحقق ، فأظن أن الدارسين الأسبان المعـاصرين من شأنهم المسارعة إلى نشر هذه المخطوطـة ، فهم اليوم مهتمون أبلغ الاهتمام بالتراث الأندلسى ، ولعلهم يعتبرونه تراثهم لا تراثنا .



(١) مخطوطة الروضة ، ص ١٦٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة
واستعملنا بلذة السماع، وجعله قوتا للقلوب وشفاء ونزهة
للنفوس، وصحة للأبدان تستروح به الأعضاء من آلامها وتبلغ به
منتهى ملاذ الاستمتاع، وفيه ارتياح للأرواح وتسلية للأنفس
التي [illegible] في الأوضاع وتراخى معه في الاستبدال [illegible]
وجزء ما كان من التدبير في الأحوال [illegible] الآلاء ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي خص بنعمة الغناء
الآذان، وتعطف عليهم بنعمة الإحسان، ونشهد
أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله سيد النبيئين، والمبعوث
لكل [illegible] المنتخب من أشرف الآباء وأكرم الجدود [illegible]
[illegible] وخلة إبراهيم [illegible] داود، صلى الله عليه وعلى

الورقة الأولى من مخطوطة: الروضة الغنّاء

(نسخة الخزانة العامة بالرباط - المغرب)

وسميته بالروضة
الغنا في اصول الغنا

الورقة الثانية من المخطوطة

الورقة الرابعة من المخطوطة

وفى هوامشها تعليقات

الشَّجَرة لإظهَارِ الثَّمَرَة

للمَقْدِسِى

جاء على غلاف المخطوطة : هذه الرسالة المسمَّاة بـالشجرة لإظهار الثمرة تأليف العارف المحقق ، المتقن المدقق ، خلاصة عصره ، ونتيجة عنصر عصره ، أبى محمد عز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسى ، رضى الله عنه وأرضاه ، ونفعنا به والمسلمين .. آمين .

* * *

والمؤلف - ابن غانم المقدسى - واحدٌ من مشاهير رجال التصوف فى زمنه ، ولد سنة ٩٢٠ ، وتوفى بالقدس الشريف (الأسير) سنة ١٠٠٤ هجرية ؛ مما يعنى أنه قضى حياته فى القرن العاشر الهجرى ، وأدرك القرن الحادى عشر .. وهو عصرٌ فيه رأيان متعارضان :

الرأى الأول ؛ أنه كان عصر انحطاطٍ عامٍّ وتدهور ، ففى القرن العاشر الهجرى تخلَّف العلم الإسلامى الذى كان متقدمًا قبل ذلك ، ورزحت البلدان العربية تحت وطأة الحكم العثمانى الذى أخلى البلاد من المهارات الفنية والكتب العلمية وغير العلمية ، ليجعل من قاعدة العثمانيين وعاصمتهم - الآستانة - المنارة الوحيدة فى الامبراطورية العثمانية ، وقد أطلت شمسُ القرن الحادى عشر ، والحال فى بلدان العرب أسوأ ما يكون ، فلا علم دينى ولا دنيوى .. وإنما جهل فاحش وسياسة ظالمة .

والرأى الآخر ؛ أنه كان عصر قوةٍ للمسلمين ، فالدولة العثمانية التى تصدَّت للأطماع الأوربية فى العالم الإسلامى ، هى مظهرٌ لقوة الإسلام ، يضاف إليها دولتا (الصفوية) فى

فارس، و(المغولية) فى الهند .. وكلتاهما – مع دولة آل عثمان – معبرٌ عن قوة المسلمين العسكرية والسياسية فى القرنين العاشر والحادى عشر .. بالقياس إلى حالهم بعد ذلك ، وحتى اليوم . وإذا كنت ، الحالة العلمية قد تراجعت ، إلا أن القرن الحادى عشر شهد من الجهود العلمية قدرًا كبيرًا ، ونبغ من العلماء مشاهيرٌ فى كل فن[١] ، مما يعد محاولة لتأسيس نهضة إسلامية جديدة ، لم تكتمل بسبب الاختراق الأوروبى للعالم الإسلامى ، ووقوع بلدان الإسلام فى نهاية الأمر تحت الاستعمار الذى أجهض هذه النهضة[٢] .

وفى التصوف وحال الصوفية إبان هذا العصر – أيضاً – رأيان متعارضان .. الأول: يرى أن التصوف قد بلغ آنذاك قمة تدهوره وسيطرت الخرافة عليه ، حتى كان لجهلة المتصوفة اليد الطُولى فى تسيير مصالح العباد والبلاد ، وقد أمعن مشايخ التصوف فى الجهل والأمية ، حتى إن الشعرانى – إمام التصوف فى القرن العاشر – يذكر أنه تتلمذ لسبعين شيخًا .. كلهم أُميُّون .

والرأى الآخر يقرر أن هذا العصر حفل بمشايخ الصوفية الكبار الذين قاموا بدورهم فى حفظ الدين ، فجمعوا بين علوم الشريعة – كالفقه – وعلوم الحقيقة وقواعد السلوك ، فكان هناك ، إلى جانب الشعرانى ، أبو السعود الجارحى وزين العابدين البكرى ، وغيرهم الكثير من مشايخ التصوف المرموقين فى العلم والعمل .

ونرى من جانبنا ، أن عصر المقدسى – القرنين العاشر والحادى عشر – لم يكن من عصور النهضة الإسلامية ، بالقياس إلى القرون السابقة ، لكنه كان نتيجة طبيعية لتدهور أحوال السياسة والاقتصاد فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، ولقد أفاق المسلمون فى القرن الحادى عشر فحاولوا استدراك ما فاتهم ، وظهرت شواهد الإفاقة الحضارية تلك ، فى العديد من الأعمال الموسوعية التى تم تدوينها فى أواخر القرن العاشر وبدايات الحادى عشر .. لكن

---

(١) راجع تراجم علماء هذا القرن فى كتابا المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .

(٢) يمكن الرجوع إلى تفاصيل هذا الرأى ، فى كتاب المستشرق الأمريكى المعاصر « بيتر جران » المترجم للعربية ، بعنوان : الجذور الإسلامية للرأسمالية (طبعة دار الفكر للدراسات والتوزيع والنشر) وانظر ما سنقوله فى الفصل الحادى والعشرين من هذا الكتاب ، عند الكلام عن مخطوطة « عين الحياة » للدمنهورى .

هذه الحركة لم تثمر ، مع تزايد الأطماع الأوروبية وتناقص القوة الإسلامية - متمثلة فى العثمانيين - حتى جاء القرن الثانى عشر الهجرى مسرحاً لتساقط أرجاء العالم الإسلامى تحت السيطرة الأوروبية التى حولت الأنظار والجهود الإسلامية عن غايتها ، وتلاعبت بها ..ولا تزال تتلاعب. أما التصوف ، فشأنه شأن كل مظاهر الحياة ، لا يعكس إلا الواقع الحضارى ، فإذا كان العصر عصر نهضةٍ وتحضرٌ، نهض التصوف وكان مرآةً للتحضر .. وإذا تدهورت الأحوال، تدهور التصوف مع بقية مظاهر الحياة فى المجتمع الإسلامى ، ولقد ظل التصوف يتطور مع تطور الحضارة الإسلامية ، حتى توقَّف مع توقفها ، وتجمَّدت مسيرته عند تراث الأوائل ، وانتشرت الطرق الصوفية على نطاق واسع .. ربما لشعور الجماعة الإسلامية بالخطر العام ، ومحاولة درء الخطر بالتقوقع على الذات ، ومن هنا كان الإنتاج الصوفى المدوَّن فى القرنين العاشر والحادى عشر إما مؤلفات فى دقائق السلوك وفروعه ، أو شروح على فنون الكتب الصوفية السابقة ، وكان ابن عربى هو صاحب النصيب الأكبر من تلك الشروح .

* * *

وكان الفقه الحنفى هو المذهب الرسمى للدولة العثمانية ، فانتعش المذهب وساد[1] . وقد اشتهر ابن غانم المقدسى كواحد من كبار فقهاء الأحناف فى عصره ، لكنه - مع ذلك - لم يضع مؤلفات فقهية على المذهب الحنفى أو غير الحنفى ، وإنما جاءت مؤلفاته فى شكل رسائل صغيرة يغلب عليها طابع التصوف .

ومن مؤلفات المقدسى تلك الرسالة المسماة « تفليس إبليس » وفيها يعارض ابن غانم كتاب ابن الجوزى المشهور « تلبيس إبليس » وهو الكتاب الذى أساء فيه ابن الجوزى لكبار

---

(١) يقرر بعض الدارسين أن عصور التخلف ، كانت دومًا مرتبطة بسيادة الفقه الحنفى ! وهى قضية تحتاج لمراجعات كثيرة .

الصوفية الأوائل ، فاستاء منه - ومن صاحبه - معظم الصوفية الأواخر [1].. يقول ابن غانم : وقد وضعت كتابى هذا ، وسميته تفليس إبليس ، ليكشف للناظر فيه تلبيس إبليس ، فيميِّزْ بين الخسيس والنفيس ، فإنى لما اطلعتُ على كتاب « تلبيس إبليس » ورأيته بِئْسَ الجليس ، فإنه يشتمل على تنقيص أولياء الله والقدح فى علو مراتبهم وزكىِّ مناصبهم ، واتهامٍ أن الشيطان تسلَّط عليهم تسلُّطًا ، والله تعالى يقول: ﴿ إن عبادى ليس لك

---

(1) يعبر الصوفى المعاصر ، الشيخ إبراهيم حلمى القادرى ، عن وجهة النظر الصوفية فى ابن الجوزى وكتابه « تلبيس إبليس » فيقول :

إن ابن الجوزى فى كتابه (تلبيس إبليس) ونحوه من الكتب التى ألَّفها أيام شبابه ورعونته ، حَطَّ على السادات الصوفية بل وجميع أصناف الناس ، وذكر تلبيس إبليس عليهم ، إلا أنه لم يذكر تلبيس إبليس عليه وعلى أذنابه ، وليس من شك فى أنه لَبَّسَ عليه وعلى أذنابه بهذا التلبيس وما شاكله من تآليفه الممقوتة. والحق أن ابن الجوزى ، المتوفى ٥٩٧ هجرية ، له منزعٌ لا يساعده أن يتذوق ما للسادات الصوفية بحال من الأحوال ، ومن ذلك أنه كان يومًا يعظ الناس على المنبر ، إذ قام بعض الحاضرين وقال : « يا أيها الشيخ ، ما تقول فى امرأة بها دَاءُ الأُبنة » فقال على الفور :

يَقُولونَ لَيْلَى بِالعِرَاقِ مَرِيضَةٌ ... فَيَا لَيْتَنِى كُنْتُ الطَّبِيبَ المُدَاوِيَا

وكان لابن الجوزى أيضًا ، امرأة تسمَّى « نسيم الصبًا » فطلقها ، وندم ، فحضرت يومًا مجلس وعظه وحال بينه وبينها امرأتان ، فأنشد مخاطبًا لها :

أَيَا جَبَلَىْ نُعْمَانَ بِاللهِ خَلِّيَا ... نَسِيمَ الصبًا يخلص إلىَّ نَسِيمُهَا

وكان لا ينفكّ عن جارية حسناء ، وله مجونٌ ومداعبات ، وذكر غير واحد أنه شرب حَبَّ البلادر فسقطت لحيته فكانت قصيرة جداً ، وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات .. فكيف لابن الجوزى وأذنابه أن يتذوقوا ما للسادات الصوفية ، وما ذكره أبو نعيم والقشيرى والغزالى والمحاسبى والطوسى وأمثال هؤلاء ، وهذا حاله ؟ ولابن الجوزى ادعاءات عريضة وشطحات فَشَّارية تجدها فى آخر كتابه (القُصَّاص والمذكِّرين) فمنها قوله : « ولا يكاد يُذكر لى حديث إلا ويمكننى أقول : صحيحٌ أو حَسَنٌ أو محال » ومن المعلوم الذى لا يخفى على أهل العلم أنه حكم على كثير من الأحاديث الصحيحة والحِسَان بأنها موضوعة ، فأخطأ وحكم عليه العلماء بالوهم ولاموهُ ... وقال الشيخ موفق الدين المقدسى : « لم نرض تصانيفه فى السنة ولا طريقته فيها » فإن كان ابن الجوزى غير مَرْضىٍّ عنه فيما تخصص فيه ، فكيف يُقبل قوله فيما لا يقبله عقله ويأباه قوله .

ويمضى الشيخ إبراهيم حلمى ، فيعدد مثالب ابن الجوزى ، ثم يقول : ومع ذلك فقد بلغنى ممن لقيت من الشيوخ أن ابن الجوزى تاب أخيراً ، وحسُن اعتقاده فى السادات الصوفية ، بعد أن هدأت ثورة شبابه وذهبت رعونته ، والعقل يصدق ذلك ، لأن العلم يهدى فى الغالب صاحبه إلى طريق الحق ولو بعد حين (مدارج الحقيقة ، طبعة الإسكندرية ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م ، ص ٥٥ / ٥٩) .

عليهم سلطان ﴾[1] فكيف الواقع فيهم ، والناقد عليهم ما تأدَّب معهم بما تأدَّب بـه إبليس معهم حيث قال: ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[2] لما عَلِمَ أن لله خُلصاء لا يخلص إليهم[3] .

وفى « تفليس إبليس » يسوق ابن غانم المقدسى حُجج إبليس ، فيرد عليها ، وكأنه يحاوره ، يقـول ابن غانم : ولقـد أوقفته - يقصـد إبليس - مـوقف الجدال ، ونازلتـه فى معرك النـزال ، فجعل يجول وأجول ، ولكنه أسَّس بنيانه على أساس الوسـواس ، وأسَّستُ بنيـانى على قواعـد ﴿ قل أعوذ برب الناس﴾ فجعل يُعاملنى معاملة الطالب ويراوغُنى مراوغة الهارب .. إلخ[4].

ولم يكن ابن غانـم هو أول من تعـرَّض لمسألـة « إبليس » ، فقد سبقـه - بقرون - صـوفىٌّ آخـر ، هو الحلاج (أبـو المغيث ، الحسين بن منصـور ، المقتول ببغـداد سنـة ٣٠٩ هجريـة) فكتب فصـلاً فى « الطواسين » عن إبليس وجعلـه بعنوان : طـاسين الأزل والالتباس[5] وإن كان الحلاج قـد اتخذ موقف الاعتـذار واللوم لإبليس ، فإن ابـن غانم المقدسـى كان يهدف إلى إفحام إبليس إفحامًا تـامًّا ، وبيان تهافُت حججه واحتجـاجه بالقدر . لكن ابن غـانـم - بعد الحلاَّج - يعـد أول من سـاق العبارات ، والأشعـار ، على لسـان إبليس ، فجعلـه فى « تفليس إبليس » يفصح عن نفسـه ، ليتسنَّى لابـن غـانم بعـد ذلك - الـرد عليـه ، وتعقُّب دفـاعـه ، وإفحامه .

وقد نُشر كتـاب « تفليس إبليـس » نشرة متواضعـة بالقاهـرة (دار أنوار القـرآن - مكتبة نجمة الحسين بـالأزهر ، سنـة ١٩٧٨) بعنايـة / عبد الله نجيـب ، المدرس بجامعـة الأزهر - وأضاف الناشر إلى الكتاب ، قصيدة ابن تيمية فى حُكم القضاء والقدر .

(١) سورة الحجر ، آية ٤٢ .
(٢) سورة ص ، آية ٨٢ .
(٣) ابن غانم المقدسى : تفليس إبليس ، ص ١٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٣ .
(٥) انظر « الطواسين » نشرة لوى ماسينيون ، باريس ١٩١٣ .

ولابن غـانم المقدسى كتـابٌ آخـر ، بعنوان « منتخب فى مصـايد الشيطـان وذم الهوى » عمد فيـه إلى اختصار كتاب « إغـاثة اللهفان من مصـايد الشيطـان » لابن قيم الجوزية ، فلم يخرج فيه عن حدود الكتاب الأصلى ، واكتفى بانتخاب بعض نصوصه واختصار بعض مباحثه لتسهيل الانتفاع بـه .. وتوجد نسخـة خطية من هـذا المنتخب ، محفوظة بـدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٩٩ / أخلاق تيمـور ، وقد نشرهـا إبراهيـم محمد الجمـل ، وصـدرت عن (مكتبة القرآن بالقاهرة ، سنة ١٩٨٣) .

* * *

أما « الشجرة لإظهار الثمرة » فهى نصٌ مخطوط لم يُنشر مـن قبل ، توجد منه نسخة خطية بمكتبة بلدية الإسكندرية ، تحت رقم ٣٥٦٢ / د .. وتمتاز هـذه الرسالة عن مؤلفات ابن غانم المقدسى ، بأنها تأليفٌ خـالص - فـإذا كان « التفليس » هو معارضـةٌ لكتـاب ابن الجـوزى ، و« المنتخب » هو اختصار لكتاب ابن القيم ، فإن « الشجـرة » هى مؤلَّفٌ خاص لم يعتمد فيه ابن غانم على تصانيف السابقين .

فى هذه المخطوطة ، يستعرض المؤلِّف قصة الخلق بأسلوب رمزى أخَّاذ ؛ فينظر إلى الوجود على أنه شجرة نبتت من بذرة الأمر الإلهى « كُنْ » فأورقت حتى ظهرت ثمار ﴿ كل شيء خلقناه بقَدر ﴾ [1] وهو يمزج كلامه بالنصِّ القرآنى مـزجاً لطيفا بليغاً ، فنراه - مثلاً - وهو يحكى قصة خروج آدم من الجنة ، متعرضًا فى ذات الوقت لمسألة إبليس ؛ يقول :

وأما إبليس ، فإنه مكث فى مكتب التعليم أربعين ألف عام ، يتصفَّح حروف « كُنْ » وقد وكَّله المُعلم إلى نفسه ، وأحالـه على حوله وقوته ، فكان ينظر إلى تمثـال « كن » فيشهد من كافها كـاف كفـره وكبره ﴿ فَأَبَى واسْتَكْبَرَ وَكـانَ مِنَ الكَـافـِرِينَ ﴾ [2] ويشهـد من نونها نـون ناريتـه

(١) سورة القمر ، آية ٤٩ .
(٢) سورة البقرة ، آية ٣٤ .

﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون﴾[1] فلما نظر آدم إلى اختلاف أغصان هذه الشجرة، وتنوع أزهارها وثمارها، وتشبَّث بغصن ﴿إنى أنا الله﴾[2] فنوديَ من ثمار التوحيد، واستظل بظل التفريد و﴿لا تقربا هذه الشجرة﴾[3] فأراد إبليس أن يوصله بغصنه ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾[4] فأكَلاَ منها، فزلق فى مزالق ﴿وعصى آدم ربه﴾[5] فاستمسك بغصن ﴿ربنا ظلمنا﴾[6] فتدلَّت له ثمار ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾[7] فلما نُودى يوم الإشهاد على رؤوس الأشهاد ﴿ألستُ بربكم﴾[8] فشهد كُلٌّ على مقدار ما أُشهر وأُسمع من الخطاب، ثم اتفق الكُلُّ فى الإيجاب فقالوا: ﴿بلى﴾ لكن الاختلاف وقع من حيث الإشهاد، فمن أشْهِدَ كمالية ذاته، شَهِدَ أن ﴿ليس كمثله شىء﴾[9] ومن أشهده جلالية صفاته شَهِدَ أنه ﴿لا إلٰه إلا هو الملك القدوس﴾[10] ومن أشهده عرائس مخلوقاته، اختلفت شهادتهم لاختلاف الشهود، فقوم جعلوه محدوداً[11]، وقوم جعلوه معهوداً[12]، وقوم جعلوه مولوداً[13]، وقوم جعلوه حجرا جلموداً[14]، والكل فى ذلك على حكم ﴿قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾[15] وهو مستنبط من كلمة: كُنْ[16].

---

(1) سورة الشعراء، آية ٩٤.
(2) سورة طه، آية ١٤.
(3) سورة البقرة، آية ٣٥ – سورة الأعراف، آية ١٩.
(4) سورة الأعراف، آية ٢٠.
(5) سورة طه، آية ١٢١.
(6) سورة الأعراف، آية ٢٣.
(7) سورة البقرة، آية ٣٧.
(8) سورة الأعراف، آية ١٧٢.
(9) سورة الشورى، آية ١١.
(10) سورة الحشر، آية ٢٣.
(11) الإشارة إلى المجسمة الذين قالوا: إن لله – تعالى – جِسْم وحَد ومقدار.
(12) الإشارة إلى اليهود، القائلين: خلق الله آدم على صورة الرحمن.
(13) الإشارة إلى النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح.
(14) الإشارة إلى الوثنيين الذين عبدوا الأصنام.
(15) سورة التوبة، آية ٥١.
(16) المخطوطة، ورقة ٣ ويلاحظ أنه فى النص الأصلى لا يوجد فاصل بين الآيات والعبارات، كما هو الحال هنا.

ويتعرَّض ابـن غانم المقـدسى لأنوار النبى محمـد - ﷺ - ومرتبتـه فى شجــرة الكون ، فيقول : فأوّل ما عهد خُولى [1] هذه الشجـرة ، إلى أصل حَبَّة « كُنْ » فاعتصر صفـوة عنصرها ، ومَخَّضَها حتى بدت زُبدتها ، ثم صَفَّاها بصفات الصفوة حتى زال كدرها ثم ألقى عليها من نور هدايته حتى ظهر جـوهرها ، ثم غمسها فى بحر الرحمة حتى زال كـدرها ثم ألقى عليها من نور هدايته حتى ظهـر جوهرها ، ثم غمسهـا فى بحر الرحمة حتى عمَّت بركتهـا ، ثم خلق منها نور نبينا محمـد ﷺ ، ثم زَيَّنَ بنوره الملأ الأعلى حتـى أضاء وعلا ، ثـم جعل النور أصلا لكـل نور ، فهـو أولهم فى السطور ، وآخـرهم فى الظهـور [2] ، وقـائدهم فى النشـــور ، ومبشرهم بـالسرور ، ومتوِّجهم بـالحبور ؛ فهو مُستـودعٌ فى ديوان الأُنس ، مُستقرٌّ فى ريـاض حَضرة القدس [3] ، سَتَرَ معنى روحـانيته بسَتْر جُثمانيتـه ، وغَطَّى عالم شهـوده بعالم وجوده ، فهـو مستخرجٌ مـن الكون ، مستنبطٌ لأجله الكون [4] .

وعلى هذا النحو تسير المخطوطة ، فتعرض لمظاهر الخَلْق وحقائق الوجود ودقائق الإسلام واختلاف الأديـان ، وغير ذلك من الموضوعات ، وفى آخر المخطـوطة جمع الناسخ مجمـوعةً من أشعار ابن غانم المقدسى ، منها تلك القصيدة (من الخفيف) :

يَـــــاحُـــــداةَ المَطِىّ رِفْقًــــا فَإِنِّى ... مِـنْ جَنَـــابِ الحَبِيبِ آنَسْـتُ نَـــارا

خَفِّـفِ السَّيْرَ بِـــالمَطِىِّ ودَعْهَـــــا ... فَـــرْحَـــــةُ القَلْبِ تَخْلَـعُ الأَكْــوَارا

جِئْـنَ سَعْيًـــا إِلَىَ حِمَاكَ عَسَـــاهَـــا ... بِخُطَـــــــاهَـــــا تُخَفِّـفُ الأَوْزَارا

قَــدْ أَتَيْنَــاكَ لِلــزِّيَـــارةِ شُعْثًـــا ... يَـــا مَــــزُورًا هَـلْ تَقْبَـلُ الــزُّوَّارا

لَــوْ بِقَــدْرِ الأَشْـوَاقِ زُرْنَــاكَ يَـومًـا ... لَسَعَيْنَـــا عَلَى الجُفُـــونِ صِغَـــارا

---

(١) الخولى ، القائم بأمر النباتات « الجنايني » والمراد به هنا : الله تعالى .

(٢) من هنا نقول للنبى ﷺ : يا أول خلق الله وآخر رُسل الله .

(٣) استخدم المقدسى هنا اصطلاح (المستودع - المستقر) وهو من مصطلحات الشيعة الإسماعيلية فى قولهم بالإمـام المستودع والإمام المستقر .. راجع بخصـوص ذلك ، د/ محمد على أبو ريـان : الفكر الفلسفى فى الإسلام (طبعة دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٨) .

(٤) المخطوطة ، ورقة ٦ أ .

قَــدْ أَنَخْنَــا بِبَــابِ جُــودِكَ نَــرْجُــو ... مِنْكَ عَفْــوًا يَمْحُــو الــذُّنُــوبَ كِبَـارا

وَلَنَــا مِنْـكَ حُــــرْمَــــةُ الجَارِ لَمَّا ... لاَذَ بِــالجَارِ والتَّجَـــا واسْتَجَـــارا

مَنْ سَعَـى بــالصَّفَــا إِلَيْكَ اشْتِيَــاقــا ... ثُــمَّ لَبَّى واسْتَمْسَـكَ الأَسْتَـــــارا

فَجَــديِــــرٌ بِأَنْ تُـــرِيـــهِ جَمَالا ... بِمَعَــــانيــــهِ حَيَّرَ الأَفْكَــــارا

أَنْتَ لَــوْلاَكَ مَــاحَبَسْتُ قُلُــوصِى[1] ... بِطُلُـــولٍ أُنَــاشِــدُ الآثَــارا

لاَ ولاَ طُفْتُ بِــالــرُّبــوعِ سُبُــوعــا ... فِى طَــــوَافِى أُقَبِّلُ الأَحْجَــــارا

مَا الصَّفَــا ، مـا الْحَطِيمُ ، مــا الْبَيْتُ لَـوْلا ... كَ تَــوَلَّتْ عَنْهَــا الْقُلُــوبُ فِــرارًا

مَــا وقُــوفِى عِنْـدَ الْمَشَــاعِــرِ لَــوْلا ... جَعْلُ الــذِّكْــرِ لِلقُلُــوبِ شِعَــارا

رَمَيْــتُ جَمْرَةَ الهَوَى بِفُـــــؤَادِى ... قَبْـلَ أَنْ يَعْــــرِفُ الحَجِيجُ الجِمَارا

هَـــذِهِ كُلُّهَـــا إِشَــاراتُ سِرٍّ ... يَجْتَلِيهَـــــا مَـنْ يَفْهَـمُ الأَسْرَار

يَـــا عَـــذُولِى دَعِ المَلاَمَ فَـإِنِّى ... عَـنْ غَــرَامِىَ لاَ أَسْتَطِيعُ اصْطِبَــارا

.. ومن أشعار ابن غانم الواردة بآخر المخطوطة ، تلك الأبيات فى ليلة الإسراء (من الكامل) :

سُبْحَـــانَ مَنْ أَسْرَى إِلَيـــهِ بِعَبْــدِهِ ... فِى لَيْلَـــةٍ شَرُفَتْ بِطَــالِعِ سَعْــدِهِ

أَعْطَـــاهُ مَــالَمْ يُعْطَ خَلْقٌ مِثْلَـــهُ ... مِـنْ قَبْلِـــهِ كَــلاً وَلاَ مِنْ بَعْــدِهِ

جِبْرِيـلُ حَــامِلُ بُــرْدِهِ لَمَّا سَرَى ... لَيْــلاً وَمِيكَــائِيلُ نَــاظِمُ عُقْــدِهِ

والأَنْبِيـــاءُ بِجَمْعِهِـمْ وبِعَـــدِّهِـمْ ... جُمِعُـــوا لَـــهُ فَكَأَنَّهُمْ مِـنْ جُنْــدِهِ

وَسَمَا إِلَى فَـــوْقِ السَّمَا وعَــــلاَ عَلَى ... دَرَجِ العُـــلاَ لَمَّا عَــلاَ فِى جَــدِّهِ

وَدَنَـــا إِلَى ذَاكَ الجَنَـــابِ وَلَمْ يَــزَلْ ... دَانٍ عَلَى قُـــرْبِ المَزَارِ وبُعْــدِهِ

فِى قَــابِ قَــوْسَيْنِ دَنَــا مِـنْ رَبِّـــهِ ... سَمِعَ الْخِطَـــابَ وَلَمْ يَخَفْ مِنْ صَــدِّهِ

(١) القلوص : الإبل .

مَـــا زَاغَ ذَاكَ الطَّـــرْفُ مِنْــه وَلاَ طَغَى ذَاكَ الفُـــؤَادُ ولاَ عَـــدَا عَنْ حَـــدِّهِ

وَلَقَـــدْ عَجِبْتُ لَـــهُ وَقَـــدْ أَسرَى بِـــهِ لَيْـــلاً يُـــرِيـــدُ تَسَتُّرًا فِى قَصْـــدِهِ

هَيْهَـــات يخْفِى اللَّيْـلُ طَلْعَـــةَ بَـــدْرِهِ أَوْ يَنْطَـــوِي نَشْرُ الْعبير بِنَـــدِّهِ[1]

وفى خاتمة المخطوطة قصائد غير هــذه وتلك ، منها أبيات فى المحبـة الإلهية وفى زيـارة البيت العتيــق وفى شـرف مكـة والحجـاز وفى فضــل النبى عليـه الصلاة والسـلام .. وعلى الورقة الأخيرة :

« تمَّ كتاب الشجـرة وما يتعلق به من كلام مـؤلفه - رضى الله عنه ، ورضى عنا بـه - إنه ولىٌّ ذلك والقادر عليه » .

---

(١) المخطوطة ، ورقة ٢٦ب ، ١٢٧ .

(٢) المخطوطة ، ورقة ٢٧ب .. والنَّدُّ : نبات طيب الرائحة

هذه الرسالة المسماة بالشجرة لإظهار الثمرة
تأليف الشيخ العارف المحقق والمتقن المدقق
خلاصة عصره ونتيجة [illegible]
أبي محمد عز الدين عبد السلام
ابن أحمد بن غانم المقدسي
رضي الله عنه وأرضاه
تعالى
آمين

غلاف مخطوطة « الشجرة »

نسخة بلدية الإسكندرية رقم ٣٥٦٢/ د

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم الحافظ الورع الزاهد فريد زمانه ووحيد
عصره وأوانه أبو محمد عز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي
رضي الله عنه ورضي عنا به الأحدي الذات الفردي الصـ
الذي تقدس وجوده عن الجهات وقدمه عن الحادثات وقدمه
عن الخطوات [illegible] عن الحركات وعينه عن اللحظات واستواؤه
عن الانتقالات [illegible] الانفصالات وقدرته عن [illegible]
وإرادته عن الشهوات الذي لا تتعدد صفاته بتعدد الموصوفات
ولا تختلف إرادته باختلاف المرادات كون بكلمة كن جملة الكائنات
وأوجد بها جميع الموجودات فلا موجود إلا مستخرج من كنزها المكتوم
ولا [illegible] إلا المستخرج من سرها المصون قال الله تعالى
لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون وبعد فإني نظرت في سر
التكوين وتكوينه وإلى المكون وتلوينه رأيت الكون كله مختصر
أصل ذرة من هيئة كن قد لقحت كاف الكونية بلقاح نون [illegible]
نحن خلقناكم فانعقد من ذلك [illegible] إنا كل شيء خلقناه بقدر
فأظهر [illegible] شخصين مختلفين أصلهما واحد وهو الإرادة وفرع
واحد وهو المرادات فلما ثبت أصلهما ونبت فرعهما ظهر [illegible]
الكافات [illegible] مختلفان كاف الكمالية اليوم أكملت لكم دينكم وكاف
الكفرية فمنهم من آمن ومنهم من كفر وظهر عن جوهر النون نون النكرة ونون
المعرفة فلما [illegible]

الورقة الأولى من المخطوطة

روحي وتكون فداك

تم كتاب التشبيرة وما يتعلق به من كلام مولفه رضي

الله تعالى عنه ورضي عنا به انه ولي ذلك والقادر

عليه وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد خاتم المرسلين

وعلى آله وصحبه واهل بيته وحزبه اجمعين

وسلم تسليما كثيرا دايما ابدا

الى يوم الدين والحمد

لله رب

العالمين

الورقة الأخيرة

شَرْحُ تَقْدُمَةِ المعْرِفَةِ

للبغدادي

حاول بعض الغربيين المحدثين ، الترويج للفكرة القائلة: « إن اليونان القديمة هى مهد العلم والفلسفة » وبالتالى فإن العلم انطلق من الغرب القديم ، وهو الآن يبلغ قمة تطوره فى الغرب المعاصر ، فلا فضل فى تاريخ الحضارة لغير الغرب القديم والحديث ، وكل ما فعله العرب فى هذه المسيرة الغربية للحضارة ، هو أنهم حافظوا على أصول العلم اليونانى لعدة قرون ، حتى تسلمتها منهم أوروبا وهى تؤسِّس نهضتها الحديثة وتطوِّر إسهامات اليونان !.

ولا شك فى أن ترديد هذه الأفكار ، قد صار اليوم يدعو للشفقة والسخرية من قائليها ؛ فقد أثبتت البحوث والدراسات - بما لا يدع مجالاً للشك - أن اليونان كانت مجرد حلقة من تطور الحضارة الإنسانية ، فقد استعارت علومها وفلسفتها من تراث مصر الفرعونية وممالك شرق المتوسط وبلاد الهند[1] ، فظلَّ ذلك الإنتاج الحضارى السابق عليهم يتطور على أيديهم وبجهود علمائهم ، حتى التقطت أوروبا الخيط عبر مرحلتين ؛ الأولى أخذت فيها أوروبا من العرب إنتاجهم العلمى وترجمته من العربية إلى اللاتينية ، والثانية أعطت أوروبا لبلدان العرب - ردًّا للجميل - حملات الاستعمار التى حرصت على أن تظل بلاد العرب متخلِّفة .

(١) فى مقابل القائلين بالمعجزة اليونانية يقول الدكتور عبد الحليم منتصر : الباحث المنصف لايمكن أن يغفل أمر المدنيات القديمة التى سبقت العصر الأغريقى وتقدمت عليه فى التاريخ ؛ إذ لا يمكن أن تكون المدنية الأغريقية نشأت فجأة وبمعزل عن المدنيات الأخرى من بابلية وأشورية ومصرية فرعونية ، وقد كانت بين الأغريق والمصريين القدماء صلات وتجارات وحروب .. وقد أنصف هيرودتس الملقب (بأبى التاريخ) هذه الحضارات عندما قال : إن معظم فلاسفة الأغريق القدامى أمضوا جانبًا من حياتهم فى مصر وبلاد ما بين النهرين (تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدُّمه ، الطبعة الرابعة - دار المعارف ١٩٧١ ، ص ٢) وبخصوص تلك « المعجزة اليونانية » راجع : سارتون ، تاريخ العلم (دار المعارف) ١/ ٢٨٧ ، ٣٤٧ .

والمخطوطة التى تدور حولها السطور التالية ، وثيقة من وثائق الصلة بين اليونان القديمة والعرب من ناحية ، وبين العرب القدماء وأوروبا الناهضة من جهة أخرى .

* * *

فى أيام اليونان القديمة ، وفى جزيرة « كوس » سنة ٤٦٠ قبل الميلاد ، ولد الطبيب الشهير : أبقراط[١] . وقد تعلَّم الطب من والده ومن غيره من أطباء الأسرة التى نشأ فيها ، أسرة « إسكليبوس » التى احتكرت المعرفة الطبية واعتبرتها موروثًا خاصًا بها ، ولم تدوِّن المعارف الطبية لئلا يطلع عليها غيرهم ، لكن أبقراط سوف يخالف هذه القاعدة (الأنانية) ليصبح : أول مَنْ دوَّن علم الطب[٢].

وقولنا : إن أبقراط هو « أول من دَوَّن الطب » إنما ينسحب فقط على التاريخ اليونانى ، ولا يجوز إطلاقه على التاريخ البشرى كله ، وإلا فقد دَوَّن المصريون القدماء الطبَّ قبل أبقراط بقرون طويلة ، المهم ترك أبقراط مجموعة كبيرة من المؤلفات ، منها كتاب « تَقْدمة المعرفة » الذى نقله العرب ضمن ما نقلوا من مؤلفات الطب اليونانى لأبقراط وجالينوس وغيرهما من مشاهير الأطباء اليونانيين (كما ترجموا أيضًا كتب الهند الطبية) وجعلوا من « تَقْدُمة المعرفة » أحد المقررات الدراسية التى لابد أن يدرسها كل مَنْ أراد الاشتغال بالطب والتداوى .

---

(١) بخصوص أبقراط ، يمكن الرجوع إلى كتابنا : شرح فصول أبقراط ، لابن النفيس - مقدمة التحقيق ص ١٧ وما بعدها .

(٢) يذهب « ميشيل فوكوه » إلى أن اضمحلال الطب ، بدأ مع أبقراط . فمن خلال رؤية « شاعرية » يقرر (فوكوه)أنه : فى فجر البشرية ، كان الطب يكمن فى العلاقة المباشرة بين آلام المريض وبين ما يخفف هذه الآلام ، وهذه العلاقة يحددها الإحساس وتحتِّمها الغريزة قبل أى تجربة .. أما الاضمحلال فقد بدأ مع الكتابة والأسرار ، أى مع انتقال المعرفة الطبية إلى المتخصصين ، كما جاء هذا الاضمحلال بسبب الفصل بين النظرة والقول ، أو بين الرؤية والمعرفة ، وباختصار ، يمكن القول بأن تاريخ هذا الاضمحلال إنما يبدأ مع أبقراط ، أكبر أطباء الأغريق فى العصور القديمة ! ويستشهد (فوكوه) بعبارة(مسكاتى): إن الفلسفة قد تسللت إلى الطب ، كما انعدمت الملاحظة ، بعد أن تحول الطب إلى « نسق » على يد أبقراط (البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه ، للدكتور / عبد الوهاب جعفر - دار المعارف ١٩٨٩ - ص ٢١٢) .

وكلمة « تَقْدُمة المعرفة » تعنى التنبؤ بما سيكون عليه المرض فى المستقبل ، ويُشار إلى نفس المعنى باصطلاح آخر هو « الإنذار المرضى » وكان الأطباء يعتمدون فى هذا الإنذار المرضى – أو تَقْدمة المعرفة – على العرافة والكهانة والتنجيم[1] ، حتى جاء أبقراط واعتمد فى ذلك على الملاحظة الإكلينيكية الدقيقة ذات الطابع العلمى ، فكان بذلك ؛ أحد الذين حرَّروا الطب من الخرافة .

وكتاب « تَقْدمة المعرفة » عبارة عن مجموعة من الفقرات الطبية ذات الطابع الموجز ، تبدأ بقوله : « إنى أرى أنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر ، وذلك أنه إذا سبق فعلم ، وتقدم فأنذر المرضى ، كان حَرِيًّا بأن يوثق منه بأنه قادر على أن يعلم أمور المرضى ، حتى يدعو ذلك المرضى إلى التقربة والاستسلام فى يدى الطبيب ، وكان علاجه لهم على أفضل الوجوه » .

ونظرا للطابع الاختصارى الموجز الذى يميِّز كتاب « تقدمة المعرفة » فقد أقبل الأطباء فى العصور المختلفة على شرح عباراته وتأويل مقاصده ، لما يعطيه من إمكانية استعراض الجديد من المعارف الطبية فى كل عصر ، فكل طبيب يفهم النص فى ضوء ما توصَّل إليه من معلومات طبية ، فيضع شرحه الخاص على « تقدمة المعرفة » وكأنه يصوغ معارفه هو ، ويضع تصوراته ومعلوماته الخاصة .

ومن أهم الشروح على الكتاب ، شرح الطبيب اليونانى « جالينوس » وقد تُرجم هذا الشرح إلى اللغة العربية منذ وقت مبكر ، وقام بالترجمة « حنين بن إسحاق » بتكليف من الخليفة المأمون .. أما الشروح العربية فهى : شرح ابن أبى الصادق النيسابورى – شرح أمين الدولة ابن التلميذ – شرح مهذب الدين الدَّخْوار – شرح عماد الدين الدُّنَيْسرى – شرح يوسف بن محمد التبريزى .. وقد وضع العلامة علاء الدين بن النفيس شرحين على تقدمة المعرفة[2].

(١) راجع : د/ عبد اللطيف البدرى : التشخيص والإنذار فى الطب الأكدى (المجمع العلمى العراقى – بغداد ١٩٧٦) .

(٢) انظر ما ذكرناه عن هذين الشرحين فى استعراضنا لمؤلفات ابن النفيس ، بالدراسة المنشورة مع تحقيقنا لكتاب: المختصر فى علم الحديث النبوى (نشرة الدار المصرية اللبنانية – القاهرة) ص ٥٠ وما بعدها .

والشروح العربية على كتاب (تقدمة المعرفة) فى حاجة إلى دراسة علمية تاريخية من شأنها أن تكشف الكثير عن تطور الطب العربى[1] .

* * *

وللطبيب المسلم : موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (المتوفى سنة ٦٢٩ هجرية) شرح على كتاب تقدمة المعرفة [2]. توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٧٥١ / ل .. وهو ، كغالبية مؤلفات البغدادى ، لم يُنشر بعد .

يبدأ البغدادى شرحه بمقدمة يقول فيها : « الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين ، وبعد فراغى من (شرح) كتاب بقراط المعنون بكتاب الفصول، رغَّب إلى بعض مَنْ يجب حقه علىَّ .. أن أنهج ذلك المنهج فى كتاب تقدمة المعرفة ، إذ كان تلو كتاب الفصول فى الشرف والمرتبة ، فأجبتُ سؤاله ، وارتسمتُ ما قاله رجاء الأجر وحُسن الذكر .. وأبتدىء بالدروس الثمينة التى جرت عادة الشرَّاح أن يقدموها بين يدى كل كتاب يُقصد إلى شرحه ، وهى : الغرض المقصود من الكتاب ...» .

وعن غاية كتاب « تقدمة المعرفة » يقول البغدادى : « فغرض بقراط فى كتابه هذا، أن يفيدنا علماً بتقدمة المعرفة فى الأمراض الحادة وما يتولَّد منها ، بذكر جُمل من الدلائل والعلامات على أنواعها وأشخاصها ، وذلك بحسب الزمان الحاضر ، والمستأنف والآنف » .

ثم يقول البغدادى إن هذا الكتاب : « جزءٌ عظيم الجدوى من صناعة الطب على رأى أرباب القياس ، وهو داخلٌ تحت القسم العملى من قسمى الصناعة ، وهو منه فى تخوم القسم

---

(١) انظر ما سنقوله فى هذه النقطة بآخر الفصل التالى .

(٢) توجد ترجمات وافية للبغدادى فى المصادر الآتية :

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (بيروت) ص ٦٨٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥/ ١٣٢ - الأعلام للزركلى ٤/ ١٨٣ - كشف الظنون ١/ ١٢٣ ، ١٧٤ - ٢/ ١٠٣٨ - معجم المؤلفين لكحالة ٦/ ١٥ - ١٣/ ٤٠٠ .

وللدكتور / بول غليونجى كتاب عن البغدادى ، نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة (أعلام العرب) وهو كتابٌ لطيف مفيد .

العلمى ، إذ منه يتهيأ لتشخيص الأمراض التى لا يمكن علاجٌ إلاَّ بها .. أما مرتبته فإنه يجب أن يُقرأ بعد كتاب الفصول ؛ لأنه مقصور على تعرُّف توابع الأمراض الحادة ولوازمها ، ويجب أن يقرأ بعده كتاب الأمراض الحادة ولوازمها ، لأنه يتضمن علاجها ، وأما عنوانه فتقدمة المعرفة ، وهو مُطلق لما فيه واسمه باليونان يورغن يثطيقون ، وترجمته تقدمة المعرفة ، وأما تعليمه فهو طريق التحليل بالعكس ، وأما اسم واضعه فهو أبقراط .. وهو الرجل العميق الفكر النقى الفطنة الفائق الفطرة ، المؤيد فى قضاياه وأحكامه ، المذكِّر بأحوال الطبيعة ، المحدِّث عنها بما فيها ، وقد وصفه جالينوس وأحسن ، فقال : إن جالينوس أدَّبه الدرس ، وبقراط أدَّبته الطبيعة ، وقال مرة أخرى : إن أبقراط انغمس فى الطبيعة وسرى معها حتى انتهى إلى أعماقها ، وأخبر عما شاهد هناك »[1].

* * *

وسار البغدادى فى شرحه على طريقة (قال .. أقول) حيث يورد أولاً كلام أبقراط مسبوقًا بعبارة « قال أبقراط ... » ثم يضع شرحه على الفقرة ، وهو يلجأ أحيانًا لطريقة (الشرح الممزوج) وفيه يُورد الكلمة الواحدة ، ويعقبها بعبارة شارحة .. ومن أمثلة الطريقتين فى شرح البغدادى (التعليم العشرون) مانصه :

* قال أبقراط : وقد ينبغى أن يُسْتدَلَّ على مَنْ يسلم ، وعلى مَنْ يعطب من الصبيان ، ومن غيرهم ، كما يتبين من أمر كُلِّ واحدٍ من الأمراض .

* قال الشيخ (البغدادى) : ابتدأ - أبقراط - من هذا التعليم إلى آخر الكتاب ، فى وصايا نافعة للطبيب ، تفيده التحذُّق والاستقصاء ، ولا يهمل ولو اليسير ، ولا يغفل ولو عن الحقير ، وينظر الأمر من جهاته كلها .. إلخ .

---

(١) من المبادىء الطبية الرائعة التى نادى بها أبقراط : قوله « دع الطبيعة تعمل » .. وقد تابعه فى ذلك الأطباء المسلمون ، يقول بن النفيس: « ينبغى ألاّ تعوِّد الطبيعة الكسل ، بأن تُعالج كل انحراف عن حال الصحة وحيث أمكن التدبير (العلاج) بالأغذية ، فلا تعدل إلى الأدوية ، وإنَّا لا نُؤثر على الدواء المفرد دواءً مركبًا ، لكنَّا قد نُضطر إلى التركيب » ، وفى ضوء هذه النظرة الأبقراطية المؤثرة فى الأطباء العرب ، لا يمكن أن نتفق مع تلك الرؤية (الشاعرية) التى يقررها (ميشيل فوكوه) بقوله : إن انحطاط الطب بدأ مع أبقراط .

تلك هى الطريقة الأولى ، ومن الطريقة الثانية فى المخطوطة :

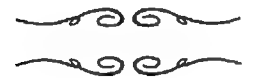
* قوله - أى قول أبقراط - وينبغى أن تتفطن بسرعة ، دائما ، لحدوث الأمراض ، أى الأمراض الوافدة من قبل اختلاط الهواء فى فصول السنة ، فإن بعض الفصول قد يولِّد أمراضًا ، ويكون سببًا لشفاء أمراض أُخر .. إلخ .

* وقوله: « بسرعة » أى قبل فوات الأمر بقضائه (= وفاة المريض) .

* وقوله: « دائما » أى فى كل مرض .

* * *

وبعد .. فتلك صفحةٌ أخرى من تراثنا الطبى المهجور الذى سبق أن استفادت منه أوروبا[1] ، لا تزال تنتظر اليوم الذى تمتدُّ إليها فيه يد باحثينا .. وها هى مخطوطة أخرى من مخطوطاتنا العربية التى تنتظر التحقيق والنشر ، فهل سيأتى اليوم ؟.



(١) ترجمت هذه المخطوطة ، مع غيرها من مؤلفات الأطباء العرب ، إلى اللاتينية فى فجر النهضة الأوروبية (الرينسانس) .

كتاب
تقدمة المعرفة لبقراط
وتفسيره
للشيخ الامام الفاضل
ابي الفضل عبد اللطيف
ابن يوسف بن محمد
البغدادي
رضي الله
عنه

غلاف المخطوطة

نسخة دار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين
محمد وآله الطاهرين

وبعد فراغي من كتاب بقراط المعنون بكتاب الفصول
رغب الى بعض من يجب حقه علي من خلصت مودته
وصدقت رغبته وجبلت على اشتهار الفضيلة طبيعته
ان انهج ذلك المنهج في كتاب تقدمة المعرفة اذ
كان تلو كتاب الفصول في الشرف والمرتبة فاجبت
سؤاله وارتكبت ما قاله رجاء الاجر وحسن الذكر
وابتدئ بالرؤوس الثمنية التي جرت عادة الشراح
ان يقدموها بين يدي كل كتاب يقصد الى شرحه
وهي الغرض المقصود من الكتاب ومنفعته في غيره.
ونسبته الى اجزائه الكبار والصغار ونسبته ورتبته
وعنوانه ونحو تعليمه فان كل واضع كتاب على
جهة الجدلية والطرق الانسانية فقصده تسهيله على
المتعلم من ثلاثة اوجه الاول ان يجتنب اللفظ
الوحشي والملبس والمغلط ويجتهد ان يصور المعنى

الورقة الأولى

ان يكون بحران بهما جميعا فان امتدت الاوجاع
في الاخرين فيتوقع الرعاف اقل والمدة .
لمادة فيتوقع الخراج في النواحي السفلية لغلظ المادة
ورسوبها يعني بذلك العلامات المأخوذة من الوجه والنخنه
والوضع وغير ذلك
قوله ان تدبرتها وميزتها اي بحسب مرض مرض في
طوله وقصره وأثبت كل واحد منهما حقه في تقدمة
المعرفة عليه من هذه العلامات والدلائل المذكورة
فان التمييز هو تامله من كل جهاته وغوره قائما في
الذهن عن كل ما عداه .
واما التدبير فهو حسن التامل لذلك لئلا يقع فيه غلط
او سهو وغفلة والله اعلم بالصواب
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي
الامي وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا .

تم وقد تم الفراغ من نسخ الجزء الاول من تقدمة المعرفة لبقراط
في يوم الثلاثاء ٢٠ رجب ١٣٦١هـ الموافق ١٠ اغسطس سنة ١٩٤٢م
نقلا عن نسخة خطية مصورة من مكتبة الدكتور ماكس مايرهوف
طبيب العيون . ونسخ ذلك الراجي عفو مولاه محمود صدقي النساخ
بدار الكتب المصرية .

الورقة الأخيرة من المخطوطة

وتظهر عليها أختام دار الكتب المصرية .

شَرْحُ فُصُول أَبُقْرَاط

لابن أبِى صَـادِق

رأينا فى الفصل السابق كيف اعتنى الأطباء العرب عنايةً كبيرة بكتب أبقراط الطبية ، وقد كانوا يلقبونه بلقب « الفاضل » اعترافا منهم بفضله فى تطور علم الطب . وكُتب أبقراط التى تُرجمت قديماً للعربية عديدةٌ ، لكن أشهرها على الإطلاق كتاب « الفصول » وهو مجموعة حِكَم طبية موجزة ، أودع فيها أبقراط خلاصة معارفه الطبية .

ولما كانت « فصول أبقراط » من المقررات الدراسية المهمة فى مدارس الطب العربى ، فقد عمد إلى شرحها للطلاب والعامة ، عددٌ كبير من مشاهير الأطباء العرب ، فشرحها كُلٌّ من: على بن رضوان المصرى ، يوسف بن حاسداى ، موسى بن ميمون ، يوسف بن مائير ، مهذب الدين الدَّخْوار ، يعقوب بن إسحاق (ابن القف الكركى) ، ابن النفيس ، محمد العطار ، صدقة بن مُنجا ، برهان الدين الكرمانى ، المظفرى ، عماد الدين البَقَّال ، ابن الطيب، ابن عُلوان ، أحمد الكيلانى ، عز الدين بن جماعة ، السيواسى ، المنادى ، البغدادى .. كما شرحها أيضًا : ابن أبى صادق النيسابورى ، الملقب بأبقراط الثانى .

وتجدر الإشارة إلى أن جميع هذه الشروح ، التى تعكس تطور المعرفة الطبية فى عصور مؤلفيها ، لا تزال جميعًا فى نسخها الخطية ، ولم ينشر منها إلا شرح ابن النفيس ، الذى كان لى شرف تحقيقه ونشره[١] ضمن مجموعة مؤلفات ابن النفيس التى أعكف منذ سنوات على إصدارها فى طبعات محقَّقة[٢].

---

(١) باشتراك الدكتور ماهر عبد القادر محمد على .

(٢) صدر منها حتى اليوم أربعة كتب : شرح فصول أبقراط - رسالة الأعضاء - المختصر فى علم الحديث النبوى - المختار من الأغذية ، (انظر قائمة أعمالنا بآخر الكتاب) .

وعن الطبيب الكبير « ابن أبى صادق » يقول أشهر مؤرخى الطب العربى ، ابنُ أبى أُصيبعة ، فى كتابه (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) ما نصُّه : هو أبو القاسم عبد الرحمن بن على بن أحمد بن أبى صادق النيسابورى ، طبيبٌ فاضلٌ بارعٌ فى العلوم الحِكمية ، كثير الدراية للصناعة الطبية ، له حرصٌ بالغ فى التطلُّع على كتب جالينوس وما أودعه فيها من غوامض صناعة الطب وأسرارها ، شديد الفحص عن أصولها وفروعها ، وكان فصيحًا بليغ الكلام ، وما فسَّر من كتب جالينوس فهو فى نهاية الجودة والإتقان .. وحدثنى بعض الأطباء أن ابن أبى صادق كان قد اجتمع بالشيخ الرئيس (ابن سينا) وقرأ عليه ، وكان من جملة تلامذته والآخذين عنه ، وهذا لا أستبعده ، بل هو أقرب إلى الصحة ، فإن ابن أبى صادق لحق زمان ابن سينا وكان فى بلاد العجم ، وسُمعة ابن سينا كانت عظيمة ، وكذلك غزارة علمه وكثرة تلامذته ، وكان أكبر من ابن أبى صادق قدراً وسنًّا . ولابن أبى صادق من الكتب : شرح كتاب المسائل فى الطب لحنين بن إسحاق ، شرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط ، شرح كتاب منافع الأعضاء لجالينوس ، حل شكوك الرازى على كتب جالينوس ، شرح كتاب الفصول لأبقراط [1].

* * *

وشرح ابن أبى صادق على الفصول يُعرف باسم (أوفر الشروح) لما له من قيمة تفسيرية ، وإضافات كثيرة على النص الأبقراطى ، وقد توفرت النسخ المخطوطة من هذا الشرح ، وتناثرت فى معظم خزائن المخطوطات فى العالم ، وفى دار الكتب المصرية - وحدها - ست نسخ خطية من هذا الكتاب ، أقدمها بتاريخ ٦٠٤ هجرية .. بالإضافة إلى عدة نسخ أخرى موزَّعة على مكتبات : الظاهرية بدمشق ، متحف الآثار ببغداد ، دار العلوم بديوبند ، الجامعة الأمريكية ببيروت ، دير الأسكوريال بإسبانيا .. وغير ذلك .

(١) عيون الأنباء ، ص ٤٦١ .

وهناك مخطوطة بدار الكتب المصريـة ، برقم ٤٧٥١ / ل ، تحمل عنوان (الجزء الثانى من كتاب تقـدمة المعرفة لبقـراط وتفسيره للشيخ الإمام الفاضل عبد اللطيف بن يـوسف بن محمد البغـدادى) ولكن بـاطـلاعنا عليهـا ، تبينَّ أنها نسخـة من شرح ابن أبى صـادق على فصـول أبقراط. وهـذا الأمر يتكـرر كثيراً فى عالم المخطوطـات ، إذ يُخطىء النساخ والمفهـرسون كثيراً فى نسبة المخطوطة لصاحبها ، فأحيانا ينسبونهـا إلى مؤلِّف آخر ، وأحيانـا يضعونهـا تحـت عبـارة « لمؤلـف مجهـول » إذا عجزوا عن معـرفـة مؤلفهـا .. وأذكر أننى حين نـويت إخـراج مجموعـة مؤلفات ابن النفيس وتحقيقها ، قمت بمراجعة جميع المخطوطات مجهولة المؤلف فى دار الكتب المصـرية ، فإذا بى أجـد مخطوطتـين لابن النفيـس (رسـالة الأعضـاء - المختصـر فى علـم الحديث النبـوى) لم يذكـرهما فهـرس المكتبـة أصلاً ، مع أنها بخط المؤلـف ! ومن هنا نقـول بضـرورة مراجعـة فهـارس المخطوطـات فى المكتبات الكـبرى ، والتحرِّى عن صحـة المعلومات الواردة فيها .

وفى مخطـوطـة دار الكتب المصرية التـى أشرنا إليهـا ، يبـدأ النص بما يلى : « قـال الشيخ الإمام، أبو القاسـم عبد الرحمن بن أبى صادق ، رحمه الله تعالى ، أما بعد حمد الله بجميع محامده، والثناء عليه بما هو له أهل ، والصلاة على نبيه .. إلخ » .

وقد مهد ابن أبى صادق لشرحـه على كتاب الفصول ، بمقدمة تمهيديـة تعرَّض فيها لبيان شرف الطب بعامة ، وأهمية كتاب « الفصـول » بصفة خاصة ، فقال : « وإذا كانت الصناعات والعلوم تتفـاضل بحسب شرف الموضوع وفضيلـة الكمال ووثاقة البراهين المستعملـة فيها ، ثم كان لهذا العلـم (الطب) أعظم الرتب من طـلابها ، فبالأحـرى أن يكون له القسط الأوفـر من الشرف والفضيلة ، وقد كان من كل المتقدمين والمتأخـرين ممن تكلموا فى الطب ، أن يدونوا لمن بعدهم جُملا وجـوامع من أصوله ، وإن كتاب الفصـول لأبقراط أفضلها كلها ، لأنـه من أوجز الكتب المصنَّفـة فى هذا البـاب ، وأكثرها حصرًا للفصـول ، وهى دسـاتير وقوانين للعـالمين فى أبوابها ، وهو أحد الكتب التى لابد لمن يريـد الإلمام بهذه الصناعة أن يحفظه ؛ إذ كان كل فصل

منه يتضمن أصلاً من الأصول ، يشبه أن لا يكون قد صدر عن صاحبه (أبقراط) إلا بتأييد سماوى وتوفيق إلهى .. وقد سبق جالينوس بتفسير هذا الكتاب تفسيراً تامًّا فى معناه ، ونحن غرضنا أن يستقيم ما قاله ، ونضيف إليه ما أغفله مما قد استفدناه منه فى مواضع أُخر ، وإن غرض أبقراط بهذا الكتاب هو أن يجمع فيه أصول الطب ، وأن يستثمر به ما قد جمعه فى كتبه الأُخر ، وهذا ظاهرٌ لمن تأمل فصوله ، فإنها تنتظم جُملاً وجوامع من كتابه فى « تقدمة المعرفة » وكتاب « الأهوية والبلدان » وكتاب « الأمراض الحادة » ونُكتًا وعيونًا فى كتابه المعروف بأبيديميا (الأوبئة) وفصولاً من كتابه فى « أوجاع النساء » .

وبعد هذه المقدمة ، يشرع ابن أبى صادق فى شرح الفصول الأبقراطية فصلاً فصلاً فيضع من معارفه الخاصة وخبراته الطبية شيئًا كثيرًا .. ونكتفى هنا بمثال وحيد ، هو شرح الفصل الأول حيث يرد فى المخطوطة على النحو التالى :

قال أبقراط : العُمر قصير والصناعةُ طويلة والوقتُ ضيق والتجربةُ خطر والقضاءُ عسر ، وقد ينبغى لك أن لا تقتصر على توخِّى فعل ما ينبغى دون أن يكون ما يفعله المريض ، ومن يحضره كذلك ، والأشياء التى من خارج .

(الشرح) يمكن أن تُحمل معانى هذه الكلمات ، فى هذا الفصل ، على وجه أعم وأكثر كلية ، ويمكن أن تُحمل على وجه أخص بصناعة الطب ، وذلك هو غرض أبقراط .. وحمله على الوجه الكلى ، هو أن عمر الإنسان ، وهو مدة بقاء النفس مع الجسم ، قصيرٌ بالإضافة إلى سائر الصنائع النظرية ؛ لأن عمر الإنسان منقطعٌ فى نفسه ، والعلوم والصنائع النظرية ممتدة إلى غير المتناهى ، ومن البينِّ أن المتناهى لا يساوى غير المتناهى . وأيضا ، من البيّن أن مدة عُمر الواحد لا تفى باستنباط قوانين شىء من الصنائع النظرية أجمع ، إلاَّ أن يحصِّل ما استنبطه مَنْ تقدَّمه ، ثم يضيف إليه ما يحصله من عنده .. وأما ضيق الوقت ، فعَنَى به وقت التعلُّم ، فإنه يسيرٌ ضيقٌ ، وذلك أن الإنسان منهمكٌ طول مدة بقائه بأمور اضطرارية وغير اضطرارية ، تحول بينه وبين التعلُّم ، فيضيق وقت التعلم لذلك .. وأما عسر القضاء ، وهو

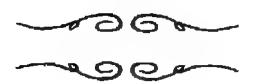
القياس ، فلأن صناعة الطب فى نفسها شاقةٌ عسرة ، ثم تحصيل سائر الصنائع النظرية - على العموم - مما لا يخفى عُسره وصعوبته - أما الخطر فى التجربة ، فإن التجربة على وجهين .. إلخ .

.. وهكذا يتتبع ابن أبى صادق كلمات الفصل الأبقراطى ، فيفسرها كلمةً كلمة ، ثم يضع فى النهاية تفسيره لمُجمل الفصل ، وأثناء ذلك نراه يناقش آراء جالينوس والرازى وغيرهما من الأطباء ، ويقرر رأيه الخاص ويدعمه بالشواهد الدالة على صحته ؛ وهو ينهى شرحه بالإشارة - فى الصفحة الأخيرة - إلى أن (الفصول) فيها ما هو عويصٌ غامض ، وما هو سهلٌ واضح ، وما هو مدلَّسٌ ومدسوس على أبقراط ، فيقول :

« أما الفصول العويصة فى هذا الكتاب ، التى انتظمت ضربًا من الغموض ، فقد بالغنا فى شرحها ، وأما الفصول السهلة فقد لخَّصنا ما قاله فيها (جالينوس) وألحقنا به ما يزداد بذلك بيانًا ووضوحًا .. وأما الفصول المدلَّسة والتى قد أُعيد ذكرها بآخر الكتاب ، فتركنا ذكرها شفقةً على فوت الزمان بما لا يجدى نفعا » .

* * *

وإذا كانت مخطوطة « شرح فصول أبقراط » لابن أبى صادق ، هى واحدة من عشرات الشروح العربية على الفصول ، وهى الشروح التى دوَّنها الأطباء العرب طيلة القرون الممتدة من القرن الرابع حتى القرن العاشر الهجرى ، فإن دراسة هذه الشروح وفحصها بطريقة مقارنة ، هو أمرٌ من شأنه أن يظهر لنا طبيعة التطور فى البحث الطبى العربى طيلة هذه القرون الستة ؛ إذ أن كل شارح للفصول كان يعكس فى شرحه ، طبيعة المعرفة الطبية فى عصره .. فلعل باحثًا شابًّا يقوم بإنجاز هذا البحث المقارن ، فيضيف إلى معرفتنا بتطور الطب العربى ، ملمحًا مهمًّا من ملامح هذا التطور .



بسم الله الرحمن الرحيم ثقتي الله

قال الشيخ الامام ابو القاسم عبد الرحمن بن ابى صادق

رحمه الله تعالى. اما بعد حمد الله بجميع محامده

والثناء عليه بما هو له اهل والصلاة على نبيه ان

العناية التى تبعث الخلق على اقتناء باب من أبواب

العلوم لمن اشرف الفضائل الانسانية سيما ما كان

الناس كافة امس حاجة اليه من غيره كعلم الطب

فان من البين عند الكافة ان العافية راس النعم

التى انعم بها على الانسان وأولها وأجلها قدرًا

ولذلك قيل ليس تهنى مملكة علك ولا تطيب ثروة لمثرى

مع فقدان الصحة التى هى غاية المطلوب بهذا العلم

وهى اشرف غاية يتمناها الانسان فى هذا العالم ان

يضاف الى شرف هذه الغاية شرف الموضوع الذى

هو البدن الانسانى اذ هو اشرف موجودات هذا العالم

ويقترن بشرف موضوع هذا العلم وشرف كماله وثاقة

البراهين المستعملة فيه فان القوانين الطبية اجماع

برهانية وليس يستعمل فيها الحدس او التقريب الصناعى

الا فى بعض التجارب التى تخرج الى الفعل. واذا كانت

الصناعات والعلوم تتفاضل بحسب شرف الموضوع وفضيلة

الكما[ل] ... البراهين المستعملة فيها ثم كان لهذ[ه]

... من طلابها فاحرى ان يكون له

الصفحة الأولى من مخطوطة شرح فصول أبقراط

(نسخة دار الكتب المصرية رقم ٤٧٥١ / ل)

شئ الا النذر الذي يوجد لتضاد عناصره وذلك
القدر لا يؤثر فيه اكثر من القضف الذي يناله
ان يعود الى الاغتذاء ثانيا.

فصل

اما الفصول العويصة في هذا الكتاب التي انتظمت ضربا
من الغموض فقد بالغنا في شرحها مالم يبق بحسب
ظني في شئ منها موضع اشكال بعد ان جعلنا
كلام جالينوس فيها كلها اصلا وقانونا.
واما الفصول السهلة فقد لخصنا ما قاله فيها ثم
قل ما مضى منها فصل الا وقد الحقنا به ما ازداد
بذلك بيانا ووضوحا مما كنا قد اخذناه منه في
كتبه الاخر فان من يخوض في شرح جزء من اجزاء
الطب فقد سبق جالينوس فيحصر عنه بعينه فهو في
كل ذلك غارف من بحره ومقتفي اثر سعيه ومنزلته
في ذلك عندي منزلة ناقل التمر الى هجر وجالب اللبن
الى عدن.
واما الفصول المدلسة والذي قد اعيد ذكرها تاخر
الكتاب فتركنا ذكرها شفقة على فوت الزمان عما
لا يجدي نفعا والله اعلم بالصواب

الورقة الأخيرة من المخطوطة

وأسفلها ختم دار الكتب المصرية

صُوَرُ الكَواكِبِ الثّمَانيةِ والأَرْبَعين

للصوفى

لم ينل عبد الرحمن الصوفى (أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر ، الرازى) ما يليق به من اهتمام ، سواءً لدى القدماء أو المحدثين ، فالمصادر القديمة لا تكاد تذكر عنه إلا القليل الذى لا يشفى الغليل ، ففى « أخبار الحكماء » لا نجد غير الفقرة التالية :

عبد الرحمن بن عمر .. الفاضل الكامل النبيه النبيل ، صاحب الملك عضد الدولة فنا خسرو شاهنشاه بن بويه ، مصنِّف الكتب الجليلة فى علم الفلك ، وكان من أهل « نسا » فارسى النسبة ، ولد بالرى ، وكان عضد الدولة يقول إذا افتخر بالعلم والمعلمين « معلمى فى النحو أبو على الفارسى النسوى ، ومعلمى فى الزيج الشريف بن الأعلم ، ومعلمى فى الكواكب الثابتة وأماكنها وسيرها الصوفى » ومن تصانيفه : كتاب الكواكب الثابتة - مصوراً - كتاب الأرجوزة فى الكواكب الثابتة - مصوراً - كتاب التذكرة ومطارح الشعاعات . قال هلال ابن المحسن فى كتابه ، فى سنة ٣٧٦ فى الثالث من المحرم ، توفى أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى منجم عضد الدولة وكان مولده بالرى فى الليلة التى صبيحتها يوم السبت ١٤ محرم سنة ٢٩١ هجرية [1].

ولا توجد - باستثناء الفقرة السابقة -أية معلومات فى كتب المؤرخين والمترجمين القدامى، عن هذا العالم الفلكى ، مما جعل معرفة تفاصيل حياته وأوقاته أمرًا مستحيلا ، وكذلك الأمر

---

(١) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء (دار الآثار - بيروت) ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

بالنسبة لسبب لقبه « الصوفى » .. فمن غير المعروف إن كان ذلك لاشتغاله بالتصوف ، أم نسبة إلى غير ذلك - كقبيلة صوفة العربية - لكن أصله الفارسى يستبعد انتسابه إلى تلك القبيلة العربية ، فلا يبقى إلا الترجيح بأنه كان من أهل التصوف ، خاصةً أن التصوف فى أواخر القرن الثالث الهجرى كان منتشرًا ببلاد فارس ، وكان لفرقة « الملامتية » الصوفية ، شأنٌ كبير فى « الرى » التى نشأ فيها أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى .

وكما سكتت المصادر القديمة من ذكر المزيد من المعلومات حول الصوفى ، اكتفت المصادر المعاصرة بالإشارة إلى مكانته العلمية وقيمة مؤلفاته التى بقيت - لحسن الحظ - حتى يومنا هذا .. فمن تلك الإشارات قول سارتون: « الصوفى من أعظم فلكيِّى الإسلام »[1] و قول الدوميلى: « وكان الصوفى من أعظم الفلكيين العرب الذين ندين لهم بسلسلة دقيقة من الملاحظات المباشرة »[2] . أما كتب تاريخ العلوم العربية ، التى دونها الباحثون العرب المحدثون ، فهى على كثرتها - وكعادتها - لا تضيف جديدًا إلى معلوماتنا عن الصوفى ، وتكتفى بنقل المديح عنه وعن إسهاماته الفلكية ، دون تفصيل .

* * *

وفى الخامس من أكتوبر سنة ١٩٨٧ ، ولمدة ثلاثة أيام ، انعقد فى الجامعة الأردنية مؤتمر بعنوان « الصوفى وابن النفيس » فألقت بحوث هذا المؤتمر بعض الضوء على هذه الشخصية العلمية المرموقة ، وأعادت إلى الصوفى اعتباره بعد ألف عام من وفاته ! وفى الكلمة الافتتاحية لهذا المؤتمر ، ورد ما يلى[3]:

جاء الصوفى فى القرن العاشر الميلادى ، حين كانت الحضارة العلمية العربية فى دور النمو ، وقد وجد أن العلماء العرب تعروهم الحيرة فى كتاب « المجسطى » الذى وضعه

(1) G. Sarton: Introduction to History of Science 1,665.

(٢) الدوميلى : العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى (الترجمة العربية) ص ٢١٣ .

(٣) د/ عبد الرحيم بدر : محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس (دار الفكر - بيروت - دار الفكر ، دمشق ١٩٩١) ص ١٤ .

بطليموس فى القرن الثانى الميلادى ، فالنسخ التى عثروا عليها بعد ثمانية قرون ، بالية ملیئة بالأخطاء ، وهنا انبرى الصوفى فأخذ يقيس نجوم السماء طولاً وعرضاً ، ويُعَيِّنُ مواقعها وأقدارها وألوانها ، حتى أصبح لدى العلماء العرب ما يشبه الأطلس الدقيق الذى يهتدون به فى دراستهم ، وقد وجد فى أثناء قياساته هذه ، أن بطليموس كان مخطئًا فى كثير جداً من القياسات التى قام بها ، فصحَّح ما وجد من أخطاء ، وخرج بكتاب (صور الكواكب الثمانية والأربعين)

وفى هذا الكتاب نجد الصوفى قد أعاد الأسماء العربية القديمة - المعروفة منذ الجاهلية - إلى حظيرة العلم ، وحدَّد النجوم التى تشكِّل منازل القمر الثمانية والعشرين ، وقد كان أول من وصف المجرة السحابية فى المرأة المَسَلْسلة (مجرة أندروميدا) وسماها اللطخة السحابية ، مع العلم أن أول مَنْ وصفها من الأوربيين كان سيمون ماريوس سنة ١٦١٢م .. إن تقدير الصوفى لم ينشأ عند العرب والمسلمين وحدهم ، بل كان الإمام عند العلماء الغربيين أيضًا فعندما اكتشف المرقب - التليسكوب - فى مطلع القرن السابع الميلادى ، وأخذ الغرب يسمى فوهات القمر ، لم يَنْسَ هؤلاء العلماء أن يسموا فُوَّهة باسم الصوفى .

* * *

وفى هذا المؤتمر ، وحول مكانة الصوفى العلمية ، ألقى المستشرق الألمانى باول كونيتش بحثًا بعنوان (آثار الصوفى فى الشرق والغرب) فكان من أجود البحوث وأكثرها ارتباطاً بموضوع المؤتمر ، وقد استهلَّه بقوله : من المعلوم أنه كانت للعرب القدماء معرفةٌ جيدة بالسماء والكواكب ، استدلوا بها على المواسم والأزمان ، واهتدوا بها فى نقلاتهم فى البر والبحر ، وتعرَّف العرب بعد فتوح بلدان الشرق الأوسط إلى علوم اليونان ، وترجموا كثيرًا من كتبهم العلمية ، ومن بينها الكتب الفلكية التى أهمها كتاب المجسطى لبطليموس القلوذى المؤلَّف حوالى السنة ١٥٠م ، والذى حظى بعدة ترجمات عربية فى أواخر القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، ومن كبار الفلكيين الإسلاميين ، أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى ، الذى ولد فى الرى (قرب طهران) سنة ٢٩١ .. وترك الصوفى عددًا من المؤلفات فى ميادين علم الفلك والآلات الفلكية

وعلم أحكام النجوم وعلم الهندسة ، تبقى منها إلى اليوم بحسب إحصاء فؤاد سيزكين فى تأليفه حول الكتابات العربية[1] ، ما يلى :

١- رسالة فى عمل أشكال متساوية الأضلاع .

٢- كتاب صور الكواكب .
٣- كتاب العمل بالاسطرلاب[٢]

٤- كتاب العمل بالكرة الفلكية .
٥- كتاب المدخل إلى علم النجوم وأحكامها .

٦- رسالة فى تصحيح طالع عضد الدولة.. هذا بالإضافة إلى بعض التصانيف الأخرى التى لا نعرف منها إلا عناوينها ، ولم يُعثر- إلى الآن -على مخطوطات وأضيف هنا أن الصوفى ، مع أنه ولد فى إيران وقضى - كما يبدو - معظم حياته هناك فى ظل حكام أسرة البويهيين ، إلا أنه ألَّف كتبه كلها باللغة العربية ، و بالتالى من مجموعة العلماء التابعين للحضارة العربية الإسلامية بمعناها الأوسع الشهير .. ولم يقتصر نشاط الصوفى العلمى على التأليف فقط ، بل يبدو أنه قام كذلك بصنع الآلات الفلكية بنفسه ، وقد انفرد الصوفى بين العلماء الفلكيين العرب والإسلاميين فى علم معرفة الكواكب الثابتة ، وأصبح فى هذا العلم قطبًا لمعاصريه ولكل الأجيال اللاحقة ، وأصبح أهم مؤلفاته وأشهرها وأوسعها تأثيراً فى الشرق والغرب ، كتابه فى صور الكواكب الثمانية والأربعين [٣].

ويمضى المستشرق الألمانى ، فيستعرض أثر الصوفى فى اللاحقين عليه من العلماء المسلمين ، كالبيرونى فى كتابه « التفهيم » وابن الصلاح فى رسالته « سبب الخطأ والتصحيف » والقزوينى فى « عجائب المخلوقات » ثم يقول : وأدت شهرة كتاب الصوفى - يقصد : صور الكواكب - وأهميته عند الفلكيين ، إلى عدد من الترجمات إلى الفارسية و إلى التركية أيضًا ،

---

(١) الإشارة إلى موسوعة « تاريخ التراث العربى » لسيزكين ، وقد ترجمت مؤخرًا للعربية ونشرت - فى عدة مجلدات - بالسعودية .

(٢) الاسطرلاب : آلة فلكية تستخدم فى الرصد .

(٣) باول كوينتش : آثار الصوفى (محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس) ص ٢٠٧ .

وأشهر من ترجم كتاب الصوفى إلى الفارسية العلامة المعروف : نصير الدين الطوسى [١]. وبعد ذلك استعرض باولكونيتش أثر كتاب (صور الكواكب) فى الأوروبيين ، عبر خمس نقاط للتعرف المباشر إلى كتاب الصوفى ، موزعة على القرون ، من الثالث عشر إلى التاسع عشر الميلادى .. مشيرًا إلى وجود ثمانى مخطوطات لاتينية تحوى « المجموعة الصوفية اللاتينية » بالإضافة إلى « كتب الحكيم فى علم الفلك » وغير ذلك ، وهو ينتهى من البحث بقوله : إن الصيغة اللاتينية لاسم الصوفى ، وهى AZOPHTI شاعت فيما بعد وحازت شهرة واسعة ، وأُطلقت على فوهة بالقمر منذ سنة ١٥١٥ ، وأصبح للصوفى مكان على وجه القمر ، وحاز اسمه شرف التخليد فى عالم العلم إلى الأبد [٢].

* * *

ونأتى إلى كتاب الصوفى « صور الكواكب » فنرى الكتاب يبدأ بمقدمة يؤرِّخ فيها الصوفى للبحوث الفلكية السابقة عليه ، وينتقدها ، فيقول :

« إنى رأيت كثيرًا من الناس يخوضون فى طلب معرفة الكواكب الثابتة ومواقعها من الفلك ، وصورها ، ووجدتهم على فرقتين .. إحداهما تسلك طريق المنجمين ، ومعولها على كرات مصورة من عمل مَنْ لم يعرف الكواكب بأعيانها وإنما عَوَّلوا على ما وجدوه فى الكتب من أطوالها وعروضها ، فرسموها من غير معرفة بصوابها من خطئها ، فإذا تأملها مَنْ يعرفها ، وجد بعضها مخالفًا .. وأما الفرقة الأخرى ، فإنها سلكت طريقة العرب فى معرفة الأنواء ومنازل القمر ، ومعولهم على ما وجدوه فى الكتب المؤلفة فى هذا المعنى » .

ثم ينتقد الصوفى الفلكيين السابقين ، فيقول عن البتّانى: « فإنَّا تأملنا نسخًا كثيرة لكتاب المجسطى ، ووجدنا بعضها يخالف بعضًا فى كواكب كثيرة ، وطلبنا ذلك فى كتاب البتّانى ،

(١) المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٢) من الأمور العجيبة ، أنهم – أعنى العرب المعاصرين – يشيرون إلى هذه الفوهة باسم : فوهة أزوفى ! وكأنهم يصرون على نفى قيمة أجدادهم .. حتى بعد ما اعترف بها الغرب .

وفيها ادعاه من الرصد ، فوجدناه قد أسقط كل كوكب فيه أدنى خلاف بين النسخ ، فأسقط كواكب كثيرة من القدر الثالث والرابع ، وأثبت كثيراً من القدر الخامس والسادس ، ثم ذكر أنه قد رصد كوكبة الرامي ، وأنه وجد موضع الكواكب الذى على عرقوبه المتقدم الأيسر فى القوس ثمانياً وعشرين درجة ونصف .. والدليل على أنه لم يرصده ، ولم يعرفه ، ولا غيره من المنجمين ممن ألّفوا الزيجات واتخذوا الكرات ورسموا فيها الكواكب ، أنهم أثبتوا هذا الكوكب فى كتبهم وعلى الكرات - من القدر الثانى ، وهذا الكوكب هو من القدر الرابع ، من أصغره ، وهو تحت الإكليل الجنوبى . .إلخ » لكن الصوفى ، كعادة العلماء العرب فى التأدُّب مع السابقين ، نراه بعد أن صحَّح الخطأ ، يقول: « ولعل بعض النقلة أو الوراقين أثبتوا لهذين الكوكبين فى الأقدار ، فغلط الوَرَّاق فأثبتهما فى القدر الثانى ، أو لعل الخطأ وقع فى نسخة الأصل ولم يكن بعد بطليموس مَنْ عرف هذه الكواكب » ولم ينفرد الصوفى بهذا الملمح النقدى، فكثيرا ما نرى العلماء العرب المسلمين يسلكون ذات النهج ، فإذا وجد ابن النفيس - مثلاً - بعض الأخطاء فى كتابات أبقراط ، يقوم بتصحيح الخطأ ، ويعقب عليه بقوله : ولا نظن أنه يقع فى ذلك ، فالأرجح أنه من عمل النُّسَّاخ .

ويستكمل الصوفى نقد السابقين ، فيقول عن عطار الحاسب - أحد مشاهير علم الفلك فى الإسلام - ما نصُّه : « ووجدنا لعطارد كتابًا بخطه ، قد صوَّر فيه الصور الثمانى والأربعين ، يذكر فيه أنه صَوَّرها بعد أن بلغ النهاية فى عملها ومعرفتها ، ووضع هذا الكوكب الذى على عرقوب الرامى من القدر الثانى ، أيضاً ، على ما وجده فى الكتب ، وذكر أن الرامى وجهه إلى جهة المشرق ، وصوَّره فى كتابه كذلك ، فدلَّ على أنه لم يعرف الرامى ولا القوس » . ويقول عن على بن عيسى « ووجدنا فى كرة عظيمة الشأن ، من عمل على بن عيسى الحرانى ، قد رسم الكوكب الخامس الذى على جناح العذراء الأيسر فى الوجه ، فى ناحية الشمال عن الكواكب الرابع الذى على الوجه ، وذلك خطأ ، لأن عرض هذا الكوكب الذى على الجناح هو فى ناحية الشمال عشر دقائق ، والذى على الوجه عرضه فى الشمال خمس درجات ونصف ، فوجب أن

يكون الذى على الجناح الأيسر أميل إلى الجنوب ، عن الذى على الوجه ، خمس درجات وثلث درجة » . ويقول عن أبى حنيفة الدِّينَورى : « وقد كنت أظن بأبى حنيفة أن له رياضة بعلم الهيئة والرصد ، فقد كنت بالدِّينَور فى سنة ٣٣٥ من سنى الهجرة ، وحكى لى جماعة من المشايخ أنه كان يرصد الكواكب سنين كثيرة ، فلما ظهر تأليفه ، وتأملت ما أودعه كتابه ، علمت أن الذى كان يراعيه إنما كان طلب الظاهر المشهور من الكواكب ، وما كان يجده فى كتب الأنواء من ذكر المنازل وما أشبهها[(١)] » .

ويختتم الصوفى انتقاداته وتصحيحاته ، بقوله : « ولما رأيت هؤلاء القوم ، مع ذكرهم فى الآفاق وتقدُّمهم فى صناعة واقتداء الناس بهم ، قد تبع كل واحد منهم من تقدمه ، من غير تأمل لأخطائه بالعيان والنظر ، ووجدت فى كتبهم من التخلُّف .. عزمتُ على إظهار ذلك وكشفه » ثم يعرض فى بقية الكتاب لمواقع الكواكب استنادًا لأرصاده الدقيقة ، مع تزويد النص بالجداول الفلكية والرسوم الجميلة التى تصور الكواكب على مايُرى فى السماء ، وعلى ما يُرى فى الكرة ، مع بيان اسمه ورمزه .. فكان الصوفى هو صاحب الفضل فى تصويب الحسابات الفلكية السابقة ، وصاحب الفضل فى حساب سديم الأندروميدا والنيكبولا العظمى والكوكبات الجنوبية ، وهى التى يعزو المعاصرون فضل اكتشافها إلى مكتشفين متأخرين جاءوا بعد الصوفى بمئات السنين .

* * *

ولا يزال هذا الكتاب الرائع ينتظر النشر والتحقيق ، رغم صدور طبعة له - يقول باول كونيتش : « والمؤسف أنه لا توجد حتى اليوم طبعة صحيحة لهذا الكتاب المهم ، فقد نُشرت سنة ١٨٧٤ ترجمة فرنسية له بقلم العالم الدنماركى شيلروب ، وهى مبنية على مخطوطتين فقط ، متأخرتين نسبيًّا - تعودان إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين - ثم طُبع النص

---

(١) راجع مقدمة كتاب « صور الكواكب » للصوفى .. وانظر أيضاً ، بحث الأستاذ محمد على الزركان (عبد الرحمن الصوفى وأسلوبه فى التأليف) ضمن محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس ، ص ٢٦٣ وما بعدها .

العربى سنة ١٩٥٤ فى حيدر آبار فى الهند، معتمدًا على خمس مخطوطات قيمة، إلا أن الطبعة مكتظة بالأخطاء وخاصةً فى جداول الكواكب حيث صحَّح الناشرون بعض الأخطاء بخط اليد بالحبر الأسود، وأُعيدت هذه الطبعة بشكلها المغلوط فى بيروت سنة ١٩٨١[١]، أما رسوم الصور فلم تطبع بشكلها الأصيل فى كلتا الطبعتين المذكورتين، بل رسمهما على أيدى رسامين، وخرجت بالتالى بشكل مغير نسبيًا عن الأصل، ومن حسن الحظ أن نشرت مؤخراً، بطريقة التصوير، وبعناية معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية فى فرانكفورت، أقدم مخطوطة للكتاب، ألا وهى مخطوطة مكتبة بودليان فى أُكسفورد، نسخها الحسين بن عبد الرحمن بن عمر ابن محمد - ويبدو أنه ابن الصوفى نفسه[٢]- سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، وسوف تمكّن هذه الطبعة المصورة الباحثين من دراسة كتاب الصوفى بشكل قريب جداً من شكله الأصلى[٣].

ومن ناحية أخرى، أشار الأستاذ محمد على الزركان إلى وجود عدة نسخ خطية من (صور الكواكب) فى مكتبات الأسكوريال وباريس وأكسفورد وكوبنهاجن ولينجراد، بالإضافة إلى نسخة بالمكتبة الوقفية بحلب تحت رقم ١٢٨٦ / أحمدية، وهى نسخة مصورة، نفيسة، يصفها بقوله: « ولفت نظرى أن المحققين - يقصد لنشرة الهند سنة ١٩٥٤، وهم محمد نظام الدين مدير المطبعة، والبروفيسور ونتر الأستاذ فى كلية اكزيتر بانكلتره، وشيلروب مقدم

---

(١) قامت بإصدار هذه الطبعة - المسروقة - دار الآفاق الجديدة ببيروت، وهى دار عريقة فى السطو على نشرات التراث التى قام بها المحققون العرب والمستشرقون، ومن بينها كتاب صور الكواكب .. والعجيب أن هذه الدار تتعمد فى كل مرة، حذف كل ما يشير إلى بيانات الطبعة المسروقة، وبكل الجرأة والتبجُّح تكتب الدار على الورقة الأولى: تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة .. فلا تكتفى بتصوير الكتاب، وإنما تصر على تزييفه.

(٢) لا يقف الأمر عند مجرد الترجيح، فهو - بالفعل - ابن الصوفى نفسه، وقد اشتهرت له « أرجوزة ابن الصوفى » فى الفلك، التى يقول البيت الثانى منها:

هـذا مقـــالٌ لأبى علىّ ... نجل أبى الحسين الصوفىّ.

(٣) باول كوينتش: آثار الصوفى فى الشرق والغرب (محاضرات المؤتمر) ص ٢٠٩.

الترجمة الفرنسية - لم يذكروا مخطوطة حلب التى تعد من أصح النسخ ومن أجملها خطاً وتصويراً ، وذلك كما تبين لى من خلال المقابلة بينها وبين النسخة الهندية المطبوعة [1].

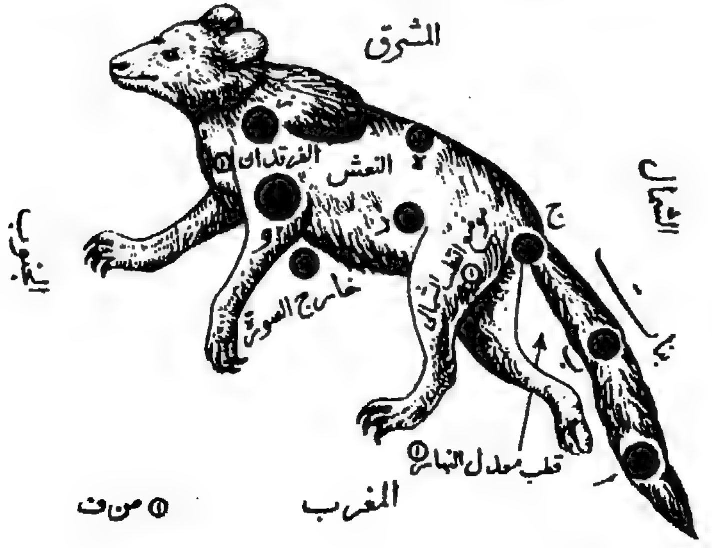
وتبقى نقطة أخيرة ، يمكن صياغتها فى هذا السؤال : إن تلك الصور التى زيَّنت كتاب (صور الكواكب) ، وغيرها من بدائع فن المنمنمات التى ازدانت بها المخطوطات العربية الإسلامية ، ألا تكذِّب الدعوى القائلة: إن الإسلاميين كرهوا التصوير ، وإن الإسلام حرَّم الفن .

(١) الزركان : عبد الرحمن الصوفى وأسلوبه (محاضرا المؤتمر) ص ٢٦٢ .

وهذه صورة الدب الاصغر على ما ترى فى الكرة



وهذه صورة الدب الاصغر على ما ترى فى السماء

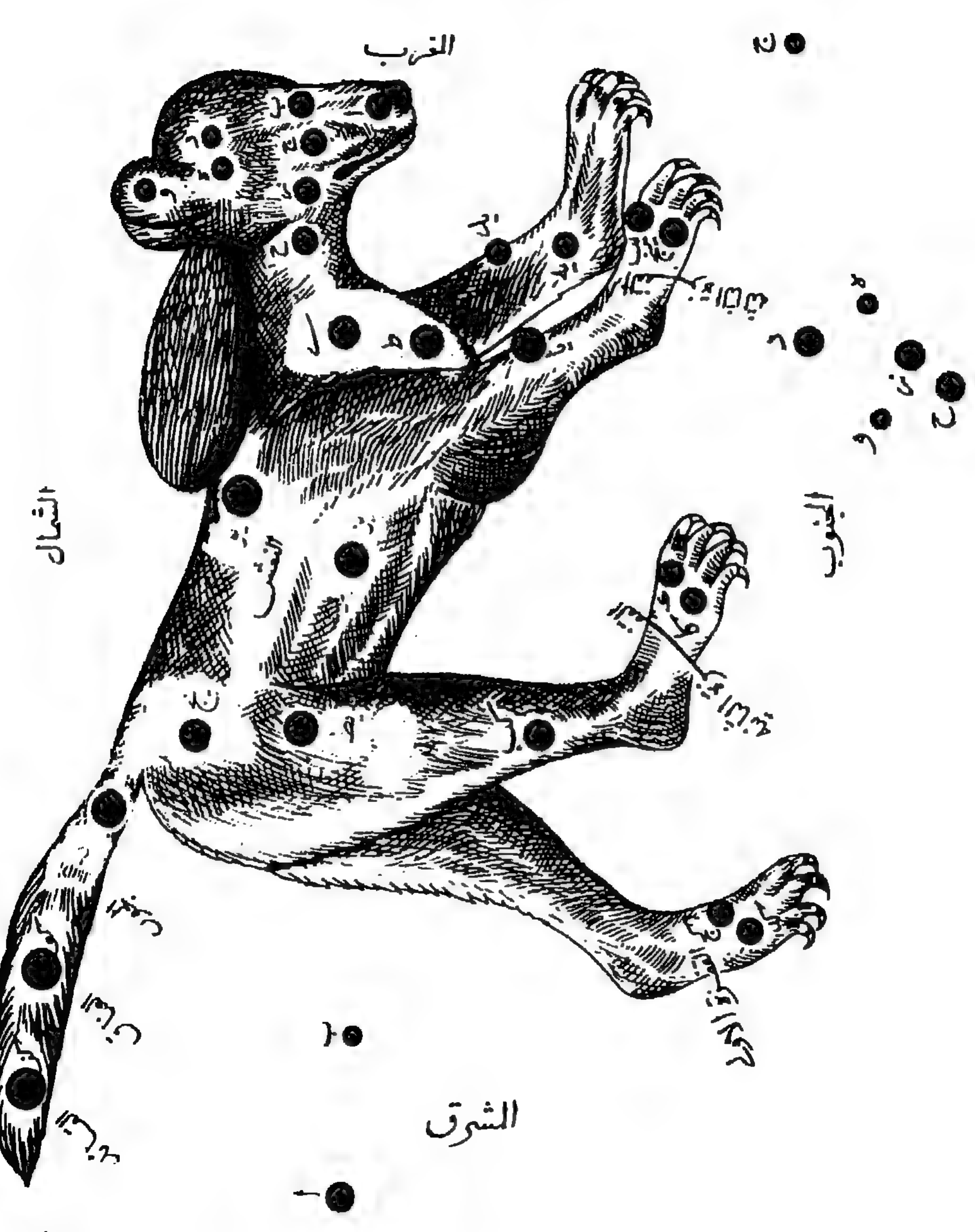


① من ف

صورة الدب الاكبر على ما ترى في الكرة



صورة الدب الاكبر على ما ترى في السماء



صورة قيقاوس على ما ترى في الكرة

المغرب

الجنوب

الشمال

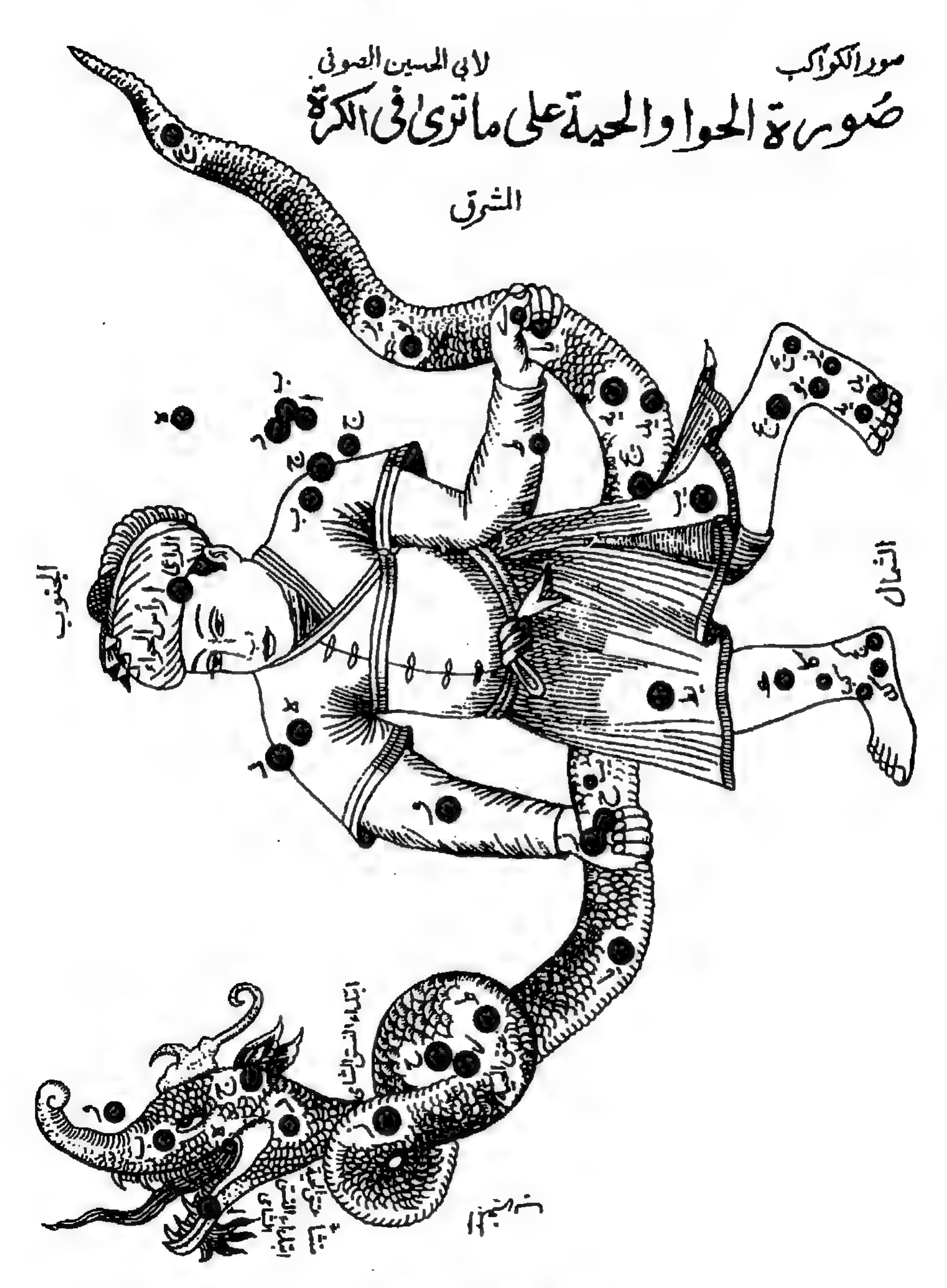
الرامي

المشرق

صورة قيقاوس على ما ترى في السماء



OPHIUCHUS AND SERPENS

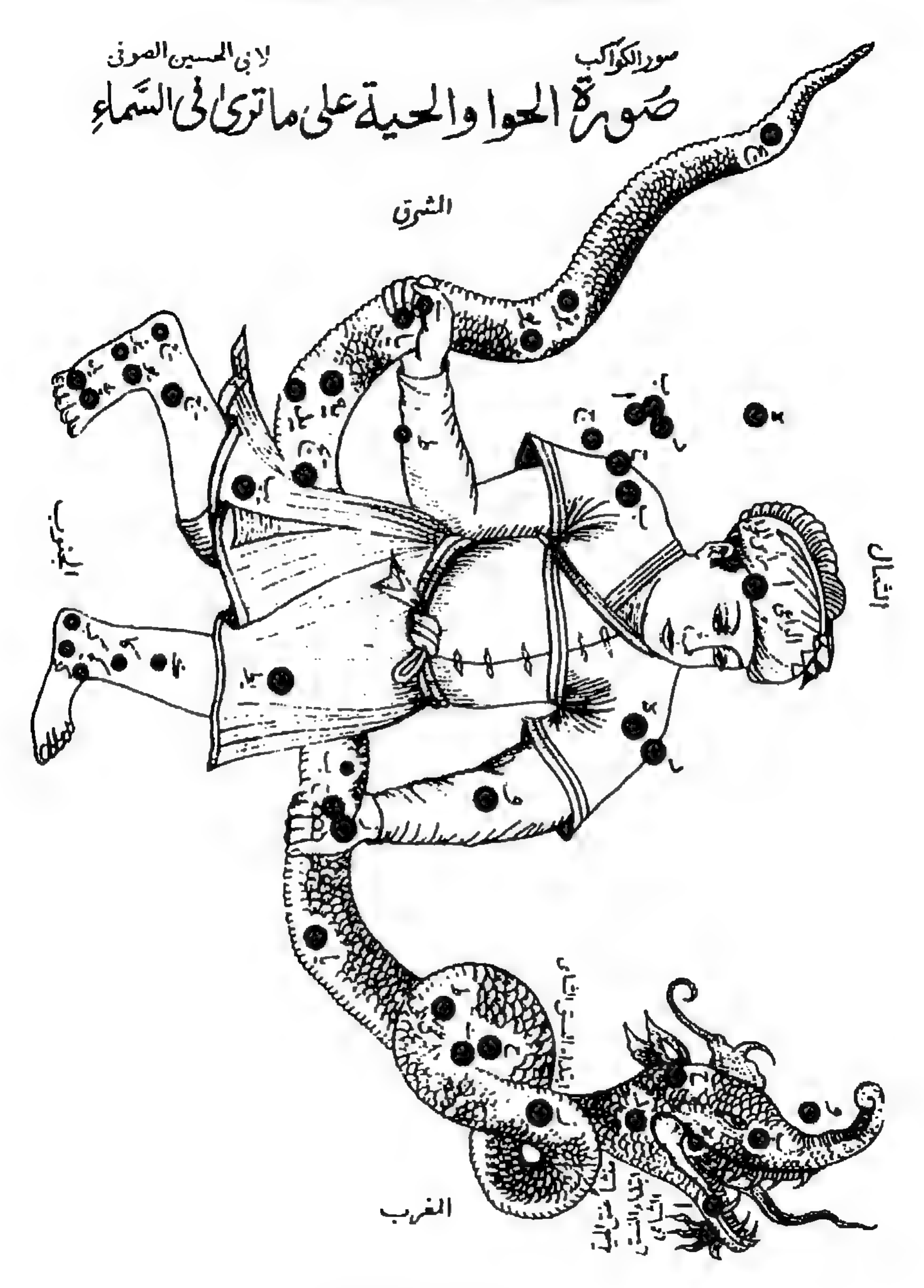


Figs. 13 & 14.

a

between pp. 103 & 104

OPHIUCHUS AND SERPENS



Figs. 13 & 14.

b

between pp. 103 & 104

صُورة الأرض (المسالك والممالك)

لابن حَوْقَل

فى مقدمة كتابه (مُعجم البلدان) يعدِّد لنا مؤلفه « ياقوت الحموى » الأسباب الداعية إلى الاهتمام بالجغرافيا ومواقع البلدان ، فيقول : ومَنْ ذا الذى يستغنى عن أسماء الأماكن وتصحيحها ، وضبط أصقاعها وتنقيحها ، والناس فى الافتقار إلى علمها سواسية .. لأن من هذه الأماكن ما هى مواقيت الحجاج والزائرين ، ومعالم الصحابة والتابعين ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين ، وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين، وقد فتحت هذه الأماكن صلحًا وعنوة وأمانًا وقوة ، ولكلٍّ من ذلك حُكم فى الشريعة فى قسمة الفىء وأخذ الجزية ، وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات .. لا يسع الفقهاء جهلها ، ولا يُعذر الأئمة والأمراء إذا فاتتهم فى طريق العلم ، لأنها من لوازم فتيا الدين وضوابط قواعد الإسلام والمسلمين .

وبعد ذكر الدواعى الدينية ، يورد « ياقوت » الدواعى الدنيوية لمعرفة النواحى والبلدان ، فيوضِّح أهمية ذلك للمشتغلين بالتاريخ والسير والأخبار ، وللمشتغلين بالطب - لضرورة معرفة الأطباء بأمزجة البلدان وأهوائها [1]- وللمشتغلين بالأدب ونقد النصوص .. ثم يقول : وقد صنَّف المتقدمون فى أسماء الأماكن كتبًا ، وهى صنفان ، منها ما قُصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة ، ومنها ما قصد به ذكر البوادى والقفار واقتصر على منازل العرب الواردة فى أخبارهم والأشعار ، فأما من قصد ذكر العمران ، فجماعة وافرة ، منهم من الفلاسفة والحكماء : أفلاطون وفيثاغورس وبطليموس وغيرهم ، وقد سموا كتبهم فى ذلك

---

(١) كان فى الطب العربى مبحثٌ مستقل لعلم المناخ الطبى ودراسة الأوبئة وطرق العدوى ، ولقد تحدَّدت ملامح هذا المبحث عبر مجموعة من الشروح التى دوَّنها أطباؤنا القدامى على كتاب « الأهوية والأماكن والمياه » لأبقراط ، بالإضافة إلى كم كبير من الكتب والرسائل العلمية القصيرة .

« جغرافيا » ومعناها : صورة الأرض .. وطبقة أخرى إسلاميون ، سلكوا قريبًا من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك ، وعيَّنوا مسافة الطرق والمسالك ، وهم : ابن خُرْدَاذْبة ، وأحمد بن واضح ، والجيهانى ، وابن الفقيه وأبو زيد البلخى ، وأبو إسحاق الاصطخرى ، وابن حوقل ، وأبو عبد الله البشارى ، والحسن بن محمد المهلَّبى ، وابن أبى عون البغدادى ، وأبو عبيد البكرى.. وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل الأدب ، وهم : أبو سعيد الأصمعى ، وأبو عبيد السكونى ، والحسن بن أحمد الهمدانى ، وأبو الأشعث الكندى ، وأبو سعيد السيرافى .. إلخ [1].

وفى معرض كلامه عن أهمية الجغرافيا لدى العرب ، يقول الباحث المعاصر د. حسَّان حلاَّق : بدأ العرب والمسلمون الاهتمام بالجغرافيا ووضعوا المؤلفات حولها قبل وقوفهم على كتاب بطليموس ، ذلك أن العرب قبل الإسلام كانوا من أهم التُّجَّار ، وقد جالوا مختلف المناطق والبلدان شرقًا وغربًا ، وكانت رحلاتهم إلى الشام واليمن فى الصيف والشتاء من أهم هذه الرحلات ، ثم ازدادت تجارتهم ومعرفتهم بالجغرافيا بسبب فتوحاتهم بعد الإسلام ، وفى هذا المجال لابد من التأكيد على أن الجغرافيا لم تكن مرتبطة بالتجارة والفتوحات فحسب، بل كانت مرتبطة بعلم الفلك الذى برع فيه العرب والمسلمون ، ومن الأسباب الأخرى التى أدت إلى نشوء علم الجغرافيا عند المسملين : الحج - الرحلة فى طلب العلم -حاجة الدولة إلى معرفة طرق الأقاليم - السفارات السياسية - الجغرافيا الإدارية لاستغلال ثروات البلدان المفتوحة [2]. وهكذا اجتمعت للعرب المسلمين من البواعث القوية ، ما جعلهم يهتمون بالبحث الجغرافى واستشراف أرجاء المعمورة واستكشاف مواقع البلدان التى تشكِّل فى مجموعها (العالم الإسلامى) ولم يكن هناك ، آنذاك ، فواصل حدودية بين ديار الإسلام ، ولم يكن الانتقال من بلد إسلامى لآخر يستلزم تأشيرة دخول ، أو جواز سفر ، أو كفيل ! .

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان (دار صادر - بيروت ١/ ٨ ، ٩) .

(٢) د/ حسان حلاق : تاريخ العلوم عند العرب (مع د / ماهر عبد القادر) ص ٢٥٠ .

وعن الإسهامات العربية فى الجغرافيا ، نعود للدكتور حسَّان حلاَّق حيث يقول : لهذه الأسباب كثرت الرحلات الجغرافية عند العرب ، وتنوعت بتنوع أسبابها وظروفها السياسية والاقتصادية والعسكرية والدينية ، كما نشأ عند كثيرين منهم حبُّ الرحلة والمجازفة فيما وراء البحار ، حتى يُظن أن من العرب مَنْ وصل إلى أمريكا قبل أن يكتشفها «كريستوف كولمبس» وأن فى قصة (الفتية المغررين) من شباب لشبونة - وهى القصة التى رواها الإدريسى فى كتابه : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - ما يشير إلى ذلك ، فقد توغلوا فى المحيط الأطلسى ، بحر الظلمات ، إلى مسيرة شهرين من بلادهم ، وقد شاهدوا جزائر ومناطق وشعوبًا غريبة ، ثم إنه ليس من المصادفة أن يكون الرحَّالة العربى « ابن ماجد » رائد ودليل « فاسكو دى جاما » فى اقتحامه بحر الهند من الرجاء الصالح ، ولابد من الإشارة إلى أن الجغرافيا الإسلامية تنوعت وتعدَّدت إلى : رحلات جغرافية - رحلات بحرية - رحلات فى الأمم والبلدان [1].. وقد أفادنا الجغرافيون المسلمون ، بالإضافة إلى المعلومات الجغرافية ، الكثير من المعلومات التاريخية والاقتصادية والأنثروبولوجية لدى مختلف الشعوب والبلدان ، اعتمادا على المشاهدة والتجربة والاختلاط بالشعوب والقبائل .. ومن يطلع على المصنفات الجغرافية الإسلامية يدرك هذه الأمور [2].

* * *

(١) بخصوص الرحلات العربية الإسلامية وأثرها فى تطور الجغرافيا ، انظر :
- د. حسين محمد فهيم : أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة).
- أحمد رمضان : الرحلة والرحالة المسلمون (دار البيان - جدة) .
- د. حسين مؤنس : ابن بطوطة ورحلاته (دار المعارف - القاهرة) .
- د. صلاح الدين الشامى : الرحلة عين الجغرافيا المبصرة (منشأة المعارف - الإسكندرية) .
- على مال الله : أدب الرحلات عند العرب فى المشرق (مطبعة الإرشاد - بيغداد) .
- محمد الخضر حسين : الرحلات (المطبعة التعاونية - بيروت) .
- نازك سابايارد : الرحالون العرب (مؤسسة نوفل - بيروت) .
- ناجى نجيب : الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق (دار الحكمة - بيروت) .

(٢) د. حسان حلاق : تاريخ العلوم ص ٢٥١ .

والمصنفات الجغرافية فى التراث العربى الإسلامى كثيرة ، وقد نال بعضها شهرة كبيرة وترجم إلى اللغات الأوروبية ، ومن أهم هذه المصنفات [1]:

١- كتاب البلدان ؛ لأبى العباس اليعقوبى ، المتوفى ٢٨٤ هجرية .

٢- المسالك والممالك ؛ لأبى القاسم عبد الله بن أحمد المعروف بابن خُرْدَاذْبَه ، المتوفى ٣٠٠ هجرية .

٣- صفة جزيرة العرب ؛ لابن الحائك الهمدانى ، المتوفى ٣٣٤ هجرية .

٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر ؛ لأبى الحسن المسعودى ، المتوفى ٣٤٦ هجرية .

٥- المسالك والممالك ، لإبراهيم بن محمد الفارسى الكرخى المعروف بالاصطخرى ، المتوفى فى حدود ٣٧٥ هجرية .

٦ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ؛ لشمس الدين محمد بن أحمد البشارى المعروف بالمقدسى ، المتوفى بعد سنة ٣٧٥ هجرية .

٧ - كتاب البلدان لابن الفقيه ؛ اختصره على بن حسن الشَّيزرى ، المتوفى ٤١٣ هجرية .

٨ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ؛ لأبى عبيد الله البكرى ، المتوفى ٤٨٧ هجرية .

٩ - كتاب الجبال والأمكنة والمياه ؛ لجار الله الزمخشرى ، المتوفى ٥٣٨ هجرية .

١٠- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ؛ لأبى عبد الله الإدريسى ، المتوفى ٥٥٦ هجرية .

١١- تذكرة الأخبار فى اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير) لابن جبير الأندلسى ، المتوفى ٦١٤ هجرية .

١٢- معجم البلدان ؛ لأبى عبد الله ياقوت الحموى ، المتوفى ٦٢٦ هجرية .

١٣- الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ؛ لموفق الدين عبد اللطيف البغدادى ، المتوفى ٦٢٩ هجرية [2].

---

(١) لا تزال بعض هذه المؤلفات فى نسخها الخطية ، ولم تنشر بعد .. ومعظمها نشر بدون تحقيق .

(٢) هذا الكتاب - المنشور عدة مرات - هو جزءٌ مختصر من كتاب كبير ، مفقود ، للبغدادى .

١٤ - آثار البلاد وأخبار العباد ؛ لزكريا بن محمد القزوينى ، المتوفى ٦٨٢ هجرية .

١٥ - تحفة النُّظَّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) لشمس الدين محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة ، المتوفى ٧٠٣ هجرية .

١٦ - مناهج الفِكَر ومباهج العِبَر ؛ لمحمد بن إبراهيم الكتبى المعروف بالوَطْواط المتوفى ٧١٨ هجرية [١].

١٧ - نُخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ؛ لشمس الدين محمد بن أبى طالب الصوفى الأنصارى الدمشقى المتوفى ٧٢٧ هجرية .

١٨ - تقويم البلدان ؛ لأبى الفداء إسماعيل بن على المتوفى ٧٤٢ المتوفى هجرية .

١٩ - الانتصار لواسطة عِقْد الأمصار ، لإبراهيم بن محمد بن أيْدمُر العلائى المعروف بابن دُقْماق ، المتوفى ٨٠٩ هجرية .

٢٠ - التحفة السَّنِيَّة بأسماء البلاد المصرية ؛ لشرف الدين يحيى بن المعتز المعروف بالجَيْعان ، المتوفى ٨٨٥ هجرية [٢]

وبالإضافة إلى هذه المؤلفات الجغرافية الشهيرة ، فلدينا - أيضاً - كتاب ابن حَوْقَل .

* * *

لم تعطنا المصادر التاريخية العربية ، ولا الدراسات الاستشراقية ، الكثير من المعلومات عن شخصية ابن حَوْقل ، رغم شهرة كتابه ؛ وكل ما جاء عنه فى « دائرة المعارف الإسلامية » هو: « أبو القاسم محمد بن حَوْقل ، لا نعرف عن حياته إلا القليل وهو يذكر عن نفسه أنه ترك

---

(١) يقع هذا الكتاب فى أربعة مجلدات مخطوطة ، لم ينشر منها سوى جزء يسير !

(٢) الملاحظ أنه بعد هذا التاريخ ، كادت الأعمال الجغرافية العربية تختفى تمامًا ، وما نجده منها بعد ذلك هو اختصار وترديد لما سبق ، وذلك يتزامن مع انحسار الحضارة الإسلامية ونشاط الأوروبيين فى تأسيس حضارتهم المعاصرة ، وهو التأسيس الذى اقترن بالكشوف الجغرافية .. والملاحظ - أيضاً - أن فجر النهضة العربية الإسلامية المعاصرة اقترن برحلتين : تخليص الإبريز للطهطاوى ، أقوم المسالك لخير الدين التونسى ! .

بغداد فى رمضان عام ٣٣١ هـ (مايو ٩٤٣م) بقصد دراسة البلاد والشعوب ، وبقصد الكسب عن طريق التجارة ، فجاب العالم الإسلامى من المشرق إلى المغرب، وكان يدرس فى الوقت نفسه ، بشغف ، مؤلفات السابقين كالجيعانى وابن خُرْدَاذْبَه وقدامة، ويحتمل أن يكون قد لقى فى رحلاته ، حوالى ٣٤٠ هجرية ، الاصطخرى الذى طلب إليه أن يهذِّب بعض خرائطه الجغرافية وأن يراجع كتابه ، فعزم ابن حَوْقل على تدوين الكتاب من جديد ، فأتمّه واضعاً اسمه عليه ، ولم يكن ذلك قبل سنة ٣٦٧ هجرية » .

ولا تضيف المصادر إلى ما سبق إلا أقل القليل ، كالإشارة إلى أن ابن حَوْقل أصله من مدينة « نصيبين » بالجزيرة ، وأنه اشتغل فى بداية حياته بالتجارة .. ومع هذا فقد نال كتاب ابن حَوْقل شهرة عظيمة ، وربما تكون شهرة الكتاب قد حجبت الكاتب ! .

* * *

تحمل مخطوطات كتاب ابن حوقل عنوانين ، فأحيانًا يُشار إليه على أنه (كتاب صورة الأرض) وأحيانًا تحمل المخطوطة عنوان (كتاب المسالك والممالك) .. وتلك حالة غير فريدة فى المؤلفات العربية ، فالكثير منها يحمل عنوانين .

وقد سار ابن حوقل فى الكتاب على طريقة الجغرافيين العرب السابقين عليه ، وكان أكثرهم أثراً فيه هو معاصره « الاصطخرى » صاحب كتاب (المسالك والممالك ، ولكن ابن حَوْقل تميَّز بالعرض التفصيلى لكل البلدان والمدن الإسلامية فى عصره ، فابتدأ بالجزيرة العربية ثم ذكر فارس - إيران - والشام ومصر والمغرب . وهو يخوض فى ذكر التفاصيل الخاصة بأهل البلاد وأنهارها وطرقها وجبالها ، وغير ذلك .. ويقول الدكتور حسَّان حلاَّق : « يعد كتاب ابن حوقل أوفى الكتب المدرسة الجغرافية الكلاسيكية - القديمة - بشئون المغرب والأندلس ، فهو يعطى صورة من أدق الصور للأندلس فى العصر الأموى ، ويورد معلومات وافية عن الحياة

الاجتماعية والاقتصادية فى تلك الديار ، وبين المحصولات المصدرة منها إلى المغرب ومصر ، ويتحدث عن تجارة الرقيق الأوروبى التى كان يقوم بها تجار متفرغون لها[1] !

* * *

وأفضل مخطوطات كتاب ابن حوقل ، هى النسخة المحفوظة فى مكتبة أحمد الثالث باستانبول .. وهى نسخة - دون شك - جلبها العثمانيون أيام سلطان دولتهم من إحدى العواصم العربية الكبرى ، كالقاهرة ودمشق وبغداد ، إذ أنها تحمل تاريخ النسخ سنة ٤٧٩ هجرية ، أى قبل قيام الدولة العثمانية بقرون . والمعروف ، أن معظم ذخائر المخطوطات فى مكتبات تركيا الحالية ، ومكتبات أوروبا أيضاً ، هى نتاج للنهب والسطو اللذين تعرضت لهما البلاد العربية طيلة القرون الماضية وهى ترزح تحت سلطان العثمانيين ومن بعدهم الاستعمار الأوروبى .

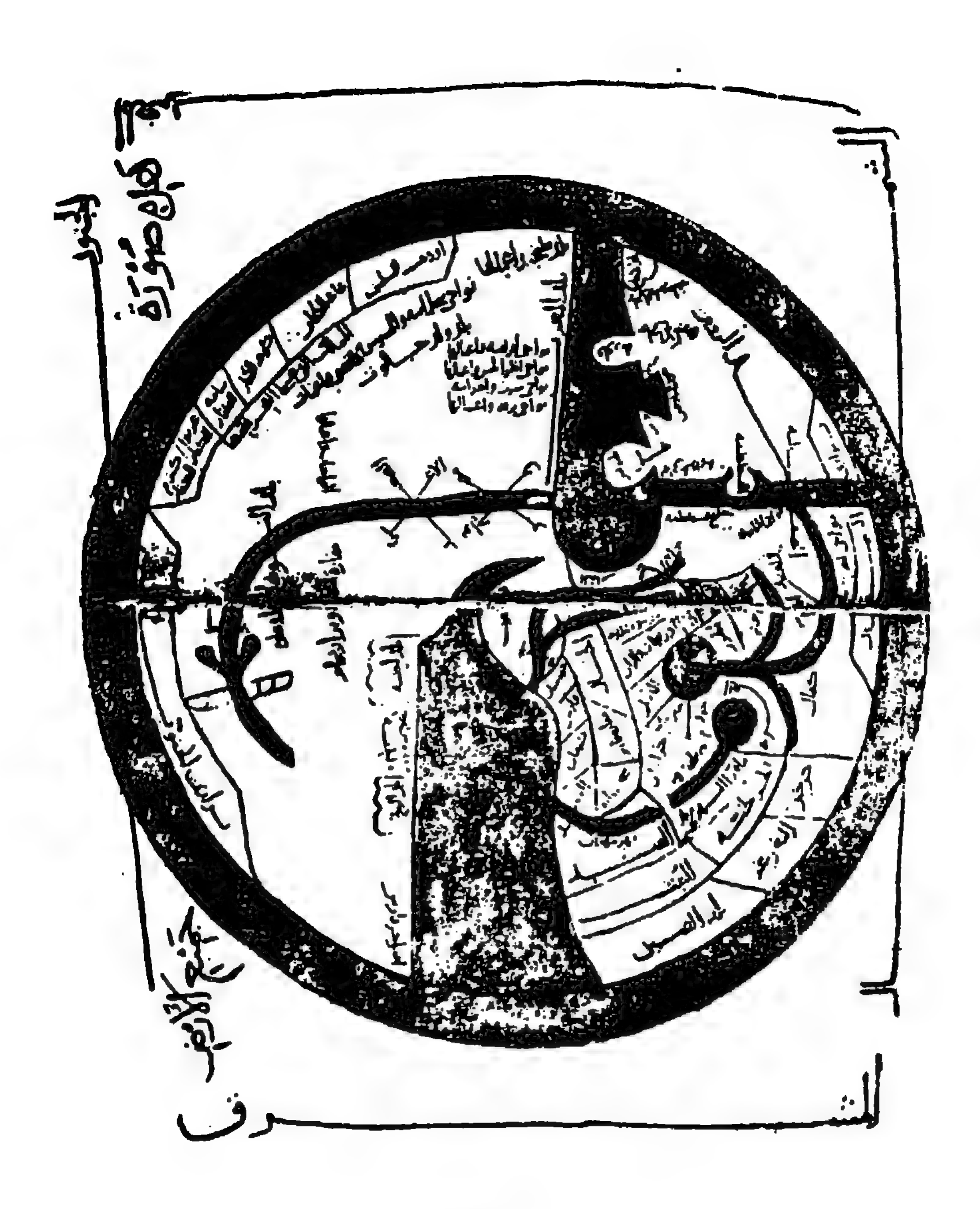
وكان كتاب ابن حوقل قد ترجم إلى الإنجليزية - قبل طبعه بالعربية ! - وصدرت الترجمة الإنجليزية فى لندن سنة ١٨٠٠ ميلادية .. ثم تُرجم الجزء الخاص إلى الفرنسية - قبل طبعه بالعربية أيضاً ! - وطبع فى باريس سنة ١٨٤٢ ، كما ترجم الجزء الخاص بمدينة باليرمو إلى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٤٥ .

أما النص العربى ، فقد نشره « دى غويه » أولاً ، ثم أعاد المستشرق « كرامرز » نشره فى ليدن سنة ١٩٣٨ معتمدًا على مخطوطة أحمد الثالث التى أشرنا إليها .. وكل ما فعله العرب المعاصرون حول هذا الكتاب ، هو أن مكتبة ببيروت نشرت طبعة كرامرز - وبالأحرى : سطت عليها - وأصدرت الكتاب فى مجلد واحد سنة ١٩٧٩ .

ولعل جغرافيًا عربيًا معاصراً ، يكون على صلة بتراث أجداده ، يتفرغ قليلاً لتحقيق كتاب ابن حَوْقل - بعد كل هذه الترجمات والنشرات الغربية - فتكون لدينا طبعة عربية محقَّقة من هذا الكتاب المهم ، مع دراسة جادة لقدر الإسهام العربى فى تاريخ الجغرافيا .. لعل وعسى !

---

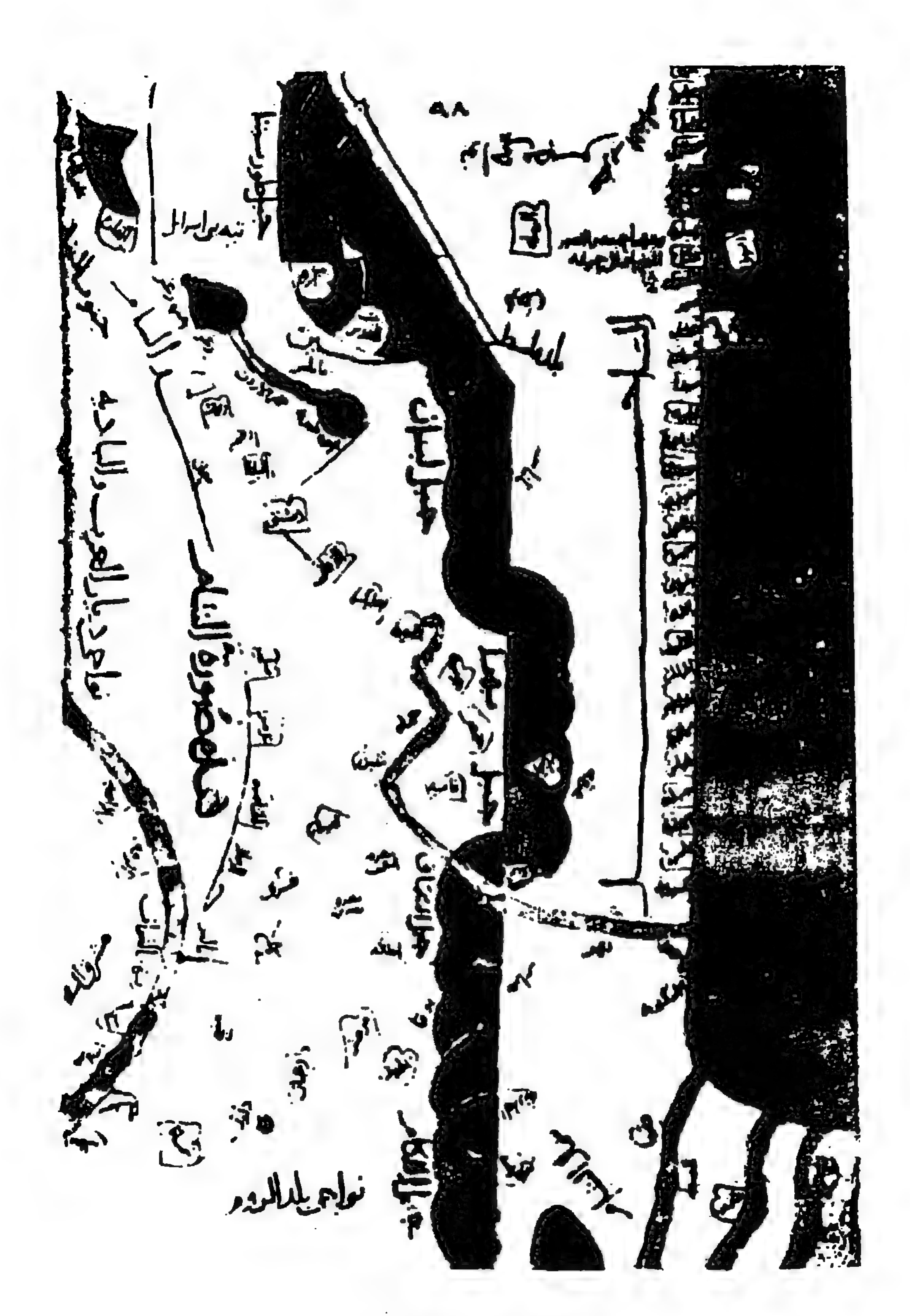
(١) تاريخ العلوم عن العرب (مرجع سابق) ص ٣٥٣ .



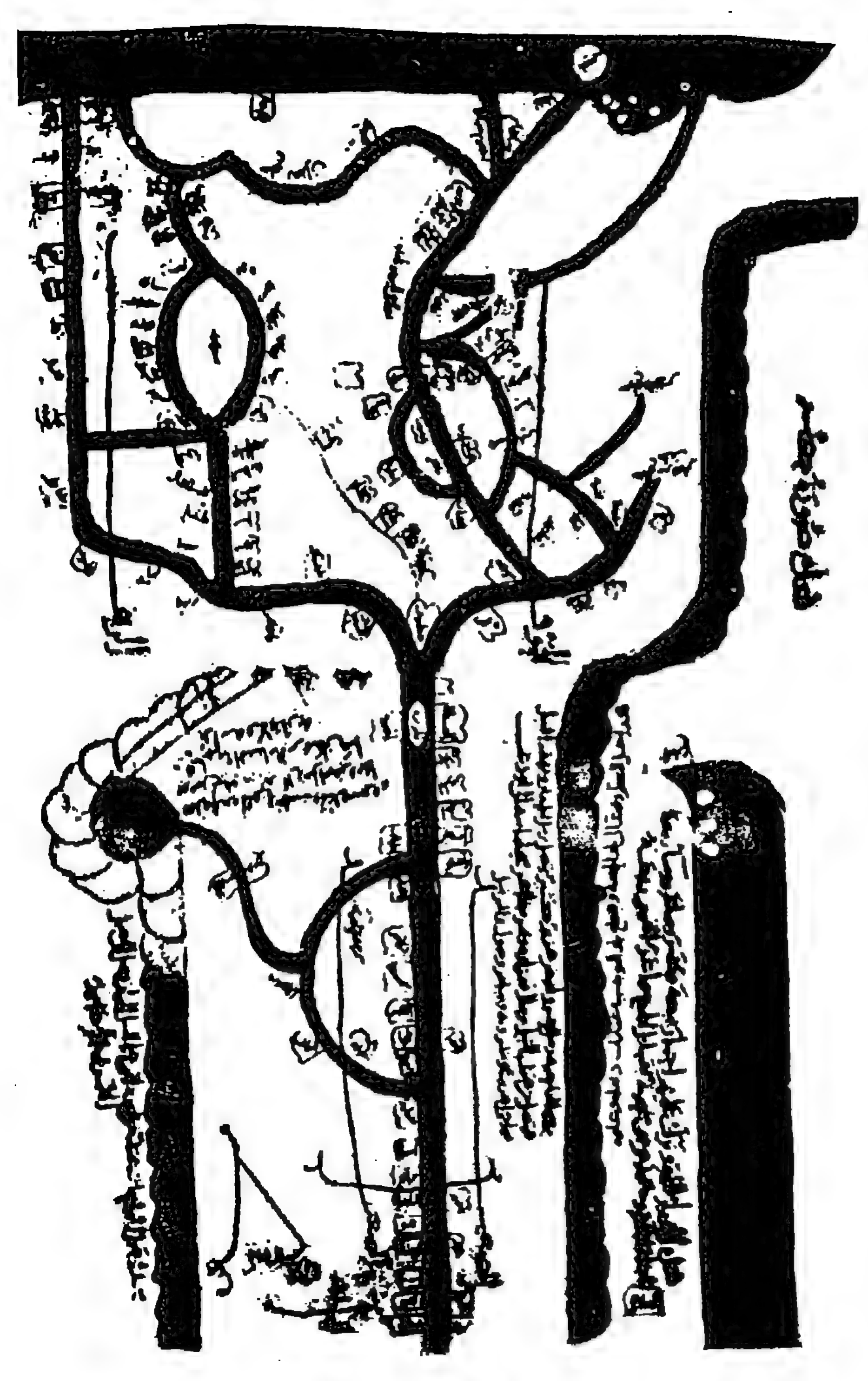
صورة جميع الأرض

مخطوطة مكتبة أحمد الثالث

بالرباط رقم ٣٣٤٦



خريطة الشام فى المخطوطة



خريطة مصر فى المخطوطة

عُقود اللآل في الموشحات والأزجال

للنَواجِــي

يقول السخاوى عن مؤلف هذه المخطوطة[1]: محمـــد بن حسن بـن على بن عثمان ، الشمس النَـوَاجى - نسبة لنَـوَاج بالغـربية بالقـرب من المحلـة - القاهرى الشـافعى ، شـاعرُ الوقـت، ويعرف بـالنواجى . ولـد بالقـاهرة بعـد سنة ٧٨٥ هجريـة - تقريبًـا - ونشأ بـزاوية الأبنـاسى ، فحفظ القـرآن والعمـدة[2]والتنبيه[3] والألفية[4] والشـاطبيـة[5].. وحجَّ مـرتين ، وحكى - كما أورده فى منسكـه الذى سماه « الغيث المنهمـر فيما يفعلـه الحاج والمعتمر » - أنـه رأى شخصاً من أعيان القضاة الشـافعية بالديار المصرية ، أراق دمًـا على جبل عرفات ، فقال لـه: « ما هــذا » فقال: « دم تمتع » فقـال: « إنه غير مجزىء هنـا » قال: « ولم؟ » قـال: « لأن شرطه أن يـذبح فى أرض الحرم وعرفـات ليست من الحرم » فقـال كالمنكر عليـه : « إذا لم تكن عرفات من الحرم فما بقى فى الدنيا حرم !! » .

ودخل دمياط والإسكنـدرية ، وتردَّد للمحلة وغيرها ، وأمعن النظـر فى علوم الأدب حتى فاق أهل عصره .. وكان متقدمًا فى اللغة العـربية وفنون الأدب ، مشاركًا فى غيرها ، حَسَن الخط جَيّد الضبط مُتقن الفوائـد عُمــدة فيما يقيِّـده أو يفيده بخطِّـه . وعمل كتابًـا سماه: « الحُجَّة فى سرقات ابن حِجَّة » وربما أنشىء الشىء مما نظمـه ابن حِجـة وعـزاه لبعض مَنْ سبقـه ! وقد

(١) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (مكتبة الحياة - بيروت) ٧ / ٢٢٩ وما بعدها ، وقد تتلمذ السخاوى على النواجى فى الحديث والأدب بالمدرسة الجمالية .

(٢) لعله يقصد كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى .

(٣) يقصد كتاب (التنبيه فى فقه الشافعية) للشيرازى .

(٤) هى أرجوزة ابن مالك فى النحو ، وتقع فى ألف بيت .

(٥) أرجوزة فى علم القراءات ، للشاطبى .

جُوزى على ذلك بعد دهر ، فإن بعض الشعراء صنّف كتابًا سماه « قُبح الأهاجى فى النواجى » جمع فيه هجو مَنْ دَبَّ ودرج حتى من لم ينظم من قبل ذلك ، وأوصله إلى النواجى بطريقة ظريفة ، فقد دفعه إلى (دَلاَّل) بسوق الكتب ، وهو جالس على عادته عند بعض التجار ، فدار به الدلاَّل على أرباب الحوانيت حتى وصل إليه ، فأخذه وتأمله وعلم مضمونه ، ثم أعاده إلى الدَلاَّل ، وحينئذ استرجع من الدَلاَّل ، فكاد النواجى يهلك ! مات فى جمادى الأولى سنة ٨٥٩ هجرية ، ومن نظمه .. فى قصيدة نبوية :

يَا مَنْ حَدِيثُ غَرَامى فِى محبَّتِهِمْ مُسَلْسَلٌ وفُؤَادِى مِنْهُ مَعْلُولُ

رَوَتْ جُفُونُكُم أنّى قُتِلْتُ بِهَا فَيَالَهُ خَبراً يَرْوِيه مَكْحُولُ (١)

* * *

وللنواجى مجموعة كبيرة من المؤلفات ، طُبع منها « حلبة الكميت » ولا تزال بقيتها مخطوطة ، فمنها : صحائف الحَسَنات فى وصف الخال - الأصول الجامعة لحكم حرف المضارعة - المطالع الشمسية فى المدائح النبوية - الشفا فى بديع الاكتفا فى مديح المصطفى - خلع العَذار فى وصف العذار - مراتع الغزلان فى وصف الحسان من الغلمان - ديوان شعر غزلى .. وله مجموعة من الشروح والحواشى على كتب الفقه والعروض .

---

(١) يستخدم النواجى هنا مصطلحات علم الحديث النبوى ، فيورد من هذه المصطلحات : الحديث ، مسلسل ، معلول ، رواية ، خبر (راجع دلالة هذه الألفاظ فى كتابنا : المختصر فى علم أصول الحديث ، لابن النفيس - الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩١) وفى الحقيقة فإن النواجى لم يكن مبتكراً فى هذا الأمر ، فقد شاع فى عصره تضمين الشعراء لمصطلحات علم الحديث ، يقول عبد الكريم الجيلى (المتوفى سنة ٨٢٦ هجرية) فى قصيدة له :

بَلِّغْ حديثاً قد روته مدامعى إذ عنعنته مسلسلاً فيضانه

أسندْ لهم ضعفى وما قد صحَّ من متواتر الخبر الذى جريانه

يرويه عن عبراته عن مقلتى عن أضلعى عما روت نيرانه

عن مهجتى عن شجوها عن خاطرى عن عشقه عما حواه جنانه

عن ذلك العهد القديم عن الهوى عمن همو روحى وهم سكانه

والأمر العجيب فى مؤلفات النواجى ، هو أن المطبوع منها هو أكثرها ابتذالا ! بينما مؤلفاته القيمة لم تزل مخطوطة ! وعن الكتاب المطبوع ، يقول لنا السخاوى : وله كتاب « حلبة الكميت فى وصف الخمر » وكان اسمه أولاً « الحبور والسرور فى وصف الخمور » فانتقد عليه الخيّرون جمعه ، بل حصلت له محنة بسببه ، حيث ادُّعى عليه من أجله ، وطُلب منه ، فغيَّبه . واستفتى عليه الشيخ عز الدين السنباطى - البليغ المفوَّه - فُتيا بديعة الترتيب ، قال العزُّ بن عبد السلام المقدسى: « إنها تكاد تكون مصنفًا مستقلاً » ؛ وبالغ العز بن عبد السلام البغدادى فى الحَطِّ والهجوم عليه !.

* * *

ويبدأ كتاب « عقود اللآل » بقول النواجى : قال الفقير إلى رحمة ربه ، الراجى عفوه ومغفرته ، محمد بن حسن بن على النواجى الشافعى ، بلَّغه الله سؤله ونوَّله فى الدارين مأموله . أما بعد ، حمدًا لله الذى وشَّح ذوى الفضل بحُلل الآداب ، ورشَّحهم بحُلى الفضائل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى اعترف بفصاحته كل ناطق ، وأذعن لبلاغته كُل قائل ، فقد جمعتُ هذه الحديقة من الموشحات والأزجال ، واقتطفت من ثمار أغصانها ما هو أطيب من نشوة الشمول ، وألطف من نسمة الشمال ، قاصدًا فى ذلك التوسط بين الإطناب والإيجاز ، منتقيًا من حُلل أبياته الغريبة ما يزهو ببديع محاسنه على كل ما فى دار الطراز من كل بيت يصعد نظر المتأمل إلى بديع طباقه العامرة بأنواع المحاسن ، فيسكن قلبه إلى تلك القصور الخالية من القصور .. إلخ .

ويقع مجموع « عقود اللآل » فى بابين ، الأول يضم نصوصاً من الموشحات المغربية والمشرقية لمؤلفين من أمثال : ابن زُهر - ابن الزَّقَّاق - ابن اللَّبَّانة - ابن الخطيب - ابن سَهْل .. وهؤلاء من موشحى المغرب . ومن موشحى المشرق اختار النواجى نصوصاً لابن حبيب - صفى الدين الحِلِّى - ابن الدَّهَّان - الشهاب الموصلى - سراج الدين المَحَّار .. وغيرهم .

ومن لطائف الموشّحات الـواردة فى « عقود اللآل » موشحة صـدر الدين بن الوكيل التى تقول :

غَـدًا مُنَـادِينـا مُحكّمًا فِينـــــا

يَقْضى علينـا الأسَى لَـــولاَ تَأَسِّينـــا

وهناك موشحة فريدة لابن سناء الملك ، تقول :

أَرَى دَمْعَتِى كـالـدُّمَـا جَـارِيـة عَلَى وَجْنَتِى فِى هَـوَى جَـارِيـة

فَمَنْ لِى بخُــودٍ كَعُـوبٍ رِدَاح سَبَتْنِى بِـوَجْـهٍ كَنُـورِ الصَّبَاح

يَفُـوق وُجـوه الغَـوَانى الصِّبَـاح مَليكـــةُ كُلِّ الحِسَـــان المِلاَح

سُعَــاد لها تُحْمَلُ الغَــاشِيــة وهِـىَ لَكِنْ جُمْلَـــةُ الحَاشِيـــة!

والباب الثانى (فى الأزجال) وفيه منتخبات كثيرة لزجّالين من المغرب والمشرق ، أمثال : ابن قُزمان – ابن النبيه – ابن حِجة – الغبارى – الـزينى الخَرَّاط – ابن مُكَانس .. بالإضافة إلى أزجال النواجى نفسه .

ومما أورده النواجى من أزجال ابن حِجَّة ، قوله :

حُبِّى وَاصِلْ نَـادِيتُ لـو حِـــينَ زَادَ يُقَـــاصِلْ

لاَ تُقَـــاطِعْ بــالحُزْمَـــةِ يَــا حُبِّ وَاصِــــلْ

ويبدو أن ثمة خلافًا وقع بين النواجى وابن حِجّة – صاحب هذه الزجلية – إذ يصدرها النواجى بعبـارة ساخرة تقـول: « قال أبو بكر بن حِجَّـة ، بيَّض الله ذقنه !! » وقد مَـرَّ علينا أن للنواجى كتابًا فى سرقات ابن حِجَّة افترى فيه المؤلّف على ابن حِجَّة ، وجوزى على افترائه .. كما حكى لنا السخاوى .

وقد انتهى النواجى من تدوين مجموع « عقود اللآل » سنة ٨٦٨ هجرية ، وهناك مخطوطة من الكتاب بمكتبة دير الأسكوريال بأسبانيا ، مؤرخة بهذا التاريخ ، وفى آخرها إشارة إلى أنها منقولة من نسخة المؤلف .. بالإضافة إلى نسخة أخرى - ناقصة من آخرها - محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧١٠٠/ أدب .

* * *

وفى بغداد ، سنة ١٩٨٢ ، نشر عبد اللطيف الشهابى مخطوطة « عقود اللآل » وقدَّم لها بمقدمة موجزة ، لكن هذه النشرة يعيبها أمور ، أولها أن المحقق لم يعتمد إلا على نسخة الأسكوريال وأغفل نسخة القاهرة تمامًا ، وثانيها - وهو الأخطر - أن صاحب هذه النشرة حذف بعض النصوص التى استعصت عليه ، دون أدنى إشارة لوجودها فى الأصل المخطوط، ونظرا لأنه لم يعتمد على نسخة القاهرة ، ولم يُشر إليها ، فقد وقع فى أخطاء كثيرة وقراءات بعيدة عن الصواب ، وأورد العديد من النصوص مبتوراً أو منسوبًا لغير صاحبه ، وكان من الممكن تلافى ذلك كله ، بالمقابلة بين النسختين ومراجعة النصوص على اللهجات العامية فى المغرب والمشرق العربى ، وكل ما سبق ، يعنى أن المخطوطة - مع بقية مؤلفات النواجى - لا تزال بحاجة إلى نشرة محققة وفقًا لأسس علمية سليمة .





« عقود اللآل » صفحة العنوان

مخطوطة الأسكوريال رقم ٤٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

قال الفقير الى رحمة ربه والراجي عفوه
ومغفرته محمد بن حسن بن علي النواجي الشافعي بلغه
الله سوله ونوله في الدارين ما موله
حمد الله الذي وشح ذوي البلاغة بحلل الاداب
ورشحهم بحلى الفضايل والصلاة والسلام على سيدنا
محمد الذي اعترف بفصاحته كل ناطق وادعن لبلاغته
كل قايل فقد جمعت هذه الحديقة في الموشحات
والازجال واقتطفت من ثمار اغصانها ما هو اطيب
من نشوة الشمول والطف من نسمة الشمال قاصدا
في ذلك التوسط بين الاطناب والايجاز منتقيا
من حلل ابياته الغريبة ما يزهو ببديع محاسنه على
كل ما في دار الطراز من كل بيت يبعد نظر المتاسل
الى بديع لطافته العامرة بانواع المحاسن فيسكن
قلبه الى تلك القصور الخالية من القصور ويتوصل من خرجاته

الرائقة

الورقة الأولى من المخطوطة

نشتري قوسي بجاريه ووصيف   وهميلك يكون خطاي جيد
قلت تبني في عشقك مملوك   وانا الا عبدك يا سيد التمره
وادي عيني في خد مثلك جاريه   وادي ظهري قوس محني لو تر
قلت تمضوا نقضي فرح في التاج   قال لي ذاك اسمي بين الملاح اخفيه
قلت فالبيع وجوه قال لي   وجهي احسن منهم بلا تشبيه
قلت لو فالبنيه فنادا لي   انا منيه قلبك وما تشتهيه
قلت لو في خليجنا الزعفران   قال لي ذا وجهك من السهر والغيره
قلت تمضي نتنزه الجيبه   قال لي تطلب قمر ووجهي قمر

واذا دعونك عمهن فانه نسب يزيدك عندهن خبالا
واذا دعونك يا اخي فانه ادنى واقرب خلة ومنالا
مع مسمعي في صوري معهد بالرصافي بعد كحط وقت
في دير عصب ملم لسها الما عادتها وكاس نصف

الورقة الأخيرة

عُنوانُ الحَقّ وبُرهانُ الصّدْقِ

للأبْهَـرِى

يعتقد الكثيرون أن العلوم الفلسفية اختفت من التاريخ الثقافى العربى بعد الغزالى (حُجَّة الإسلام ، أبى حامد المتوفى ٥٠٥ هجرية) نظراً للنقد الشديد الذى وجهه الغزالى للفلسفة والفلاسفة فى كتابه « تهافت الفلاسفة » .. وقد أدى ذلك كله - فى ظنهم - إلى اختفاء الفكر الفلسفى من المحيط الثقافى العربى القديم ، مما كان له أكبر الأثر فى دخول العرب عصور التخلف فى القرون التالية لوفاة الإمام الغزالى !.

لكن هذه القضية ، على اشتهار أمرها وترددها لدى الكثرة من الباحثين فى التراث العربى لا تعدو كونها وهمًا وتخييلاً ، فمن المؤكد أن الغزالى انتقد الفلسفة ، ومن بعده انتقد ابن الصلاح وابن تيمية المنطق ، لكن المؤكد أيضاً ، أن الفلسفة والمنطق ظلا يتخذان موقعهما المهم فى التاريخ الثقافى العربى رغم هذا النقد ، وتوالت جهود الفلاسفة والمناطقة بأقوى مما كانت قبل الغزالى ! أما دخول العرب إلى عصر التخلُّف الحضارى ، فكان لأسباب أخرى - سياسية واقتصادية - ليس هذا مجال الخوض فيها [1] ؛ فإن ما يهمنا الآن هو الوقوف عند شهادة تؤكد بقاء البحث المنطقى والفلسفى العربى بعد الغزالى بأكثر من قرن ونصف من الزمان ، وذلك من خلال مخطوطة « عنوان الحق » لأثير الدين الأَبْهرِى [2].

* * *

(١) راجع ما كتبناه فى ذلك بجريدة الأهرام ، تحت عنوان : الأحكام الإطلاقية (يوم ٢٠/ ١١/ ١٩٩٢) وتحت عنوان : الفلسفة بعد الغزالى (يوم ٢٧/ ١١/ ١٩٩٢) ففيه تفاصيل هذه المسألة .

(٢) انظر - أيضاً - الفصل الأخير من هذا الكتاب ، حيث نعرض لمخطوطة ابن النفيس : الوريقات فى المنطق .

ولد أثير الدين الأَبْهَرِى (المفضَّل بن عمر بن المفضَّل) ببلدة صغيرة تقع فى منتصف الطريق بين قَـزْوين وزِنْجَان ، هى قرية « أَبْهَر » التى انتسب إليها ، وكان مولده - على أرجح الأقوال - سنة ٦٠٠ هجرية [١].

وقد اتصل الأبهرى بأعلام عصره ، فتتلمذ على فخر الدين الرازى وكمال الدين بن يونس - وغيرهما - ثم صار له تلامذة مشهورون من أمثال المؤرخ ابن خلكان .. ويبدو أن اتصالا كان بينه وبين أبرز علماء المشرق آنذاك : نصير الدين الطوسى ، وقد انتقد الطوسى كتاب الأبهرى (تنزيل الأفكار فى تعديل الأسرار) ووصف مؤلفه - الأبهرى - فى مقدمة النقد بالفاضل .

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الأثير الأبهرى نشأ بالموصل ، ثم ارتحل منها سنة ٦٢٦ هجرية إلى « إربل » حيث جلس للتدريس . وفى « إربل » يحكى ابن خلكان عن شيخه ما يلى: كنت أشتغل عليه بشىء من الخلاف (= الجدل والمنطق واختلاف الفقهاء) فبينما أنا يومًا عنده ، إذ دخل عليه أحد فقهاء بغداد ، فسأله الأبهرى عن شيخه ابن يونس ومكانته عند أهل بغداد وحُكَّامها ، فقال له الرجل : ما أنصفوه على قدر استحقاقه ، فقال الأثير الأبهرى : والله ما دخل بغداد مثل الشيخ ابن يونس ! فاستعظمنا منه هذا الكلام .. وكان الأثير على جلالة قدره فى العلوم ، يأخذ الكتاب ويجلس متتلمذًا على يدى كمال الدين بن يونس فيقرأ عليه ، والناس يوم ذاك يشتغلون فى تصانيف الأثير ، ولقد شاهدت ذلك بعينى وحكى لى بعض الفقهاء أنه سأل الشيخ ابن يونس عن الأثير ومنزلته فى العلوم ، فقال الشيخ : لا أعلم ! فقال له : كيف هذا يا مولانا وهو فى خدمتك منذ سنين ويشتغل عليك ؟ قال ابن يونس : لأنى مهما قلت له شيئا ، تلقاه بالقبول قائلاً: « نعم يا مولانا » وما جاذبنى فى مبحث قط حتى أعلم حقيقة فضله ! .. ولا شك أنه كان يتعمَّد هذا تأدبًا مع الشيخ ، وكان دومًا يقول : ما تركتُ بلادى وقصدت الموصل إلا للاشتغال على الشيخ كمال الدين بن يونس [٢].

(١) انظر ترجمة الأبهرى وأخباره وكتبه ، فى : وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٣١٣ - الوافى بالوفيات للصفدى ٢٦/ ٥٥ - تاريخ مختصر الدول لابن العبرى ص ٤٤٥ - الأعلام للزركلى ٧/ ٢٧٩ - معجم المؤلفين ١٢/ ٣١٥ - Brockelmann .. 1, 839

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس (دار صادر ، بيروت) ٥/ ٣١٣ .

وتوفى أثير الدين الأبهرى سنة ٦٦٣ هجرية ، بعدما اشتهر فى عصره كواحد من كبار الحكماء والمناطقة والمشتغلين بعلم الفلك .. وقد ترك فى هذ التخصصات العلمية عدة مؤلفات أشهرها : شرح إيساغوجى . وكتاب « إيساغوجى » عبارة عن مقدمة عامة فى المنطق ، وضعها الفيلسوف الشهير (فرفوريوس الصورى) أشهر تلاميذ الفيلسوف السكندرى الكبير (أفلوطين) وجامع تراثه ، فقد عمد فرفوريوس بعد أن جمع مقالات أفلوطين ووضعها فى شكل « التاسوعات » ، إلى كتب أرسطو المنطقية وصاغ لها مقدمته المشهورة باسم «إيساغوجى» أو « المدخل إلى المنطق » وهى الرسالة التى ترجمها العرب واهتموا بدراستها اهتمامًا كبيرًا ، ونالت من الشروح العربية قدرًا لا حصر له . ومن تلك الشروح ، شرح الأبهرى الذى جعله بمثابة تلخيص عام لكل المباحث المنطقية .

وللأبهرى أيضا كتاب منطقى بعنوان « تنزيل الأفكار فى تعديد الأسرار » وله فى الفلسفة كتاب « هداية الحكمة » وفى الفلك « درايات الأفلاك » و « الزيج الشامل » .

* * *

أما مخطوطة « عنوان الحق وبرهان الصدق » فهى كتابٌ فى الحكمة بمعناها العام ، يقع فى ثلاثة أجزاء .. يقول الأبهرى فى مقدمته : « أما بعد ، فهذا تلخيصٌ فى الحكمة حررته لإخواننا فى الدين ورفقائنا فى طلب الصدق واليقين ، ولكلِّ مَنْ خَصَّه واهبُ العقل بنفسٍ زكية وهمَّةٍ عالية يطلب بها الحق من حيث هو هو ، وأوردت فيه الدقائق التى استخرجتها من القوة إلى الفعل على سبيل الإيجاز » .

وبعد المقدمة يدخل الأبهرى إلى القسم الأول من الكتاب ، وهو القسم المخصَّص للمنطق ، وذلك باعتبار المنطق هو المدخل الطبيعى لأى معرفة ، فنراه يقول تحت عنوان « القول فى المنطق » ما نصه : هو آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر ، أعنى ترتيب تصورات أو تصديقات ليتأدى منها إلى تصور أو تصديق ، والتصور هو حصول صورة الشىء

فى العقل ، والتصديق هو الحكم على الشىء إما بنفى أو إثبات ، والموصل إلى التصور يسمى قولاً شارحًا .

ثم يقول الأبهرى فى مخطوطته : « وليس المنطق بتمام أجزائه بديهيًّا ، وإلا لما وقع فيه الغلط وقوعًا مستمراً ؛ ولا كسبيًّا ، وإلا لتوقف اكتسابه على قانون خارج عنه ، بل بعضه بديهىٌّ ، وبعضه كسبىٌّ يستفاد من القسم البديهى .. ولهذا انبعثت الداعية إلى تعلمه » .

ويتناول الأبهرى بعد ذلك المباحث المنطقية المتعددة ، شارحاً المقصود من كل مبحث ، وموضحاً دلالات المصطلحات المنطقية ، ومشيراً إلى بعض آرائه الخاصة ، وقد لجأ فى ذلك كله إلى أبسط العبارات وأوجز التعريفات ، ولم يعمد إلى الغموض والإبهام والغرق فى التفصيلات ، حتى إن الكتاب يبدو للقارىء ، كما لو كان من تأليف أحد المعاصرين .

والقسم الثانى من المخطوطة بعنوان « القول فى العلم الطبيعى » وينقسم إلى عدة مطالع (أبواب) كل مطلع منها ينقسم بدوره إلى فصول ، ومن خلال تلك الأبواب والفصول ، يتناول الأبهرى طبيعة الأجسام والحركة وغير ذلك من الموضوعات التى كانت تدخل آنذاك ضمن مباحث علم الطبيعة أو ما نسميه اليوم بالفيزياء ، والملاحظ فى هذا القسم من المخطوطة ، أن الأبهرى لا يكتفى بترديد أقوال السابقين عليه من العلماء ، بل يهتم بتقرير رأيه الخاص ، ويورد الأقوال الأخرى المناقضة ويفنِّدها ، لينتهى إلى صحة ما ذهب إليه .

والقسم الثالث الأخير بعنوان « القول فى العلم الإلهى » وقد سار فيه الأبهرى على نفس الترتيب ، مبتدئًا بالكلام عن الجواهر والأعراض ، ثم فكرتى الكم والكيف وأنواع الكيفيات ، فنراه وهو يقول : « وأما الكَمٌّ فهو إما متصلٌ وهو الذى يمكن أن تعرض له أجزاءٌ بينها حَدٌّ مشترك ، وإما منفصل وهو الذى لا يكون كذلك وهو العدد ، والمتصل ينقسم إلى ما يمتنع ثباته ، وهو الزمان ، و إلى ما لا يمتنع ، وهو ثلاثة أقسام : الخط وهو طولٌ فقط ، والسطح وهو طولٌ وعرضٌ فقط ، والثخن وهو طولٌ وعرضٌ وعمقٌ . وأما الكيف فأقسامه أربعة ، الأول الكيفيات المختصة بالكميات كالاستقامة والانحناء والزوجية والفردية للعدد . والثانى القوة

واللاقوة فهى الكيفية التى نحو الانفعال كاللين . والثالث الكيفيات النفسانية ، وهى إن كانت غير راسخة تسمى حالاً - كالكتابة فى أول الأمر - وإن كانت راسخة تسمى ملكة ، والرابع الكيفيات المحسوسة ، والراسخة منها تسمى انفعاليات سواء كانت فى ابتداء الوجود كحلاوة العسل وحمرة الورد ، أو فيما بعد كملوحة ماء البحر ، وغير الراسخة تسمى انفعالات كحمرة الخجل وصفرة الوجه » .

وبعد ذلك يتوقف الأبهرى عند فكرة الواحد والكثير ، فيوضح المراد بكل اصطلاح منهما، ثم يتناول صفات الواحد (الله) والدلائل على وجوده ، وغير ذلك من موضوعات العلم الإلهى أو ما يسمى بالفلسفة الأولى[1].

ومما لا شك فيه أننا مقصرون أشد التقصير تجاه الأبهرى وتراثه المخطوط ، مما يجعلنا غافلين عن قراءة صفحة مهمة من صفحات التراث العربى الذى لا يزال - فى أغلبه - مخطوطًا ، ونكتفى ، ونحن أصحاب هذا التراث ، بما يقدمه لنا الغرب من دراسات ونظريات وأفكار عن تراثنا ، لأن الغربيين اهتموا بالبحث فيه أكثر منا ! وهكذا صرنا نرى أنفسنا على النحو الذى يصوِّره الغرب لنا ، ونعرف ذاتيتنا بحسب ما يريد الآخر الغربى أن نعرفه .. وعلى أى حال ، ففيما يخص الأبهرى ، فإننى أعلم أن باحثًا شابًّا هو « عادل عبد السميع عوض » يعد فى هذه الأيام رسالة ما جستير عن تطور منطق القياس الأرسطى فى عصر الأبهرى ، مع تحقيق نص رسالته « إيساغوجى » ، ولعل هذا الباحث يتمكن فى المستقبل من تقديم صورة جيدة عن أثير الدين الأبهرى ، ويقوم بنشر تراثه المخطوط .



(١) اعتمدنا هنا على مخطوطة (عنوان الحق) المحفوظة تحت ررقم ٣١٣٤ بجامعة اسطنبول - مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة - وهى نسخة جيدة كتبت سنة ٧٠٩ هجرية .. وربما تكون هذه المخطوطة هى الوحيدة الباقية من مخطوطات هذا الكتاب .

كتاب عنوان الحق

وبرهان الصدق

لقدوة أكابر الحكماء أثير الدين

الأبهري

رحمه الله

مخطوطة جامعة اسطنبول

(صفحة العنوان)

بسم الله الرحمن الرحيم   قال الامام الاجل العالم وحيد عصره
وفريد دهره امام الائمة والعلما قدوة الاكابر الحكما اثير الدين الابهري
نور الله ضريحه ، الحمد لله الذي توحد بالعزة والبقا وتفرد بجلال العظمة
والكبريا الكريم الذي افاض بجوده قواعد الوجود وحقايق الاشيا واخترع
بلطايف صنعه عجايب عالم النور والضيا والصلوة على رسوله محمد خاتم الانبيا
وعلى آله واصحابه ذوي الحجى وسلم تسليما كثيرا ، اما بعد فهذا [illegible] حكمية
حررته لاخواننا في الدين ورفقائنا في طلب الصدق واليقين ولكل [illegible]
واهب العقل بنفس زكية وهمة عالية يطلب بها الحق من حيث [illegible]
فيه الدقايق التي استخرجتها من القوة الى الفعل على سبيل الايجاز وسميته عنوان
الحق وبرهان الصدق واستعنت بالله ولي التوفيق القول [illegible]
وهو آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطا في الفكر اعني ترتيب [illegible]
تصديقات ليتادى منها الى تصور او تصديق والتصور [illegible]
الشيء في العقل والتصديق هو الحكم على الشيء اما بنفي او اثبات [illegible]
التصور يسمى قولا شارحا والى التصديق حجة ويجب تقديم [illegible] الثاني
لتقدم التصور على التصديق [illegible] تصديق فيه تصور ذات المحكوم عليه
او تصور امر صادق عليه والا [illegible] مطلقا محكوما عليه وهو باطل لصدق
قولنا لا شيء من المجهول مطلقا محكوما عليه فان [illegible] لو صح ما ذكرتم لكان
ذلك

بداية القسم الأول من المخطوطة (فى المنطق)

بسم الله الرحمن الرحيم   القسم الثاني في العلم الطبيعي

وهو مرتب على مطالع الاول في حقيقة الجسم واحواله اللازمة من نفسه
وفيه فصول خمسة الاول في ان الجسم لا يتركب من اجزاء لا تتجزى وبيانه من وجوه
احدها انه لو فرض جزء بين جزئين فالوسط ان كان مانعا من تلاقي الطرفين فما به يلاقي
احدهما غير ما به يلاقي الاخر فيكون منقسما وقد فرض انه غير منقسم هذا خلف وان لم يكن مانعا
فالطرفان متلاقيان فلا يكون هناك وسط وطرف وقد فرض كذلك هذا خلف الثاني لو فرض
جزءان متلاقيان فان تلاقيا لا بالكلية فهما منقسمان وان تلاقيا بالكلية لما كان
حجمهما زائدا على احدهما في المقدار فلا يكون الكل اعظم من الجزء هذا خلف الثالث لو فرض
جزء لا يتجزى لكان واقعا في جهة فهو مما منه الى الجهة غير ما منه الى اخرى فيكون منقسما
وقد فرض خلافه هذا خلف الرابع لو فرض الجسم مركبا من اجزاء لا تتجزى فالدائرة العظيمة
من الرحى اذا تحركت جزءا لا يتجزى فالقطبية ان تحركت اقل منه لزم انقسام ما لا يتجزى
وهو محال وان تحركت مثله او اكثر منه لزم تمام حركة الدائرة القطبية قبل تمام حركة
الدائرة العظيمة فيلزم اما تفكك الرحى او سكون الدائرة القطبية هذا خلف فالجسم
لا يتركب من اجزاء لا تتجزى لا يتناهى بالتجزية الى ما لا يتجزى فيقبل انقساما في الوهم
الى ما لا نهاية وربما يمتنع ذلك في الاعيان لسبب وتفرض فيها الاجزاء بمجرد فرض
وهمي او اختلاف عرضين ما حقيقيين كما في البلقة او اضافيين كموازاة او محاذاة
لجسمين والممكن الغير المتناهي من القسمة لا امكان لخروجه الى الفعل وزعم قوم ان الجسم

بداية القسم الثانى (فى العلم الطبيعى)

بسم الله الرحمن الرحيم القسم الثالث في العلم الالهي

وفيه مطالع المطلع الاول في العلم الكلي المشتمل على تقاسيم الوجود وفيه فصول
الفصل الاول في الجوهر والعرض الموجود اما ان يكون في شيء لا كجزء منه
شايعا بالكلية بحيث لا يصح مفارقته عنه او لا يكون كذلك فان كان الاول يسمى
الشايع المنسوب بلفظ في حالا والمنسوب اليه محلا والحال ان كان متقوما على المحل
يسمى المحل موضوعا والحال عرضا وان لم يكن متقوما عليه يسمى المحل هيولى والحال صورة فالموضوع
والهيولى يشتركان اشتراك الاخصين تحت اعم وهو المحل والعرض والصورة يشتركان
اشتراك الاخصين تحت اعم وهو الحال والشيء اذا كان اعم من غيره فسلب ذلك الاعم
اخص من سلب ذلك الاخص فاللاكون في المحل اخص من اللاكون في الموضوع اذ الكون
في المحل اعم من الكون في الموضوع فالجوهر هو الماهية الممكنة التي اذا وجدت في الاعيان
كانت لا في موضوع والعرض هو الماهية التي اذا وجدت في الاعيان كانت في موضوع
والجوهر ان كان حالا في محل فهو الصورة وان كان محلا فهو الهيولى وان كان مركبا منهما فهو الجسم
والا فهو الجوهر المجرد واما العرض فان امتنع ثباته لذاته فهو الحركة وان لم يمتنع فاما
ان يكون ماهيته معقولة بالقياس الى الغير وهو النسبة او لا يكون ولا يخلو اما
ان يكون قابلا للتجزي لذاته وهو الكم او لا يكون وهو الكيف وللحركة ان اضيفت
الى الفاعل يسمى الفعل وان اضيفت الى المنفعل يسمى الانفعال واما النسبة
فيدخل فيها الاين وهو حصول الشيء في المكان ومتى وهو حصوله في الزمان والوضع

بداية القسم الثالث (فى العلم الإلـٰهى)

عَيْنُ الحَيَاةِ فى اسْتِنْبَاطِ المِيَاه

للدَمَنْهُورِى

فى مساء ليلة شتوية - دافئة - من أواخر سنة ١٩٨٩ خرجت مع صديقى المفكر الأصيل/ سامى خشبة لنجلس على مقهى شعبى يمد كراسيه فى ساحة مسجد أبى العباس المرسى .. كنا قد انتهينا من ندوة بقصر ثقافة التذوق ، بالشاطبى ، تحدث فيها الأستاذ / سامى خشبة عن (ثورة المعلومات) وكنت أديرها ، وأردنا مواصلة النقاش سويا ونبش « كناسة الدكان بعد رحيل السكان » فامتدت جلستنا المنفردة ، تحت أقدام أبى العباس المرسى إلى وقتٍ من الليل متأخر .

فى ذات الليلة ناقشنا أمورًا كثيرة ، كان بينها مسألة بداية النهضة الحديثة فى مصر والمنطقة العربية . فقلت له ما معناه : أظن أنه قبل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر ، كانت هناك إرهاصات مصرية للنهضة ! فقال : لقد بَحَثَ المستشرق الأمريكى المعاصر « بيتر جران » هذه المسألة ووضع فيها بحثًا بديعًا بعنوان « الجذور الإسلامية للرأسمالية » فاستقصى جوانب الموضوع ، وقد نشر كتابه منذ بضعة أعوام بالإنجليزية ، ولم يُترجم - للأسف - للعربية .

بعدها بشهور قابلت بيتر جران فى لقاء عابر لم يكن فيه مجال للخوض فى هذه المسألة أو للسؤال عن الكتاب .. حتى جاءت سنة ١٩٩٢ لتحمل لنا المطابع فى نهايتها ترجمة عربية للكتاب ، وصار الأمر متاحًا للتعرُّف إلى (رؤية) هذا المستشرق الأمريكى المعاصر [1].

(١) نشرت الكتاب : دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع (القاهرة - باريس) بترجمة محروس سليمان ومراجعة د. رؤوف عباس . وقد جاءت الترجمة فى شكل جيد ، وإن كانت تنقصها المراجعة الدقيقة خاصة فيما يتعلق بضبط المصطلحات وأسماء الأعلام .

يلخِّص بيترجران (رؤيته) فى تقـديمه للطبعة العربيـة فيقول : ما أزعجنى[1] هو أن مَنْ كتبوا عن مصر لم يتخلـوا عن عام ١٧٩٨ (عام مجىء الحملـة الفرنسية) كبدايـة للتحديث فى مصر ، بل ولم يفكروا فى مجرد طـرح الافتراض القائل: إن مصر كانـت تتمتع بثقافة حيـة ، وإنه كان مـن الممكن أن تنجز عمليـة التحديث بنفسها .. وتحديًـا لما يمكن أن نطلق عليـه « نظرة تاريخيـة أوروبية المحور » وهى نظرة تنطـوى على مفهوم أن العالم الثالث كـان فى سبات عميق حتى مجىء الغرب ، كـان هدفى أن أبرهن على أن مجىء نابليـون إلى مصر عام ١٧٩٨ لم يكن ذا أهمية كبيرة فى التاريخ المصرى ، كما تزعم حركة التاريخ الأوروبية[2].

وبالفعل ، استطاع بيترجران أن يثير بقوة ذلك الفـرض القائل بأن جذور النهضة الحديثة تشكلت داخليًا ، ولم يكـن مجىء الحملة الفرنسيـة إلا عامـلاً مساعـدًا لمولد هـذه النهضة التى تستمد أصولها من داخل مصر وفى إطـار ثقافتها العامة السائدة آنـذاك ، ولقد ركَّز بيترجران فى كتابه على تحليل الثقـافة المصرية بكل مكونـاتها الاجتماعية والاقتصادية والفكـرية والعلمية فى الفترة الممتـدة من سنة ١٧٦٠ إلى سنـة ١٨٤٠ ميـلادية ، مع التركيـز على أشهـر أعلام هـذه المرحلة : الشيخ حسن العَطَّار .

ومع ذلك ، فإننى أعتقـد – من جانبى – أن إثبـات هذه الفـرضية كـان يقتضى الرجـوع قليلاً إلى الوراء ، لتحليل التربة التى أنبتت حسن العَطَّار ومرحلته ، ولعل التركيز على اثنين من الأعلام السابقين قليلاً على (العَطَّار) سيكشف عن الكثير ويؤكد أن العَطَّار لم ينشأ من فراغ، وإنما كان امتدادًا لحركة فكرية ذات أصول مصريـة خالصة وهذان العلمان هما : الإمام مرتضى الزبيدى (صاحـب موسوعة تاج العروس ، وإتحاف السادة المتقين بشرح إحيـاء علوم الدين ، بالإضافة إلى أكثر من مائة كتاب أخرى)[3] .. والشيخ أحمد الدمنهورى (صاحـب المخطوطة التى نتحدث عنها وعنه فى هذا الفصل) .

---

(١) يقصد بعد مرور سنوات على صدور الكتاب الإنجليزية .

(٢) بيتر جران : الجذور الإسلامية للرأسمالية (مقدمة الترجمة العربية) ص ٩ ، ١٠ .

(٣) توفى الزبيدى سنة ١٢٠٥ هجرية . وقد علَّل بيترجران اهتمامه بالعَطَّار دون الزبيدى ، بقوله : إننى أفترض دائمًا أن كل بلدٍ له طرقه الخاصة نحو الحداثة ، وأنه لا جدوى من الأفكار الشائعة عن « مجىء الغرب »=

فى مجال التعريف بشخصية أحمد الدمنهورى ، كان لدينا نص من شأنه أن يكشف الكثير من جوانب هذه الشخصيـــة ، ذلك أن أحد تلامـــذة الدمنهـورى وضع ترجمـة لشيخه سماها (الجواهر فى مناقب أبى العبـاس أحمد الدمنهـورى الشاطبى الشـاطر) ولا تـزال هذه الترجمة مخطوطة ، ولم نعثر عليهـا بعد .. ومع ذلك فلدينا ترجمة أخرى مهمـة يمكن من خلالها التعرف إلى الـدمنهـورى ؛ وهى الترجمة التى أوردهـا الجبرتـى فى تـاريخه المسمى (عجـائب الآثـار فى التراجم والأخبار) وتكمن أهميـة هذه الترجمة فى أنها من وضع معاصر للدمنهـورى ، بل تلميذ له .. بـالإضافة إلى إلقـائها الضوء على الحياة العلميـة فى عصر الدمنهورى ؛ وسـوف نورد نص الترجمة كامـلاً ، مع وضع بعض الهوامش الشـارحة عليـه يقول الجبرتى فى وفيـات سنة ١١٩٢ هجرية :

وأما من مـات فى هذه السنة من أعيـان العلماء والمشاهير ، الشيخ الإمام العـلامة المتفنن أوحد الـزمان وفريد الأوان ، أحمد بن عبـد المنعم بن يوسف بن صيام الـدمنهورى المذاهبى[١] الأزهرى[٢] ، ولد بمدينـة دمنهور الغربية سنـة ١١٠١ هجرية وقدم الأزهـر وهو صغيرٌ يتيمٌ لم يكفلـه أحـد ، فاشتغل بـالعلم وجـال فى تحصيلـه واجتهد فى تكميلـه وأجـازه علماء المذاهب الأربعة ، وكانت له حافظة ومعرفة فى فنون غريبة وتآليف ، وأفتى على المذاهب الأربعة ولكن لم يُنتفع بعلمه ولا بتصانيفه لبخله فى بذله لأهله ولغير أهله ، وربما يبيح فى بعض الأحيان لبعض الغـربـاء فـوائد نـافعــة ، وكـانت لـه دروس فى المشهـد الحسينى فى رمضـان يخلطهـا

= وحيث أن هـذه الرؤيـة هى رؤية الأقليـة من المؤرخين ، فقـد رأيت أنه من المهم – استراتيجيًا – أن أتتبع بعمق مجرى حياة إحدى الشخصيات البارزة ، على أن يكون قد عـاصر مرحلة ما قبل ١٧٩٨ وما بعدها ، كسبيل لبناء حجتى ، ومن ثم فقد اخترت شخصيـة العطار . أما عن مرتضى الزبيـدى ، هذه الشخصية العظيمة ، فكـان بالتأكيد مقبـولاً لدىَّ ، وربما كان اختيـارًا أفضل ، إلا أنه بوفـاته قبل مجىء الأوروبيين ، ينتمى إلى الفترة المتأخـرة من العصر العثمانـى ، وهى الفترة التى أحـاول أن أحللهـا ، وأود أن أثير جـدلاً أقوى حولها ، متخذًا من مادة العطار أساسًا (الجذور الإسلامية للرأسمالية ، ص ١١) .

(١) يقصد : أنه كان يفتى على المذاهب الأربعة (الحنفية – المالكية – الشافعية – الحنبلية) .

(٢) لم يكن الدمنهورى أزهريا فحسب ، بل تولى مشيخة الأزهر .

(٣) يقصد : كانت ذاكرته قوية الحفظ .

بالحكايات ، وربما وقع له حتى يذهب الوقت [1]. وولى مشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ الحفنى ، وهابته الأمراء لكونه كان قوّالاً للحق ، أمّارًا بالمعروف ، سمحًا بما عنده من الدنيا، وقصدته الملوك من الأطراف ، وهادته بهدايا فاخرة ، وسائر ولاة مصر من طرف الدولة كانوا يحترمونه ، وكان شهير الصيت، عظيم الهيبة ، منجمعا عن المجالس الجمعيات ، وحج سنة ١١٧٧ مع الركب المصرى وأتى رئيسُ مكة وعلماؤها لزيارته ، وعاد إلى مصر وقد مدحه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة يهنّئه بذلك يقول فيها :

لَقَدْ سررنا وطَابَ الوَقْتُ وانْشَرَحَتْ ... صُدُورنا حَيْث صَحَّ العَوْدُ للوَطَنِ

فَالعَوْدُ أَحْمَدُ قَالُوه وَقَدْ حُمِدَتْ ... بَدْءًا وعَوْدًا مَسَاعِيكُمْ بِلَا غبَنِ

فَأَنْتَ أَمْجَدُنَا وأَنْتَ أَرْشَدُنَا ... وأَنْتَ أَحْمَدُنَا فِى السرِّ والعَلَنِ [2]

وقرأ المترجَم (الدمنهورى) على أفقه الشافعية فى عصره ، عبد ربه بن أحمد الدِّيوى ، شرْحَ المنهج [3] وشرح التحرير [4] ، على الشهاب الخليفى نِصْفَ المنهج وشرحَ ألفية العراقى فى المصطلح [5] ، وعلى أبى الصفاء الشنوانى شرحى التحرير والمنهج والخطيب على أبى شجاع

---

(١) يتناقض الجبرتى هنا فى قوله: إن الدمنهورى انهمك فى التدريس وإفادة الطلاب ، وإنه لم يُنتفع بعلمه ؛ لأنه كان يبخل به إلا على الغرباء ! ولعل هذه المسألة بحاجة إلى بحث دقيق يكشف المزيد عن أقوال الجبرتى

(٢) الأبيات من بحر البسيط .

(٣) يقصد كتاب « مناهج الطالبين فى فروع الشافعية » للنووى ، وعلى هذا الكتاب شروح لا حصر لها (انظر : كشف الظنون ص ١٨٧٣ وما بعدها) .

(٤) هناك عدة كتب فقهية تحمل عنوان « التحرير » أشهرها : التحرير فى أصول الفقه لابن همَّام الحنفى . ولعل المقصود هنا ، هو كتاب : التحرير فى الفروع لأبى العباس أحمد الجرجانى الشافعى المتوفى سنة ٤٨٢ هجرية .

(٥) الإشارة إلى قصيدة زين الدين عبد الرحيم العراقى (المتوفى ٨٠٦ هجرية) الألفية الشهيرة فى أصول الحديث النبوى ، وتبدأ أبياتها الألف بقوله :

يقولُ راجى ربه المقتدرِ ... عبد الرحيم بن الحسين الأثرى

إيساغوجي [1] وشرح الأربعين لابن حجر [2] وشرح الجوهرة [3] لعبد السلام ، وعلى عبد الدائم الأجهور ابن قاسم على الآجرومية [4] وشرحها والقَطْر [5] والأزهرية [6] وشرح الورقات للمَحَلّي [7] ، وحر على الشمس الأطفيحي دروسًا من البخاري [8] ، وبعضًا من التحرير وبعضًا من الشمائل [9] ، وبعضًا من شرح الأربعين لابن حجر ، وعلى الشيخ عبد الوهاب الشَّنَواني ابنَ قاسم والأزهريةَ وعلى الشيخ الأرثماطيقي للشيخ سلطان [10] ، وعلى الشمس الغمري شرحَ البهجة الوردية لشيخ الإسلام [11] وشرح الرَّملي على الزُّبَد [12] والمواهب للقسطلاني [13]

---

(١) يقصد شرح الخطيب على متن أبي شجاع ، وشرحه لمقدمة المنطق المعروفة باسم (إيساغوجي) لأثير الدين الأبهري .

(٢) الأربعين للنووي وشرحها لابن حجر الهيتمي المتوفى ٩٧٤ هجرية . وعنوان الشرح : الفتح المبين بشرح الأربعين .

(٣) جوهرة التوحيد : منظومة في علم الكلام لإبراهيم اللَّقَّاني المتوفى سنة ١٠٤١ هجرية والشرح لولده عبد السلام اللقاني .

(٤) يقصد : شرح ابن قاسم على (المقدمة) لابن أجروم النحوي .

(٥) يقصد : قَطْر النَّدى وبل الصَّدى ، وهي مقدمة في النحو - كالآجرومية - لابن هشام النحوي المتوفى ٧٦٢ هجرية .

(٦) يقصد : المقدمة الأزهرية في علم العربية لخالد بن عبد الله الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥ هجرية .

(٧) الورقات في الأصول ، الإمام الحرمين أبي المعالي الجويني المتوفى ٤٧٨ هجرية ، وشرحها للشيخ جلال الدين المحلي الشافعي المتوفى سنة ٨٦٤ هجرية .

(٨) صحيح البخاري .

(٩) الشمائل : الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية للإمام الترمذي (أبي عيسى محمد ابن سورة ، المتوفى ٢٧٩ هجرية) .

(١٠) المقصود ؛ أنه درس على نفس الشيخ (عبد الوهاب الشَّنَواني) كتاب الأرثماطيقي في الرياضيات للشيخ سلطان .

(١١) يقصد ؛ درس على شمس الدين الغمري شرح البهجة . والبهجة الوردية منظومة في فروع الشافعية نظم فيها مؤلفها (زين الدين عمر بن مظفر الوردي الشافعي المتوفى ٧٤٩ هجرية) كتاب الحاوي الصغير في الفروع لنجم الدين القزويني الشافعي المتوفى ٦٦٥ هجرية ، نظمه في خمسة آلاف بيت . أما الشرح المشار إليه ، فهو شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري المتوفى ٩١٠ هجرية .

(١٢) لعله يقصد الزبدة وهي كتاب « زبدة الأحكام في اختلاف مهب الأئمة الأربعة الأعلام ، لسراج الدين الغزنوي الحنفي المتوفى سنة ٧٧٣ هجرية .

(١٣) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (في السيرة النبوية) لشهاب الدين أبي العباس أحمد القسطلاني المصري المتوفى سنة ٩٢٣ هجرية .

وسيرة[1] كُلٌّ من ابن سَيِّد الناس والحَلَبى والجامع الصغير[2] للسيوطى مع شرح المَناوى عليه وشرْحَ التائية للفرغانى[3] وشرحَ السَّعْدِ على تصريف العـزِّى[4] ، وعلى عبـد الجواد الميـدانى الدُّرَّة [5] والطَّيِّبة[6] وشرحَ أصول الشـاطبية[7] لابن القـاصح والأربعين النـوويـة والأسماء[8] السهروردية وبعضًـا من الجواهر الخمس للغوث[9] ، وعلى الورزازى شرح الصغـرى والكتانى عليه وبعضًا من شرح الكبرى[10] مع اليوسى وبعضًـا من مختصر خليل ولامية[11] الأفعال ، وعلى الشهاب النفراوى[12] دروسًـا من الجوهرة والأشمـونى ، وعلى عبد الله الكنكسى القَطْـرَ

---

(1) السيرة النبوية .

(2) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير .

(3) شرح السعيد محمد بن أحمد الفرغانى (المتوفى ٧٠٠ هجرية) على تائية ابن الفارض فى التصوف .. وهو - كما يذكر حاجى خليفة - الشارح الأول لها وأقدم المشايعين لابن الفارض (كشف الظنون ص ٢٦٥) .

(4) هو شرح سعـد الدين التفتـازانى (المتوفى ٧٩٣ هجـرية) على كتاب التصريف العـزى - أو : العزى فى التصريف - للشيخ عز الدين التفتازانى المتوفى بعد سنة ٦٥٥ هجرية .

(5) هناك عدة مؤلفـات بعـنوان « الـدرة » ولما كان الشيخ الميـدانى متخصصًـا فى القراءات ، فلعل المقصود هو (الدرة المضيَّة فى قراءات الأئمة الثلاثة المرضيَّة) لشمس الدين الجزرى ، وهى أرجوزة نظمها المؤلف تكملة للشاطبية .

(6) طيبة النشر فى القراءات العشر ، لشمس الدين الجزرى .

(7) الشاطبية : أرجوزة شهيرة فى القراءات ، للشاطبى .

(8) الأسماء الحسنى وأسرارها وخواصها .

(9) فى كشف الظنـون ص ٦١٤ : الجواهر الخمس للشيخ أبى المؤيـد محمـد بن خطير الدين ، ، وهـو مختصر ألفه بكجـرات سنة ٩٥٦ ورتبـه على جواهر: الأول فى العبـادة ، والثانى فى الزهـد ، والثالث فى الـدعوة ، والرابع فى الأذكار والخامس فى عمل المحققين من أهل الطريقة .

(10) ربما يقصد (التائية الصغرى) و(التائية الكبرى) وكلاهما قصيدةٌ صوفية لابن الفارض .

(11) هى لامية ابن مالك النحوى (المتوفى ٦٧٢ هجرية) فى الأفعال ، أولها :

الحمـدُ لله لا أبغى بَـدَلا

حمدًا يبلِّغ من رضـوانـه الأمَـلا

(12) فى معجم المؤلفين (٩ / ٦٠) : محمـد بن إسماعيل النفراوى المصرى المالكى المتـوفى ١١٨٥ هجريـة ، فقيه مشارك فى بعض العلوم ، من آثاره : الأجوبـة على الأسئلة الخمسة التى أوردها الدمنهورى على علماء مصر .

والشذور[١] والألفية[٢] والتوضيح وشرحَ السلم[٣] وشرَحَ مختصر النوسى والمختصرَ والمطول[٤] والخزرجيةَ والكافى والقلصادى والسخاويةَ والتلمسانيةَ وألفيةَ العراقى وبعضَ مسلم وأجازه فى بقية الكتب الستة وفى وِرْدِ شيخه « مولاى عبد الله السِّلْجِمَاسِى الشريف » وعلى محمد بن عبد الله السِّلْجَمَاسِى شرحَ الكبرى مع حاشية اليوسى والتلخيصَ ومَتْنَ الحُكَمِ وبعضًا من صحيح البخارى ، وعلى السيد محمد السمونى شيخ المالكية مَتْنَ العَزِيَّةِ والرسالةَ ومختصرَ خليل وشرحَهُ للزرقانى ودروسًا من الخرشى والشُّبراخيتى وأجازه بجميع مروياته وبالإفتاء فى مذهب مالك وعلى الفقيه محمد بن عبد العزيز الزيادى الحنفى مَتْنَ الهداية[٥] وشرح الكنز[٦] للزيلعى[٧] والسراجيةَ فى الفرائض والمنار[٨] ، وعلى السيد محمد الريحاوى مَتْنَ الكنز شالكنز والأشباهَ والنظائر[٩] وشيئًا من المواقف[١٠] من بحث الأمور العامة

---

(١) شذور الذهب (فى النحو) لابن هشام النحوى المتوفى ٧٦٢ هجرية .

(٢) ألفية ابن مالك (فى النحو) لجمال الدين محمد الجيانى المعروف بابن مالك ، المتوفى ٦٧٢ هجرية ، وهى ألف بيت أولها :

قال محمدٌ هو ابن مالكِ

أحمدُ ربى الله خَيْرَ مالكِ

(٣) السُّلَّمُ المُرَونق فى علم المنطق ، لعبد الرحمن بن سيدى محمد الصغير . أرجوزة فى نظم إيساغوجى لأثير الدين الأبهرى ، أولها :

الحمدُ لله الذى قد أخرجا

نتائجَ الفكر لأرباب الحجا

(٤) المختصر والمطوّل ، شرحان لسعد الدين التفتازانى على كتاب تلخيص المفتاح .

(٥) الهداية فى الفروع (فقه حنفى) لبرهان الدين المرغينانى المتوفى ٥٩٣ هجرية .

(٦) كنز الدقائق فى الفروع (فقه حنفى) لأبى البركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفى المتوفى ٧١٠ هجرية .

(٧) هو أول شارح للكنز : فخر الدين أبو محمد عثمان بن على الزيلعى المتوفى ٧٤٣ هجرية وعنوان الشرح : تبيين الحقائق لما اكتنز من الدقائق .

(٨) منار الأنوار (فى أصول الفقه الحنفى) للنسفى .

(٩) الأشباه والنظائر فى الفروع ، لابن نجيم المصرى الحنفى المتوفى ٩٧٠ هجرية .

(١٠) المواقف (فى علم الكلام) لعضد الدين الإيجى المتوفى ٧٥٦ هجرية .

وأخذ عن الزعترى الميقاتَ والحسابَ والمُجيبَ والمقنطرات والمنحرفات وبعضًا من اللمعة[1] وعلى السحيمى منظومة الوفق المُخَمَّسى وروضة العلوم ، وعلى الشيخ سلامة الفيومى والجَفْمِينىَ وعلى عبد الفتاح الدمياطى لُقَطَ الجواهر ورسالةَ قسطا بن لوقا فى العمل بالكرة ورسالةَ ابن المَشَّاط فى الاسطرلاب ودُرَّ ابن المُجِدِّى[2] . وله شيوخٌ آخرون كالشهاب أحمد ابن الخبازة والشيخ حسام الدين الهندى وحسين أفندى الواعظ والشيخ أحمد الشرفى والسيد محمد الموفق التلمسانى ومحمد السودانى ومحمد الفاسى ومحمد المالكى ، كذا فى برنامج شيوخه المسمى باللطائف النورية فى المنح الدمنهورية[3].

وأما مؤلفاته فمنها : اللُّبُّ المَصُون بشرح الجوهر المكنون ، ومنتهى الإرادات فى تحقيق الاستعارات ، وإيضاح المُبهم فى معانى السُّلَّم ، وإيضاح المشكلات من متن الاستعارات ، ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف ، والحذاقة بأنواع العلاقة ، وكشف اللثام عن مخدرات الأفهام (على البسملة) وحسن التعبير لما للطَّيّبَةِ من التكبير (فى القراءات العشر) وتنوير المقلتين بضياء أوجه الوجه بين السورتين ، والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى، وطريق الاهتداء بأحكام الإمامة والاقتداء (على مذهب أبى حنيفة) وإحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد ، والدقائق الألمعية على الرسالة الوضعية ، ومنع الأثيم الحائر من التمادى فى فعل الكبائر ، وعين الحياة فى استنباط المياه ، والأنوار الساطعات على أشرف المربعات (وهو الوفق المئينى) وحلية الأبرار فيما نسم علىَّ من الأسرار ، وخلاصة الكلام على وقف حمزة وهشام ، والقول الصريح فى علم التشريح ، وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة ، وفيض المنّان بالضرورى من مذهب النعمان ، وشفاء الظمآن بسِرِّ قلب القرآن ،

(١) اللمعة فى حل الكواكب السبعة ، لشهاب الدين الريشى المؤقّت . وهناك أيضًا : اللمعة الماردينية فى شرح الياسمينية .. وكلاهما فى الفلك .

(٢) هذه المؤلفات الأخيرة ، فى الرياضيات والفلك .

(٣) كان من عادة المشايخ - حتى وقت قريب - وضع مثل هذا الثبت المسمى « المشيخة » للدلالة على الأهلية العلمية لكل واحد منهم ، وهذه المشيخة بالإضافة إلى الإجازات التى يحصل عليها العالم من مشايخه .. تشبه ما نسميه اليوم : شهادات التخرج .

وإرشاد الماهر إلى كنز الجواهر ، وتحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك (منظومة فى مائة بيت) وإتحاف البرية بمعرفة العلوم الضرورية ، والقول الأقرب فى علاج لسع العقرب ، وحسن الإنابة فى إحياء ليلة الإجابة (وهى ليلة النصف من شعبان) والزهر الباسم فى علم الطلاسم ، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك ، والمنح الوفية فى شرح الرياض الخلفية (فى علم الكلام) والكلام السديد فى تحرير علم التوحيد ، وبلوغ الأرب فى اسم سيد سلاطين العرب .. وغير ذلك ، وغالبها رسائل صغيرة الحجم منثورة ومنظومة ، اطلعت على غالبها .

اجتمع الفقير (= الجبرتى) على المترجَم (= الدمنهورى) قبل وفاته بنحو سنتين[1]، ولما عرفنى تذكر الوالد (= والد الجبرتى) وبكى وعصر عينيه وصار يضرب بيده على الأخرى ويقول: « ذهب إخواننا ورفقاؤنا » ثم جعل يخاطبنى بقوله: « يا بن أخى ادع لى » وكان منقطعًا بالمنزل ، وأجازنى بمروياته ومسموعاته وأعطانى برنامج شيوخه ونقلته ، ولم يزل حتى تعلَّل وضعف عن الحركة . وتوفى يوم الأحد عاشر شهر رجب من السنة المذكورة (= ١١٩٢ هجرية - ١٧٧٨ ميلادية) وكان مسكنه ببولاق ، وصلى عليه بالأزهر بمشهد حافل جداً ، وقُرىء نسبه إلى أبى محمد البطل الغازى ، ودفن بالبستان .. وكان آخر من أدركنا من المتقدمين[2] .

* * *

هكذا تدلنا (وثيقة) الجبرتى ، أو ترجمته للشيخ الدمنهورى على عدة أمور من شأنها استلفات النظر :

أولاً : أنها تكشف عن عالم الثقافة والمعرفة السائدة فى عصر الدمنهورى ، تلك الثقافة التى تعكسها قراءاته على هذا الكَمّ الكبير من الشيوخ فى كل فَنّ ، مما يعنى أنه كانت هناك أجيال من العلماء المشتغلين بكافة فروع المعارف الدينية والدنيوية ، فإلى جانب الفقه نجد

(١) كان الشيخ الدمنهورى آنذاك فى التاسعة والثمانين من عمره ! .

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار (مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة) ٢/ ٣٢ وما بعدها .

الطب ، ومع اللغويات نجد الطبيعيات .. وهكذا ؛ وقد كان هذا فى جيل سابق للعَطَّار والدمنهورى .

ثانيًا : إن النظام التعليمى كان من الاتساع بحيث يسترعب ذلك اليتيم الذى لم يكفله أحد ، فيرفعه إلى مصاف العلماء وشيوخ الأزهر ؛ مما يدل على أن الاتساع العلمى كان يوازيه اتساع فى نظم التعليم وكفاية وجوه الإنفاق عليه آنذاك بحيث يكفل قاعدة عريضة من المتعلمين من بينهم الأيتام من أمثال الدمنهورى .. فالرجل - بالقطع - لم يكن حالة فريدة ، بدليل هذا الكم الكبير من الأساتذة الذين تلقى عليهم .

ثالثًا : لم يقتصر دور الأزهر على الاشتغال بعلوم الدين ، وألا فإن ثلث قراءات الدمنهورى وجزءًا كبيرًا من مؤلفاته ، تناول علوم الدنيا . وهى علوم لم تكن متطورة بالشكل الذى تناظر به العلوم الطبيعية فى أوروبا ، لكنها كانت موجودة ويمكن تطويرها ذاتيًّا لو حدث نوع من الاحتكاك بالغرب آنذاك - بقطع النظر عن مسألة الغزو - وهو الدور الرائد الذى سيقوم به ، من بعد ، رفاعة رافع الطهطاوى وخير الدين التونسى .

رابعًا : إن مؤلفات الدمنهورى لقيت منا ، نحن الأحفاد الحاليين ، أكبر الإهمال رغم توفر نسخها الخطية .. فلم ينشر من هذه المؤلفات سوى أقل القليل ، وربما يكون شرحه على (السلم المرونق) هو الكتاب الوحيد المطبوع ، وقد طبع بدون تحقيق ! .

والآن ، فلننظر فى مخطوطة «عين الحياة فى استنباط المياه» .

يبدأ الدمنهورى مخطوطته[1] بقوله : حمدًا لمن بفضله أبدع الكائنات وأحيا بمنته ، بالماء ، نوعى الحيوان والنبات . وصلاة على من استنبط من أشرف الأصلاب سيدنا ومولانا محمد .. وبعد فيقول المستمطر سحائب عفو مولاه العلى ، أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى الحنفى

---

(١) اعتمدنا هنا على النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٨ / طبيعيات تيمور .. وهى تقع فى ٨٤ صفحة من القطع المتوسط .

المالكى الشافعى الحنبلى : هذا ما التمس منى واحد من المحققين ، وقدوة العلماء المدققين ، عمدة المحصلين لمذهب النعمان .. سيدى يوسف بن محمد الزعوانى ، ثم التونسى الحنفى ، إمام سلطان الأمراء وأمير السلاطين ، القائم على ساق الجد والاجتهاد فى إحياء ما اندرس من معالم الدين .. من رسالة فى علم استنباط المياه فى غاية الإيضاح ، فأجبته لذلك مع غاية اشتغال البال وتكدر الخاطر من تراكم الهموم وسوء الحال راقمًا ما يحضرنى فى ذلك المقام، ومثبتًا ما وقفت عليه من كلام الحكماء الأعلام ، ولم أقف على تأليف مستقل فى هذه الصناعة ، بل نُبَذٍ ذُكرت فى علم الفلاحة استطرادًا التمميم البضاعة ، وسمَّيته « بعين الحياة فى علم استنباط المياه » ، ورتبته على مقدمة وبابين وخاتمة[1] .. » .

وفى المقدمة ، يشرح الشيخ الدمنهورى معنى « استنباط المياه » فيوضح أن الاستنباط هو الاستخراج ، وعلى ذلك فهذا العلم يقصد به استخراج المياه الكامنة فى الأرض للانتفاع بها فى إحياء النبات والحيوان .. وهو يلفت النظر إلى مسألة طريفة ، هى علاقة الإنسان بعناصر الطبيعة ، فمن ذلك مشابهة نفس الإنسان للنار ! ويستدل على ذلك بأن الإنسان يعيش فى المكان الذى تكون فيه النار ، ويهلك حيث تنطفىء .. يقول الشيخ :

« ولذلك ، إذا أراد أصحاب المعادن والحفائر دخول فتقٍ أو مغارة ، أخذوا خشبة طويلة فى رأسها شعلة ، وقدموها أمامهم ، فإن بقيت الشعلة دخلوها ، وإن انطفت لم يتعرضوا لدخولها ، وأيضا إذا أرادوا نزول جُبٍّ ، أرسلوا فى ذلك الجب قنديلاً فيه مصباح ، فإن انطفأ لم يتعرضوا وإن بقى نزلوا .. » .

ولاشك فى أن العنصر الفعال هنا هو « الأوكسجين » اللازم لبقاء النار مشتعلة ، واللازم أيضا لعملية التنفس الإنسانى ، وإذا كان الشيخ الدمنهورى لم يتفطن إلى هذا العنصر ، كما سيتفطن الغربيون ، إلاَّ أن ما يُحسب له هنا ، هو تسجيله لتلك الملاحظات الدقيقة .. ونحن نعرف اليوم ، أن كُلَّ اكتشافٍ علمى ، إنما يبدأ بالملاحظة !.

---

(١) الدمنهورى : عين الحياة ، ورقة ٢ب ، ٣أ .

وفى المقدمة يتحدث الشيخ عن مهب الريح ، وطبيعة الرياح الشمالية والجنوبية ، وخصائص ريح الصبَّا والدبور ، وما هو ممطرٌ وغير ممطر من الرياح ، كيفية تكوُّن السحب ، ويفسر أثر المياه الجوفية فى حدوث الزلازل .

والباب الأول من المخطوطة « فى بيان المواضع التى فيها ماء ، والتى لا ماء فيها ، والتى ماؤها قريب ، والتى ماؤها بعيد » فيعدِّد الدلائل على وجود الماء أو عدمه ، ويستخدم فى ذلك التجارب الدقيقة بعيدًا عن أى تفكير غير علمى ، ويشرح خطوات كل تجربة .

والباب الثانى « فى حفر الآبار وما يتعلق بذلك » وفى هذا الباب يقول : « ينبغى إذا كانت الأرض صلبة ، أن توسع استدارة البئر بأكثر من القدر المعروف ..و إن كانت رخوة فينبغى أن تضيق الحفر ، وتحفر على التراخى ، بأن يمسك الحفارون عن الحفر ساعة ثم يعودون إليه ، ويستمرون على هذا الحال إلى ظهور الماء .. » .

ولا تخلو المخطوطة من آثار التفكير الخرافى القديم فى بعض مواضعها ، فمن ذلك قوله: «للعيون التى ينقص ماؤها عن مقداره المعروف ، تؤخذ جارية دون البلوغ ، معها مزمار ، فتحاذى منبع الماء وتزمر ثلاث ساعات من النهار ، ثم تأخذ جارية أخرى طبلا ، فتوقِّع به على غناء الجارية وزَمْرها أربع ساعات ، فيكون مقدار الزمن سبع ساعات ، فإن الماء يكثر ويزيد عن ما كان أولا !! » وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن العقل الإنسانى لم يتخلص من التفكير الخرافى إلا بعد مسيرة طويلة من الجهد العلمى الجاد ، ولا تزال آثار هذا التفكير سائدة عند البعض حتى اليوم ، رغم ما بلغه العلم من تقدُّم ، ولذا لا يمكن أن نلوم الشيخ الدمنهورى كثيرًا على ما يذكره من وسائل تجميع الماء فى الآبار ، وهى مسألة لم يتمكن العلم إلى الآن من تقديم شىء بصددها .

وفى الخاتمة يعتمد الشيخ الدمنهورى على ما كتبه علماء العرب الأوائل ، كالقزوينى والإدريسى ، ليقدِّم تصورًا عن أقاليم الأرض وأنهارها وجبالها ، ثم يضع تفسيرًا علميًّا لحدوث الزلازل والبراكين ، فيقول : « إن الأدخنة والأبخرة الكثيرة إذا اجتمعت تحت الأرض ، ولا تصادفها برودة .. ويكون وجه الأرض صلبًا ليس فيه منفذٌ ولا مسام ، فالبخارات إذا قصدت الصعود لا تجد المسام والمنافذ ، فتهتزُّ فيها بقاع الأرض وتضطرب كما يرتعد بدن المحموم عند شدة الحمى .. وربما ينشق وجه الأرض وتخرج من الشقِّ المواد المحتبسة دفعة واحدة ، وقد يكون خروجها ببلدة فيخسفها » . وهو يرى أن الجبال سبب جريان الماء : « ولو فُرِض عَدَمُ الجبال لكانت الأرض كرة لا غور فيها ولا نتوء ، فالبخار المرتفع لا يبقى فى الجو منحصرًا – على رؤوس الجبال جليدًا – إلى وقت يضر به البرد ، بل يتحلَّل هواءً ، فلا يجرى الماء على وجه الأرض ، فاقتضى التدبير الإلهى وجود الجبال لحصر البخار المرتفع من الأرض بين أغوارها ، ويمنعه من السيلان فيبقى محفوظًا إلى أن يفعل به ما تقدَّم .. » .

ويرسم الشيخ خطوط الطول والعرض على النحو التالى : تقدَّم أن الأرض كُرِّيَّة الشكل وحيزها وسط العالم ، فإذا توهمَّنا معدَّل النهار قاطعًا للعالم ، حدث على بسيط الأرض دائرةٌ عظيمة على موازاة معدل النهار ، تقتسمُ الأرض بقسمين متساويين ، جنوبى وشمالى ، يقال لها: خط الاستواء ، لأن زمان النهار مساوٍ لزمان الليل أبدًا فى ذلك الموضع ، والشمس إذا كانت مُسَامِتَةً إحدى نقطتى الاعتدالين ، مرَّتْ فى سطح معدل النهار على سَمْتِ رؤوس سُكَّانه واعتدلَ الليلُ والنهار .. فإذا توهمنا أيضًا دائرة عظيمة تمرُّ بقطبى العالم وتقطع سطح المعدَّل بقسمين ، وتمر بطرفى العمارة ، أعنى المشرق والمغرب ، حدث على بسيط الأرض دائرةٌ عظيمة تقسمُ الأرض بنصفين ، وتنقسم الأرض بهاتين الدائرتين أرباعًا متساوية ، ربعين جنوبيين وربعين شماليين .. وأما طول البلد فهو قوس من دائرة معدَّل النهار وبين دائرة نصف النهار المارة بسمت رؤوس أهل البلد ودائرة أفق القبة هى دائرة نصف النهار ، وأما عرض البلد فهو

قوس من دائرة نصف النهار ما بين معدل النهار وسمت الرأس .. ثم المعمور من الأرض منقسم سبعة أقسام يسمى كل قسم منها إقليماً .. » .

ويعدِّد الشيخ أقاليم الأرض المعمورة ، فيذكر خصائص كل إقليم ومساحته .. مشيرًا إلى أن هناك عمارة فى الأرض خارج هذه الأقاليم السبعة ، قاصدًا بذلك « الإسكيمو » وهو يصف أهل كل إقليم من حيث لون البشرة وطبيعة الأخلاق .. ثم يختتم مخطوطته ببعض الوصايا القرآنية والنبوية ، ويذكر طرفًا من أقوال الحكماء ، كقول أفلاطون : « اطلبْ العلم يعظِّمك الخاصة ، واطلب المال يعظِّمك العامة ، واطلب الزهد يعظِّمك الجميع » .

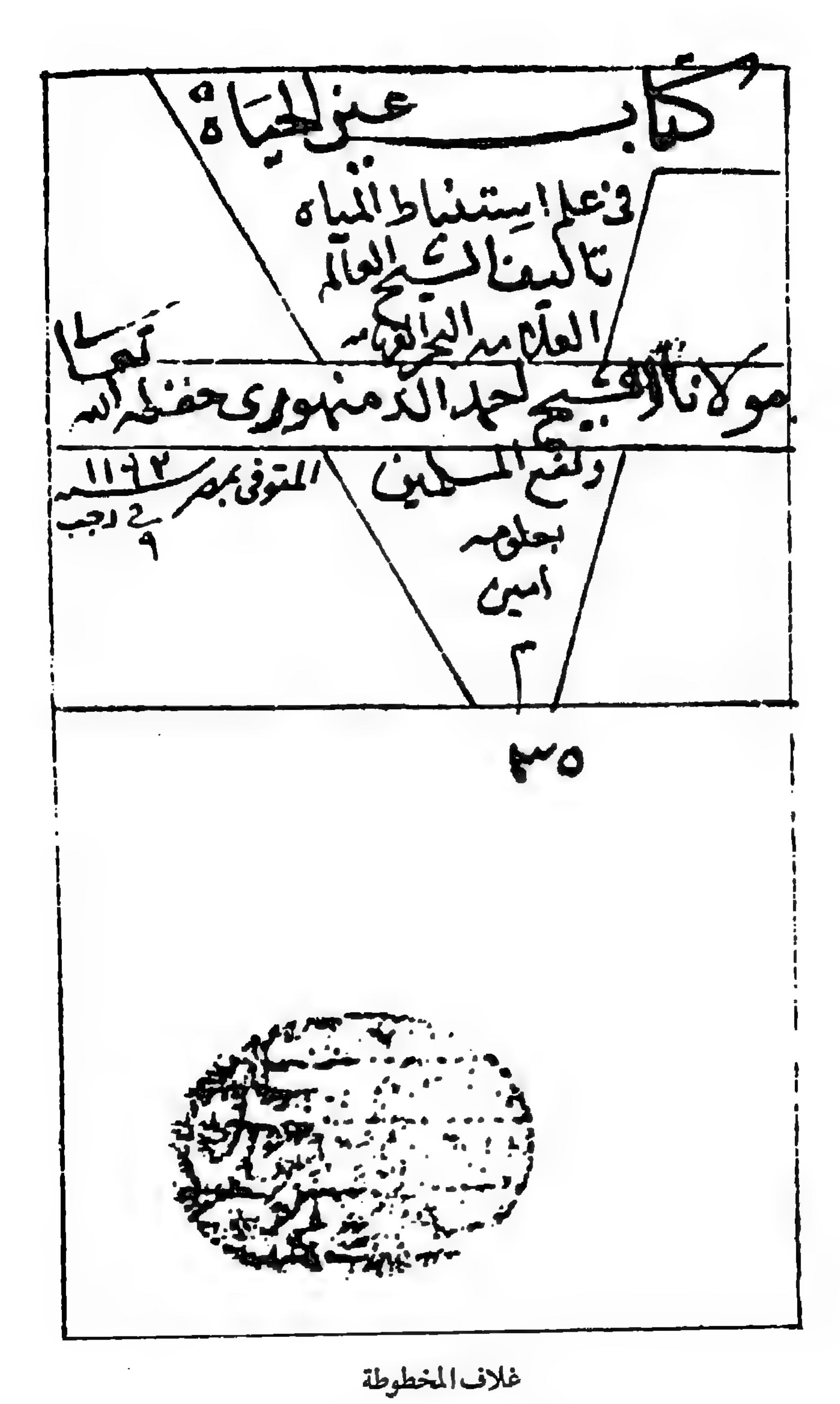
* * *

والورقة الأخيرة من المخطوطة ، عبارة عن خريطة فلكية يتوسطها قرص الشمس وحوله دائرة فلك البروج ، تحيط بها دائرة أكبر تضم مواضع الأقاليم المواجهة للبروج .. وهى خريطة ملونة بديعة الرسم .

وبعد .. فإن هذه المخطوطة هى نموذجٌ دال على أن العرب – فى مصر – كانت لهم اهتماماتهم العلمية قبل مجيء الحملة ، فليس صحيحًا ما يقال من أن الحملة جاءت فى وقت خلت فيه الديار العربية من أى اهتمامات علمية .

ولكن المخطوطة تثبت ، من جهة أخرى ، أن العالم العربى كان منعزلاً عما يجرى فى العالم الخارجى ، وأن العلوم العربية انعزلت عن الواقع وتقوقعت على ذاتها ، ولذلك جاءت العلوم الأوروبية أكثر تطورًا .. وهذا ما تؤكده إشارة الشيخ الدمنهورى فى المخطوطة « أما ناحية المغرب ، فيمنع البحر المحيط السلوك فيه ، لتلاطم أمواجه وشدة ظلمته » هذا مع أن القارة الأمريكية كانت قد اكتشفت بالفعل آنذاك ، ولم يعد المحيط الأطلنطى هو آخر الحدود الغربية

للمعمورة ؛ لكن انعزال الواقع العربى عما يجرى فى العـالم ، وعدم تفاعل العرب مع مكتشفات الغرب ، كـان السبب فى تخلفهم - نوعيًـا - عن العلوم المتقـدمة ، مع أن مبـادىء تلك العلوم كانت موجودة لديهم ، لكن العلم يتقدم باستمرار .. والويل للمتخلفين .



كتاب عين الحياة

في علم استنباط المياه

تأليف الشيخ العالم

العلامة البحر الفهامة

مولانا الشيخ أحمد الدمنهوري حفظه الله تعالى

ونفع المسلمين

بعلومه

آمين

المتوفى بمصر سنة ١١٩٢ في ٩ رجب

٣

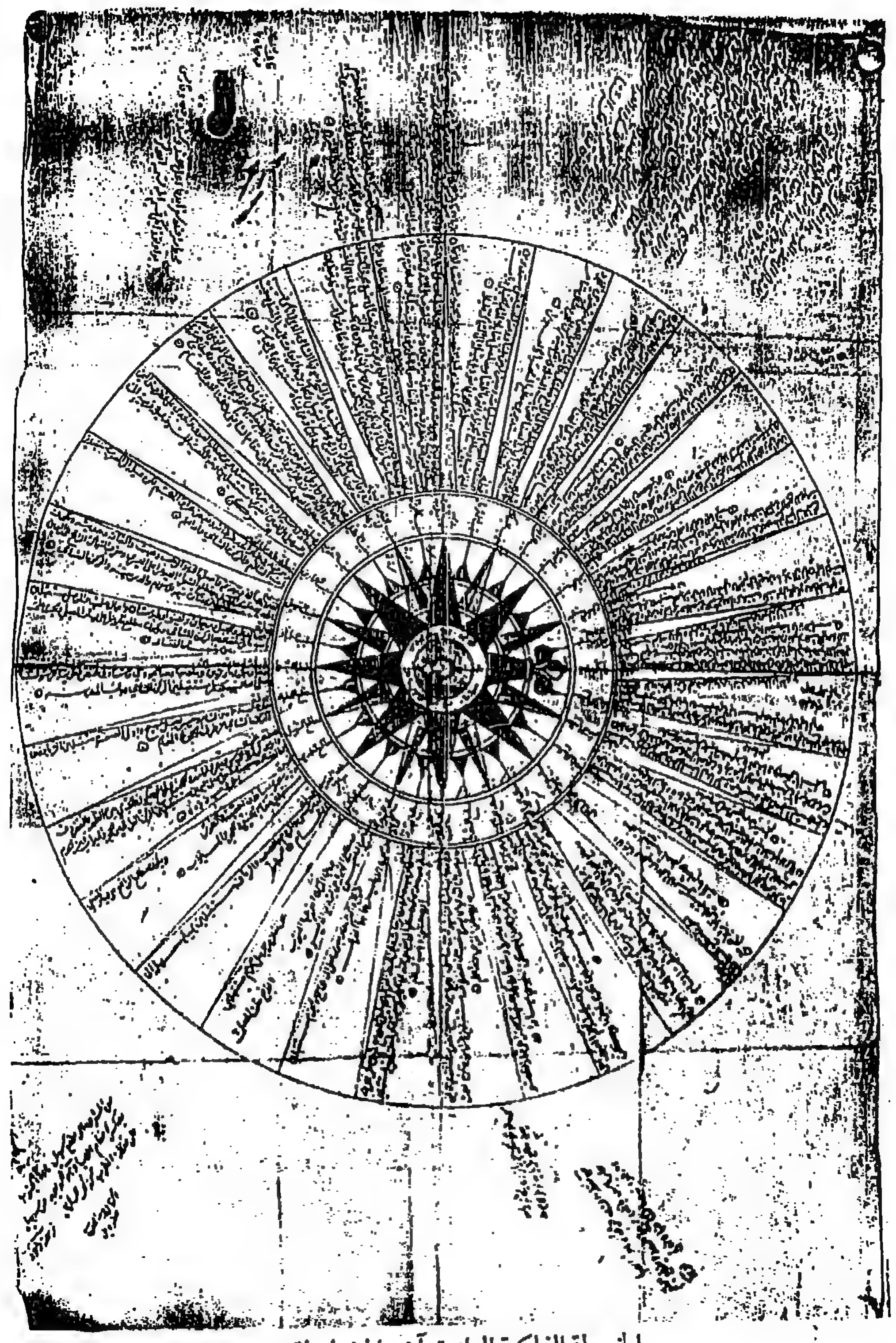
٣٥

غلاف المخطوطة

نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٠٨ / طبيعيات تيمور


بسم الله الرحمن الرحيم اللهم اعانة
حمدا لمن بفضله ابدع الكائنات واحيى بمنه بالماء نوعى
الحيوان والنبات • وصلاة وسلاما على من استنبط من اشرف
الاصلاب سيدنا ومولانا محمد المنقذ من اهوال يوم الحساب
وعلى اله واصحابه ينابيع الاسرار • والتابعين ومن تبعهم
باحسان الى دار القرار وبعد فيقول المستمطر سحايب
عفو مولاه العلي • احمد بن عبد المنعم الدمنهوري الحنفي
المالكي الشافعي الحنبلي • هذا ما التمس مني واحد المحققين
وقدوة العلما المدققين • عمدة المحصلين لمذهب
النعمان الفايق بصواب فكره وذكا فطنته ساير
الاقران • سيدي يوسف بن محمد الزغواني ثم التونسي
الحنفي امام سلطان الامرا وامير السلاطين • القايم
على ساق الجد والاجتهاد في احيا ما اندرس من معالم
الدين • القاطع لاهل البغي بصارمه وسنانه • المفيض
على اهل الفضل سجال حلمه واحسانه • الباي حسين
ابن علي لازالت اغصان دولته مورقة • وحديقة
ملكه

الورقة الأولى من المخطوطة



الخريطة الفلكية الواردة بآخر المخطوطة

(صورة مصغرة)

قَامُوسُ الأَطِبَّاءِ ونَامُوسُ الأَلِبَّاءِ

للقَوْصُونِي

تُثير إطلالتنا على هذه المخطوطة قضيتين :

القضية الأولى : هى امتدادٌ لما تعرضنا له فى الفصل السابق ، أعنى ضرورة إعادة النظر فى أحكامنا العامة على العقلية العربية فى القرون المسماة بقرون التخلُّف ، فقد رأينا عند الكلام عن الشيخ أحمد الدمنهورى أن العلم العربى - فى مصر - لم يكن على هذا النحو المزعوم من التخلُّف ، وإنما كانت لدى علمائنا اهتمامات فى شتى صنوف العلم ، مما يكذِّب الدعوى بتخلُّفهم قبل مجيء الحملة الفرنسية .. وغنىٌّ عن البيان أن مستوى البحث العلمى العربى آنذاك كان أقل من مثيله فى بلدان أوروبا ، لكنه لم يكن منعدمًا تمامًا ، بدليل النهضة العلمية التى حدثت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى (أوائل القرن التاسع عشر) والقفزة الحضارية التى قامت بها مصر فى عصر محمد على فأفزعت أوروبا ودفعتها للتخطيط لإجهاض مشروع محمد على فى مؤتمر لندن الشهير ، ولولا استعدادٌ سابق ، وتهيؤ ، لما كانت العقلية العربية آنذاك قد استوعبت علوم أوروبا بهذه السرعة ، ولما كان الكيان الحضارى الناهض فى مصر والشام قد هدد أوروبا على هذا النحو الذى دفعها لاتخاذ التدابير اللازمة لتدميره ، وعلى أى حال ، فسوف نعود مع مخطوطة هذا الفصل (قاموس الأطباء) إلى الوراء قليلاً ، فنتوقف هذه المرة عند القرن الحادى عشر الهجرى ، الذى وُصف هو الآخر بأنه كان من عصور التخلُّف ، فنحاول أن نراه فى ضوء الجهود العلمية لأحد أعلامه فى مجال الطب (القوصونى) لعلنا نعيد النظر فى تهمة التخلف التى ألصقناها بالقرن الحادى عشر الهجرى .. اللهم إلاَّ إذا أصررنا على النظر إلى التاريخ العربى بحسب تطور التاريخ الغربى الذى صار

اليوم بمثابة (التاريخ العام للإنسانية) وهذا وهمٌ كبير يسعى الغرب للترويج له ، فيصدِّقه ضعاف العقول وجهلة التاريخ [1] .

القضية الأخرى : هى واحدةٌ من القضايا المطروحة أمامنا اليوم (فى بلدان العرب) أعنى قضية تعريب الطب .. وهى قضيةٌ تختلف فيها الآراء ، فالرافضون للتعريب يخشون من عدم قدرة اللغة العربية على استيعاب المصطلحات الطبية المعاصرة ، ويرون أن اللغة الإنجليزية هى لغة عالمية متقدمة تستطيع أن تساير التقدم العلمى العالمى فى مجال الطب . والرأى الآخر يؤيد تعريب الطب ، ويراه ضرورة لا مفر منها لتأكيد الهوية ، فكما يدرَّس الطب فى فرنسا بالفرنسية وفى ألمانيا بالألمانية .. إلخ ، لابد وأن يدرس الطب فى البلاد العربية بلغة هذه البلاد ولا يزال الخلاف يدور حول هذه المسألة ، وكل فريق يقدم حُججه وأدلّته المؤيدة لرأيه ، ولا تزال القضية معلّقة ، فبعض البلدان العربية - مثل سوريا - أقدمت بالفعل على تعريب الطب ، بينما أغلب البلاد الأخرى فى الوطن العربى تدرسه بالإنجليزية .. ولعله من المفيد لنا فى غمرة هذا الخلاف الدائر حول تلك القضية ، أن ننظر فى هذه المخطوطة بعين الاعتبار ، لعلنا نرى فيها ما يعين على وضوح القضية فى أذهاننا ، وييسر اتخاذ الموقف الصائب بصددها .

* * *

مؤلِّف مخطوطة (قاموس الأطباء وناموس الألباء) هو : رئيس الأطباء ، مَدْيَنُ بن عبد الرحمن القَوْصُونى . هكذا ورد التعريف به فى المراجع القليلة التى أشارت إليه [2] ، مما يثير

(١) ويُروج الغرب هذه الأيام الحاضرة ، لمقولة عجيبة صاغها باحث يابانى الأصل أمريكى الجنسية والتفكير ، يسمى (فوكوياما) .. هى مقولة : نهاية التاريخ ! وهى تزعم - باختصار - أن مسيرة التاريخ الإنسانى قد وقفت عند النمط الليبرالى الغربى الذى تمثله (أمريكا) أصدق تمثيل ، وبالتالى فلا مجال لحركة جديدة فى تاريخ البشرية !.

(٢) باستثناء ترجمة القوصونى فى الجزء الرابع من كتاب المحبى (تاريخ خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) فلا نكاد نجد عنه إلا بعض الشذرات المتناثرة فى :
- معجم المؤلفين لكحالة ١٢/ ٢١٣ .
- هدية العارفين للبغدادى ٢/ ٤٢٣ .
- كشف الظنون لحاجى خليفة ص ١٣٠٦ .

بعض الإشكالات التى أولها : لم توضِّح المراجع المراد بلفظ (رئيس الأطباء) فهل تنسحب رياسته على أطباء مصر كلهم أم على مستشفى واحد بالذات ؟ وثانيها : أن بعض المراجع - كمعجم المؤلفين - تذكر أن لقبه « القيصونى » لا القوصونى ! وثالثها : أن كافة الإشارات لم تذكر متى توفى ؟.

وسوف نسعى فيما يلى إلى حَلٍّ هذه الإشكالات ، كمحاولة للمزيد من التعريف بهذه الشخصية التى لم تحظ حتى الآن بأية دراسة فى المكتبة العربية - ولا الاستشراقية - ولم يُنشر عنها ، أو لها ، أى كتاب ! وبخصوص الإشكالية الأولى نقول :

أما رياسة الطب ، فالثابت أن القوصونى كان مديرًا للبيمارستان المنصورى فى القاهرة (المعروف فى زمن القوصونى باسم : دار الشفاء) فهل كان رئيس أطباء دار الشفاء فحسب ، أم عموم أطباء مصر ؟ إن الذى ذكرته المصادر صراحةً أنه كان رئيسًا لأطباء مصر جميعًا ، هو قوصونىٌّ آخر ، أعنى (الشيخ محمد شمس الدين القوصونى طبيب السلطان الغورى ومدير دار الشفاء المتوفى ٩١٧ هجرية) بينما اكتفت المصادر بصدد « مدين القوصونى » بأنه : رئيس الأطباء[1] .. ومع ذلك ، فإن دار الشفاء كانت أكبر مستشفى فى مصر آنذاك ، وكان متولى إدارتها من الأطباء هو رئيس عموم أطباء مصر[2] . وقد كان أول رئيس لهذا البيمارستان ، هو ابن النفيس (رئيس أطباء مصر) ثم تولى من بعده جملة من مشاهير الأطباء فى كل عصر[3] .

---

(١) ترك البغدادى - فى هدية العارفين - المسألة معلقة ، فقال : رئيس الأطباء بمصر ! .

(٢) يقابل منصب « رئيس الأطباء » ما نسميه اليوم « وزير الصحة » وكانت مهامه تتعدَّد بين متابعة أحوال الصحة العامة ، وتخريج الأطباء الجدد وامتحانهم ، ومراقبة الأوقاف الخاصة بالمستشفيات ، وتفقد أحوال المرضى بها ، وإدارة المستشفى المنصورى الذى كان بمثابة مقر وزارة الصحة .

(٣) لا يزال هذا البيمارستان (المستشفى) قائمًا إلى اليوم بموضعه فى شارع بين القصرين بالقاهرة ، وهو بذلك أقدم مستشفى فى مصر والعالم العربى . ويعرف اليوم باسم (مستشفى قلاوون للرمد) وكان اسمه قبل ذلك (دار الشفاء) وعُرف فى زمن إنشائه باسم (البيمارستان المنصورى الكبير) نسبة إلى المنصور قلاوون الذى أمر بتشييده سنة ٦٧٣ وبدأ العمل به بعد عام واحد من هذا التاريخ . وبخصوص تاريخ هذا البيمارستان خلال القرون الثمانية الماضية ، يمكن الرجوع إلى الفصل البديع الذى أفرده له الدكتور أحمد عيسى فى كتابه : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (دار الرائد العربى - بيروت ص ٨٣ : ١٧١) وقد عدَّد المؤلف أسماء الأطباء الذين تولوا رياسة البيمارستان ، ومن بينهم مدين القوصونى ، لكنه لم يذكر (ابن النفيس) أول رؤسائه ! .

أما بخصوص لقب (القيصونى) فقد انفرد به عمر كحالة[1] ، وهو ليس بحُجَّةٍ فى مسألة الألقاب ، ولعل تصحيفًا وقع عند طبع الكتاب فانقلب اللقب من قوصونى إلى قيصونى .. وربما يكون لقب (القوصونى) نسبة إلى بلدة (قوص) الشهيرة بصعيد مصر ، وهى بلدة كانت لها مكانتها فى القرون السالفة[2] .

أما وفاة القوصونى غير المحددة فى المصادر والمراجع ، فهى حالةٌ فريدة ، ففى غالب الأمر نجد تاريخ وفاة الأعلام محدَّدًا بدقة فى كتب التراجم ، أما تاريخ المولد فقد تسكت عنه التراجم (نظرًا لأنه لم تكن هناك سجلات للمواليد أما الوفاة بعد الشهرة فأمرها معروف) لكننا فى حالة القوصونى نجد العكس .. فقد أجمعت المصادر على أنه ولد سنة ٩٦٩ هجرية ، لكنها لم تذكر تاريخ وفاته . وقد ذكر المُحِبِّى أنه كان حياً سنة ١٠٤٤ هجرية ، وقال فى آخر ترجمته للقوصونى : ولقد سعيتُ جهدى فى تحصيل وفاة صاحب الترجمة ، فلم أظفر ، لكن غاية ما حقَّقت من خبره أنه كان فى سنة أربع وأربعين وألف موجودًا فى الأحياء ، كما يُعلم ذلك من تاريخه الذى وضعه ، والله أعلم[3] . وربما يكون هذا الأمر الفريد بسبب شهرة والد القوصونى من جهة – ولذا أرَّخَ الناس لمولد ابنه[4] – ومن جهة أخرى بسبب اعتزال مدين القوصونى الحياة العامة فى آخر عمره ، وانزوائه ، كما فعل العديد من معاصريه[5] ، بحيث غاب تاريخ وفاته عن أهل زمانه .. والذى يرجِّح ذلك ، هو هذا الخبر الذى أورده ابن إياس

---

(١) معجم المؤلفين ١٢/ ٢١٣ .

(٢) يقول ياقوت الحموى عنها : قوص مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، قصبة صعيد مصر ، أهلها أرباب ثروة واسعة ، وهى محط التجار القادمين من عدن .. (معجم البلدان ٤/ ٤١٣) وهى اليوم بلدةٌ تابعة لمحافظة قنا بجنوب مصر .

(٣) خلاصة الأثر ٤/ ٣٣٣ .

(٤) وقد نص القوصونى صراحة فى آخر مخطوطة « قاموس الأطباء » على أن مولده كان سنة ٩٦٩ هجرية .

(٥) تكثر فى أزمنة الاضطرابات والضعف الحضارى ، عملية انسحاب العلماء عن الحياة العامة فى آخر عمرهم .. والأمثلة على ذلك كثيرة ، بدايةً من الإمام أبى حامد الغزالى وحتى الدكتور جمال حمدان والدكتور عبد الرحمن بدوى .

حين ذكر أن الأشرف قايتباى أمر (فى شعبان سنة ٩٠٢ هجرية) أن تقطع الحَيَّات التى تصنع منها الأدوية فى بيمارستان قلاوون ، بحضرته ، حتى يتفرَّج عليها ، فأحضروها بين يديه فقطعت بحضرته وهو ينظر إليها ، ثم خلع (= منح مالاً) على رئيس الطب شمس الدين القوصونى وولده[(١)] .

والمعروف أن شمس الدين محمد القوصونى ، المذكور ، توفى سنة ٩١٧ هجرية ، مما يعنى أن فى أسرة (القوصونى) مشاهير قبل (مدين بن عبد الرحمن) ولا أحبُّ هنا أن أزيد فى الافتراضات غير المؤكدة ، وإن كان ثمة افتراض يطوف بذهنى .. هو : لماذا لا يكون رجلنا هو (أبو مدين عبد الرحمن بن محمد القوصونى) وبالتالى فهو ابن (شمس الدين محمد القوصونى) الذى خلع عليه قايتباى مع والده ، خاصةً أن تاريخ الواقعة التى حكاها ابن إياس - سنة ٩٠٢ - يوافق بلوغ صاحب « قاموس الأطباء » الثالثة والثلاثين من عمره ، وهو سِنٌّ مناسب لحضوره واقعة قطع الحيات بوصفه مساعدًا لوالده رئيس الأطباء ، هذا محض افتراض !.

والمؤكد - بعد كل هذه الترجيحات والافتراضات - أن القوصونى نشأ بالقاهرة ، ودرس على جماعة من مشاهير عصره ، فقد ذكر المُحِبِّى أنه درس الطِّبَّ على يد أشهر أطباء عصره « الشيخ داود الأنطاكى صاحب التذكرة » وأخذ العلوم عن شهاب الدين أحمد بن أحمد المتبولى الشافعى ، والشيخ عبد الواحد البرجى .

وقد أضاف القوصونى فى خاتمة مخطوطته « قاموس الأطباء » إلى مشايخه : محمد شمس الدين الغيطى ، الشافعى المتوفى ٩٨٢ هجرية - جمال الدين يوسف ابن شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، المتوفى ٩٨٤ هجرية - بدر الدين محمد بن محمد الكرخى الشافعى ، المتوفى ١٠٠٥ هجرية - شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرملى المتوفى ١٠٠٤ هجرية .. وهكذا

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور (اسطنبول) ١/ ٣٥٠ - نقلا عن : تاريخ البيمارستانات ، ص ١٠٠ .

تلقى القوصونى الطب على أشهر أطباء العصر ، هو كطبيب ، تولى رياسة البيمارستان المنصورى (دار الشفاء) ومشيخة الطب بمصر ، بعد ابن الصائغ .

ويذكر المؤرخون للقوصونى مجموعةً من المؤلفات التى لم تقتصر على الطب ، ففى الأدب كتب (ريحان الألباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب) وفى التاريخ (تاريخ مصر[1]) الذى توقف فيه عند سنة ١٠٤٤ - هجرية - على ما يقول المُحِبِّى[2] - وله فى الطب كتابان ، الأول : طَيِّبات الأنباء فى طبقات الأطباء . والآخر : قاموس الأطباء وناموس الألباء[3]، وقد انتهى منه سنة ١٠٣٨ هجرية .

* * *

فى مقدمة « قاموس الأطباء » يبدأ القَوْصُونى بحمد الله تعالى : « الذى جعل لسان العرب قاموسًا مديدًا ، وناموسًا مفيدًا ، وفردوسًا فريدًا ، ولُجَّةً تُسْتَخْرَجُ منها صِحَاحُ الدُّرَرِ .. » . وكأنه بذلك يلفت الأنظار إلى مقدرة اللغة العربية على التعبير عن دقائق كل العلوم ، وعدم قصورها عن اللحاق بما يتطوَّر دائمًا من المعارف .

ثم يتخذ القوصونى موقفًا تقدميًّا حين ينتقد قول بعض معاصريه: « ما ترك الأوائل شيئا للأواخر » وهى قولةٌ رجعيةٌ كفيلة بتجميد العلم وتخلف المعرفة ، ولذا ينتقدها القوصونى بشدة، موضحًا أن الاقتصار على ما يقدِّمه الأوائل فى العلم والمعرفة هو نوعٌ من السهو والتخلف ، فقد وضع الأوائل قواعد العلوم كى يأتى مَن بعدهم فيستكملوا الفروع ويحرِّروا الدقائق .

---

(١) ذكر القوصونى فى خاتمة مخطوطته « قاموس الأطباء » أن له كتابًا آخر فى التاريخ والتراجم بعنوان : الروح الباصر فى بعض وفيات أهل القرن العاشر . وسوف يمر علينا بعد قليل أن له كتابًا فى العشق !.

(٢) خلاصة الأثر ٤/ ٣٣٣.

(٣) اعتمدنا فيما يلى على النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب الظاهرية بدمشق (وقد قام مجمع اللغة العربية بدمشق بتصويرها) .. وكان الدكتور أحمد عيسى قد ذكر فى كتابه (تاريخ البيمارستانات ص ١٦٥) أن فى خزانة كتبه الخاصة نسخة مخطوطة من الكتاب . وتجدر الإشارة إلى أن مخطوطة الظاهرية نقلها محمود صدقى الناسخ بدار الكتب المصرية (من نسخة أقدم محفوظة بالدار تحت رقم ٣٠ / طب) سنة ١٣٤٠ هجرية الموافقة ١٩٢٢ ميلادية - كما هو مذكور بالطُّرَّة الأخيرة من الجزء الثانى للمخطوطة .

بعد ذلك نرى القَـوْصُونى وهو يوضِّح لنـا فضل علم الطب ، قائلاً : إن كُلَّ علمٍ يشرف على غيره إما بحسـب موضوعـه ، ولاشك أن العلم الإلهى أشرف العلـوم ؛ لأن موضـوعه أشرف موضوع ، وهو ذات الله وصفـاته ، والطب يجب أن يكون بعده ؛ لأن موضوعـه هو بدن الإنسان الذى هو أشرف المواليد ؛ أو يكون شرف العلم بحسـب شدة الحاجة إليه ، ولا شك أن الحاجة إلى الطب أشدُّ منها إلى غيره .. ومما يُسْتَدلُّ بـه على شرف الطب أيضًا ،أن الإنسان إذا عرف علم التشريح ، عـرف قـدر مـا أودعـه الله فى البـدن من الأسرار ، وهـذا من أقـوى الـدلائل وأعظم الوسائل إلى الاعتراف بالخالق العظيم .

والعبارة الأخيرة فى هـذه الفقرة ، تـوضِّح تهافت رأى المستشرقين الذين زعمـوا أن الأطباء العـرب لم يعرفـوا التشريح ، وأن اكتشافـاتهم لأسرار البدن الإنسـانى هى محض آراء نظريـة .. فهاهو القَوْصُونى يشير بما لايدع مجالاً للشـك ، إلى أن التشريح كان علمًا معترفًا به عند الأطباء العرب ، وأنه لا يخالف الشريعـة الإسلامية ، بل هو دافع لمعرفـة قدرة الخالق فى صنع الأبدان ، وهذا الأمر نـراه أيضًا عند غالبيـة أطباء المسلمين ، مما يعنى أن هـؤلاء الأطباء – على اختلاف عصورهم – لم يُنكـروا الاشتغال بـالتشريح ، وإنما جعلوه مبحثـا أساسيًا من مبـاحث الطب ، وطريقًا لا غنى عنه فى اكتشاف أسرار الجسم الإنسانى .

ويوضح لنا القَوْصُونى طبيعة الكتاب ، فيقول فى مقدمته : شرعتُ فى هذا الكتاب الذى لم يُنسج من قبل على منواله ، لِمَا اشتمل عليه من ذكر أنواع المفردات من المعدن والحيوان والنبات، إلى ضبطِ لفظه بما ذكره أئمة اللغة بأصَحِّ ضبطٍ ، وذكرِ أسماء المركَّبات وما يُستعمل منها وصفةِ تركيب بعضهـا كالتِّرْياق ، وذكـرِ أعضاء بدن الإنسان وضبطِ كُلِّ عضوٍ منها مع ذكر تعـريفه وتشريحه والأوصاف المتعلقة به .. وذكرِ الأمراض وضبطِ كل مرضٍ منها وتعريفه وسببه وعلامته وعلاجه بحسب الوقت والزمان ؛ وقد رتَّبت الكتاب على ترتيب القاموس أبوابًا وفصولاً .

ولم يفت القوصُـونى أن يشير إلى الأصول التى اعتمـد عليها فى إخـراج قامـوسه الطبى ، وهو ما يعرف اليوم باسم (الأمانة العلميـة) فنراه وهو يذكر المراجع الأساسية مثل : التهذيب

فى اللغة لـلأزهرى - المخصَّص والمُحكـم فى اللغة لابن سيـده - لسان العرب لابـن منظور - القـانـون فى الطب لابن سينـا - الشـامل فى الصنـاعـة الطبيـة لابن النفيس .. وغير ذلك من أمهات كتب الطِّبِّ واللغة .

* * *

ومخطوطة (قـاموس الأطباء) تقع فى مجلدين .. ومن خـلالها نتعرف على بعض المفردات التى يقدمها لنا القوصونى ، أو بالأحرى ، يقدم لنا خلاصتها :

* فى فصل الميم من بـاب الهمـزة ، يحدثنا القـوصـونى عن أحـد الأمراض النفسيـة التى تعرَّض لها العرب بالدراسة والبحث ، ليثبت لنا كيف اهتم أجدادنا بهذا الفرع الطبى الدقيق .. يقول القوصونى فى معنى لفظ « المالنخـوليا » مانصُّه : المالنخوليا ، بالنـون الساكنة وفتح اللام الأولى وكسر الثانية ، اسمٌ لنوع من الجنون ، وهو لفظ يونانى معناه « الخلط الأسود » وهو سبب هـذا المرض ، فسُمِّىَ باسم سببـه . قـال الثعالبى فى فقـه اللغـة : هو ضربٌ من الجنـون يُحدث بـالإنسان أفكـارًا رديئـة ، ويغلبه الخوف والحزن ، وربما صرَّح ونطق بتلك الأفكـار ، وخلط فى كلامه ، وقال الأطباء : هو عبارة عن تغيُّر الظنون عن المجرى الطبيعى ، وعلامته الفكر والخوف والفزع والتخيـلات الرديئة وحُبُّ الوحـدة والظلمة ، وعلاجه الفصـد وترطيب البدن بالأغـذية والأشربة وتقويـة الدماغ والقلب بالمفرِّحات (الأدويـة) المعتدلة .. » ثم يسهب القَـوْصُونى فى بيان الأنـواع المختلفة من الجنون السـوداوى ، وعلامة كـل نوع منها وعـلاجه ، ثم يكشـف عن الاتجاه العلمى والابتعاد فى الطب عن الخرافة ، حين يختم كلامه عن هذا المرض النفسى بقوله: « قـال بعض الأطباء : قيـل: إن المالنخوليـا تحصل عن الجن ، ونحن من حيث الطب لا نتقيَّـد بذلك .. » وذلك يعود بنا إلى العبارة الرائعة التى نراها عند ابن سينا - فى كتابه القانون - حيث يقول فيما يزعمونه من أن هذا المرض سببه الجن : ما علينا من حيث نتعلم الطب ، إذا كان هذا المرض ينشأ عن جِنٍّ أو غير جن ، بل نقول: إن سببه القريب هـو تصاعد الخلط السوداوى إلى

الدماغ .. إلخ[1] ، ويبدو أن القَوْصُونى كـان يقصد ابن سينا حين قال: « قال بعض الأطباء » أو هو حفـظ العبارة ونسى قـائلها ، فأشـار إليه بقـوله: « قال بعـض الأطباء » كى لا ينسـب الفضل فى ذلك لنفسه .. وهـذا درسٌ آخر فى الأمانـة العلمية التى صرنا نفتقدهـا اليوم فى كثير من الأبحاث المعاصرة .

* وفى فصل العين من بـاب القـاف ، يحدثنـا القوصـونى عن مـرضٍ نفسى آخـر ، هـو العشق ! فيقـول : « العشق - بـالكسر - إفـراطُ الحُبّ ، أو عُجْبُ المحبّ بـالمحبـوب ، قـال أرسطو : هو عمى القلب عن عيـوب المحبوب ، وقال الشيخ الأكبر فى الفتوحـات المكية : هو مأخوذ من العشقة ، وهى اللبلابة التى تلتف على شجرة العنب ، فهو يلتف بقلب المحب حتى يعميه عن النظـر إلى غير محبـوبـه . وقـال الشيخ (ابن سينـا) : هـو مـرضٌ وسـواسى شبيـه بالمالنخوليـا يجلبه الإنسان إلى نفسه بتسليط فكرتـه على استحسان بعض الصور والشمائل التى لـه، ثم أعانـه على ذلك شهوتـه .. وقـال بعض الحكماء : هو طمع يتـولد فى القلب وينمـو مع حـرص ، وكلما قوى ازداد صـاحبه فى الاهتيـاج والتمادى فى الطمع والحرص على الطلب ، حتى يؤدى ذلك إلى الغَمّ والسهر ، وعند ذلك يحرق الدم وتلتهب الصفراء ويستحيلان إلى السوداء ، وهى مفسـدة للفكر منقصـة للعقل مـوجبة لـرجـاء ما لا يكـون ؛ وتمنى مـا لا يتم ، مؤديـة إلى الجنون! وحينئذ، ربما قتل العاشق نفسه، وربما مات غمّـاً ،وربما نظر إلى معشوقه فمات فرحًا..»

على النحو السـابق ، ينتقل القـوصونى من الـدلالة اللغويـة للفظ العشق ، إلى الـدلالة العـامة لـه باعتبـاره مرحلـة متقدمـة من الحب ، ثم يعرض لتلك الأمـراض المرضية الجسميـة الناشئـة عن هذه الحالة النفسية - وذلك مـا يعرف اليوم بـاسم : الأمراض السيكوسومـاتية - والقَوْصُونى فى ذلك يستفيد من كل التراث السابق عليه ، فيجمع على صعيد واحد آراء أرسطو الفيلسوف اليونانى ، وابن عربى شيخ الصوفية الأكبر ، وابن سينا شيخ الأطباء الرئيس ؛ وكأنه يدرك أن المعرفة الإنسانية هى تراكمٌ إنسانى لا يقف عند حدودٍ قومية أو تخصصاتٍ علمية ..

(1) ابن سينا : القانون فى الطب ٢/ ٦٦ .

ولم يتوقف كلام القوصونى عن (العشق) عند هذه الفقرة التى ذكرناها ، وإنما يسهب بعدها فى بيان : أصل العشق وسببه - علاماته فى الجسم - صلته بالنبض - مُهَيِّجاته - محاسنه - علاج الحاد منه .. إلخ ، ويختم ذلك بإشارة إلى أنه أَلَّف فى العشق ومعانيه كتابا بعنوان : مُشتاق العشاق من أسواق الأشواق .

* وبعيدًا عن الظواهر النفسية وحقائقها الطبية ، يقدم لنا قاموس القَوْصُونى شيئًا من الصيدلة والعلاج بالأعشاب . فيقول فى فصل التاء من باب اللام : التُّمْلُول - كعصفور - بقل اسمه بالنبطية « فنابرى » وبالفارسية « برغشت » وهو شجر البهق ، سمى بذلك لنفعه البهق (= مرض جلدى) نفعًا بيّنًا ظاهرًا سريعًا . وهو بقل برى ينبت فى آخر الشتاء ويكثر فى أول الربيع ويستمر إلى آخره ، يؤكل مسلوقًا ، وورقه أصفر من ورق الهندباء البرى ، وثمره أبيض اللون ، ويخلف بذرًا أغبر اللون دقيقًا ، وهو - أعنى البقل - حار يابس فى الأولى .. قال الشيخ (= ابن سينا) ، هو أنفع شىء للوضع أكلاً وضمادًا ، يُذهب الكلف والبهق فى أيام يسيرة ، وبهذا تعرفه العرب ، ويفتح سُدَدَ الرئة والكبد والطحال ، ومُطلق للطبيعة ويزيل المغص ، وقال القرشى (= ابن النفيس) : وهو ملائم للمحرورين والمبرودين معًا ، لقرب مزاجه من الاعتدال.. إلخ .

* * *

ويمضى « قاموس الأطباء » ليعرض عبر صفحاته ، خلاصة ما انتهى إليه العلم العربى فى ميادين الطب والصحة العامة وأمور العلاج والفسيولوجيا وتكوين الأعضاء وتشريح العظام والعضلات والصيدلة والموازين الطبية وخواص الحيوان .. وقد صيغ ذلك كله بلغة عربية سليمة .

وبعد .. فهل نقول عن عصر القَوْصُونى : إنه كان عصر تخلُّف ! وهل سنظل نختلف حول قضية تعريب الطب ! وهل سيظل « قاموس الأطباء » مخطوطًا ؟ .





الحمد لله الذي جعل لسان العرب قاموسا مديدا وناموسا مفيدا أوفر وسارية الحجة المتوج [illegible]
صحاح الدرر وأساسا محكما ومشوفا مفصلا وتقضي منها وكشافا من كل اشتراعيا باسم [illegible]
مبراو روضا مزهرا يقتطف من أفنانه يانع الثمر وقانونا وزادا وشفاء وفيا وارشادا وسوابا هاديا وما
البصاير والبصاير أحمده حمد عبد نور الله جنانه بنبراس السعادة وألبسه حلل الفضل والسيادة
وبلغه الحسنى وزيادة وحقق ميطه في القضاء والقدر وطهر لسانه بتوفيقه عن [illegible] الأعراض والهمه
بفضله علم معالجة الأمراض والأعراض وأفهم كرمه حقائق الجواهر والأعراض وما لها من
نفع وضرر وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي خلق الإنسان من نطفة أمشاج
وركبه على أعدل مزاج من غير مزاولة ولا علاج وشرفه بالسمع والبصر وأشهد أن سيدنا محمدا
عبده ورسوله السيد الأعظم والحبيب الأكرم والخليل الأتم خاصة خلاصة كنانه ومفرح [illegible]
بقانون شريعته ما سقم من الأجسام وداوى بموجز كلامه ما فسد من الأفهام وفتح بشامل نائله
ما انغلق من الأحكام وشرفه على ساير البشر صلى الله وسلم عليه وزاده شرفا وكرما لديه و
أدام إمداد تواصل إحسانه إليه ما انجلت غياهب الفكر لمن حقق ونظر وبعد فيقول أفقر المعترف
بالعجز والتقصير الراجي عفو ربه القريب مدين بن عبد الرحمن الطبيب بدار الشفاء بمصر غفر الله له كل إثم
وحل عنه كل إصر ووفقه لكل محمود ميثاق وأقر ما كل من ألف أتقن ولا كل من صنف أحسن فالفضل
مواهب والهمم مراتب والعلم بحر زاخر وكم ترك الأول للآخر وكيف لا وتنقيح العلوم وتهذيبها
وتحريرها وترتيبها وتحقيق المنقول منها والمعقول إنما هو من نتائج العقول قال العلامة [illegible]
كلمة أضر بالعلم من قولهم ما ترك الأول للآخر شيئا إذا كان المتأخر يتعلم من العلم والتعليم ويقنعهم [illegible]

مخطوطة قاموس الأطباء الصفحة الأولى - الجزء الأول

نسخة الظاهرية (ملونة فى الأصل)

ا قدمه المتقدم لو سهو عظيم اذ لكل مجتهد نصيب قل او كثر جل او صغر كما ان الاوائل فازوا بالسبق
الى استخراج الاصول وتمهيدها فالاواخر اشتغلوا بتفريع الاصول وتشييدها وكما ان الاوائل تفضلوا
على من بعدهم بالتأسيس والتمهيد فالاواخر قضوا حق من بعدهم بالتلخيص والتجريد انتهى وقد اجاد واحد
الزمان وفريد الاوان ذو التحقيق والفصاحة والتدقيق والبلاغة افصح اللغويين محمد شمس الدين فى قاموسه
حيث قال ولو لم اخش ما يجر المزكي نفسه من المعرة والزمان لتمثلت بقول احمد بن سليمان اديب معرة
النعمان ولكن اقول كما قال ابو العباس الكامل وهو القائل المحق ليس لقدم العهد يفضل الفائل ولا لحداثته
يهتضم المصيب ولكن يعطى كل ما يستحق انتهى قلت قول القائل لعنا [?] اى المحلى والمراد بقول اديب معرة
النعمان قوله وانى وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل

وقال ابن عمار رحمه الله

انا ابن عمار لا اخفى على احد • الا على جاهل بالشمس والقمر
ان كان اخرني دهري فلا عجب • فوائد الكتب يستلحقن في الطرر

هذا وان كل علم فانه يشرف على غيره اما بحسب موضوعه ولا شك ان العلم الالهى اشرف العلوم
لان موضوعه اشرف موضوع لان المبحوث عنه فيه هو ذات الله وصفاته والطب يجب ان يكون
بعده لان موضوعه بدن الانسان الذي هو اشرف مواليد الاركان واما بحسب شدة
الحاجة اليه في كل حين واوان وذخيرة زمان ولا شك ولا ارتياب عند ذوي الالباب ان الحاجة
الى الطب اشد منها الى غيره لان كل علم لا يمكن تحصيله الا بعد صحة الابدان الانسانية وسلامتها
من العلل البدنية والنفسانية ومما يستدل على شرفه ايضا امور منها ان الانسان اذا عرف
علم التشريح عرف قدر ما اودعه الله في هذا البدن الكثيف والهيكل اللطيف الشريف من الاسرار
الخفية المحيرة للعقول الزكية واذا عرف ذلك كذلك كان ذلك له من اقوى الدلائل واعظم الوسائل
الى اعترافه بالخالق الحكيم الذي احسن كل شيء خلقه وهو الخلاق العليم ومنها انه اذا اطلع على ما في كل عضو
من اقسام الاسقام وانواع ما الم به من الالام وعلم انه سبحانه وتعالى وضع في مقابلة كل داء دواء
ولكل الم شفاء دل ذلك على عنايته بهذه البنية الضعيفة والخلقة النحيفة فلا يزال ينتقل كل لحظة من
برهان الى برهان وكل لمحة من مشاهدة احسان الى احسان ومنها ان الطب يفيد البقاء بالعافية
والصحة الكاملة والحياة مع الصحة افضل منها مع المرض ومنها انه يوصل العطية والنفع الى الغير
وكلما كانت العطية افضل كان المعطي لها افضل ومنها ان معطي الذهب اذا كان يسمى جوادا فمعطي
الصحة بذلك اولى ان ينادى ومنها ما صح عنه صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم انه تداوى
وامر بالتداوي نفسه [?] ام سلمة رضي الله عنها قالت كان لا يصيب النبي ام [?] قرحة ولا شوكة الا وضع

الصفحة الثانية من الجزء الأول

فصل العين

العَبال كسحاب الورد الجبلي وهو يعظم ويغلظ حتى يقطع منه العصي قبل ومنه كانت عصاة سيدنا موسى عليه السلام

العِجل بالكسر ولد البقرة ومثله عجول بكسر العين وفتح الجيم المشددة وسكون الواو وجمع الأول عجول كقدر وقدور وجمع الثاني عجاجيل كسنور وسنانير ولحمه يتلو لحم الضأن في جودة الغذا واعتدال الدم المتولد منه ويصلح لجميع الأمعاء.

العَسَل محركة لعاب النحل يذكر ويؤنث وجمعه اعسال قاله ائمة اللغة وقال الشيخ هو طل خفي يقع على الزهر وعلى غيره يلتقطه النحل وهو بخار يصعد فينضج في الجو فيستحيل فيغلظ في الليل فيقع عسلا وقد يقع العسل كما هو بجبال قمران ويختلف بحسب ما يقع عليه من الشجر والحجر والظاهر يلتقطه الناس والخفي يلتقطه النحل وأظن ان لتصرف النحل فيه تأثيرا وانما يلتقطه ليغتذي به ويدخره . ومن العسل جنس حريف سمي انتهى وقال الامام القرشي ان الرطوبات اذا تصعدت في النهار بحرارة الشمس ولم تكن كثيرة ولم يكمل تصعدها بل بقيت معلقة في الهواء القريب من الارض لقلة الدخانية وغلبة البخارية وانطفت حرارة الشمس فاذا جاء الليل بردت تلك الأجزاء لزوال المسخن لها فعادت بطبعها باردة متكاثفة ثقيلة هابطة الظاهر الأرض

الصفحة الأولى من الجزء الثاني

(نسخة الظاهرية المنقولة من نسخة دار الكتب المصرية)

قَانُونُ الزّمَانِ فِى تَدْبِيرِ الإِنْسَانِ

لابن البَيْطَار

قامت شهرة (ابن البيطار) على كونه واحدًا من أهم الصيادلة والعشابين فى تاريخ الإسلام ، بل لعله أهمهم على الإطلاق . وقد نال كتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) عناية كبيرة على مر العصور ، ونُظر إليه على أنه أحد أهم الكتب العربية فى هذا المجال .. لكننا فى هذا الفصل من الكتاب ، ومن خلال هذه المخطوطة من تراثنا المجهول ، سوف نرى ابن البيطار فى ثوبٍ آخر ، هو ثوب الطبيب النطاسى ، لا الصيدلانى العَشَّاب .. فلنتوقف أولاً عند ابن البيطار ومؤلفاته بعامة ، ثم نلقى الضوء على مخطوطته (قانون الزمان فى تقويم الأبدان) ونسختها الفريدة .

* * *

إن أفضل مدخلٍ للتعرُّف إلى ابن البيطار ، هو تلك الترجمة التى أوردها له أكبر مؤرِّخ طبى فى الإسلام « ابن أبى أُصَيبعة » وذلك لغزارة المادة التى قدمها المترجِم من جهة ، ولأنه من جهة أخرى كان معاصرًا للمترجَم له . نقرأ فى عيون الأنباء :

هو الحكيم الأجلُّ ، العالِم ، أبو محمد عبد الله بن أحمد المَالَقى[1] النباتى ، ضياء الدين ، ويُعرف يابن البيطار[2] . أوحد أهل زمانه ، وعلاَّمة وقته فى معرفة النبات وتحقيقه واختياره

(١) مَالَقَة : مدينة كانت عامرة بالأندلس ، تقع على شاطىء البحرين ، الجزيرة الخضراء وألمرية ، ينتسب إليها جماعة من أهل العلم (ياقوت : معجم البلدان ٤/ ٤٣) .

(٢) البيطار : المرادف القديم للطبيب البيطرى - من البيطرة : طب الحيوان - ولم يكن عالمنا يشتغل بذلك ، إنما اكتسب هذا اللقب بانتسابه إلى عائلة « ابن البيطار » الأندلسية الشهيرة .. (راجع بخصوص هذه الأسرة ، مقدمة إبراهيم بن مراد لكتاب : تفسير كتاب دياسقوريدس - دار الغرب الإسلامى ، ص١٨ ، ١٩) .

ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها . سافر إلى بلاد الأغارقة[1] وأقصى بلاد الروم ، ولقى جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نباتٍ كثير وعاينه فى مواضعه . واجتمع أيضًا فى المغرب - وغيره - بكثير من الفضلاء فى علم النبات وعاين منابته وتحقّق ماهيته . وأتقن كتاب ديسقوريدس[2] إتقانًا بلغ فيه إلى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيما هو فيه ، وذلك أننى وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية فى النبات ، وفى نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ، ما يُتعجب منه . وأول اجتماعى به كان بدمشق ، فى سنة ٦٣٣ هجرية ، ورأيتُ أيضًا من حسن عشرته وكمال مروءته وطيب أعراقه وجودة أخلاقه ودرايته وكرم نفسه ، ما يفوق الوصف ويُتعجب منه . ولقد شاهدتُ معه فى ظاهر دمشق كثيرًا من النبات فى مواضعه ، وقرأت عليه أيضًا تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس ، فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئًا كثيرًا جداً . وكنتُ أُحضر عدة كتب من الكتب المؤلفة فى الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقى وأمثالها من الكتب الجليلة فى هذا الفن ، فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس فى كتابه باللفظ اليونانى على ما قد صحّحه فى بلاد الروم، ثم يذكر جُمل ما قاله ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله ، ويذكر أيضًا ما قاله جالينوس فيه من نعته ومزاجه وأفعاله وما يتعلق بذلك ، ويذكر أيضًا جُملا من أقوال المتأخرين وما اختلفوا فيه ، ومواضع الغلط والاشتباه الذى وقع لبعضهم فى نعته ؛ فكنتُ أراجع تلك الكتب معه ، فلا أجده يغادر شيئًا مما فيها . وأعجب من ذلك أيضًا ، أنه كان ما يذكر دواءً إلا ويعينٌ فى أى مقالةٍ هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس ، وفى أى مقالة هو من جملة الأدوية المذكورة فى تلك المقالة .. وكان فى خدمة الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب ، وكان

(١) يقصد : اليونان .

(٢) هو ديسقوريدس - دياسقوريدس - العين زربى ، أصله من عين زربه .. عاش فى القرن الميلادى الأول وتوفى فى الربع الأخير منه . كان قد جمع خبرته النباتية فى كتاب أسماه : هيولى الطب Materia Medica وهو الكتاب الذى ترجمه حنين بن إسحاق - وغيره - إلى العربية ، فاشتهر عند العلماء العرب باسم : كتاب الحشائش . وقد راجع الكتاب مجموعة كبيرة من الصيادلة العرب القدماء ، وشرحه واعتنى بتفسيره جماعة أخرى ، منهم ابن البيطار .

يعتمد عليه فى الأدوية المفردة والحشائش ، وجعله فى الديار المصرية رئيسًا على سائر العشابين وأصحاب البسطات ، ولم يزل فى خدمته إلى أن توفى الملك الكامل - رحمه الله - بدمشق ؛ وبعد ذلك توجَّه إلى القاهرة فخدم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، وكان حظِيّاً عنده متقدمًا فى أيامه . وكانت وفاة ضياء الدين العشاب- رحمه الله - بدمشق فى شهر شعبان سنة ٦٤٦ هجرية ، فجأة .. ولضياء الدين ابن البيطار من الكتب :

- الإبانة والإعلام بما وقع فى المنهاج من الخلل والأوهام[١] .

- شرح أدوية كتاب ديسقوريدس[٢].

- كتاب الجامع فى الأدوية المفردة[٣]. وقد استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها ، وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه ، ولم يوجد فى الأدوية المفردة كتابٌ أجلّ ولا أجود منه ، وصنَّفه للملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل.

---

(١) هو نقد لكتاب ابن جزلة - أبى على يحيى بن عيسى البغدادى المتوفى ٤٩٣ هجرية - الشهير : منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان . وكتاب « الإبانة » لا يزال مخطوطًا ، توجد منه نسخ نادرة مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة عن الأصل المحفوظ بمكتبة الحرم المكى (تحت رقم ٣٦/ طب) وقد عرض له وحقَّق بعض فقراته ، إبراهيم بن مراد ، ضمن كتابه : بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب (دار الغرب الإسلامى - بيروت ١٩٩١ ، ص ٤٦٥ وما بعدها) .

(٢) نشره إبراهيم بن مراد محقَّقًا ، وقدم له بدراسة جيدة عن ابن البيطار وكتابه (صدر عن : دار الغرب الإسلامى سنة ١٩٨٩) بعنوان : تفسير كتاب دياسقوريدس .

(٣) هو أشهر كتب ابن البيطار ، ذكر فيه أكثر من ألفىْ مادة مرتَّبة ألفبائيًا ، أحصاها إبراهيم بن مراد ، فقال : يحتوى الكتاب على ١٤٢٢ مادة طبية خالصة و٩٣١ مادة تفسيرية ترادفية ، فكان الكتاب « جامعًا » بحق لمختلف ما انتهت إليه المعارف الطبية والصيدلانية فى مجال الأدوية المفردة منذ العصور القديمة حتى عصر المؤلف .

وقد نُشر الكتاب - بدون تحقيق - فى أربعة أجزاء ببولاق سنة ١٢٩١ هجرية ، وترجم منه أندريا ألباجو إلى اللاتينية أجزاء ، كما ترجمه أنطوان جالان إلى اللاتينية أيضًا - فى القرن السابع عشر الميلادى - وفى سنة ١٨٣٣ ميلادية صدرت له ترجمة ألمانية قام بها ديتز Dietz وترجمه إلى الألمانية - أيضًا - سونثايمر Sontheimer .. وأشهر ترجماته وأكملها كانت ترجمة لوسيان لوكليرك إلى الفرنسية فى ثلاث مجلدات صدر آخرها سنة ١٨٨٣ ميلادية .

- كتاب المغنى فى الأدوية المفردة[1]. وهو مرتّب بحسب مداواة الأعضاء الآلمة .
- كتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة[2]. انتهى[3] .

* * *

وعلى الرغم من أهمية هذه الترجمة التى دوَّنها ابن أبى أصيبعة ، إلا أن هناك بعض الأمور التى يمكن استخلاصها من المراجع والمصادر الخاصة بابن البيطار ، والتى من شأنها أن تزيد من معرفتنا بهذه الشخصية المهمة .. فمن ذلك :

أولاً : كان مولد ابن البيطار سنة ٥٧٥ هجرية أو سنة ٥٩٣[4] على اختلاف القولين دون سند لكليهما ! وقد ذكرنا فى مناسبة سابقة أن العديد من مشاهير العلماء كانوا مجهولى المولد . ومع ذلك فنحن نرجِّح أن يكون مولده سنة ٥٩٣ هجرية ، ذلك أن إشارة ابن أبى أصيبعة إلى أن ابن البيطار مات « فجأة » تجعل هذا التاريخ أقرب للصحة ، إذ لو كان مولده سنة ٥٧٥ هجرية ، لكان عند وفاته قد بلغ الواحدة والسبعين .. ومن يبلغ هذا العمر لا تكون وفاته « فجأة » وإنما هى أمر محتمل لا يثير دهشة . فالأرجح أنه مات فى الثالثة والخمسين من عمره ، فجأة ، سنة ٦٤٦ هجرية (وتاريخ وفاته متفقٌ عليه) .

ثانيًا : نشأ ابن البيطار فى الأندلس بين أسرة مشهورة بالعلم ، ودرس على يد جماعة من مشاهير الأطباء والعشَّابين منهم : أبو العباس ابن الرومية - ابن حجَّاج الإشبيلى - عبد الله بن صالح الكُتَامى .. لكن علم ابن البيطار لم يكتمل إلا بعد ترحاله الطويل ، وهو لم يدوِّن كتبًا

---

(١) لا يزال هذا الكتاب مخطوطًا .
(٢) هو كتاب يعد - اليوم - فى حكم المفقود .
(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (مكتبة الحياة - بيروت) ص ٦٠١ .
(٤) عرض إبراهيم بن مراد فى مقدمة تحقيقه لتفسير كتاب ديا سقوريدس (ص ١٩) لكلا التاريخين ، دون ترجيح لأحدهما .

إلا بعد استقراره فى مصر والشام أيام حكم الأيـوبيين ، وتلك سمة عامة فى علماء ديار الإسلام الذين وفدوا من المغـرب العربى ، فمعظمهم - من أمثال ابن البيطار وابـن عربى والتلمسانى وموسى بـن ميمون - لم يضعوا مـؤلفاتهم إلا بعـد ما وفدوا على مصر والمشرق العـربى .. لكن ذلك ، بـالقطع ، لايعنى أن بلاد المغـرب والأندلس كـانت خلـوًا من التآليف ، فهنـاك دوِّنت أعمال ابن سبعين وابن رشد وبنو زُهر وابن خلدون . لكن المناخ السياسى والاجتماعى فى مصر والمشرق كـان أكثر استقـرارًا ومنـاسبةً للتأليف العلمـى . وفى مصر والشام وضع ابن البيطـار مـؤلفـاته ، وخلف من التـلامـذة المشهـورين جماعـة من أمثال ابـن أبى أصيبعة وعـز الـدين السويدى صاحب التذكرة .

ثالثًا : حظى ابن البيطار بتقدير كبير فى مصر والشـام تحت ظل الأيوبيين ، ومُنى - أيضًا - ببعض الحُسَّاد والحاطِّين من شأنـه ، فقد استنقص علمه عشابٌ مغمورٌ هـو على بن يوسف التنوخى فى مقدمـة كتابٍ له بعنوان : (الأشرف فى صنعة الدريـاق المنقذ للنفوس من التلف) فقال مـا نصُّه: اجتمعت بعبد الله بن البيطار المؤلِّـف .. وباحثته طويـلاً ، وقد علم مَنْ حضر مباحثتى معه تميُّزى مما لا أحتاج معـه إلى زخرفةٍ فى القول ، وكان رحمه الله ، راويةً دون مباشرة ، لأنه اجتمع بى فى أطراف جبال لبنان وطلب منى أدويـة موجودة بين رجليه ، فعلمت أنه ناقل غير مباشر [1]! .

وهكـذا يبدو لنـا أن تقنية النيْـل من الأعلام هى مسألـة قـديمة ، بل هى فى واقع الأمـر موروثـة من الحَقَدَةِ القدماء فى كل عصر .. فلم يكـن ابن البيطار هو أول المشاهير الـذين مُنوا بالحاقـدين ، ولن يكون آخرهم . لكن الأمـر الأغرب فى تقنيات الحقـد ، هو أنها لا تقتصر على الحط من قَدْر العَالِمِ فى علمـه وخبرته ، وإنما تتعدى ذلك إلى تشويه ذاتـه وشخصه ؛ وقد كنت أظن أن آلية تشـويه الأشخاص هى مـن الأمور المستحدثـة فى واقعنا المعاصر الـذى يلجأ فيه

---

(١) نقل إبراهيم بن مراد هذه الفقرة من مخطوطة (الأشرف) وعقب عليها بما يدل على تهافتها .. انظر : مقدمة تحقيق تفسير كتاب دياسقوريدس ، ص ٢٨ .

ضعـاف النفوس إلى النيْل من الأعـلام بتشـوية شخصيـاتهم اعتمادًا على حكـايات مختلقـة لا أساس لها من الصحـة ، فيسهل عليهم بعدها نقد فكـره وعلمه .. ثم ظهر أنها حيلة قـديمة ! يقول إبـراهيم بن مراد فى مقدمة تحقيقـه لتفسير ابن البيطار لكتاب ديسقوريـدس : وأما النيل من سمعة ابن البيطار فيبرزه ما نسجه البعض من قصـةٍ حول وفاته ، فقد توفى فى دمشق فجأة فى شهر شعبان من سنة ٦٤٦ هجرية (بين ١٩ نوفمبر و١٧ ديسمبر من سنة ١٢٤٨ ميلادية) إلا أن ابن فضل الله العُمَرى قد انفـرد بذكر قصة مليئة بـالإغراب القصصى ، يقول: « وحُكى أنـه سَمَّ نفسه فمات ، حـدَّثنى الحكيم أمين الـدين سليمان بن داود المتطبب قال : كـان الملك الصالح قد أعطى ابن البيطار ألف دينار لنفقتهـا على أثمان أدويةٍ دعت إليها حاجته ، واجتناء حشائش شامية ورومية . فلما أتى ابن البيطار بيت المقدس ، رأى امرأةً نصرانية إسمها مريم ، فأحبهـا وأنفق عليها ذلك المال حتـى أنفده ، وأهمل حـاجـة الملك الصالح ، فلما قـدم الملك الصالح أراد منه أن يـدخل البلد فى الصباح ، إلا أن ابن البيطار أحضر النصرانيـة وبات معها فى أكلٍ وشربٍ واستماع غناءٍ واجتماعٍ ، حتى كان الثُلُث الآخر من الليل ، فأخرج حشيشة معه سَحَنها فى هونٍ ثم استفَّها ثم نام وقـال : غطونى ثم إذا أصبحتم لا تحطُّوا أشياء فى الهون حتى غدٍ واغسلـوه فإنه قد صار مسمـومًا . فلم يفهموا مقالـه إلى أن أصبحوا فرأوه ميتًا ، ففهمـوا ما كان قالـه وغسلوا الهون . فلما دخل السلطان سأل عنه ، فحكيت إليه القصة فقـال : لقد أساء بنا الظن وإن مثله لأفتديه بشطـر مُلكى ، والله لو علمت لأعطيته عشرة آلاف دينار يصرفها فى لذته ، وكان أمتعنا بنفسه ! » يقول إبـراهيم بن مراد : وفى هذه القصة إغرابٌ وخيال قصصيان غير خفيين ، فابن البيطار كما تظهره هذه القصة كان خائنـًا للأمانة ، مبتذلاً فى أخلاقه متهتكًا فى سلوكه ، وهذا يتناقض كليًّا مع ما ذكـره عنه ابنُ أبى أُصيبعة ، فقد قال عنه : « ورأيتُ أيضًا من حُسن عشرتـه وكمال مروءته وطيب أعـراقه وجـودة أخلاقـه وكرم نفسـه ما يفـوق الوصف ويُتعجب منه » ونعتقـد أن ابن أبى أصيبعة ما كان ليقـول عن ابن البيطار ما قـال من ثناء على عشرته ومروءته وأعراقه وأخلاقه ونفسه ، لو كان ما نسبته إليه هذه القصة صحيحًا ، ثم إن ابن أبى أصيبعة أعلم بأحـوال ابن البيطار وبسيرته من صاحب القصـة ، وهو أمين الدين سليمان

ابن داود ، فهذا لم يعرف ابن البيطار ، لأنه عـاش فى النصف الثانى من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وكانت وفاتـه سنة ٧٣٢ هجرية ؛ يضاف لذلك أن سيرته كما أوردها ابنُ فضل الله العُمَـرى – وقد تـرجم له تـرجمة موسّعة وكـان على صلة بـه – لا تخلو من المغامز[١].

ونضيف لما سبق : أن الكثير من الحكايـات ، التى أوردها ابن فضل الله العُمَرى فى كتـابه هـذا ، الضخم : مسالك الأبصـار[٢] . هى من نـوع الخيـال الـروائى والقصص السـائر ، وفى تراجم الأعيان بالكتاب كثير من هذه الحكايات المشوقـة ! ومن جهة ثانيـة ، فإن استخـدام (تيمة) الانتحار للحطِّ من شأن الأشخاص ، لم ينفـرد بها واضع قصة ابن البيطار .. ففى هذا العصر ، استخدمت نفس الطريقـة مع أشخاص آخرين بغية الحط من شـأنهم ، فقيـل: إن (ابن سبعين) انتحـر بمكة ! وقيل: إن (السهـروردى) امتنع من التنفس بقلعـة حلب حتى مات ! ومثل هذا كثير ، ولا ينبغى أن يُؤبَه له إلا فى إطار البحث حول تاريخ الحقد .

ثالثًا : لم يذكر ابن أبى أصيبعة كافة كتب ابن البيطار ، فقد ذكر له خمسة كتب فقط ؛ وقد ذكرت المصـادر والمراجع الخاصة بابن البيطار كتبًـا أخرى له ، هى : ميزان الطبيب (مخطـوطة فريدة محفوظة بمكتبة جامعة أو بسالا بالسويد تحت رقم ٥٨) – رسالة فى التداوى من السموم (مخطوطة بدار الكتب المصرية) – الدرة البهية (طُبع بمصر قديمًا) .

وبالإضافة إلى هـذه المؤلفات المذكورة ، هناك كتاب (قانون الـزمان فى تقويم الأبدان) لابن البيطار .. وهو الكتاب الذى لم يذكره لـه أى مرجع أو مصدر ، بدايةً من ابن أبى أصيبعة وحتى يومنا هذا .

* * *

لا توجد من (قانـون الزمان) غير نسخةٍ واحدة مخطوطة ، بمكتبـة جامعة أو بسالا – لا أدرى كيف ذهبت إلى هناك – وهى مصورة فى دار الكتب المصرية عن تلك النسخة الفريدة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) هذا الكتاب هو موضوع الفصل الثامن والعشرين ، فليُنظر هناك .

فى هذه المخطوطة ، كما أسلفنا ، يبدو ابن البيطار فى ثوب الطبيب لا العَشَّاب . والحق أن الطب والصيدلة كانا فى عصر ابن البيطار مرتبطين أشد الارتباط ، ومن النادر أن نجد طبيبًا - آنذاك - لا علم له بالصيدلة ، والعكس .. لكننا نَصِفُ علماء تلك المرحلة بما يغلب عليهم من فنون العلم ؛ فنقول مثلاً عن ابن النفيس: إنه كان طبيبًا ، مع أن له اشتغالاً بالصيدلة - وغيرها - ونقول عن ابن البيطار : إنه صيدلانىٌّ عَشَّاب ، وهاهو يؤلِّف فى الطب .. وغير هذا كثير .

وقد اتخذ التأليف الطبى فى هذه المخطوطة نظامًا جديدًا بالنسبة لعصر ابن البيطار ، هو نظام الجدولة ، فالمخطوطة بكاملها عبارة عن جداول طبية ، تعكس محاولة مبتكرة لتنظيم المعارف الطبية ونظمها فى نسق واحد لا يعتمد على السرد النثرى وتوالى العبارات ، وإنما يضم الشتات فى (نظام) واحد يكشف عن رغبة تنظيمية كامنة ، تسعى لتطوير شكل الكتابة العلمية ، وتعدُّ حلقة مهمة فى تطور اللغة العلمية وانتهائها - فى العصر الحديث - إلى الترميز الذى يستغنى تمامًا عن اللغة .. وإذا كان الترميز فى العلم قد استفاد من البحوث الحديثة فى المنطق ، إلا أن كتابة ابن البيطار لا تقل عن المنطق المعاصر أهمية فى مسيرة اللغة العلمية وتطورها .. ولابد هنا من الإشارة إلى أن (قانون الزمان) ليست المؤلَّف الوحيد لابن البيطار على هذا النسق المجدول ، فكتابه (الدرة البهية) عبارة عن جداول أيضًا ، وأيضًا فقد كتب ابن التلميذ البغدادى[1] - قبل ابن البيطار - بطريقة مماثلة فى كتابه (المغنى)[2] الذى أورد فيه مجموعة من الجداول يحتوى كل جدول على ثلاثة أقسام الأول فى المرض الواحد ، والآخر فى أسبابه ، والأخير فى أعراضه .. ثم يضع تحت الجدول فقرة نثرية متصلة فى تدبير هذا المرض ، ويبدأ فى جدول آخر لمرض آخر ، وهكذا جاء الكتاب نصف مُجَدْوَلٍ ! .

يبدأ (قانون الزمان) بدائرة كبيرة تحت البسملة وقبل الحمدلة ، تضم الأقسام الأربعة والأربعين للكتاب ؛ وكأنها فهرس دائرى ، ثم تتوالى الجداول على نحو ما سنرى فى النماذج

(1) هو الحكيم الأجل موفق الملك أمين أبو الحسن هبة الله بن التلميذ ، أوحد زمانه فى صناعة الطب ، ورئيس أطباء بغداد فى وقته .. توفى سنة ٥٦٠ هجرية (انظر ترجمته المطولة فى : عيون الأنباء ، ص ٣٤٩ وما بعدها) .

(2) المغنى فى الطب ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٣٥٣ / طب ؛ وهى مخطوطة لم تُنشر .

التالية ، حيث نقرأ فى صحفة العنوان بيان العلل والأمراض : حُمى يوم[1] - حُمى العفن وهى الدِّق - الأورام وأصنافها - الأمراض العارضة فى ظاهر البدن لأسباب من باطنه ولا تختص بأحد أعضائه - الأمراض العارضة لظاهر الرأس والوجه - الأمراض العارضة لظاهر اليدين والرجلين - الجراحات والقروح - القروح وحرق النار وإخراج الأزجة والمداواة من الضرب بالسياط - نهش الحيوان ذى السم ولدغه - الأدوية القَتَّالة (ثلاثة أقسام) - الصراع وأقسامه - أمراض الدماغ (قسمان) أمراض النخاع - أمراض الجفن (قسمان) - أمراض الملتحمة - أمراض القرنية - أمراض الحلق وما يعرض بين القرنية والجلدية - أمراض عصب البصر وأوجاع الأذن - أمراض الأنف والأذن - علل الشَّمّ وأمراض اللسان - أمراض الشفتين والأسنان - تحريك الأسنان واللحم النابت بينهما وأمراض اللثة - أمراض الحلق والحنجرة وقصبة الرئة - نَفْث الدم وأمراض غدة الأضلاع والحجاب - أمراض القلب - أمراض المرىء وفم المعدة - أمراض المعدة (ثلاثة أقسام) - أمراض الأمعاء - أمراض الكبد - الاستسقاء وأمراض المرارة والطحال - أمراض الكلى - أمراض المثانة - أمراض الأُنثيين والقضيب - أمراض الرحم وأقسامها - أمراض الرحم وعلاماتها - أمراض الرحم والثدى - أمراض الوركين والرجلين .

وبعد هذا الحصر العام فى الجدول الدائرى ، تأتى صفحات المخطوطة لتزيد جداولها الأمر تفصيلاً ، فأمام أمراض الدماغ سنجد فى الجدول : السَّدَر - الدُّوَار - الصداع - السكتة - الكابوس - المالنخوليا - القطرب[2] - العشق[3]. وأمراض الوركين والرجلين :

(١) هى الحمى التى تشتد نوبتها يومًا وتهدأ فى اليوم التالى ، وهكذا .

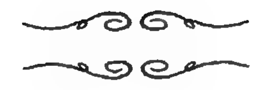
(٢) القطرب : المشى أثناء النوم .. وفى كتب اللغة (مثلث قطرب) وهو كتاب لأحد كبار اللغويين ، أطلق عليه أستاذه هذا اللقب (قطرب) لأنه كان يأتى الأستاذ فى وقت متأخر ليسأله عن أشياء فى العلم ، فقال له : « أنت قُطْرب ! ! » وهو اسم لدودة صغيرة تسعى فى الليل فقط ! .

(٣) نظر الأطباء العرب إلى (العشق) على أنه حالة مرضية - منذ عصر ابن سينا - نظرًا لما يعترى العاشق من أمور غير طبيعية إذا اشتد به الحب .. راجع ما ذكرناه قبل صفحات .

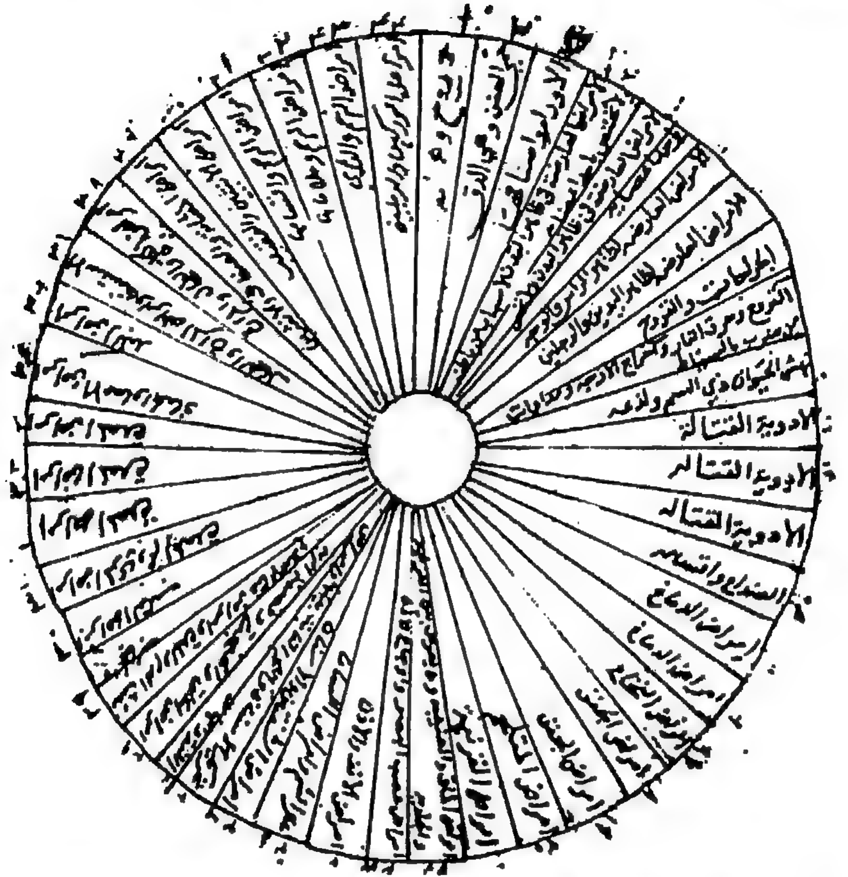
عِرْق النَّسا - النِّقْرس عن حرارة - النِّقْرس عن برودة - وجع المفاصل من برودة - وجع المفاصل من حرارة - الصلابة والنفخ فى المفاصل - الافتراق .. وهكذا فى الأقسام الأربعة والأربعين .

* * *

وعلى النحو السابق تأتى مخطوطة (قانون الزمان) فى هذه الجداول الدقيقة لتشهد بأن المعرفة الطبية كانت فى عصر ابن البيطار قد تَقَدَّمت حتى وجب عمل التصنيفات والتقسيمات.. فهل نكرر القول بضرورة نشر هذه المخطوطة وتحقيقها ودراستها فى ضوء تصنيف العلوم عند العرب ؟ .

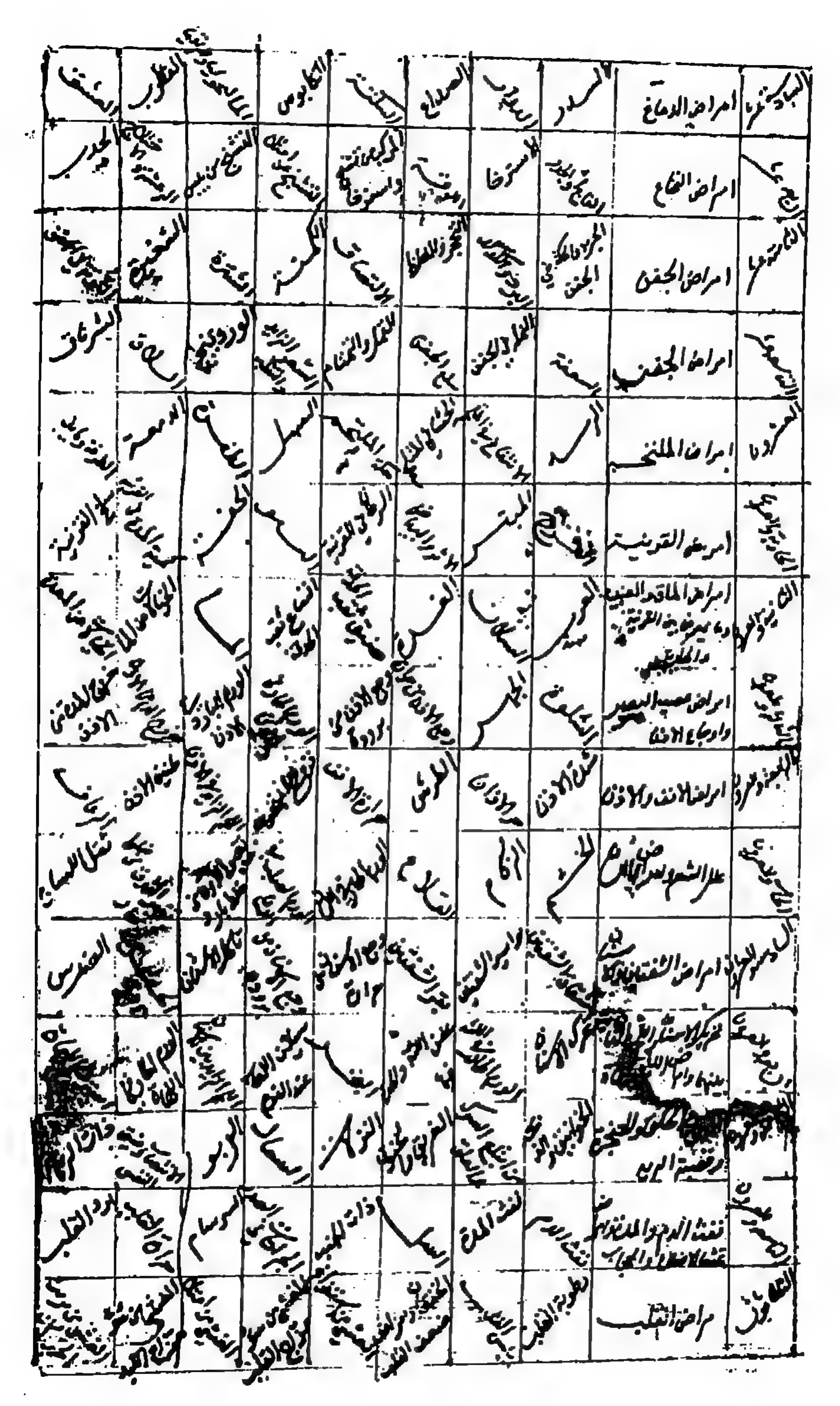




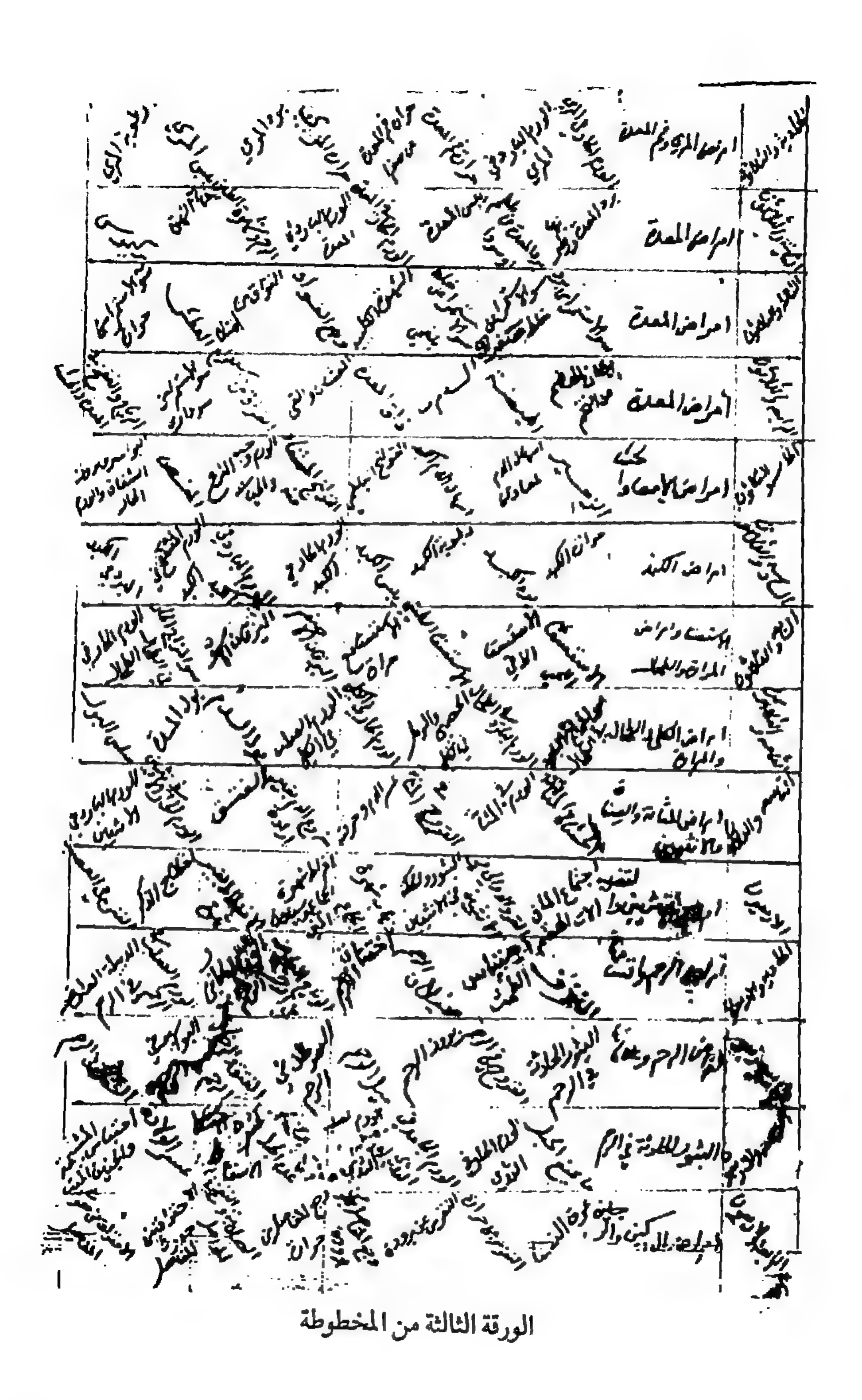


مخطوطة قانون الزمان – نسخة جامعة أوبسالا

صفحة العنوان



الورقة الثانية من المخطوطة.



الورقة الثالثة من المخطوطة

كِفَايَةُ التَّعْلِيمِ فِى مَعْرِفَةِ وَضْعِ التَّقَاوِيم

للويشى

يردِّد الكثيرون أن القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر الميلادى - كان مرحلة تخلُّف وتدهور علمى فى ديار الإسلام .. وهذا وَهْمٌ عظيم ! فالحق أن المخطوطات العربية والإسلامية المدوَّنة فى هذا القرن ، والآثار الباقية عنه ، تشهدان بأن الحركة العلمية ظلت مستمرة آنذاك فى العديد من بلدان المسلمين .

وشبهة التخلُّف المزعومة ترجع إلى أمرين : الأول: أن الحركة العلمية فى القرون السابقة كانت أنشط منها فى القرن الثامن ، وكان عنصر الإبداع العلمى متوفرًا بشكل أكثر كثافة حتى القرن السابع الهجرى - فى شتى العلوم - حتى إذا جاء القرن الثامن ، كان الجهد العلمى العربى متجهًا بشكل واضح نحو التدوين والحصر ؛ لكن ذلك لا يعنى التخلُّف العلمى بقدر ما يدل على استجابة العلم العربى لظروفٍ خاصة مثل انعدام المركزية العلمية وتدهور الواقع الاقتصادى فى معظم البلدان وابتلاء المسلمين فى مصر والشام والمغرب والعراق بحكامٍ من النوع الردىء ، وقد أدى ذلك إلى انكفاء العلماء على تدوين ما سبق من علوم القرون الخالية - لحفظه - واكتفائهم بالحفاظ على صيرورة البحث العلمى دون أن تواتيهم الفرصة لتطويره .

والأمر الآخر: الداعى للزعم أن القرن الثامن كان عصر تخلُّف فى ديار المسلمين ، هو النقص الملحوظ فى الدراسات التى تلقى الضوء على الحالة العلمية آنذاك .. ولا أظن أن فى المكتبة العربية حتى الآن - على كثرة كتبها - كتابًا واحدًا يؤرخ للعلم العربى فى القرن الثامن الهجرى؛ وهذا أمر عجيب .

ولا يفوتنا هنا ، أن هـذا القرن كان بداية للنهوض المعرفى فى أوروبـا ، وهو النهوض الذى أثمر الحضـارة الغربية المعـاصرة ، والذى يدين فيـه الأوروبيون للعرب .. فقـد ظلت المؤلفات العربية طيلـة القرنين السابقين - السادس والسـابع الهجريين - تنقل من العربيـة إلى اللاتينية لتمهِّد للنهضة ؛ تمامًا ، كما مهَّدت حركة النقل والترجمة للنهضة العلمية العربية قبل ذلك بستة قرون . مع فارق مهم ، هـو أن العرب حين نقلوا كتب الهند واليونان فى القـرنين الثانى والثالث الهجريين ، نسبوا الأعمال إلى مؤلفيها الأصليين واعترفوا لهم بالفضل ؛ بينما نقل الأوربيون علوم العرب ونسبوها لأنفسهم أو تركوها دون إشارة إلى مؤلفيها ، فى محاولة لسلب العرب والمسلمين أى فضل فى تطور العلم الإنسانى .. وهناك الكثير من الأمثلة فى هـذا الباب ، أكثرها افتضاحًا قصة انتقال أعمال ابن النفيس واكتشافه للدورة الدموية ، دون الإشارة إليه ؛ وتلك قصة باتت اليوم مشهورة .

ولأننا هنا بصدد الكـلام عن مخطوطة (فلكية) من القرن الثامن الهجـرى ، فلابد لنا من التأكيـد على أن علم الفلك لم يكن متخلفًـا - بالمرة - آنـذاك فى ديـار الإسلام ، بل هنـاك من الشواهد ما يدل على أنه كان أكثـر تقدمًا من مثيله فى أوروبا .. ففى القرن الثامن ، وفى المشرق الإسلامى ، كـان (مرصـد مراغة) الـذى بناه نصير الدين الطـوسى - المتوفى ٦٧٢ هجـرية - لايزال يقوم بدوره الكبير فى عمل الأرصـاد والبحوث والحسابات الفلكية[١] . وفى أواخر القرن الثامن ، وبـالتحديد سنة ٧٩٦ هجـرية ، ولد الأمير الفلكى أُلغ بك كوركـان الذى دفع بعلم الفلك إلى الأمام فشيَّد مرصد سمرقند الذى كـان يعد فى زمانه إحدى عجائب الدنيا[٢] ، وقد جهَّزه بأحسـن الآلات وجمع فيه أعظم علماء الفلك فى المشرق من أمثـال غياث الديـن جمشيد وقاضى زاده الـرومى وعلاء الـدين على القَوْشَجى ، فكـان فريق العمل الـذى صحَّح أرصاد بطلميوس اعتمادًا على الرصـد الذى ابتدأ من سنة ٨٢٧ إلى سنة ٨٣٩ هجـرية ، ووضع الفريق نتائج حسـاباتـه الفلكية فى كتاب (الـزيج السلطانى) الذى حظى بشهـرة كبيرة ونال عنـاية

(١) لا تزال بقايا هذه المرصد موجودة حتى اليوم .
(٢) بوفا : مادة « ألغ بك » بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ٢/ ٥١٤ .

الفلكيين فشرحه مَيْرم جلبى والقوشجى ، واختصره محمد بن أبى الفتح المصرى الصوفى ، ونُقل فيما بعد إلى اللغات الأوروبية[1] .. وفى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجرى ، قام غياث الدين ببحوثه الفلكية ورصد كسوفات سنوات ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ هجرية ووضع كتابه (نزهة الحدائق) الذى يبحث فى استعمال آلة خاصة - اسمها طبق المناطق - يمكن بواسطتها الحصول على تقاويم الكواكب وعرضها وبُعدها مع الخسوف والكسوف وما يتعلق بهما[2].

وفى هذه الفترة ، وفى المغرب الإسلامى ، كانت تراجيديا سقوط الأندلس قد ابتدأت - لتختتم المأساة فى القرن العاشر الهجرى - ومع ذلك فقد كان بيد العرب هناك ، آنذاك ، حصيلة فلكية كبيرة أورثتها إياهم القرون السابقة ، حصيلة تتمثل فى الأعمال الفلكية للزرقالى وجابر بن الأفلح الإشبيلى وإبراهيم السهلى .. وغيرهم من علماء الفلك الذين عاشوا فى الأندلس فى القرنين الخامس والسادس الهجريين . وفى القرن الثامن كانت هذه الحصيلة لا تزال بيد العرب ، ومن هنا نشطت حركة انتقالها إلى أوروبا .

وفى مصر ، ظل علم الفلك ممتداً بجهود جماعة من الفلكيين المصريين ، مما دعا إلى اتساع نطاق البحث الفلكى .. حتى إن ابن الأكفانى ، المتوفى بمصر سنة ٧٤٩ هجرية ، يزيد من فروع علم الهيئة - فى كتابه : إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد - فيجعلها خمسة ، علم الزيجات (الأزياج) والتقاويم ، وعلم المواقيت ، وعلم كيفية الأرصاد ، وعلم تسطيح الكرة والآلات الشعاعية الحادثة عنه ، وعلم الآلات الظِّلِّية[3] .. ولم تكن هذه التصنيفات قد اتسعت بهذا الشكل قبل القرن الثامن الهجرى[4] . وما يهمنا هنا من تلك الأقسام ، هو علم التقاويم الذى

---

(١) مرحبا : الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٤٢٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .
(٣) نللينو : علم الفلك ، ص ٢٤ .
(٤) كان الفارابى ، المتوفى سنة ٣٣٩ هجرية ، يقرر أن علم النجوم ينقسم لقسمين هما علم دلالات الكواكب وعلم التعليم .. وبعده بقليل ، قرَّر إخوان الصفا أن علم النجوم ينقسم إلى ثلاثة أقسام (راجع ، علم الفلك ص ٢٥) .

امتد البحث فيه ، بمصر ، من خلال جهود جماعة من الفلكيين ؛ منهم : الشيخ أحمد الريشى ، صاحب مخطوطة (كفاية التعليم فى معرفة وضع التقاويم) .

* * *

ولد الشيخ أحمد الريشى[1] فى الربع الأخير من القرن الثامن الهجرى ، وتوفى فى النصف الأول من القرن التاسع . يقول السخاوى عنه : أحمد بن غلام الله بن أحمد بن محمد الشهاب (شهاب الدين) الريشى القاهرى الميثقاتى ، قال شيخنا فى إنبائه[2] : كان اشتغل فى فن النجوم وعرف كثيرًا من الأحكام وصار يحل الزيج ويكتب التقاويم واشتهر بذلك ؛ مات فى صفر سنة ٣٦ - وثمانمائة - وقد أناف على الخمسين[3] .

وترك أحمد الريشى من المؤلفات الفلكية كتابًا بعنوان (اللمعة فى حل الكواكب السبعة) وهو كتاب مخطوط ذكر له بروكلمان عدة نسخ خطية فى مكتبات : برلين ، مانشستر ، الرباط ، سليم أغا ، لندبرج ، رامبور ، القاهرة[6].. أما (كفاية التعليم) فهو كتاب فلكى آخر للريشى، وهو كسابقه ، له مخطوطات كثيرة لكنه لم يُنشر ! .

ويبدو أن الكتابين متصلان ، وهذا ما يظهر من مقدمة (كفاية التعليم) التى جاء فيها بعد البسملة والصلاة على النبى وآله وصحبه : يقول فقيد رحمة ربه .. الريشى .. وبعد فهذه مقدمة لطيفة ضمنتها نكتًا شريفة تشتمل على معرفة استخراج التقويم من كتابى المسمى باللمعة فى حَلِّ السبعة ، على السنة العربية ، وعلى طريق المصريين .

ومن العبارة الأخيرة يظهر أنه كان للمصريين - وقتذاك - طريقتهم الخاصة فى استخراج التقاويم ، وهى تخالف طريقة الفرس والمغاربة .. وهذا شاهدٌ آخر على تعدُّد المدارس الفلكية فى ديار الإسلام وتنوع المعرفة بالسماء آنذاك .

---

(١) فى معجم المؤلفين ٢ / ٣٩ : الريش نسبةً إلى كوم الريش .

(٢) يقصد شيخه ابن حجر فى كتابه ، إنباء الغمر بأبناء العمر .

(٣) السخاوى ، الضوء اللامع ٢ / ٦٢ .

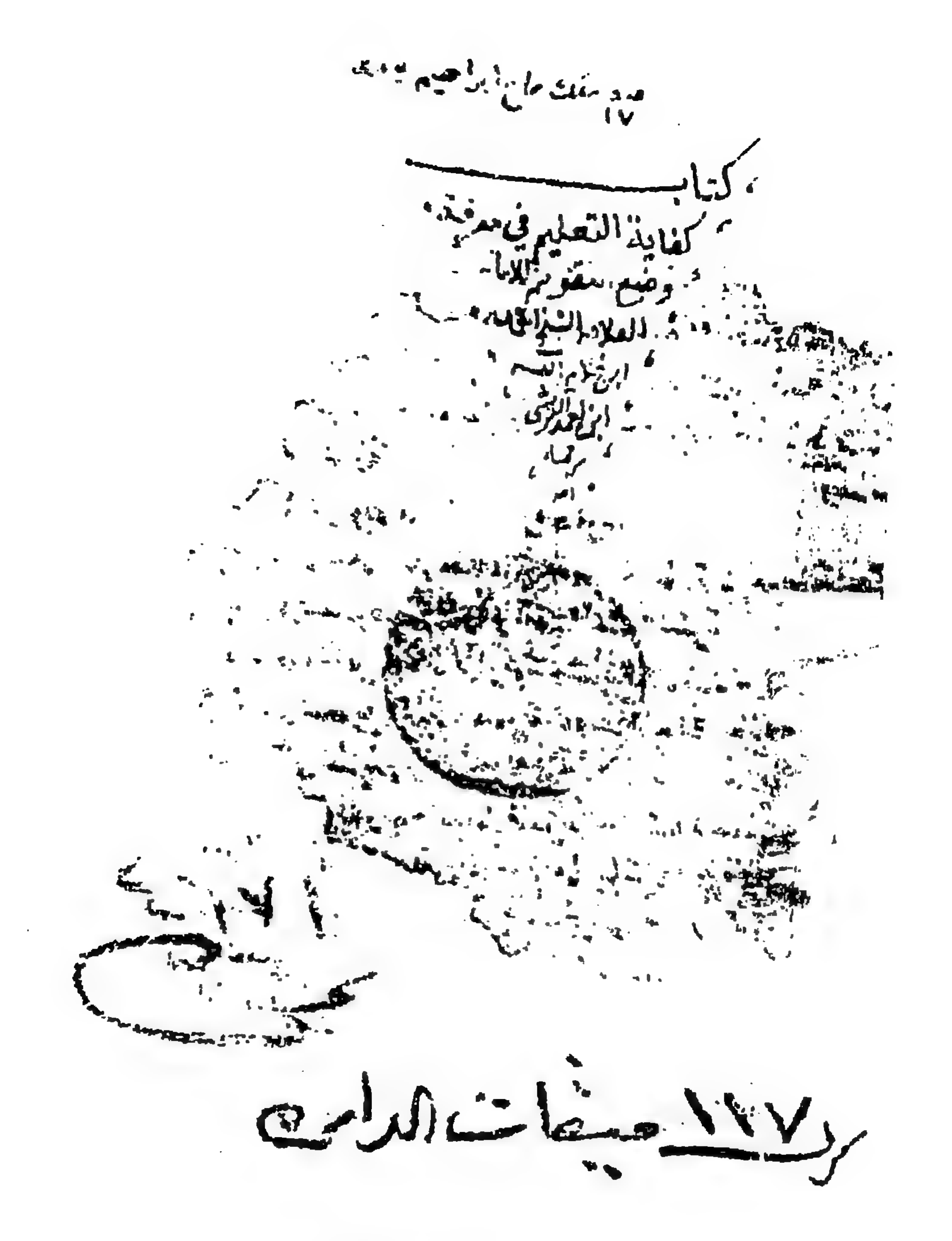
(٤) Gieschichte der Arabischen Litteratur TT, 398

وتقع المخطوطة فى ٣٤ صفحة من القطع المتوسط ، وتشتمل على ثمان فصول - وخاتمة - الفصل الأول منها بعنوان (فى رسم الدستور) وفيه يقول الريشى : اعلمْ أنه جرت العادة أن يقوِّم القمر ليومٍ يوم ، وعطارد لخمسةٍ خمسة ، والبقية لعشرة عشرة ؛ فإذا أردتَ ذلك ، فاتخذْ أوراقًا عِدتّها أربعة عشر قائمة ، ثم ابتدىء بدستور الشمس فسطِّرْ له نصف الصفحة الأولى ، ثم بعده القم له اثنا عشر تحته - لاثنى عشر شهرًا ، كل شهرٍ صفحة - ثم عطارد له صفحتان، كل ستة أشهر صفحة ؛ والأربعة الباقية ، لكل كوكب صفحة ، والأربعة (أوراق) الباقية لكل كوكبٍ صفحة . ثم بعد ذلك ترسم صفحة ، وتسميها الدستور الجامع . ثم الممازجات لها صفحة ، والاجتماع والاستقبال له صفحة ، والأَهِلَّةُ لها صفحة ، وصفحة لانتقال الشمس فى الفصول - بغير رسم - وكذا الكسوف والخسوف ، وصفحة للسهام وطلوع الشِّعْرى ومداخلة التواريخ . فذلك ستةٌ وعشرون صفحة ، منها ثلاثة عشر قائمة . فأما تسطير ذلك ، فهو أن تقسِّم دستور الشمس فى الطول بأربعة عشر قسمًا .. إلخ .

* * *

ولا شك فى أن الحسابات الفلكية اليوم قد اتخذت طابعًا أكثر دقة ، وتعتمد على آلات الرصد المتقدمة ، ولكن (النظرية) نفسها لا تزال كما هى . ونحن إذ نُلقى الضوء على مثل هذه المخطوطة وندعو لنشرها - مع غيرها من مخطوطات التقاويم العربية - فإننا لا نعنى بذلك الدعوة إلى الرجوع بعلم التقويم المعاصر إلى الوراء . إن ما ندعو إليه هو إخراج مثل تلك الصفحات المخطوطة إلى النور ، كى نتعرَّف إلى حلقة مهمة من تطور علم الفلك وعمل التقاويم ، وكى نكتشف المزيد مما قدَّمه العرب من تطوير فى هذا الباب ، وكى نرى (العقل العربى الإسلامى) فى تجلٍّ من تجلياته المتنوعة .

أما عن مخطوطات (كفاية التعليم) فقد اعتمدنا هنا على نسخة دار الكتب المصرية ، المحفوظة تحت رقم ١١٧/ ميقات .. وهناك عدة نسخ أخرى منها فى نفس الدار - وفى مكتبات أخرى - فلعل محققًا له إلمام بالفلك ، يقبل على النص فينشره محققًا بعد طول انتظار .



غلاف مخطوطة كفاية التعليم

(نسخة دار الكتب المصرية)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم [illegible] الفقير [illegible] غلام الله بن احمد الرشيدي لطف الله
به [illegible] الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين وبعد فهذه مقدمة لطيفة ضمنتها نكتا شريفة
تشتمل على معرفة استخراج التقويم من كتابي المسمى بالأسمة [illegible]
[illegible] تاريخ السنة العربية على طريق المصريين مشتملة على ثمان
فصول وخاتمة سميتها تحفة [illegible] ووضع التقويم وأسأل
الله الكريم الوهاب أن ينفع بها [illegible] الفصل الأول
في [illegible] اعلم أنه قد جرت العادة بتقويم القمر ليوما
يوما وعطارد كل خمسة والبقية لكل عشرة فإذا أردت
ذلك فاعمد لورقة فقسمها أربعة عشر [illegible] تبتدي بدستور
الشمس فتسطره في نصف الصفحة الأولى ثم بعده القمر في اثني عشر
[illegible] لاثني عشر شهرا [illegible] ثم عطارد في [illegible] كل
أشهر صفحة والأربعة الباقية لكل كوكب صفحة ثم بعد ذلك ترسم
صفحة وسمها بالدستور الجامع ثم الامتزاجات في صفحة والاجتماع
والاستقبال في صفحة والاتصالات في صفحة وصفحة لانتقالات الشمس
في المنازل [illegible] وكذا الكسوف والخسوف وصفحة [illegible] وصعود
الشعرى ومداخلة التواريخ فذلك ستة وعشرون صفحة عنها ثلاثة
عشر ورقة [illegible] ثم تقسم دستور الشمس في الطول
أربعة عشر قسما القسم الأول [illegible] لكل جدول [illegible]
قسما عدة شهور السنة على أن كل قسم يشتمل على ثلاثة أسطر والقسم
الأخير [illegible] للتقويم الإجمالي وأما عرضه فيقسم بستة أقسام الأول
الأيمن [illegible] الشهور والثاني للمعقود منها ويليه الوسط والثالث

[illegible]

الصفحة الأولى

ثم التعديل ثم المقوم ثم البهت واما القمر فيقسم جدوله في الفوا
كل جدول احدى عشر قسما الاول الاعلى لكتابة الايام في نصف دور
من الشمس والعشرة الباقية كل قسم يوضع فيه ثلاث سطور
واما العرض فينقسم ثلاثة عشر قسما الاول الاعلى لعدد الايام ثم
الوسط ثم الخاصة ثم مركز التعديل الاول ان شئت ثم دقائق
النسب ثم الخاصة المعدلة ثم التعديل الثاني ثم اختلاف البعد
الاقرب ثم الخارج من الضرب ثم التعديل المحكم ثم المقوم ثم الشمس
البهت [illegible] بعض هذه الاقسام [illegible] بعض بحسب ما يوضع
فيها من المراتب واما بقية الكواكب الثلاثة العلوية والزهرة
فيقسم دستور كل منها في الطول كالشمس وفي العرض لستة عشر قسما
الاول الاعلى للشهور والثاني للتقويم ثم الاقرب ثم بقية حركات الكوكب
وهي الوسط والخاصة المعدلة والتعديل الثاني واختلاف
البعد الاقرب وخارج الضرب والتعديل المحكم ثم المقوم ثم البهت
واما عطارد فارسم دستوره في صفحتين كما تقدم في العلوية
كل صفحة ستة اشهر كل الشهر يوازيه ستة اشهر واما الدستور
الجامع فيقسم في الطول كالشمس معيرها كل قسم ثلاثة السطر
وفي العرض بخمسة وعشرين قسما بعضها اضيق من بعض اما الاول
الايمن يكتب فيه الشهور وفي الذي يليه التقويم ثم مقوم الشمس
ثم الحل به في الزهرة ثم الستة الاقسام الاولى لعطارد ثم مقوماتها
ثم مقومها ثم الستة الاشهر الثانية وعقودها ومقومها ثم مقوم
الراس ثم غاية الارتفاع ثم ساعات النهار ثم نصف قوسه ثم
العصر ثم الايمان ليوم يوم والبداة بالشمس ثم العلوية
ثم الزهرة ثم عطارد في قسمين واما الممازجات يرسم دستورها

الورقة الثانية

لُبَابُ المحَصّل

لابن خَلْدُون

للعلماء العرب والمسلمين مع الزمان شأنٌ عجيب .. فبعضهم ينال فى حياته أعظم التكريم ، حتى إذا توفى ، طواه الزمانُ فى زوايا النسيان . وبعضهم يعيش مغمورًا ويموت مطمورًا، ثم يرفع الزمان ذكره بعد حين . وبعضهم يروج اسمه مع الأيام ، وتعتاده الألسنة ، حتى يخلع عليه الزمان شهرة ربما لا يستحقها . وبعضهم يبدِّد الزمان أثره وآثاره ، فينزوى وكأنه لم يكن .. والأمثلة على هذه (الأفعال) الزمانية كثيرة ؛ فهلا ذكرنا بعضها :

ممن نالوا فى حياتهم أعظم التكريم ، ثم طواهم الزمان بعد وفاتهم : سيف الدين البَاخَرْزى - أبو طاهر السِّلَفى . الأول كان واحدًا من تلاميذ نجم الدين كُبْرى ، ثم ارتقى فى المقام وذاع صيته حتى أن أمراء المغول أسلموا على يديه ، وكان له أكبر الفضل فى كسر شوكة المغول ؛ ومن يقرأ ترجمة الباخرزى المطوَّلة فى سير أعلام النبلاء - للذهبى - يتعجَّب من علو مكانة الرجل فى عصره ، وتودُّد الملوك إليه ، والدور الكبير الذى لعبه فى حياته .. ثم يتعجَّب من نسياننا له اليوم[1] . وبالمثل كان الإمام المحدِّث العظيم « أبو طاهر السِّلَفى » - وغيره من مشايخ السُّنَّة بالإسكندرية - يتم التخطيط لإزالة الحكم الشيعى من مصر وسيادة مذهب السُّنَّة ، على يد تلميذ السِّلَفى : صلاح الدين الأيوبى .. ولقد عاش السِّلَفى أكثر من مائة سنة ، وأخباره وسيرته كامنة فى المصادر التى تؤرِّخ لعصره ، ومع هذا فلا يوجد اليوم - فى المكتبة العربية - أى كتاب عنه ، ولايكاد المعاصرون يعرفون عنه شيئًا[2] ! .

---

(١) راجع ماذكرناه عن سيف الدين البَاخَرْزى فى دراستنا الممهدة لتحقيق (فوائح الجمال وفواتح الجلال) لنجم الدين كُبْرى .

(٢) ذكر لى الدكتور / السيد عبد العزيز سالم أنه كاد أن يكشف عن مقبرة أبى طاهر السِّلَفى بالإسكندرية ، لكن الحفائر توقفت ! .

ومن عاش مغمورًا ومات مطمورًا ، ثم ارتفع ذكره : محمد بن عبد الجبار النِّفَّرى ، فهذا الرجل لا يكاد أديبٌ أو شاعرٌ معاصر - ناهيك عن غالبية المثقفين - إلا وهو يشير إلى روعة كتابه المعروف المتداول : المواقف ، المخاطبات .. مع أنه قبل خمسين سنة ، لم يكن للنِّفَّرى ذكرٌ مشهور لدى الأدباء أو الصوفية ، ولم يحظ كتابه الجامع بين (المواقف والمخاطبات) بالعناية والشروح ، ولعل شرح عفيف الدين التلمسانى عليه ، هو الشرح الوحيد . ثم يحقِّق المستشرق الإنجليزى جون آرثر آربرى نصَّ المواقف والمخاطبات ، ويروِّج الشاعر (الحداثى) أدونيس للكتاب باعتباره نصًا (حداثيًا !) فإذا بالنِّفَّرى على كل لسان .. ولولا نشرة آربرى واحتفاء أدونيس ، لظل النفرى كما كان منذ وفاته : مغمورًا مطمورًا .

ومن راج اسمه هذه الأيام واعتادته الألسنة ، طائفة من أهل الولاية ومشايخ الطرق الصوفية الذين روى عنهم العامة من الكرامات المبهرة ما خلع عليهم اشتهارًا فوق كل اشتهار. بينما لم ينل متصوفةٌ كبار - غيرهم - هذه المكانة والشهرة ، وتفصيل هذا الأمر يطول ، وليس هذا موضعه .

ومن بدَّد الزمان أثره وآثاره ، فانزوى طائفة من الرجال يمرون فى ذاكرتنا التراثية كالطيف. نقرأ مثلاً قول البيرونى وهو يذكر مؤرخى العقائد والديانات : « ما وجدتُ من أصحاب كتب المقالات أحدًا قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مراهنة سوى أبى العباس الإيرانشهرى ، إذ لم يكن من جميع الأديان فى شىء ، بل منفردًا بمخترع له يدعو إليه ! ولقد أحسن فى حكاية ما عليه اليهود والنصارى ، وما يتضمَّنه التوراة والإنجيل ، وبالغ فى ذكره المانوية وما فى كتبهم من خبر الملل المنقرضة[1] .. إلخ » ونبحث اليوم عن الإيرانشهرى ، فلا نجد عنه ذكرًا .. ونعلم أن للرجل كتابين ، لكننا لا نجد لهما أصولاً ولا خبرًا فى خزائن المخطوطات ، ولقد قضيت سنوات طويلة أنقِّب عن الإيرانشهرى ومقالاته ، فلم أظفر بشىء ! .

والآن .. كيف كان حال الزمان مع ابن خلدون ؟ .

* * *

(١) البيرونى : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة (عالم الكتب - بيروت ، الطبعة الثانية المزورة !) ص ١٥ - وفى الطبعة الأصلية بتحقيق سخاو ص ٦ من الجزء الأول .

لا يمكن - اليوم - الكلام عن ابن خلدون بغير إسراف ، فقد نال الرجل فى العقود الأخيرة من اهتمام المعاصرين مالم يتيسر إلا للقلائل من أعلام الرجال فى الإسلام .. مع أنه ظل لعدة قرون فى زوايا النسيان . فما سرُّ الاهتمام المفاجىء بابن خلدون ؟ .

يتخذ علم الاجتماع اليوم مكانة متميِّزة على خريطة العلوم (الإنسانية) التى تضم الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والإنثروبولوجيا .. إلخ ، بل يحلو للبعض تسمية هذه العلوم باسم : العلوم الاجتماعية ؛ وذلك فى مقابل العلوم الطبيعية التى تضم الفيزياء والكيمياء والفلك والطب . إلخ . وقد جرت العادة ، حتى سنوات قريبة ، أن يؤرخ لعلم الاجتماع ابتداءً من أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) الذى وضع مصطلح Sociologie , Sociology الذى ترجم العربية بعلم الاجتماع ، وعرَّفه فى كتابه (دروس فى الفلسفة الوضعية) بأنه : العلم الذى يتخذ له موضوعًا هو ملاحظة الظواهر العقلية والأخلاقية التى تتكون بها الجماعات الإنسانية وترتقى[(١)] .

وبعد وفاة أوجست كونت بعام واحد ، وبالتحديد سنة ١٨٥٨ ميلادية ، صدرت فى مصر طبعتان - فى نفس العام - لمقدمة ابن خلدون . وما لبثت طبعات (المقدمة) أن توالت ، فأصدرت بولاق طبعتها سنة ١٨٦٨ ونشر الدكتور على عبد الواحد وافى طبعة محقَّقة لها سنة ١٩٥٧ ، وما بينهما طبعات لا تقع تحت الحصر[(٢)] .. وهنا أُعيد النظر فى ابتداء علم الاجتماع ، وتحديد رائده الأول .

---

(١) د. غريب سيد أحمد : تاريخ الفكر الاجتماعى (دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٨) ص ٢٣٨ .

(٢) عُرفت مقدمة ابن خلدون فى أوروبا أواخر القرن السابع عشر . وكان أول من تكلم عن المقدمة ومؤلفها هو دربيلو عام ١٦٩٧ ، ثم نشر سيلفستر دى ساسى أجزاء من المقدمة مع ترجمة للفرنسية سنة ١٨٩٦ ، وقدم البارون دى سلان ترجمة كاملة لها سنة ١٨٦٨ بالفرنسية .. وتوالت ترجماتها بعد ذلك فى الإيطالية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية والأوردية (مرحبا : الجامع فى تاريخ العلوم ، ص ٥٧٢) .

وكتاب (المقدمة) هو مدخلٌ فلسفى لكتاب ضخم فى التاريخ جعله ابن خلدون بعنوان : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر[1] . وهو يقع فى عدة مجلدات ، اشتهر منها المجلد الأول الذى هو (المقدمة) التى أعلن فيها ابن خلدون تأسيس علم جديد أسماه : علم العمران .

يقول ابن خلدون : اعلمْ أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبرٌ عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال .. ولما كان الكذب متطرقًا للخبر ، بطبيعته ، وله أسبابٌ تقتضيه .. فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار ، بالإمكان والاستحالة ، أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، ونميِّز ما يلحقه من الأحوال لذاته ، وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضًا لا يعتدُّ به ، وما لا يمكن أن يعرض له ، فإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونًا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار ، والصدق من الكذب ، بوجهٍ برهانى لا مدخل للشك فيه .. وكان ذلك لنا معيارًا صحيحًا يتحرَّى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه ، وهذا هو غرض هذا الكتاب ؛ وكان هذا علمًا مستقلاً بنفسه ، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى ، وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى ، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيًّا كان أو عقليًّا . واعلمْ أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أَعْثَرَ عليه البحثُ وأَدَّى إليه الغوصُ .. ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة، ولا أدرى غفلتهم عن ذلك .. ونحن أَلهمنا الله إلى ذلك إلهامًا ، وأعثرنا على علمٍ .. فإن كنتُ قد استوفيت مسائله وميَّزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه ، فتوفيقٌ من الله . وإن فاتنى فى إحصائه ، واشتبهت بغيره فى مسائله ، فللناظر المحقِّق إصلاحه ، ولى الفضل ؛ لأنى نهجتُ له السبيل وأوضحت له الطريق ، والله يهدى بنوره من يشاء .

---

(١) طُبع الكتاب بالقاهرة – بولاق – سنة ١٢٨٤ هجرية فى سبع مجلدات .

ونحن الآن نبيّن فى هـذا الكتـاب ما يعـرض للبشر فى اجتماعهم من أحـوال العمـران فى الملك والكسب والعلوم والصنائع ، بوجوه برهانية .. إلخ [١].

وبعـد أن يمضى ابن خلدون فى بيـان (قوانين) الاجتماع أو مـا يسميه : علـم العمـران ، فيعـرض لتطور المجتمع وأشكـال السُّلطـة وأثـر البيئة على المجتمعـات وأسبـاب قيام الـدول واندثارها والعلاقة بين الاقتصـاد والسياسة .. وغير ذلك من (قضايا) علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ؛ نراه يختتم مقدمته بقوله : وقد كـدنا نخرج عن الغرض ، فعزمنا أن نقبض العنان عن القول فى هذا الكتـاب – المقدمة – الذى هو فى طبيعـة العمران وما يعرض فيه ، وقـد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفايـة ، ولعل من يأتى بعدنا ممن يؤيِّده الله بفكرٍ صحيح ، وعلمٍ مبين ، يغوص فى مسـائله على أكثـر مما كتبنا ؛ فليس على مُسْتَنْبِطِ الفَنِّ إحصـاء مسائلـه ، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصـوله وما يتكلم فيه ، والمتأخرون يلحقون المسـائل من بعده شيئًا فشيئًا ، إلى أن يكمل [٢].

تلك هى مقدمة ابن خلدون التى أسَّسـت علم الاجتماع وفلسفة التاريخ على نحو علمى دقيق ، جعلتنـا اليـوم لا نـؤرِّخ لعلم الاجتماع إلا ابتداءً بـابن خلـدون .. وهكـذا صـارت لابن خلـدون – مؤخَّـرًا – مكانـة كبيرة فى تاريخ العلم الإنسـانى ، وصارت لمقـدمته تلك الشهـرة الذائعة ، حتى أن دائرة المعـارف الإسلامية تصف (المقدمـة بأنها : ستظل دائمًا أعظم مؤلفات ذلك العصر وأهمها من جهة العمق فى التفكير ، والـوضوح فى عرض المعلومـات ، والإصابة فى الحكم ويظهر أنه لم يَفُقْهَا كتابٌ ما لأى مؤلِّف إسلامى [٣].

* * *

(١) ابن خلدون : المقدمة (مطبعة الأزهرية – مصر ١٣٤٩هـ) ص ٣١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣٧ .

(٣) ألفرد بل : مادة « ابن خلدون » بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المجلد الأول ص ١٠٠ – وفى العبارة شىء من المبالغة !

يبقى لنا ، بعد ما سبق ، أن نتعرَّف إلى شخصية ابن خلدون ، وإلى كتابه : لباب المحصَّل !.

أما ابن خلدون [1]، فهو : أبو زيد ولىُّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمى الإشبيلى التونسى القاهرى المالكى . ولد فى أول رمضان سنة ٧٣٢ هجرية بتونس ، ودرس الأدب والتاريخ وعلوم الدين على يد والده وجماعة من مشايخ بلاد المغرب ، ثم – كما يقول السخاوى – تعلَّق بالخدم السلطانية [2].

كان أول منصب شغله ابن خلدون فى الخدمة السلطانية هو وظيفة كاتب العلامة لدى سلطان تونس ، وكان آنذاك فى الواحدة والعشرين من عمره . ثم مالبث أن ارتحل إلى فاس بعدما شبَّت الفتنُ فى تونس ، والتحق بخدمة أبى عنان المرينى ، واعتُقل قرابة عامين ، ثم أُخلى سبيله فعاد ليتولى وظيفة كاتب السر لدى أبى سالم المرينى الذى عيَّنه بعد فترة قاضيًا للقضاة . وبعد مقتل أبى سالم يرتحل ابن خلدون إلى غرناطة ببلاد الأندلس ، فيتلقاه السلطان ابن الأحمر ويضَمُّه لحاشيته ؛ لكنه رحل إلى (بجاية) تلبية لدعوة أميرها أبى عبد الله الحفصى الذى عيَّنه حاجبًا له وفوَّض إليه تدبير مملكته ، ولما سقطت بجاية بعد عام من نزحه إليها سنة ٧٦٥ هجرية ، تنقل ابن خلدون ببلاد المغرب وتقلَّب فى عدة مناصب وعانى من جرَّاء صحبة السلاطين ، فاعتقل ونفى عدة مرات ، حتى سئم صحبة أهل الرياسة وزهد فى مناصبهم ، فاعتكف فى قلعة ابن سلامة (وهران – الجزائر) لتأليف كتابه فى التاريخ « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » لكنه احتاج للمراجع فنزل إلى تونس بعد أن كتب « المقدمة » سنة ٧٧٩ هجرية بقلعة ابن سلامة.. وهنا نلاحظ أن المقدمة كانت عملاً تأمليًا يغلب عليه التفكُّر الفلسفى [3] ، بينما الكتاب نفسه كان عملاً بحثيًا يغلب عليه الطابع الاستقصائى ؛ ولذا احتاج ابن خلدون

(١) خَلْدون ، صيغة مغربية للتعظيم على غرار : عبدون ، حمدون ، زيدون .. إلخ .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع ٢/ ١٤٥ .
(٣) العجيب أن ابن خلدون يهاجم الفلسفة فى مقدمته ! .

الكتب والمراجع عند كتابة (التاريخ) ولم يحوج لـذلك وهو يكتب (المقدمة) ، ويبدو أن ابن خلدون كـان قد ضـاق تمامًا بـالحياة فى بلاد المغـرب ، ويقال: إن حُسـاده أكثروا من السعـاية ضده، وربما كـانت أحوال الممالك المغـربية وتقلبـات السلطة قـد أغمَّته .. المهم أنـه نزل من تونس إلى الإسكنـدرية – قـاصدًا الحج – سنـة ٧٨٤ هجريـة . يقول السخاوى : ثـم قدم ابن خلدون الديار المصرية ، فحجَّ ثم عاد إليها ، وتلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد إليه ، بل تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مُدَّة ، إلى أن قرَّره الظاهرُ برقوق فى تدريس القمحية [١] بمصر، ثم فى قضاء المالكية بالديار المصرية فى جمادى الآخـرة سنة ٧٨٦ هجرية ، فتنكَّر للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليـه ، مع اعتذاره لمن عتبه عليه فى الجملة ، وفتك فى كثير من أعيـان الموقِّعين والشهود ، وصـار يعـزر بالصفـع ويسميه « الـزَّجَّ » ، فإذا غضب على إنسان قال : « زُجُّـوه » فيُصفَع حتى تحمر رقبته .. وعُزل ثم أعيد ، وتكـرر له ذلك ، حتى مات قاضيًـا ، فجأة ، فى يوم الأربعاء لأربع بقين مـن رمضان سنة ٨٠٨ هجـرية ، عن ست وسبعين سنة ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

وفى حيـاة ابن خلـدون تفـاصيل كثيرة ، أفـاض فيهـا المؤرخـون الأوائل والـدارسـون المحدثون.. وقـد وضع هو لنفسه ترجمة ذاتيـة بعنوان : التعريف بابن خلـدون . استقصى فيها الكلام على شيوخه ورحلاته وعلاقاته بأهل زمانه ، وقد طبعت هذه الترجمة فى آخر كتاب العبر، كما ترجمت للفرنسية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى .

ولابن خلدون مجموعة مـن المؤلفات ، بالإضافة إلى المقدمة والتـاريخ والتعريف ، منها : تلخيص كتب ابن رشـد – شرح قصيدة البردة – كتـاب فى الحساب – رسـالة لتيمـور لنك فى وصف بـلاد المغرب – شفـاء السـائل فى تهذيب المسـائل (فى التصوف) – شرح قصيـدة ابن عبدون الإشبيلى – طبيعة العمران – رحلـة .. وقد قام الدكتور عبد الرحمن بـدوى بدراسة هذه الآثار والكتابات ، وأصدر عنها بحثًا مهماً بعنوان : مؤلفات ابن خلدون .

* * *

(١) يقصد : التدريس بالمدرسة القمحية بالقاهرة .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ٢/ ١٤٦ .

وبعد هذه الإطلالة - السريعة - على سيرة ابن خلدون [١]، نقف الآن عند كتابه : لُباب المحصَّل .

المُحَصَّل ؛ كتابٌ مشهور للإمام فخر الدين الرازى المتوفى ٦٠٦ هجرية .. عنوانه الكامل: « مُحَصَّل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين » .وهو كتاب فى أصول الدين وعلم الكلام ، يقول الرازى فى مقدمته : الحمد لله المتعالى بجلال أحديته عن مشابهة الأعراض والجواهر .. أما بعد، فقد التمس منى جمعٌ من أفاضل العلماء وأماثل الحكماء أن أصنِّف لهم مختصرًا فى علم الكلام مشتملاً على أحكام الأصول والقواعد دون التفاريع والزوائد ، فصنَّفتُ لهم هذا المختصر [٢].

وجمع الرازى فى هذا الكتاب شتات الأقوال فى أركان علم الكلام ومقدماته الضرورية وتقسيم الموجودات على قول الفلاسفة والمتكلمين وبيان ماهية الحياة والعقل الذى هو مناط التكليف والإدراك الحسى والمسائل المتعلقة بحدوث العالم وطبيعة الذات الإلهية والصفات وطبيعة النفس الإنسانية وخلودها واختلاف الفرق الإسلامية .. وغير ذلك من موضوعات .

وكان العلامة نصير الدين الطوسى ، المتوفى ٦٧٢ هجرية ، قد قام بمعارضة كتاب « المُحَصَّل » فى رسالة يقول فى بدايتها : .. وبعد ،فإن أساس العلوم الدينية علمُ أصول الدين ، الذى يحوم سائله حول اليقين ، ولا يتم بدونه الخوض فى سائرها كأصول الفقه وفروعه ، فإن الشروع فى جميعها يحتاج إلى تقديم شروعه .. وفى هذا الزمان لما انصرفت الهمم عن تحصيل الحق

---

(١) للمزيد عن ابن خلدون ، انظر : شذرات الذهب لابن العماد ٧/ ٧٦ - نفح الطيب للمقرى ٤/ ٦ - نيل الابتهاج للتنبكتى ١٦٩- البدر الطالع للشوكانى ١/ ٣٣٧ - ظهر الإسلام لأحمد أمين ٣/ ٢٢٥ - دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصرى - مقدمة ابن خلدون بتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى - حياة ابن خلدون لمحمد الخضر حسين - ابن خلدون ومقدمته لعمر فروخ ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين Brockelmman: Gieschechte. TT 342 - 344 .

وهناك ، أيضًا ، عدد من المقالات التى لا تقع تحت الحصر .. راجع : معجم المؤلفين لكحالة ٥/ ١٨٨ .

(٢) الرازى : محصل أفكار .. نشرة طه عبد الرؤوف سعد (مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ، بدون تاريخ) ص ١٥ .

بالتحقيق ، وزلَّت الأقدام عن سواء الطريق ، بحيث لا يوجد راغبٌ فى العلوم ولا خاطب للفضيلة .. ولم تبق فى الكتب التى يتداولونها من علم الأصول عيانٌ ولا خبر ، ولا من تمهيد القواعد الحقيقية عينٌ ولا أثر ، سوى كتاب المحصَّل الذى اسمه غير مطابق لمعناه ، وبيانه غير موصل إلى دعواه ، وهم يحسبون أنه فى ذلك العلم كاف ، ومن أمراض الجهل والتقليد شاف ؛ والحق أن فيه من الغث والسمين ما لا يُحصى ، والمعتمد عليه فى إصابة اليقين بطائلٍ لا يحظى ، بل يجعل طالبَ الحق بنظره فيه كعطشان يصل إلى السراب ، ويصير المتحير فى الطرق المختلفة آيسًا عن الظفر بالصواب ؛ رأيتُ أكشف القناع عن وجوه أبكار مخدراته[1] وأبين الخلل فى مكامن من شبهاته ، وأدل على غَثِّه وسمينه .. وأسمِّى الكتاب « تلخيص المحصل » .. إلخ[2].

وراح الطوسى يتتبَّع عبارات الرازى بادئًا بتعليقات مثل : خالف المصنِّف[3] سائر الحكماء فى التصديق - فى هذا الكلام مغالطة صريحة - هذه الدعوى غير صحيحة لم تقم عليها حُجَّة .. إلخ .

ولكى تتضح لنا طبيعة الخلاف الفكرى بين الرازى والطوسى ، لابد أن نشير إلى أن الرازى كان أشهر متكلم سُنِّى فى عصره ، وهو من أكبر ممثلى (الأشعرية) ذلك المذهب الذى جعل من نفسه المتحدث الرسمى باسم أهل السنة والجماعة منذ تأسيسه الأول على يد أبى الحسن الأشعرى . وفى المقابل ، كان الطوسى أكبر متكلم شيعى فى القرن السابع الهجرى ، وقد كان فى ابتداء أمره على مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، ثم تحول إلى مذهب الشيعة الإسماعيلية بعدما اعتكف - أو اعتقل - بقلعة ألموت معقل الإسماعيلية ؛ وعلى كلا المذهبين ، فهو فى المعسكر الفكرى المقابل للأشاعرة وأهل السنة[4] .. ومن هنا جاءت المعارضة لكتاب المحصل فى تلخيص الطوسى .

(١) يقصد : الأفكار الدقيقة .. والمخدرات هن الفتيات المتواريات فى الخدور والخيام .
(٢) الطوسى : تلخيص المحصل (مكتبة الكليات الأزهرية) ص ١٦ .
(٣) يقصد : الرازى .
(٤) أعتقدُ أن الطوسى كتب « التلخيص » وهو فى المرحلة الأولى من منحنى فكره الشيعى ، المرحلة الإمامية الاثنا عشرية .

أما ابن خلدون ، الذى نشأ فى محيط سُنِّى أقرب إلى فكر الرازى ، فإنه درس كتاب « المُحَصَّل » على يد شيخه الأبلى - المتوفى ٧٥٧ هجرية - ذى العقلية الفلسفية التى هى أقرب إلى فكر الطوسى . ومن هنا شرع ابن خلدون فى استخلاص « لباب » كتاب المُحَصَّل ، متابعًا نص الكتاب وتعليقات الطوسى ، فى محاولة لتقويم الخلاف بين الرازى الأشعرى والطوسى الشيعى .. فكان يميل فى الأمور الفلسفية لرأى الطوسى - بعض الشىء - بينما يميل بصدد العقائد إلى رأى الرازى .

وكتاب « لباب المحصل » وضعه ابن خلدون وهو فى حدود العشرين من عمره ، ولم يكن وقتها قد انشغل بالتاريخ والعمران البشرى ، وإنما بأصول الدين وعلم الكلام .. ولا توجد من « لباب المحصل » غير نسخة فريدة فى العالم ، محفوظة بمكتبة دير الأسكوريال تحت رقم ١٦٠٩ / قديم - ١٦١٤ / جديد ، وهى بخط ابن خلدون نفسه .. وتبدأ المخطوطة بما يلى :

أحمد مَنْ تفرَّد بعظمته وكبريائه ، وتقدَّس بصفاته وأسمائه .. وبعد ؛ فإن العلوم كثيرةٌ ، والمعارف جَمَّةٌ غزيرة ، وأشرفها العلم الإلهى الذى فاز عالِمُهُ بالسعادة ، وأُعدَّت له الحسنى وزيادة، تفتقر العلومُ إليه ولا يفتقر إليها ، وتعوِّل فى مقدماتها عليه ولا يعوِّل عليها ؛ لا جَرَم كان الأَوْلى صرف العناية إليه ، وإرسال سهم القريحة عليه ؛ وكانت له مُدَّةٌ منذ ركدت ريحُه ، وخبت مصابيحه ، فلا تجد إلا طالب علمٍ ينيله رئاسة دنياه ، ولا يشتغل بأُخراه ولا بأولاه ، إلى أن طلع الآن بسمائه شمسُ نور آفاقه ، ومَدَّ على الخافقين رواقه ، وهو سيدنا ومولانا الإمام الكبير العالِم العلاَّمة فخر الدنيا والدين ، حُجَّة الإسلام والمسلمين ، غياث النفوس ، أبو عبد محمد بن إبراهيم الأبلىّ [١] ، رضى الله عن مقامه وأوزعنى شكر أنعامه [٢] .. قرأنا بين يديه

---

(١) لعل لقب « الأبلى » نسبةٌ إلى « الأُبُلَّة » وهى بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة (ياقوت : معجم البلدان ١ / ٧٧) وربما تكون النسبة إلى بلدة مغربية اسمها « آبل » .

(٢) يُفهم من العبارة أن الأبلى كان وقت كتابة المخطوطة لا يزال حيًّا ، مما يعنى أنها كُتب قبل سنة ٧٥٧ هجرية .

كتاب (المُحَصَّل) الذى صنَّفه الإمام الكبير فخر الدين ابن الخطيب[1] ، فوجدناه كتابًا احتوى على مذهب كلِّ فريق ، وأخذ فى تحقيقه كلَّ مسلك وطريق ، إلا أن فيه إسهابًا لا تميل همم أهل العصر إليه ، وإطنابًا لا تعول قرائحهم عليه ، فرأيتُ بعون الله أن أحذف من ألفاظه ما يُستغنى عنه ، وأترك منها مالا بُدَّ منه ، وأضيفُ كلَّ جوابٍ إلى سؤاله ، وأنسج فى جميعها على منواله ؛ فاختصرته وهَذَّبته ، وحذو ترتيبه رتَّبته ، وأضفتُ إليه ما أمكن من كلام الإمام الكبير نصير الدين الطوسى ، وقليلاً من بُنيَّات فكرى ، وعبرَّتُ عنها بـ « ولقائل أن يقول » وسميته لباب المحصَّل ؛ فجاء بحمد الله رائق اللفظ والمعنى ، مشيَّد القواعد والمبنى . ورتَّبته على أركان ، الركن الأول فى المقدمات .. إلخ .

* * *

وأول من اهتم بمخطوطة اللباب ، الأب الأوغسطينى « لوسيانو روبيو » أستاذ الفلسفة فى دير الأسكوريال ، إذ اختارها لتكون موضوعًا لرسالته للدكتوراة من كلية الفلسفة والآداب بمدريد ، وقام بنشرها مع ترجمة للأسبانية صدرت سنة ١٩٥٢ ضمن منشورات معهد مولانا الحسن فى تطوان – دار الطباعة المغربية – معتمدًا فى ذلك على نسخة الأسكوريال الفريدة .

وعن نشرة الأب « لوسيانو » يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى : جاءت هذه النشرة حافلة بالأخطاء ، مما يستدعى الأمر معه إعادة النشر من جديد ، على أساس هذه المخطوطة نفسها ، لأنها – وهى بخط المؤلِّف – يجب أن تكون وحدها الأساس لنشر الكتاب[2].

ومنذ بضعة أعوام ، حدَّثنى الدكتور عباس محمد حسن سليمان عن نيَّته تحقيق نص المخطوطة ، والتمهيد لها بدراسة مناسبة عن ابن خلدون وشيخه الأبلى .. ولكن الدراسة

---

(١) يُعرف فخر الدين الرازى بهذا اللقب ، لأن والده كان خطيب بلاد الرى .
(٢) د . بدوى : مؤلفات ابن خلدون (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢) ص ٨ .

والتحقيق لم يظهرا حتى اليوم ، ونأمل ألا يتأخر أوان ظهورهما ؛ نظرًا للأهمية الفائقة للنص - والدراسة - فى الكشف عن طبيعة الإطار المعرفى الذى نشأ فيه ابن خلدون ، والأسس (الكلامية) التى انطلق منها ، وأعتقد أن ذلك سوف يلقى الضوء على الكثير من أفكار ابن خلدون التى وضعها بعد ذلك فى مقدمته الشهيرة .

لباب المحصل في
أصول الدين تصنيف العبد الفقير إلى الله
تعالى الغني به عمن سواه الراجي عفوه
عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

مخطوطة الأسكوريال الفريدة

(صفحة الغلاف)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لمن تفرد بعظمته وكبريائه وتعزز بصفاته
وأسمائه وتنزه عن مشابهة خلقه بعزه وبقائه أحاط
بكل شيء علما فلا يعزب عنه مثقال ذرة في أرضه وسمائه
ووسعت قدرته الممكنات فلا تبرح عن اختراعه وإنشائه
ودل حدوثها وتخصيصها بوقت الايجاد على ارادته
وقضائه وأصلي على أوليائه النفوس القدسية المختصة
بتشريفه واعتنائه خصوصا على سيدنا محمد المصطفى
خاتم أنبيائه وعلى آله وأصحابه وعترته وأوليائه صلاة
دائمة أعدها ليوم لقائه وبعد فإن العلوم
كثيرة والمعارف جمة غزيرة وأشرفها العلم بالله
الحق بأن عالمه بالشهادة واعترف له بالحسنى وزيادة
نعم تفتقر العلوم إليه ولا يفتقر إليها وتنشرح الصدور بمعرفتها ما عليه
ولا يعول إلا عليها ثم اعلم أن من كان ذا ولي صرف عنان العناية إليه

الورقة الأولى فى المخطوطة

(بخط المؤلف)

وانرسال سهم الفركية عليه وكانت له مرة منذ

زكرت ركيه وخبت مصابيحه فلا تجبر الا طالب

علم يبيعه رياسة دنياه ولا يشتغل باخراه

ولا باراه الى ان طلع الان بسمايه شمس فوز

امانه ومر على الخافقين رواقه وهو سيدنا

ومولانا الامام الكبير العالم العلامه فخر الدنيا

والدين حجة الاسلام والمسلمين غياث الفرس

ابن عبد الله محمد بن ابرهيم الابلي رضي الله عن

مقامه واوزعني شكر انعامه شيخ الجلالة

وامامها ومنشا المعارف وختامها الذي

العلوم زمامها بيده وملكته ما لم يبتغي احد

من بعده بمن جارية على وفق مراده سابقه

له حالتي اصداره وايراده فاقتبسنا من يانع

ازهاره واغترفنا من معين انهاره واقام علينا

سبب علومه وحلانا بمنثوره ومنظومه

الورقة الثانية

عليهم سلطان ﴾[1] فكيف الواقع فيهم ، والناقد عليهم ما تأدَّب معهم بما تأدّب به إبليس معهم حيث قال: ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[2] لما عَلِمَ أن لله خُلصاء لا يخلص إليهم[3].

وفى « تفليس إبليس » يسوق ابن غانم المقدسى حُجج إبليس ، فيرد عليها ، وكأنه يحاوره ، يقول ابن غانم : ولقد أوقفته - يقصد إبليس - موقف الجدال ، ونازلته فى معرك النزال ، فجعل يجول وأجول ، ولكنه أسَّس بنيانه على أساس الوسواس ، وأسَّستُ بنيانى على قواعد ﴿ قل أعوذ برب الناس﴾ فجعل يُعاملنى معاملة الطالب ويراوغُنى مراوغة الهارب .. إلخ[4].

ولم يكن ابن غانم هو أول من تعرَّض لمسألة « إبليس » ، فقد سبقه - بقرون - صوفىٌّ آخر ، هو الحلاج (أبو المغيث ، الحسين بن منصور ، المقتول ببغداد سنة ٣٠٩ هجرية) فكتب فصلاً فى « الطواسين » عن إبليس وجعله بعنوان : طاسين الأزل والالتباس[5] وإن كان الحلاج قد اتخذ موقف الاعتذار واللوم لإبليس ، فإن ابن غانم المقدسى كان يهدف إلى إفحام إبليس إفحامًا تامًّا ، وبيان تهافُت حججه واحتجاجه بالقدر . لكن ابن غانم - بعد الحلاّج - يعد أول من ساق العبارات ، والأشعار ، على لسان إبليس ، فجعله فى « تفليس إبليس » يفصح عن نفسه ، ليتسنَّى لابن غانم بعد ذلك - الرد عليه ، وتعقُّب دفاعه ، وإفحامه .

وقد نُشر كتاب « تفليس إبليس » نشرة متواضعة بالقاهرة (دار أنوار القرآن - مكتبة نجمة الحسين بالأزهر ، سنة ١٩٧٨) بعناية / عبد الله نجيب ، المدرس بجامعة الأزهر - وأضاف الناشر إلى الكتاب ، قصيدة ابن تيمية فى حُكم القضاء والقدر .

---

(١) سورة الحجر ، آية ٤٢ .

(٢) سورة ص ، آية ٨٢ .

(٣) ابن غانم المقدسى : تفليس إبليس ، ص ١٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٥) انظر « الطواسين » نشرة لوى ماسينيون ، باريس ١٩١٣ .

ولابن غـانم المقدسى كتـابٌ آخـر ، بعنوان « منتخب فى مصـايد الشيطـان وذم الهوى » عمد فيـه إلى اختصار كتاب « إغـاثة اللهفان من مصـايد الشيطـان » لابن قيم الجوزية ، فلم يخرج فيه عن حدود الكتاب الأصلى ، واكتفى بانتخاب بعض نصوصه واختصار بعض مباحثه لتسهيل الانتفاع بـه .. وتوجد نسخـة خطية من هـذا المنتخب ، محفوظة بـدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٩٩ / أخلاق تيمـور ، وقد نشرهـا إبراهيـم محمد الجمـل ، وصـدرت عن (مكتبة القرآن بالقاهرة ، سنة ١٩٨٣) .

* * *

أما « الشجرة لإظهار الثمرة » فهى نصٌّ مخطوط لم يُنشر مـن قبل ، توجد منه نسخة خطية بمكتبة بلدية الإسكندرية ، تحت رقم ٣٥٦٢ / د .. وتمتاز هـذه الرسالة عن مؤلفات ابن غانم المقدسى ، بأنها تأليفٌ خـالص - فـإذا كان « التفليس » هو معارضــةٌ لكتـاب ابن الجـوزى ، و« المنتخب » هو اختصار لكتاب ابن القيم ، فإن « الشجـرة » هى مؤلَّفٌ خاص لم يعتمد فيه ابن غانم على تصانيف السابقين .

فى هذه المخطوطة ، يستعرض المؤلِّف قصة الخلق بأسلوب رمزى أخَّاذ ؛ فينظر إلى الوجود على أنه شجرة نبتت من بذرة الأمر الإلهى « كُنْ » فأورقت حتى ظهرت ثمار ﴿ كل شىء خلقناه بقَدر ﴾[1] وهو يمزج كلامه بالنصِّ القرآنى مـزجاً لطيفا بليغاً ، فنراه - مثلاً - وهو يحكى قصة خروج آدم من الجنة ، متعرضًا فى ذات الوقت لمسألة إبليس ؛ يقول :

وأما إبليس ، فإنه مكث فى مكتب التعليم أربعين ألف عام ، يتصفَّح حروف « كُنْ » وقد وكَّله المُعلم إلى نفسه ، وأحالـه على حوله وقوته ، فكان ينظر إلى تمثـال « كن » فيشهد من كافها كـاف كفـره وكبره ﴿ فَأَبَى واسْتَكْبَرَ وَكَـانَ مِنَ الكَـافـِرِينَ ﴾[2] ويشهـد من نونها نـون ناريتـه

(١) سورة القمر ، آية ٤٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٣٤ .

﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون﴾[1] فلما نظر آدم إلى اختلاف أغصان هذه الشجرة، وتنوع أزهارها وثمارها، وتشبَّث بغصن ﴿إنى أنا الله﴾[2] فنوديَ من ثمار التوحيد، واستظل بظل التفريد و﴿لا تقربا هذه الشجرة﴾[3] فأراد إبليس أن يوصله بغصنه ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾[4] فأكلاً منها، فزلق فى مزالق ﴿وعصى آدم ربه﴾[5] فاستمسك بغصن ﴿ربنا ظلمنا﴾[6] فتدلَّت له ثمار ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾[7] فلما نُودى يوم الإشهاد على رؤوس الأشهاد ﴿ألستُ بربكم﴾[8] فشهد كُلٌّ على مقدار ما أُشهر وأُسمع من الخطاب، ثم اتفق الكُلُّ فى الإيجاب فقالوا: ﴿بلى﴾ لكن الاختلاف وقع من حيث الإشهاد، فمن أشْهِدَ كمالية ذاته، شَهِدَ أن ﴿ليس كمثله شىء﴾[9] ومن أشهده جلالية صفاته شَهِدَ أنه ﴿لا إلـٰه إلا هو الملك القدوس﴾[10] ومن أشهده عرائس مخلوقاته، اختلفت شهادتهم لاختلاف الشهود، فقوم جعلوه محدوداً[11]، وقوم جعلوه معهوداً[12]، وقوم جعلوه مولوداً[13]، وقوم جعلوه حجرا جلموداً[14]، والكل فى ذلك على حكم ﴿قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾[15] وهو مستنبط من كلمة: كُنْ[16].

---

(1) سورة الشعراء، آية ٩٤.
(2) سورة طه، آية ١٤.
(3) سورة البقرة، آية ٣٥ - سورة الأعراف، آية ١٩.
(4) سورة الأعراف، آية ٢٠.
(5) سورة طه، آية ١٢١.
(6) سورة الأعراف، آية ٢٣.
(7) سورة البقرة، آية ٣٧.
(8) سورة الأعراف، آية ١٧٢.
(9) سورة الشورى، آية ١١.
(10) سورة الحشر، آية ٢٣.
(11) الإشارة إلى المجسمة الذين قالوا: إن لله - تعالى - جِسْم وحَد ومقدار.
(12) الإشارة إلى اليهود، القائلين: خلق الله آدم على صورة الرحمن.
(13) الإشارة إلى النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح.
(14) الإشارة إلى الوثنيين الذين عبدوا الأصنام.
(15) سورة التوبة، آية ٥١.
(16) المخطوطة، ورقة ٣ ويلاحظ أنه فى النص الأصلى لا يوجد فاصل بين الآيات والعبارات، كما هو الحال هنا.

ويتعرَّض ابن غانم المقدسى لأنوار النبى محمد - ﷺ - ومرتبته فى شجرة الكون ، فيقول : فأوَّل ما عهد خُولى [1] هذه الشجرة ، إلى أصل حَبَّة « كُنْ » فاعتصر صفوة عنصرها ، ومَخَّضَها حتى بدت زُبدتها ، ثم صَفَّاها بصفات الصفوة حتى زال كدرها ثم ألقى عليها من نور هدايته حتى ظهر جوهرها ، ثم غمسها فى بحر الرحمة حتى زال كدرها ثم ألقى عليها من نور هدايته حتى ظهر جوهرها ، ثم غمسها فى بحر الرحمة حتى عمَّت بركتها ، ثم خلق منها نور نبينا محمد ﷺ ، ثم زَيَّنَ بنوره الملأ الأعلى حتى أضاء وعلا ، ثم جعل النور أصلا لكل نور ، فهو أولهم فى السطور ، وآخرهم فى الظهور [2] ، وقائدهم فى النشور ، ومبشرهم بالسرور ، ومتوِّجهم بالحبور ؛ فهو مُستودعٌ فى ديوان الأُنس ، مُستقرٌّ فى رياض حَضرة القدس [3] ، سَتَرَ معنى روحانيته بسَتْرِ جُثمانيته ، وغَطَّى عالم شهوده بعالم وجوده ، فهو مستخرجٌ من الكون ، مستنبطٌ لأجله الكون [4].

وعلى هذا النحو تسير المخطوطة ، فتعرض لمظاهر الخَلْق وحقائق الوجود ودقائق الإسلام واختلاف الأديان ، وغير ذلك من الموضوعات ، وفى آخر المخطوطة جمع الناسخ مجموعةً من أشعار ابن غانم المقدسى ، منها تلك القصيدة (من الخفيف) :

يَا حُداةَ المَطِىِّ رِفْقًا فَإِنِّى ... مِنْ جَنَابِ الحَبِيبِ آنَسْتُ نَارا

خَفِّفِ السَّيْرَ بِالمَطِىِّ ودَعْهَا ... فَرْحَةُ القَلْبِ تَخْلَعُ الأَكْوَارا

جِئْنَ سَعْيًا إلىَ حِمَاكَ عَسَاهَا ... بِخُطَاهَا تُخَفِّفُ الأَوْزَارا

قَدْ أَتَيْنَاكَ لِلزِّيَارةِ شُعْثًا ... يَا مَزُورًا هَلْ تَقْبَلُ الزُّوَّارا

لَوْ بِقَدْرِ الأَشْوَاقِ زُرْنَاكَ يَومًا ... لَسَعَيْنَا عَلَى الجُفُونِ صِغَارا

(١) الخولى ، القائم بأمر النباتات « الجناينى » والمراد به هنا : الله تعالى .
(٢) من هنا نقول للنبى ﷺ : يا أول خلق الله وآخر رُسل الله .
(٣) استخدم المقدسى هنا اصطلاح (المستودع - المستقر) وهو من مصطلحات الشيعة الإسماعيلية فى قولهم بالإمام المستودع والإمام المستقر .. راجع بخصوص ذلك ، د/ محمد على أبو ريان : الفكر الفلسفى فى الإسلام (طبعة دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٨) .
(٤) المخطوطة ، ورقة ٦ أ .

قَـدْ أَنَخْنَـا بِبَـابِ جُـودِكَ نَـرْجُـو مِنْكَ عَفْـوًا يَمْحُـو الـذُّنُـوبَ كِبَـارا
وَلَنَـــا مِنْـكَ حُـــرْمَـــةُ الجَارِ لَمَّا لاَذَ بِـــالجَارِ والْتَجَـــا واسْتَجَـــارا
مَنْ سَعَى بِـــالصَّفَـــا إِلَيْكَ اشْتِيَـــاقَـــا ثُـمَّ لَبَّى واسْتَمْسَـكَ الأَسْتَـــــارا
فَجَـــدِيـــرٌ بِأَنْ تُـــرِيـــهِ جَمَالا بِمَعَـــانِيـــهِ حَيَّرَ الأَفْكَـــارا
أَنْتَ لَـوْلاَكَ مَـاحَبَسْتُ قُلُـوصِي[1] بِطُلُــولٍ أُنَـــاشِــدُ الآثَـــارا
لاَ ولاَ طُفْتُ بِـالـرُّبـوعِ سُبُـوعَـا فِي طَـــوَافِي أُقَبِّلُ الأَحْجَـــارا
مَا الصَّفَـا ، مـا الْحَطِيمُ ، مـا الْبَيْتُ لَـوْلا لَكَ تَـــوَلَّتْ عَنْهَـــا الْقُلُـــوبُ فِـــرارَا
مَـــا وقُـــوفِي عِنْـدَ المَشَـــاعِـــرِ لَـــوْلا جَعْلُ الـــذِّكْـــرِ لِلْقُلُـــوبِ شِعَـــارا
رَمَيْـتُ جَمْرَةَ الهَوَى بِفُـــــــؤَادِي قَبْـلَ أَنْ يَعْـــــــرِفُ الحَجِيجُ الجِمَارا
هَـــذِهِ كُلُّهَـــا إِشَـــارَاتُ سِرٍّ بِجُتَلِيهَـــــــا مَنْ يَفْهَـمُ الأَسْرَار
يَـــا عَـــذُولِي دَع المَلاَمَ فَإِنِّي عَنْ غَـــرَامِيَ لاَ أَسْتَطِيعُ اصْطِبَـــارا

.. ومن أشعـار ابن غانم الـواردة بآخـر المخطوطـة ، تلك الأبيات فى ليلـة الإسراء (من الكامل) :

سُبْحَـــانَ مَنْ أَسْرَى إِلَيـــهِ بِعَبْـــدِهِ فِي لَيْلَـــةٍ شَرُفَتْ بِطَـــالِعِ سَعْـــدِهِ
أَعْطَـــاهُ مَـــالَمْ يُعْـطَ خَلْقٌ مِثْلَـــهُ مِـنْ قَبْلِـــهِ كَـــلاَّ وَلاَ مِنْ بَعْـــدِهِ
جِبْرِيـلُ حَـــامِـلُ بُـــرْدِهِ لَمَّا سَرَى لَيْـــلاً وَمِيكَـــائِيلُ نَـــاظِمُ عُقْـــدِهِ
والأَنْبِيَـــاءُ بِجَمْعِهِـمْ وبِعَـــدِّهِـمْ جُمِعُـــوا لَـــهُ فَكَأَنَّهُمْ مِـنْ جُنْـــدِهِ
وَسَمَا إِلَى فَـــوْقِ السَّمَا وعَـــلاَ عَلَى دَرَجِ العُـــلاَ لَمَّا عَـــلاَ فِي جَـــدِّهِ
وَدَنَـــا إِلَى ذَاكَ الجَنَـــابِ وَلَمْ يَـــزَلْ دَانٍ عَلَى قُـــرْبِ المَزَارِ وبُعْـــدِهِ
فِي قَـــابِ قَـــوْسَيْنِ دَنَـــا مِـنْ رَبِّـــهِ سَمِعَ الخِطَـــابَ وَلَمْ يَخَفْ مِنْ صَـــدِّهِ

---

(١) القلوص : الإبل .

مَـــا زَاغَ ذَاكَ الطَّـــرْفُ مِنْــــه وَلاَ طَغَى ذَاكَ الفُـــؤَادُ ولاَ عَـــدَا عَنْ حَــــدِّهِ

وَلَقَـــدْ عَجِبْتُ لَـــهُ وَقَـــدْ أَسْرَى بِـــهِ لَيْـــلاً يُـــرِيــدُ تَسَتُّراً فِى قَصْــدِهِ

هَيْهَـــاتَ يُخْفِى اللَّيْـلُ طَلْعَـــةَ بَـدْرِهِ أَوْ يَنْطَـــوِي نَشْرُ العَبِيرِ بِنَـــدِّهِ[1]

وفى خاتمة المخطوطة قصائد غير هـذه وتلك ، منها أبيات فى المحبة الإلهية وفى زيارة البيت العتيق وفى شرف مكة والحجاز وفى فضل النبى عليه الصلاة والسلام .. وعلى الورقة الأخيرة :

« تَمَّ كتاب الشجرة وما يتعلق به من كلام مؤلفه - رضى الله عنه ، ورضى عنا به - إنه ولىٌّ ذلك والقادر عليه » .

(١) المخطوطة ، ورقة ٢٦ب ، ١٢٧ .
(٢) المخطوطة ، ورقة ٢٧ب .. والنَّدُّ : نبات طيب الرائحة

هذه الرسالة المسماة بالشجرة لإظهار الثمرة
تأليف الشيخ العارف المحقق والمتقن المدقق
خلاصة عصره ونتيجة عنصر عصره
أبي محمد عز الدين عبد السلام
بن أحمد بن غانم المقدسي
رضي الله عنه وأرضاه
ونفعنا به
آمين

غلاف مخطوطة « الشجرة »

نسخة بلدية الإسكندرية رقم ٣٥٦٢/ د

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام العالم الحافظ الورع الزاهد فريد زمانه ووحيد
عصره واوانه ابو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن احمد بن غانم المقدسي
رضي الله عنه ورضي عنا به   الاحدي الذات الفردي الصفات
الذي تقدس بوجوده عن الجهات وتقدمه عن الحادثات وقدمه
عن الخطوات وبعده عن الحركات وغيبته عن اللحظات واستغنائه
عن الاتصالات وتنزهه عن الانفصالات وقدرته عن الرهوا
وارادته عن الشهوات الذي لا تتعدد صفاته بتعدد الموصوفات
ولا تختلف ارادته باختلاف المرادات كون بكلمة كن جملة الكائنات
واوجد بها جميع الموجودات فلا موجود الا مستخرج من كنهها المكنون
ولا -   الا مستخرج من سرها المصون قال الله تعالى
لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون وبعد فاني نظرت بسبب
التكوين وتكوينه والى المكون وتلوينه فرايت الكون كله مستمد
اصله وبذره من حبة كن قد لقحت كاف الكونية بلقاح نون النحن
نحن خلقناكم فانعقد من ذلك الايه ثمرة انا كل شيء خلقناه بقدر
فاظهر سر قدرته غصنين مختلفين اصلهما واحد وهو الارادة وفرعها
واحد وهو المرادات فلما نبتت اصلها ونبت فرعها ظهر عن جوهره
الكاف منتصب زمن اختلافها كاف الكمالية اليوم اكملت لكم دينكم وكاف
الكفرية فمنهم من امن ومنهم من كفر وظهر عن جوهر النون نون النكرة ودل
العرشية فلما [illegible]

الورقة الأولى من المخطوطة

روحي تكون فداك

تم كتاب الشجرة وما يتعلق به من كلام مؤلفه رضي

الله تعالى عنه ورضي عنا به انه ولي ذلك والقادر

عليه وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد خاتم المرسلين

وعلى آله وصحبه واهل بيته وحزبه اجمعين

وسلم تسليما كثيرا دايما ابدا

الى يوم الدين والحمد

لله رب

العالمين

الورقة الأخيرة

شَرْحُ تَقْدُمَةِ المَعْرِفَةِ

للبَغْدادي

حاول بعض الغربيين المحدثين ، الترويج للفكرة القائلة: « إن اليونان القديمة هى مهد العلم والفلسفة » وبالتالى فإن العلم انطلق من الغرب القديم ، وهو الآن يبلغ قمة تطوره فى الغرب المعاصر ، فلا فضل فى تاريخ الحضارة لغير الغرب القديم والحديث ، وكل ما فعله العرب فى هذه المسيرة الغربية للحضارة ، هو أنهم حافظوا على أصول العلم اليونانى لعدة قرون ، حتى تسلمتها منهم أوروبا وهى تؤسِّس نهضتها الحديثة وتطوِّر إسهامات اليونان ! .

ولا شك فى أن ترديد هذه الأفكار ، قد صار اليوم يدعو للشفقة والسخرية من قائليها ؛ فقد أثبتت البحوث والدراسات - بما لا يدع مجالاً للشك - أن اليونان كانت مجرد حلقة من تطور الحضارة الإنسانية ، فقد استعارت علومها وفلسفتها من تراث مصر الفرعونية وممالك شرق المتوسط وبلاد الهند[1] ، فظلَّ ذلك الإنتاج الحضارى السابق عليهم يتطور على أيديهم وبجهود علمائهم ، حتى التقطت أوروبا الخيط عبر مرحلتين ؛ الأولى أخذت فيها أوروبا من العرب إنتاجهم العلمى وترجمته من العربية إلى اللاتينية ، والثانية أعطت أوروبا لبلدان العرب - ردًّا للجميل - حملات الاستعمار التى حرصت على أن تظل بلاد العرب متخلِّفة .

(١) فى مقابل القائلين بالمعجزة اليونانية يقول الدكتور عبد الحليم منتصر : الباحث المنصف لايمكن أن يغفل أمر المدنيات القديمة التى سبقت العصر الأغريقى وتقدمت عليه فى التاريخ ؛ إذ لا يمكن أن تكون المدنية الأغريقية نشأت فجأة وبمعزل عن المدنيات الأخرى من بابلية وأشورية ومصرية فرعونية ، وقد كانت بين الأغريق والمصريين القدماء صلات وتجارات وحروب .. وقد أنصف هيرودتس الملقب (بأبى التاريخ) هذه الحضارات عند ما قال : إن معظم فلاسفة الأغريق القدامى أمضوا جانبًا من حياتهم فى مصر وبلاد ما بين النهرين (تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدُّمه ، الطبعة الرابعة - دار المعارف ١٩٧١ ، ص ٢) وبخصوص تلك « المعجزة اليونانية » راجع : سارتون ، تاريخ العلم (دار المعارف) ١/ ٢٨٧ ، ٣٤٧ .

والمخطوطة التى تدور حولها السطور التالية ، وثيقة من وثائق الصلة بين اليونان القديمة والعرب من ناحية ، وبين العرب القدماء وأوروبا الناهضة من جهة أخرى .

* * *

فى أيام اليونان القديمة ، وفى جزيرة « كوس » سنة ٤٦٠ قبل الميلاد ، ولد الطبيب الشهير : أبقراط[١] . وقد تعلَّم الطب من والده ومن غيره من أطباء الأسرة التى نشأ فيها ، أسرة « إسكليبوس » التى احتكرت المعرفة الطبية واعتبرتها موروثًا خاصًا بها ، ولم تدوِّن المعارف الطبية لئلا يطلع عليها غيرهم ، لكن أبقراط سوف يخالف هذه القاعدة (الأنانية) ليصبح : أول مَنْ دوَّن علم الطب[٢] .

وقولنا : إن أبقراط هو « أول من دَوَّن الطب » إنما ينسحب فقط على التاريخ اليونانى ، ولا يجوز إطلاقه على التاريخ البشرى كله ، وإلا فقد دَوَّن المصريون القدماء الطبَّ قبل أبقراط بقرون طويلة ، المهم ترك أبقراط مجموعة كبيرة من المؤلفات ، منها كتاب « تَقْدمة المعرفة » الذى نقله العرب ضمن ما نقلوا من مؤلفات الطب اليونانى لأبقراط وجالينوس وغيرهما من مشاهير الأطباء اليونانيين (كما ترجموا أيضًا كتب الهند الطبية) وجعلوا من « تَقْدُمة المعرفة » أحد المقررات الدراسية التى لابد أن يدرسها كل مَنْ أراد الاشتغال بالطب والتداوى .

---

(١) بخصوص أبقراط ، يمكن الرجوع إلى كتابنا : شرح فصول أبقراط ، لابن النفيس - مقدمة التحقيق ص ١٧ وما بعدها .

(٢) يذهب « ميشيل فوكوه » إلى أن اضمحلال الطب ، بدأ مع أبقراط . فمن خلال رؤية « شاعرية » يقرر (فوكوه) أنه : فى فجر البشرية ، كان الطب يكمن فى العلاقة المباشرة بين آلام المريض وبين ما يخفف هذه الآلام ، وهذه العلاقة يحددها الإحساس وتحتِّمها الغريزة قبل أى تجربة .. أما الاضمحلال فقد بدأ مع الكتابة والأسرار ، أى مع انتقال المعرفة الطبية إلى المتخصصين ، كما جاء هذا الاضمحلال بسبب الفصل بين النظرة والقول ، أو بين الرؤية والمعرفة ، وباختصار ، يمكن القول بأن تاريخ هذا الاضمحلال إنما يبدأ مع أبقراط ، أكبر أطباء الأغريق فى العصور القديمة ! ويستشهد (فوكوه) بعبارة(مسكاتى): إن الفلسفة قد تسللت إلى الطب ، كما انعدمت الملاحظة ، بعد أن تحول الطب إلى « نسق » على يد أبقراط (البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه ، للدكتور / عبد الوهاب جعفر - دار المعارف ١٩٨٩ - ص ٢١٢) .

وكلمة « تَقْدُمة المعرفة » تعنى التنبؤ بما سيكون عليه المرض فى المستقبل ، ويُشار إلى نفس المعنى باصطلاح آخر هو « الإنذار المرضـى » وكان الأطباء يعتمدون فى هذا الإنذار المرضى – أو تَقْدمة المعرفة – على العرافة والكهانة والتنجيم[1] ، حتى جاء أبقـراط واعتمد فى ذلك على الملاحظة الإكلينيكية الدقيقة ذات الطابع العلمى ، فكان بذلك ؛ أحد الذين حرَّروا الطب من الخرافة .

وكتاب « تَقْدمة المعرفة » عبارة عن مجموعة من الفقرات الطبية ذات الطابع الموجز ، تبدأ بقوله : « إنى أرى أنـه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سـابق النظر ، وذلك أنـه إذا سبق فعلم ، وتقدم فأنـذر المرضى ، كان حَـرِيًّا بأن يوثق منـه بأنه قـادر على أن يعلم أمور المرضى ، حتى يدعو ذلك المرضى إلى التقربة والاستسـلام فى يدى الطبيب ، وكان علاجه لهم على أفضل الوجوه » .

ونظرا للطابع الاختصارى الموجز الذى يميِّز كتـاب « تقدمة المعرفة » فقد أقبل الأطباء فى العصور المختلفة على شرح عباراته وتأويل مقاصـده ، لما يعطيه من إمكانية استعراض الجديد من المعارف الطبية فى كل عصر ، فكل طبيب يفهم النص فى ضوء ما توصَّل إليه من معلومات طبية ، فيضع شرحه الخاص على « تقـدمة المعرفة » وكأنـه يصوغ معارفه هـو ، ويضع تصوراته ومعلوماته الخاصة .

ومن أهم الشروح على الكتـاب ، شرح الطبيب اليونـانى « جـالينوس » وقـد تُرجم هـذا الشرح إلى اللغـة العربيـة منـذ وقت مبكـر ، وقام بـالترجمة « حنين بن إسحـاق » بتكليف من الخليفة المأمـون .. أما الشروح العربيـة فهى : شرح ابن أبى الصادق النيسـابورى – شرح أمين الـدولة ابن التلميـذ – شرح مهـذب الدين الـدَّخْـوار – شرح عماد الدين الـدُّنَيْسرى – شرح يوسـف بن محمد التبريـزى .. وقد وضع العلامـة علاء الـدين بن النفيس شرحين على تقـدمة المعرفة[2].

(١) راجع : د/ عبـد اللطيف البدرى : التشخيص والإنـذار فى الطب الأكدى (المجمع العلمى العـراقى – بغداد ١٩٧٦) .

(٢) انظر مـا ذكرنـاه عن هذين الشرحين فى استعـراضنا لمؤلفـات ابن النفيس ، بالدراسـة المنشورة مع تحقيقنا لكتاب: المختصر فى علم الحديث النبوى (نشرة الدار المصرية اللبنانية – القاهرة) ص ٥٠ وما بعدها .

والشروح العربية على كتاب (تقدمة المعرفة) فى حاجة إلى دراسة علمية تاريخية من شأنها أن تكشف الكثير عن تطور الطب العربى[1] .

* * *

وللطبيب المسلم : موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (المتوفى سنة ٦٢٩ هجرية) شرح على كتاب تقدمة المعرفة[2]. توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٤٧٥١ / ل .. وهو ، كغالبية مؤلفات البغدادى ، لم يُنشر بعد .

يبدأ البغدادى شرحه بمقدمة يقول فيها : « الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين ، وبعد فراغى من (شرح) كتاب بقراط المعنون بكتاب الفصول، رغَّب إلى بعض مَنْ يجب حقه علىَّ .. أن أنهج ذلك المنهج فى كتاب تقدمة المعرفة ، إذ كان تلو كتاب الفصول فى الشرف والمرتبة ، فأجبتُ سؤاله ، وارتسمتُ ما قاله رجاء الأجر وحُسن الذكر .. وأبتدىء بالدروس الثمينة التى جرت عادة الشرّاح أن يقدموها بين يدى كل كتاب يُقصد إلى شرحه ، وهى : الغرض المقصود من الكتاب ...» .

وعن غاية كتاب « تقدمة المعرفة » يقول البغدادى : « فغرض بقراط فى كتابه هذا، أن يفيدنا علمًا بتقدمة المعرفة فى الأمراض الحادة وما يتولّد منها ، بذكر جُمل من الدلائل والعلامات على أنواعها وأشخاصها ، وذلك بحسب الزمان الحاضر ، والمستأنف والآنف ».

ثم يقول البغدادى إن هذا الكتاب : « جزءٌ عظيم الجدوى من صناعة الطب على رأى أرباب القياس ، وهو داخلٌ تحت القسم العملى من قسمى الصناعة ، وهو منه فى تخوم القسم

---

(١) انظرْ ما سنقوله فى هذه النقطة بآخر الفصل التالى .

(٢) توجد ترجمات وافية للبغدادى فى المصادر الآتية :

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (بيروت) ص ٦٨٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥/ ١٣٢ - الأعلام للزركلى ٤/ ١٨٣ - كشف الظنون ١/ ١٢٣ ، ١٧٤ - ٢/ ١٠٣٨ - معجم المؤلفين لكحالة ٦/ ١٥ - ١٣/ ٤٠٠ .

وللدكتور / بول غليونجى كتاب عن البغدادى ، نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة (أعلام العرب) وهو كتابٌ لطيف مفيد .

العلمى ، إذ منه يتهيأ لتشخيص الأمراض التى لا يمكن علاجٌ إلاَّ بها .. أما مرتبته فإنه يجب أن يُقرأ بعد كتاب الفصول ؛ لأنه مقصور على تعرُّف توابع الأمراض الحادة ولوازمها ، ويجب أن يقرأ بعده كتاب الأمراض الحادة ولوازمها ، لأنه يتضمن علاجها ، وأما عنوانه فتقدمة المعرفة ، وهو مُطلق لما فيه واسمه باليونان يورغن ينطيقون ، وترجمته تقدمة المعرفة ، وأما تعليمه فهو طريق التحليل بالعكس ، وأما اسم واضعه فهو أبقراط .. وهو الرجل العميق الفكر النقى الفطنة الفائق الفطرة ، المؤيد فى قضاياه وأحكامه ، المذكِّر بأحوال الطبيعة ، المحدِّث عنها بما فيها ، وقد وصفه جالينوس وأحسن ، فقال : إن جالينوس أدَّبه الدرس ، وبقراط أدَّبته الطبيعة ، وقال مرة أخرى : إن أبقراط انغمس فى الطبيعة وسرى معها حتى انتهى إلى أعماقها ، وأخبر عما شاهد هناك »[(1)].

* * *

وسار البغدادى فى شرحه على طريقة (قال .. أقول) حيث يورد أولاً كلام أبقراط مسبوقًا بعبارة « قال أبقراط ... » ثم يضع شرحه على الفقرة ، وهو يلجأ أحيانًا لطريقة (الشرح الممزوج) وفيه يُورد الكلمة الواحدة ، ويعقبها بعبارة شارحة .. ومن أمثلة الطريقتين فى شرح البغدادى (التعليم العشرون) مانصه :

* قال أبقراط : وقد ينبغى أن يُسْتَدَلَّ على مَنْ يسلم ، وعلى مَنْ يعطب من الصبيان ، ومن غيرهم ، كما يتبين من أمر كُلٍّ واحدٍ من الأمراض .

* قال الشيخ (البغدادى) : ابتدأ - أبقراط - من هذا التعليم إلى آخر الكتاب ، فى وصايا نافعة للطبيب ، تفيده التحذُّق والاستقصاء ، ولا يهمل ولو اليسير ، ولا يغفل ولو عن الحقير ، وينظر الأمر من جهاته كلها .. إلخ .

(1) من المبادىء الطبية الرائعة التى نادى بها أبقراط : قوله « دع الطبيعة تعمل » .. وقد تابعه فى ذلك الأطباء المسلمون ، يقول بن النفيس: « ينبغى ألاَّ تعوِّد الطبيعة الكسل ، بأن تُعالج كل انحراف عن حال الصحة وحيث أمكن التدبير (العلاج) بالأغذية ، فلا تعدل إلى الأدوية ، وإنَّا لا نُؤثر على الدواء المفرد دواءً مركبًا ، لكنَّا قد نُضطر إلى التركيب » ، وفى ضوء هذه النظرة الأبقراطية المؤثرة فى الأطباء العرب ، لا يمكن أن نتفق مع تلك الرؤية (الشاعرية) التى يقررها (ميشيل فوكوه) بقوله : إن انحطاط الطب بدأ مع أبقراط .

تلك هى الطريقة الأولى ، ومن الطريقة الثانية فى المخطوطة :

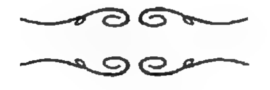
* قـوله – أى قـول أبقـراط – وينبغى أن تتفطن بسرعة ، دائما ، لحدوث الأمـراض ، أى الأمراض الوافدة من قبل اختلاط الهواء فى فصول السنة ، فإن بعض الفصول قد يولِّد أمراضًا ، ويكون سببًا لشفاء أمراض أُخر .. إلخ .

* وقوله: « بسرعة » أى قبل فوات الأمر بقضائه (= وفاة المريض) .

* وقوله: « دائما » أى فى كل مرض .

* * *

وبعـد .. فتلك صفحةٌ أخـرى من تـراثنا الطبى المهجـور الـذى سبق أن استفادت منـه أوروبا[1] ، لا تزال تنتظـر اليوم الذى تمتدُّ إليهـا فيه يد بـاحثينا .. وها هى مخطوطـة أخرى من مخطوطاتنا العربية التى تنتظر التحقيق والنشر ، فهل سيأتى اليوم ؟.



(١) ترجمت هذه المخطوطة ، مع غيرها من مؤلفات الأطباء العرب ، إلى اللاتينية فى فجر النهضـة الأوروبيـة (الرينسانس) .

محْوُ الشُّبهَاتِ

لإبراهيم حلمى القادرى

قِفَا نَبْكِ جَهَابِذَةَ الأَنَامِ	وَعَهْدًا قَدْ تَقَضَّى فِى وِئَامِ
أَيَغْنَى مَا أَضَر مِنَ الغَرَامِ	وَدَمْعِى لِانْصِرَامِ العَهْدِ دَامِ
خِيَامٌ قَدْ أَرَاهَا كَالْخِيَامِ	وَلَكِنْ أَيْنَ أَعْطَارُ الأَنَامِ
وَطَرْفِى قَدْ يُسَارِعُ بِالْتِفَاتٍ	وَلَكِنْ لاَ أَرَى غَيْرَ النَّعَامِ
وَصَمْتِى عَنْ عِتَابِ الحُرِّ جُرْمٌ	وعُتْبِى لِلَّذِى مِنَ الحَرَامِ
وَلَكِنْ أَيْنَ ذَاكَ الحُرُّ يَأْوِى	وَغَايَةُ أَهْلِهَا جَمْعُ الحِطَامِ

هذه الأبيات – وغيرها الكثير – من شعر الشيخ إبراهيم حلمى القادرى ، الإسكندرانى المولد والمنشأ والإقامة والوفاة . ولد سنة ١٣٢٢ هجرية ، وتوفى وهو يصلى بتلاميذه تراويح ليلة السابع والعشرين من رمضان ، سنة ١٣٩٠ هجرية .. رحمه الله .

وإذا كان الكثيرون يتساءلون اليوم : لماذا لم يعد فى ديار الإسلام مشايخ كهؤلاء الذين نسمع عنهم ونقرأ فى التراث القديم ؟ فإن الشيخ إبراهيم حلمى – وأمثاله – هم أوفى إجابة على هذا السؤال .. فهم البقية الباقية من خلاصة المعرفة والفضل فى تاريخ هذه الأمة . كما ورد فى الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتى على الخير والحق حتى تقوم الساعة » .

جمعت شخصية الشيخ بين العالم والفقيه والمربى والمحقِّق ، وكانت أوقاته موزعةً بين التعبُّد والتربية والتأليف فى العلوم الإسلامية ، فكان مجلسه اليومى فى مسجده الكائن بمنطقة

(فيكتوريا) بالإسكندرية ، أشبه ما يكون بالجامعة الدينية ؛ ففى يوم السبت من كل أسبوع يجتمع التلاميذ والإخوان حول الشيخ لتدارس كتب السُّنَّة النبوية ، ويوم الأحد لدرس الحديث الشريف ، والاثنين للفقه ، والثلاثاء للتوحيد ، والأربعاء للتفسير ، والخميس للذكر ، والجمعة - بعد الصلاة - لقراءة ياسين .. وعلى هذا النحو ، سارت حياة الشيخ وامتدت فى تلاميذه من بعد وفاته إلى يومنا هذا .

ومع أننى لم ألتق بالشيخ أو أشرُف لحظة برؤيته فى عالم الحس ، إلا أنى شغفتُ دومًا بالحديث والكتابة عنه ، لما رأيت فى مؤلفاته وسيرته العطرة وتلاميذه ، من دلالة على أن هذه الأمة لا تخلو من خير وبركة حتى قيام الساعة .. ولقد تحدثتُ عن طريقته القادرية فى كتابى (الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر) وتناولت أشعاره فى أحد فصول كتابى (شعراء الصوفية المجهولون) واليوم ، أتوقَّف عند مخطوطته - غير المنشورة - التى جعلها بعنوان : محو الشبهات عن مشروعية طلب المحو والإثبات .. وهى واحدة من المؤلفات العديدة للشيخ .

* * *

ترك الشيخ مجموعة من المؤلفات ، المطبوع منها ثلاثة : مدارج الحقيقة فى الرابطة عند أهل الطريقة ، تكذيب المُدَّعى بصحة رحلة الإمام الشافعى ، القرب فى محبة العرب .. والكتاب الأخير عبارة عن تحقيق علمى رصين لمخطوطة « القرب فى محبة العرب » للعلاَّمة زين الدين العراقى - المتوفى ٨٠٦ هجرية - قدَّم له الشيخ بمقدمةٍ وافية حول موضوع الكتاب ونسخه الخطية ، وأهمية دراسة اللغة العربية كمدخل لفهم الدين الإسلامى ، واختتم مقدمته بقصيدة من شعر المخمسات عنوانها « سمط مفاخر العرب » يليها نصُّ كتاب العلاَّمة العراقى ، محقَّقًا ، مضبوطًا ، مذيلاً بالهوامش .

وللشيخ طائفة من التآليف المخطوطة ، منها شرح لكتاب (تعليم المتعلم طريق التعلُّم) لبرهان الدين الزُّرْنُوجى ، وكتاب « السير والسلوك » وكتاب « العدوى والوباء » الذى تعرَّض

فيه للمسائل الخلقيـة وأثر الصحبة والرفقاء فى سلوك الفرد .. وله أيضًا : الـرسائل الصغرى - مناقب الصِّـدِّيق - مناقب الإمام الجيلانى - رسـالة التوحيد - سهـام الإصابة . بالإضـافة إلى كتابه : محو الشبهات .

* * *

لا يزال « محو الشبهات » فى نسخته التى كتبها الشيخ بخطه ، وعلى غلاف المخطوطة يرد اسم الكتاب ، مفصـلاً ، كالتـالى : محو الشُّبُهات عن مشروعيـة طلب المحو والإثبـات وزيادة العمر والرزق والسعادة واستجابة الدعوات والكلام فى القضاء والقدر ، أما فى مقدمة الكتاب، فقد قصر الشيخ العنوان على : محو الشبهات عن مشروعية طلب المحو والإثبات .

تقع المخطـوطـة فى ١٥٧ صفحـة من القطع الكبير ، وهى فى جملتهـا عبـارة عن تنـاولٍ لحقيقة قولـه تعالى : ﴿ يمحو الله مـا يشاء ويثبت وعنـده أم الكتاب ﴾ « الرعد / آية ٣٩ » وما يتعلق بها من مسائل الـدعاء ، والحريـة والجبرية ، والقدر ؛ وغير ذلك من القضـايا الكـلامية المتعلقة بعلم أصول الدين .

وفى مقدمة المخطوطة نرى الشيخ يتبنَّى الموقف الأشعرى فى مسألة الجبر والاختيار ، وهو الموقف المعروف باسم (نظرية الكسب) حيث يتم التـوفيق بين حدود الحرية الإنسانية وقضاء الله وقدره ، على النحو الذى عبرَّ عنه الشيخ بقوله : بل المؤثِّر قدرةُ الله ، لا علمه ، وقدرةُ العبد كَسْبًا واكتسابًـا ؛ منح - الله - عباده الاستطاعة والاختيـار ، ورفع عنهم إصر الإكراه والإجبار ، فلا جبر ولا تفويض بـل أمرٌ بين أمرين ، ولا بقدرة مستقلة بل بتعلُّـق القدرتين ؛ ومن رحمته أن جعل للعبد كَسْبًا فى أمرى معاشه ومعاده (= آخرته) فلله الحجة البالغة على عباده .

ويوضِّـح الشيخ فى المقدمـة ، أيضًا ، أن سَبق قضـاء الله وقدره ، لا يتعارض مـع وجوب التضرُّع إليه بالدعاء كما ورد فى قوله تعالى: ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ وقوله: « يا عبادى كلكم

ضال إلا مَنْ هديته ، فاستهدونى أهدكم » وهو يحذِّر من الوقوف فى موقف الجبرية ، فيقول : طوبى لمن عرف ربه بالقدرة والعلم وسائر صفاته القديمة ، وأنه – تعالى – خالقٌ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل .. وعرف نفسه بالحدوث من العدم ، وأنه –العبد – مخلوقٌ كاسبٌ يتغيَّر ويتبدَّل ويقف عند حَدِّه ؛ وويلٌ ثم ويل لمن ينشغل بالقدر ، وعلمه مغيبٌ عنه ولا سبيل إليه ، ويهمل علم المُيسَّر له من أثر اختياره ، ومن التكاليف الشرعية ، متعللاً بما كُتب عليه ؛ نعوذ بوجه الله تعالى من الخروج عن مناهج أهل الحق الواضحة ، والاغترار برعونات النفس المضلَّة الفاضحة.

والكتاب ينقسم لقسمين ، يضم كل قسم منها خمسة فصول ،ففى القسم الأول نجد فصول (الاستطاعة – أفعال العباد – العلم الإلهى – القضاء والقدر – أم الكتاب ، الفاتحة) وفى القسم الثانى (المحو والإثبات – تعميم المحو والإثبات – استجابة الدعوات – زيادة الآجال والأرزاق ونقصانها – السعادة والشقاوة) .. وينتهى الكتاب بخاتمة حول ليلة البراءة « ليلة النصف من شعبان » وليلة القدر .

* * *

ومن لطائف ما جاء فى المخطوطة ، تفرقةُ الشيخ بين القضاء والقدر ؛ وذلك ما يورده الشيخ على النحو الآتى :

« القدر هو تحديدُ الله تعالى – أزلاً – كُلَّ مخلوقٍ بحدِّه الذى يوجد عليه من قبحٍ وحُسْنٍ وتغيير وتبدُّل وانتقال من شرك إلى إيمان ، ومن شقاوة إلى سعادة ، والعكس . أما القضاء فهو إبراز الكائنات وإيجادها فى الخارج ، بعد أن كانت معلومة لله تعالى بتفاصيلها ، على ما اقتضته حكمته الباهرة .. والقضاء من الصفات العلمية لله ، أما القدر فهو من الصفات الفعلية » .

ثم يقول الشيخ : وعلى هذا ، فيمكن دفع القدر بالقدر الذى هو ضِدُّه ؛ أما القضاء – بمعنى المقضى – فهو لا يتغير ولا يتبدَّل ، فلا محو فيه ولا إثبات ، فالمحو والإثبات واقعٌ على القدر .

ويستدلُّ الشيخ على تلك المسألة الأخيرة ، بما ورد من ردّ عمر بن الخَطّاب ، رضى الله عنه، حين قال له أبو عبيدة بن الجراح لما أراد عمر الفرار من الطاعون بالشام : أتفر من قدر الله يا عمر ؟ قال : أفرُّ من قدر الله إلى قدر الله .

.. ونظرًا لوضوح النماذج التى نقدمها على الصفحات التالية ، فمن الممكن للقارىء أن يتابع عبارات الشيخ فى مخطوطته الأصلية ، وبخطه ، وسوف نلاحظ أن الورقة الأخيرة تحمل رأى الشيخ فى الإمام محمد عبده وتفسيره المشهور (المنار) حيث ينعى الشيخ إمعان التفسير فى العقلانية والتأويل المتعسّف .. بينما يسجل الشيخ إعجابه برأى الدكتور طه حسين - أحد رموز العقلانية والتنوير فى مصر الحديثة - بصدد هذه المسألة ! .



محو الشبهات
عمن مستردعية طلب المحو والإثبات
وزيادة العمر، والرزق، والسعادة واستجابة
الدعوات، والكلام في القضاء والقدر

عنوان المخطوطة بصفحة الغلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سجدت له العقول اقرارا بعظمة قدرته وكمال
جلاله، وعجزت الألسن عن وصف ابداعه واحصاء مواد رحمته وآثار
جماله، قيوم السموات والارضين مالك الملك ورب العباد، العليم
الحكيم المنفرد بالخلق والايجاد، السميع المجيب لمن لبى امره فدعاه،
المتفضل بالتوفيق والعون لمن سلك سبيل هداه، اللطيف الخبير
المتصرف في ملكه وملكوته كما يريد، الحكم العدل المنزه عن الجور والتقييد،
يمحو ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب، ويبدل ويغير حسبما يقتضيه
الكسب والاكتساب، لا تتغير صفة اسعاده باشقاء ولي، ولا تتبدل
صفة اشقائه باسعاد شقي، يزيد في الارزاق والآجال، ويرد
البلاء ويحول الاحوال، قدر افعال عباده على ما علم صدوره منهم
لا برغم الانف، وكتبه القلم في اللوح لا بالحكم بل بالوصف، لانه توقف
تجليات صفاته ومقتضيات قضائه وقدره الازلي، ولا يزال متفضلا
بابراز شئونات الموجودات بفيضه الابدي، وقد استوى علمه
بما كان وما هو كائن وما سيكون، فلا تخفى خافية اذ انكشف له الظاهر
والمكنون، تنزهت صفات ذاته واسمائه عن أن يعطلها عاطل، وجل
عن أن يلزم من محوه واثباته انقلاب علمه جهلا كما يتوهمه ذاهل او يتصوره
جاهل، فسبحانه من اله علمه القديم قد استتبع المعلوم والمفهوم وتعالى
شأنه عن أن يتغير علمه بتغير المعلوم، أو أن يكون علمه علة وقوع الافعال،
وهو المحيط بالمبدأ والمآل والحال بعد الحال، وكيف وشأن التابع ان لا يؤثر في
المتبوع منعا ولا ايجابا، بل المؤثر قدرة الله لا علمه وقدرة العبد كسبا
واكتسابا، منح عباده الاستطاعة والاختيار، ورفع عنهم اصر الاكراه
والاجبار، فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، ولا بقدرة مستقلة
بل بتعلق القدرتين، ومن رحمته أن جعل للعبد كسبا في أمري معاشه

الورقة الأولى من المخطوطة

(بخط الشيخ)

فكاد ينقلب الى ضده ، ومن أمثلة المبالغة فى تحكيم العقل فى « تفسير المنار »
ذكره أن الملائكة هى القوى والأفكار الموجودة فى النفوس ، وأن المراد بسجود الملائكة
لآدم هو تسخير القوى للانسان فى هذه الحياة ، وأن قصة آدم بما فيها من
محاورة الملائكة ، وتعليمه الأسماء ، وسجود الملائكة له ... الخ هى من باب
« التمثيل » لا أنها وقعت بالفعل ...... الخ

ثم ذكر له تناقضات ، ثم قال : والعجيب أن الدكتور طه حسين قال لى عن
اخضاع التفسير للعقل : « لى على الشيخ محمد عبده اعتراض ، فان تأويله لنصوص
القرآن ، وحرصه على أن يكون نص القرآن ملائما كل الملاءمة للعلم الحديث ،
مما أخالفه فيه ، فهو مثلا يقول عن الحجارة الموصوفة فى سورة الفيل بأنها من
سجيل : انها جراثيم وهذا توسع فى تحكيم العقل ، والمسلمون الأوائل وهم صحابة
الرسول لم يفهموا هذا .

والله يفعل ما يشاء ، ولكن الانسان يفعل ما يستطيع ، والانسان الآن
وصل الى القنبلة الذرية والهيدروجينية والغازات السامة ، مما لم يكن العرب
يعرفونه فى ذلك الوقت ، فالله يخبرنا بأنه ارسل حجارة من سجيل ، ولا بد أن آخذ
القرآن بلا تأويل ، وأن أقبل النص القرآنى كما هو ، والعلم لم يحط بكل شئ ، والله
وحده هو الذى يعلم كل شئ »

ثم أضاف الدكتور طه قوله : « ان بعض المستشرقين يذهب هذا المذهب ،
فيقول : ان الفيل لم يكن فيلا ، بل كان قائدا من قواد الروم جاء مع أبرهة ، واسمه
(أفيلاس) ، وقد سمعت هذا من المسيو جاستون فييت الذى كان مدير دار
الآثار العربية » اهـ .

ثم ذكر فضيلة الدكتور ملاحظات على تفسير المنار لها قيمتها ، وحقيق
بكل من يهمه أمر كتاب الله الكريم أن يقرأ هذا المقال مرة بعد مرة ، رجح الله تعالى
به حسنات الدكتور وجزاه أحسن الجزاء آمين

الورقة الأخيرة

مُخْتَصَرُ غِبْطَةِ النَّاظِرِ

لابن حَجَر العَسْقَلانى

تجمع هـذه المخطوطـة بين ثلاثـة من الـرجال ، منهما اثنـان من أعلام النبـلاء فى التراث العربى ، أما الثالـث فهو رجل مجهول ! فالأول منهم هو المُتَرجَمُ له فى المخطـوطة (الإمام عبد القادر الجيـلانى) والثانى هـو المُتَرجِمُ ومؤرِّخ السيرة (ابن حجـر العسقلانى) والثـالث هو الرجـل - المغربى ، كما يبدو مـن خطه - الذى اختصر أصـل كتاب ابن حجر العسقـلانى فى هذه المخطوطة الفريدة : مختصر غبطة الناظر فى ترجمة الشيخ عبد القادر .

* * *

سبق لنا ، فى أحد فصول هذا الكتاب ، أن تحدثنـا عن الإمام عبد القادر الجيلانى المتوفى ٥٦١ هجرية[1] . كان ذلك بمناسبـة الإطلالة على مخطوطة مواعظـه المسماة (جلاء الخاطر فى الظاهر والباطن) وقد تحدثنا هناك عن مـؤلفات الإمام الجيلانى ؛ ويبقى لنا هنا أن نلقى بعض الضوء على شخصيته ، من خلال ما أورده ابن حجر عنـه فى (غبطة الناظر) واستبقاه صاحب المختصر .

ولابد أولاً من الإشـارة إلى أن هذه المخطـوطة الفريـدة هى واحدةٌ من مجمـوعة كبيرة من تراجم الإمـام عبد القـادر الجيلانى ، فقـد حظى الإمام بـالكثير من عنايـة المؤرخين ، وخَصَّه المؤلفـون بالترجمات المفـردة التى يمكن معهـا أن نقـرِّر « أن الإمام عبـد القـادر الجيلانى هـو صاحب أكبر قدر من الترجمات فى التراث العربى » فمن ذلك :

١ - بهجـة الأسرار ومعدن الأنـوار ، للشطنـوفى (طُبع بمصر دون تحقيق) وهـو أشهر تـراجم الإمام .

---

(١) راجع كتابنا : عبد القادر الجيلانى ، باز الله الأشهب (دار الجيل - بيروت ١٩٩١) .

٢ - قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر ، للتادفى (طُبع بمصر - دون تحقيق) .

٣ - شمس المفاخر فى الذيل على قلائد الجواهر ، للبخشى الحلبى .

٤ - خلاصة المفاخر فى اختصار مناقب الشيخ عبد القادر ، لليافعى .

٥ - عقد جواهر المعانى فى مناقب عبد القادر الجيلانى ، لأحمد بن عبد القادر [١] .

٦ - تُحفة الأبـرار ولوامع الأنـوار فى مناقب السيد عبـد القادر وذريته الأكـابر الأخيـار ، لعلاء الدين الجيلانى .

٧ - ضَمُّ الأزهار فى الذيل على تحفة الأبرار ، لمحمد سعدى الأزهرى .

٨ - نزهة الخاطر الفاتر فى ترجمة سيدى عبد القادر ، لمُلا على القارى .

٩ - بستان الأصاغر والأكابر فى ترجمة الشيخ عبد القادر ، لعبد الحىّ المغربى .

١٠ - رياض البساتين فى أخبار الشيخ عبد القادر مُحى الدين ، لمحمد الأمين الكيلانى .

١١ - الشجرة النورانية بطريقة القادرية ، لعبد القادر القادرى .

١٢ - الجَنى الدَّانى فى نبذة من مناقب القطب عبد القادر الجيلانى ، للبَرْزَنْجى .

١٣ - دُرُّ المفاخر فى مناقب سيدى عبد القادر ، لعبد القادر العَيْدَرُوس .

١٤ - الشرف الباهر فى مناقب الشيخ عبد القادر ، لمحمد اليَوْنِينى .

١٥ - دُرُّ الجواهر فى مناقب سيدى عبد القادر ، لابن الملقِّن .

١٦ - أنوار الناظر فى معرفة أخبار الشيخ عبد القادر ، لأبى بكر الصديقى البغدادى .

١٧ - نزهة الناظر فى أخبار الشيخ عبد القادر ، للنَّرْسِى .

١٨ - روضة الناظر فى ترجمة سيدنا الغوث عبد القادر ، للفَيْرُوز آبادى .

١٩ - روض النواظر فى مناقب سيدى عبد القادر ، للزِّنجَارى .

٢٠ - مناقب الشيخ عبد القادر ، للطالبانى .

٢١ - السيف الربـانى فى عنق المعترض على الغوث الجيـلانى ، لمحمد بن عَـزُّوز (طُبع بتونس سنة ١٣١٠ هجرية) .

---

(١) مخطوط الإسكندرية رقم ١٦٠٩ / ب - وجاء فى خاتمته : هذا كتاب موسوم بنزهة المناظر وبهجة الخاطرا.

٢٢- الإمام عبد القادر الجيلانى ، لأبى الحسن الندوى (طُبع بالقاهرة - دار المختار الإسلامى) .

٢٣- الشيخ عبد القادر الجيلانى ، ليونس السامرائى (طُبع ببغداد - مطبعة الأمة) .

٢٤- الشيخ عبد القادر الجيلانى ، لعبد الغَفَّار العباسى (طُبع ببغداد - على نفقة مؤلفه) .

ومالم نذكر عنه فى هذه القائمة أنـه (مطبوع) فهو إما مخطوط أو مفقود .. وينضاف لهذه القائمة ، مخطوطتان مجهولتا المؤلف محفوظتان بالمعهد الأحمدى بطنطا : الأولى تحت رقم ٦٨٣/ ٢١٦ عنوانها « مناقب سيدى عبد القادر » ، والأخرى تحت رقم ٦٨٤ / ٢١٦ وعنوانها « فضائل عبد القادر الجيلانى » الأولى مؤرَّخة بسنة ١٠٠٥ هجرية ، والأخرى بسنة ١٢٦٩ هجرية . كما ينضاف لقائمة ترجمات الإمام الجيلانى ، مجموعة من الترجمات الشعرية التى ورد بعضها فى كتاب (سفينة القادرية) وأشهرها القصيدة المطوَّلة المعروفة باسم « قصيدة الباز الأشهب » لعبد الباقى العُمَرى - فرغ منها سنة ١٢٥٥ هجرية - ويوجد عليها شرح لشهاب الدين الآلوسى بعنوان : الطراز المذهب فى شرح قصيدة الباز الأشهب[١] .

ولابن حجر العسقلانى كتابان عن الإمام الجيلانى ، الأول بعنوان (روض الزاهر فى ترجمة السيد عبد القادر) والآخر عنوانه (غبطة الناظر فى أخبار سيدنا عبد القادر) وكلاهما مخطوط لم ينشر ، بل هو اليوم فى حكم المفقود .. فلا يوجد بأيدينا إلا مخطوطة : مختصر غبطة الناظر .

والآن ، فلننظر فى شىء من سيرة الإمام عبد القادر الجيلانى ، لنتلمس هذه المكانة التى جعلت المؤرخين يفردون له هذا القدر من التراجم المفردة ، ناهيك عن أخباره المطوَّلة فى كتب التاريخ وسِيَر الأعلام .

تروى لنا مخطوطة (المختصر) على لسان ابن حجر أن الإمام الجيلانى ولد بجيلان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وهو تاريخ غير صحيح ! فالواقع أن الإمام ولد سنة ٤٧٠ هجرية[٢]

(١) توجد منه نسخة خطية بمكتبة عباس عَزَّاوى ، تحت رقم ٩٠٩١ .

(٢) راجع مناقشتنا لهذه المسألة فى كتابنا : عبد القادر الجيلانى .. ص ٣٤ وما بعدها .

وقد ورد فى المخطوطة أن الإمام سُئل عن تاريخ مولده فقال : لا أعلمه حقيقة ولكنى نزلت بغداد وسِنِّى ثمانى عشرة سنة ، فى السنة التى مات فيها التميمى ، شيخ الحنابلة . فإذا كان التميمى (أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب الحنبلى) قد مات سنة ٤٨٨ هجرية ، فإن مولد الإمام - بالتالى - كان سنة ٤٧٠ هجرية .. وذلك ما يتأكد من طريق آخر ، وهو أن الإمام توفى ، بإجماع المؤرخين ، سنة ٥٦١ هجرية وله من العمر تسعون سنة أو يزيد قليلاً ؛ فهو إذن مولود فى السنة التى حدَّدناها ، وليس فى السنة الواردة فى المخطوطة . والجدير بالذكر، أن ابن حجر لم ينفرد بذكر هذا التاريخ غير المضبوط لمولد الإمام ، إذ وقع فى نفس الخطأ مؤرخٌ مشهورٌ آخر هو ابن شاكر الكتبى الذى نصَّ فى كتابه (فوات الوفيات) على أن مولد الإمام كان سنة ٤٩١ هجرية .. وجَلَّ مَنْ لا يسهو .

وتحكى المخطوطة أن الإمام نشأ فى أسرة مشهورة بالفضل وأنه تلقى العلم على يد جده « الشيخ الزاهد أبى عبد الله الصومعى .. وكان مجاب الدعوة ومن جلة مشايخ جيلان » وأن عمته ووالدته كانتا من أفاضل النساء ، بل رويت عن كلتيهما الكرامات التى ليس هذا موضع سردها ، ثم تصف المخطوطة هيئة الإمام فتقول ما نصه :

كان نحيف الجسم ، ربع القامة ، عريض الصدر واللحية ، طويلها أسمر اللون ، مفروق الحاجبين ، له صوت جهورى ، وسمت بهىّ ، وقدرٌ علىّ ، يلبس زىّ العلماء ، ويتطيلس ، ويركب البغلة .

وتنقل المخطوطة عن الإمام عبد القادر الجيلانى قوله : كنتُ صغيرًا فى بلدنا ، فخرجتُ إلى السواد فى يوم عرفة ، وتبعتُ بقر الحراثة فالتفتت إلىّ بقرة وقالت : « يا عبد القادر ما لهذا خُلقت ولا بهذا أُمرت » فرجعت فرقًا - خائفًا - إلى دارنا[1] ، فصعدتُ للسطح فرأيتُ الناس واقفين بعرفة ، فذهبتُ إلى أمى وقلت لها: « هَبينى لله تعالى ، إنى أرى المسير إلى بغداد لأشتغل

(١) رويت هذه (الكرامة) عن غير واحد من الأولياء ، منهم إبراهيم بن أدهم .

بالعلم وأزور الصالحين » وأخبرتها بما جرى ، فبكت وقالت لى : « عندى ثمانون دينارًا ورثتها من أبيك » . فتركتْ لأخى أربعين وخاطت فى دلقى - ثوبى - تحت إبطى أربعين ، وأذنت لى فى المسير ، وعاهدتنى على الصدق فى كل أحوالى ، وخرجتْ مودعةً لى وقالت : « يا ولدى اذهب فقد خرجتُ عنك لله ، وهذا وجهٌ لا أراه إلى يوم القيامة » فسرتُ مع قافلةٍ صغيرة تطلب بغداد ، فلما تجاوزتْ همدان وجزنا بأرض فلاة - صحراء - خرج علينا ستون فارسًا فأخذوا القافلة - نهبوها - ولم يتعرَّض لى أحدٌ ، ثم مرَّ بى واحدٌ فقال لى: « ما معك؟ » قلت : أربعون دينارًا ، فقال : « وأين هى ؟» قلت : مخيطة تحت إبطى ؛ وظنَّ أنى استهزأت به ، فتركنى وانصرف . ومَرَّ بى آخر فقال لى : مثل الأول ، فأجبته بمثله ، فتركنى وانصرف . واجتمعنا عند مقدمهم - رئيس العصابة - فأخبراه بما سمعاه منى ، فقال: « علىَّ به » فأُتى بى إليه ، وهم على تلٍّ يقسمون أموال القافلة ، فقال لى: « ما معك؟ » قلتُ : أربعون دينارًا ، قال : « وأين هى ؟» قلت: مخيطة فى دلقى تحت إبطى ، فأمر فأخرجوها ، فقال: « ما حملك على هذا ؟ » قلت: إن أُمى عاهدتنى على الصدق ، فأنا لا أخون عهدها . فبكى وقال: « أنت لا تخون عهد أمك وأنا أخون عهد ربى » فتاب على يدى ، فقال له أصحابه : أنت كنتَ مُقدمنا فى قطع الطريق ، فأنت الآن مقدمنا فى التوبة ، وردُّوا للقافلة ما أخذوا منهم ، فهم أول من تاب على يدى[1] .

وتمضى المخطوطة فى سرد أخبار الإمام بعد نزوله بغداد ، فتحكى عن صلته بمشايخ وقته، وأساتذته فى الطريق الصوفى ، ووقائع رحلته الروحية ، وشىء من كراماته .. وقد احتوت المخطوطة على بعض النصوص الجيلانية الباهرة ، مثل قول الإمام :

اسم الله الأعظم هو الله .

وإنما يُستجاب إذا قلت (الله) وليس فى قلبك غيره .

بسم الله ، من العارف ، بمنزلة (كُنْ) من الله .

---

(١) مختصر غبطة الناظر ، ورقة ٢ أ .

الله .. هذه كلمةٌ تزيل الهَمّ .

هذه كلمةٌ تكشف الغَمّ .

هذه كلمةٌ تبطل السُّمّ .

هذه كلمةٌ نورُها يعم .

الله .. يغلب كل غالب .

الله .. مظهر العجائب .

الله .. سلطانه رفيع .

الله .. جنابُه منيع .

الله .. مُطَّلِعٌ على العباد .

الله .. رقيبٌ على القلب والفؤاد .

الله .. قاهرُ الجبابرة .

الله .. قاصمُ الأكاسرة .

الله .. عالمُ السِّرِّ والعلانية .

الله .. لا تخفى عليه خافية ... إلخ [1].

* * *

أما مؤلِّف (غبطة الناظر) فهو أحد مشاهير الأعلام فى تاريخ الإسلام ، وصاحب العشرات من المؤلفات المشهورة مثل : فتح البارى بشرح صحيح البخارى - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - تبصير المنتبه بتحرير المشتبه - إنباء الغمر بأبناء العمر - الإعلام بمن ولى مصر فى الإسلام - الزهر النضر فى أنباء الخِضر - المرجمة الغيثية عن الترجمة الليثية .. وله من وراء ذلك ، قرابة ١٥٠ كتابًا ؛ يقع بعضها فى عدة مجلدات . ولقد ترجم ابن حجر لنفسه ، فقال :

---

(١) يوجد اضطراب فى النص الوارد بالمخطوطة ، ويمكن مراجعة النص الكامل - محققًا - فى : ديوان عبد القادر الجيلانى ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

ابن حجر العسقلانى ، أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد ، العسقلانى ، الأصل ، المصرى المولد والمنشأ ، نزيل القاهرة . ولد فى شعبان سنة ٧٧٣ ، ومات أبوه فى رجب سنة ٧٧٧ ، وماتت أمه قبل ذلك وهو طفل ، فنشأ يتيماً ولم يدخل الكُتّاب حتى أكمل خمس سنين ، فأكمل حفظ القرآن وله تسع سنين ، ثم لم يتهيأ أن يصلى بالناس التراويح إلا فى سنة ٧٨٥ وقد أكمل اثنتى عشرة سنة .. وسمع صحيح البخارى على مسند النشاورى ، ولم يضبط سماعه ، ثم كان سماعه بقراءة الشيخ شمس الدين محمد بن عمر السلاوى .. وحفظ بعد ذلك كُتُبًا من مختصرات العلوم ، ونظر فى فنون الأدب ، فقال الشعر ، ونَظَمَ مدائح نبوية ومقاطيع .. ثم رحل إلى الإسكندرية فسمع من مسنديها – علماء الحديث النبوى – ثم حَجَّ ودخل اليمن ، فسمع بمكة والمدينة وينبع وزَبيد وتعز وعدن وغيرها .. ولازم الشيخ سراج الدين البلقينى إلى أن أذن له – فى رواية الحديث النبوى – وأذن له شيخه زين الدين العراقى . ثم ولى درس الحديث بالمدرسة الجمالية الجديدة – بالقاهرة – فأملى فيها .. ثم ولى مشيخة – مدرسة – البيبرسية ، ثم تدريس الشافعية بالمدرسة المؤيدية الجديدة ، ثم ولى القضاء فى السابع والعشرين من المحرم سنة ٨٢٧ ، ثم عقد مجلس الإملاء فى أوائل صفر منها إلى الآن[1] .

ولقد أوجز ابن حجر هنا ، وهو يترجم لنفسه ، عملاً بقوله تعالى: ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ وبالتالى لم يوف نفسه قدرها ، وترك الحكم عليه للتاريخ وللمؤرخين من بعده ؛ وقد أوفاه هؤلاء بعض حقه ، وأفاضوا فى الترجمة له . لكن (أجمل) ترجمة لابن حجر ، هى ما كتبه تلميذه المباشر شمس الدين السخاوى فى (الضوء اللامع) وهى ترجمة تعد آية أدبية فى مجال الولاء للأستاذ .. فلنختتم هذا الفصل بنصِّ هذه الترجمة ، ولنتأمل فى أسلوبها ، ولنتعرَّف من خلالها إلى بعض مناقب ابن حجر . يقول السخاوى :

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، ص ٧٣ (نقلاً عن مقدمة د. عدنان درويش لكتاب : ذيل الدرر الكامنة ، نشرة معهد المخطوطات العربية – القاهرة ١٤١٢هـ ، ص ١٥) .

أحمد بن على .. شيخى الأستاذ ، إمـام الأئمة ، الشهاب أبو الفضل الكنـانى العسقلانى المصرى ، ثم القاهـرى الشافعى ، ويُعـرف بابن حجر ، وهـو لقبٌ لبعض آبائه . ولـد فى ثانى عشرى شعبـان سنـة ثـلاث وسبعين وسبعمائة بمصر العتيقـة ، ونشأ بها يتيمًا فى كنف أحـد أوصيـائه، الزَّكىِّ الخَرُّوبىِّ ، فحفـظ القرآن وهـو ابن تسع عنـد الصدر السَّفْطى شـارح مختصر التبريزى ، وصلى به على العادة بمكة حيث كـان مع وصيه بها .. وبحث فى صغره - وهو بمكة - العمـدة على (الشيخ) الجَمَّال بن ظهيرة ، ثم قرأ على الصـدر الأبشيطى بالقـاهرة شيئًـا من العلم ، وبعـد بلوغـه لازم أحد أو صيـائه ، الشَّمْسَ بن القَطَّـان فى الفقه والعـربية والحسـاب وغيرها ، وقرأ عليـه جانبًا كبيرًا من الحاوى ، وكذا لازم فى الفقه والعربيـة ، النُّورَ الأدمى ، وتفقَّه بالأبنـاسى .. وبابن الملقِّن .. ولازم العزَّ بـن جماعة فى غالب العلـوم التى كان يُقرئهـا دهرًا .. وعن الجمال الماردانى المؤقت الحاسب ، واللغة عن المجد (مجد الدين الفيروز آبادى) صاحب القـامـوس .. والقـراءات عن التنوخـى .. وجَدَّ فى الفنـون حتى بلغ الغـايـة ، وحبب الله إليـه الحديث - النبوى - وأقبل بكليته عليه .. فعكف على الزين العراقى وتخرَّج به وانتفع بملازمته وقرأ عليـه ألفيته وشرحها ونكتـه على ابن الصلاح درايـةً وتحقيقًا .. وتحوَّل إلى القاهـرة فسكنها قبيل القرن (قبل سنـة ٨٠٠ هجرية) وارتحل إلى البـلاد الشاميـة والمصرية والحجازيـة ، وأكثر جـدًا من المسمـوع (من الأحـاديث) .. واجتمع لـه من الشيـوخ المشـار إليهم والمعـوَّل فى المشكلات عليهم ما لم يجتمع لأحدٍ من أهل عصره ، لأن كل واحـد منهم كان متبحرًا فى علمه ورأسًا فى فنه الـذى اشتهر به ، لا يُلحق فيه ؛ فالتنـوخى فى معرفة القراءات وعلـو سنده فيها ، والعراقى فى معرفة علوم الحديث ومتعلقاته ، والهيثمى فى حفظ المتون واستحضارها ، والبلقينى فى سعة الحفظ وكثرة الاطلاع ، وابن الملقِّن فى كثـرة التصانيف ، والمجد الفيروز آبادى فى حفظ اللغة واطـلاعه عليهـا ، والغمارى فى معرفة العـربية ومتعلقـاتها .. والعزُّ بن جماعـة فى تفنُّنه فى علـوم كثيرة بحيث أنـه كان يقـول: « أنـا أُقرىء فى خمسة عشر علمًا لا يعـرف علماء عصرى أسماءها » ؛ وأذن له جُلُّهم أو جميعهم - كالبلقينى والعراقى - فى الإفتاء والتدريس . وتصدى لنشر الحديث ، وقصر نفسه عليه مطالعةً وقراءةً وإقراءً وتصنيفًا وإفتاءً ، وشهد له أعيان شهوده

(علماء الحديث) بالحفظ ، وزادت تصـانيفه التى معظمهـا فى فنون الحديث ، وفيهـا من فنون الأدب والفقه والأصلين (الكتاب والسُّنَّة) وغير ذلـك ، على مائة وخمسين تصنيفًا ، ورُزق فيها من السعد والقبـول خصوصًا « فتح البـارى بشرح البخارى » الذى لم يسبق نظير أمـرًا عجبًا ، بحيث استدعى طلبه ملـوك الأطراف ، بسؤال علمائهم له فى طلبـه ؛ وبيع بنحو ثلثمائة دينار ، وانتشر فى الآفاق . ولما تم « فتح البـارى » لم يتخلف عن وليمة ختمه وجوهٌ من سـائر الناس ، إلا النادر ، وكان مصروف ذلك إليهـم نحو خمسمائة دينار[1] .. وكان - العسقـلانى - مصمِّمًا على عدم دخـوله فى القضاء ، حتى أنه لم يـوافق الصدر المناوى لما عرض لعيـه - قبل القرن - النيابة عنه (فى القضاء) ثم قُدِّر أن المؤيَّد ولاَّه الحكم فى بعض القضايا ، ولزم من ذلك النيابة، لكنه لم يتـوجَّه إليهـا ، ولا انتدب لها ، إلى أن عُـرض عليه الاستقـلال بالقضـاء ، وأُلزم .. فقبل واستقر .. وصرَّح بأنـه جنى على نفسه .. وزهد فى القضاء زهـدًا تامًّا ، لكثرة ما تـوالى عليه من الأنكاد والمحن بسببه ، وصرَّح بأنه لم تبق فى بدنه شعرةٌ تقبل اسم القضاء . ودرَّس فى أماكن .. ووُلِّى مشيخة البيبرسية ونظرها ، والإفتاء بدار العدل والخطابة بالجامع الأزهر ثم بجامع عمرو ، وخَزَنَ الكتـب بالمحموديـة ؛ وأشياء غير ذلك .. وأملى مـا يزيـد على ألف مجلس (من مجالس الحديث النبوى) من حفظه ، واشتهر ذكره ، وبَعُـد صيته ، وارتحل الأئمة إليه ، وتبجَّح الأعيان بالوفود عليـه ، وكثرت طلبته حتى كان رؤوس العلماء - من كل مذهـب - من تـلامذته ، وأخذ الناس عنه طبقةً بعد أخرى ، وألحق الأبناء بالآباء والأحفاد، بل وأبناءهم بالأجداد ، ولم يجتمع عند أحد مجمـوعهم ، وقهرهم بذكائه وتفـوُّق تصوره وسرعة إدراكه واتساع نظـره ووفور آدابه ؛ وامتدحـه الكبار ، وتبجَّح فحـول الشعراء بمطارحتـه ، وطارت فتـواه التى لا يمكن دخولها تحت الحصر - فى الآفـاق ، وحَدَّث بأكثر مرويـاته خصوصًا المطـولات منها[1] ، كل ذلك مع شـدة تـواضعـه وحلمـه وبهائه وتحريـه (الحــلال) فى مأكلـه ومشربـه وملبسـه

(١) انظر تفاصيل الاحتفال فى (البدر الطالع) للشوكانى ٢/ ٩٠ .

(٢) يقصد أنه اجتمع فى مجلس التعليم عدة أجيال فى وقت واحد .

(٣) يقصد : الأحاديث النبوية التى رواها ابن حجر عن السابقين بالإسناد .

وصيامه وقيامه ، وبذله وحُسن عشرته ، ومزيد مداراته ولذيذ محاضراته ، ورضى أخلاقه ، وميله لأهل الفضائل ، وإنصافه فى البحث ، ورجوعه إلى الحق ، وخصاله التى لم تجتمع لأحدٍ من أهل عصره . وقد شهد له القدماء بالحفظ والثقة والأمانة والمعرفة التامة والذهن الوقَّاد والذكاء المفرط وسعة العلم فى فنون شتى ، وشهد له شيخه العراقى بأنه أعلم أصحابه بالحديث (النبوى) وقال كُلٌّ من التقى الفاسى والبرهان الحلبى : ما رأينا مثله ، وسأله الفاضل تَغْرى برمش الفقيه : أرأيتَ مثل نفسك ؟ فقال : قال الله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم﴾. ومحاسنه جَمَّة ، وماعسى أن أقول فى هذا المختصر ، أو من أنا حتى يعرِّف بمثله ؟! خصوصًا وقد ترجمه (أرخ حياته) من الأعيان فى التصانيف المتداولة بالأيدى : التقى الفاسى فى ذيل التقييد[١] ، والبدر البشتكى فى طبقاته للشعراء ، والتقى المقريزى فى كتابه العقود الفريدة ، والعلاء ابن خطيب الناصرية فى ذيل تاريخ حلب ، والشمس ابن ناصر الدين فى توضيح المشتبه ، والتقى ابن قاضى شُهبة فى تاريخه ، والبرهان الحلبى فى بعض مجاميعه ، والتقى ابن فهد المكى فى ذيل طبقات الحُفَّاظ ، والقطب الخيضرى فى طبقات الشافعية ، وجماعةٌ من أصحابنا كابن فهد النجم فى معاجيمهم[٢] ، وغير واحد فى الوفيات ، وهو نفسه فى رفع الإصر[٣] ؛ وكفى بذلك فخرًا . وتجاسرتُ فأوردته فى معجمى والوفيات وذيل القضاة ، بل وأفردت له ترجمة حافلة لا تفى ببعض أحواله ، فى مجلد ضخم أو مجلدين ، كتبها الأئمة عنى وانتشرت نسخها ، وحَدَّثت بها الأكابر غير مرة بكلٍّ من مكة والقاهرة ، وأرجو كما شهد به غير واحد ، أن تكون غاية فى بابها ، سميتها : الجواهر والدرر (فى ترجمة ابن حجر) وقد قرأت عليه الكثير جدًّا من تصانيفه ومروياته ، بحيث لا أعلم من شاركنى فى مجموعها ، وكان ، رحمه الله ، يودنى كثيرًا ، وينوِّه بذكرى فى غيبتى - مع صغر سنى - حتى قال : ليس فى جماعتى مثله ،

(١) التقييد : كتابٌ مشهور لابن نقطة .
(٢) يقصد : فى معجم شيوخهم .
(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر ، لابن حجر - وقد أوردناه فيما سبق .

وكتب لى على عدة من تصانيفى ، وأذن لى فى الإقراء والإفادة - بخطه - وأمرنى بتخريج حديث ثم أملاه [1]. ولم يزل على جلالته وعظمته فى النفوس ، ومداومته على أنواع الخيرات ، إلى أن توفى فى أواخر ذى الحجة سنة اثنتين وخمسين (٨٥٢ هجرية) وكان له مشهد (جنازة) لم ير مَنْ حضره من الشيوخ ، فضلاً عمن دونهم ، مثله ؛ وشهد أمير المؤمنين والسلطان فمن دونهما الصلاة عليه ، وقَدَّم السلطان الخليفة للصلاة ، ودفن تجاه تُربة الديلمى بالقرافة ، وتزاحم الأمراء والأكابر على حمل نعشه ، ومشى إلى تُربته مَنْ لم يَمْشِى نصف مسافتها قط . ولم يخلف بعده فى مجموعه مثله ، ورثاه غير واحد بما مقامه أَجَلُّ منه ، رحمه الله وإيانا . ومن نظمه مما قرأته عليه وأنشدنيه لفظًا (من الطويل) :

خَلِيلِيَّ وَلَّى العُمْرُ مِنَّا وَلَمْ نَتُبْ ... وَنَنْوِى فِعَالَ الصَّالِحَاتِ وَلكِنَّا

فَحَتَّى مَتَى نَبْنِى بيُوتًا مُشَيَّدَة ... وَأَعْمَارُنَا مِنَّا تُهَدُّ وَمَا تُبْنَى

وقوله (من الطويل) :

أَخِى لَا تُسَوِّفْ بِالمَتَابِ فَقَدْ أَتَى ... نَذِيرُ مَشِيبٍ لَا يُفَارِقُهُ الهَمُّ

وَإِنَّ فَتَى مِنْ عُمْرِهِ أَرْبَعُونَ قَدْ ... مَضَتْ مَعْ ثَلَاثٍ ، عَدُّهَا : عُمْرٌ جَمُّ

* * *

والمخطوطة الفريدة - ولعلها الوحيدة - من كتاب (مختصر غبطة الناظر) محفوظة بالخزانة العامة بالرباط (المغرب) ضمن المجموعة رقم ٣٣٠/ د . وهى مكتوبة بخط مغربى دقيق ، وتقع فى ٤٤ صفحة ، وبها تآكل فى وسطها وأطرافها .. وتلك واحدة أخرى من (أفعال) الزمان ، فالظاهر أن المخطوطة دوِّنت فى زمن يعود للقرن العاشر الهجرى .



(١) يدل ذلك على ثقة ابن حجر فى السخاوى .



مخطوطة غبطة الناظر

(الورقة الأولى)

الورقة الأخيرة فى المخطوطة

مَسالِكُ الأبْصارِ فِى مَمالِكِ الأمْصارِ

لابن فَضْلِ اللهِ العُمَرِىّ

بدأت معرفتى بهذا الكتاب الموسوعى المخطوط ، أيام كنت أنقِّب فى تراث ابن النفيس وأتنسَّم أخباره فى كتب التاريخ وطبقات الرجال ، وكنت آنذاك فى ضيق شديد من قلة المصادر التى تؤرِّخ لابن النفيس ، ومن اكتفاء المؤرخين بتناقل عبارات بعينها ، عنه ، دون إضافة شىء جديد ؛ لكن الضيق تبدَّد ، واتسعت معرفتى بهذا العلامة العربى الكبير ، يوم وقعت على ترجمته الوافية وأخباره المطوَّلة فى موسوعة ابن فضل الله العُمَرى (مسالك الأبصار) إذ وجدت فيها أغزر المعلومات وأدق الوقائع الخاصة بابن النفيس ، مما فتح أمامى مجالات البحث فى حياة الرجل و إسهاماته العلمية ، وقد لاحظت أن ابن فضل الله العمرى ينفرد فى ترجمته لابن النفيس بأخبار لم ترد عند غيره من المؤرخين والمترجمين [1].

ثم عاودت الاعتماد على (مسالك الأبصار) أيام كنت أبحث فى أخبار عفيف الدين التلمسانى ، تمهيدًا لتحقيق ديوانه . ومرة أخرى وجدت ابن فضل الله العُمَرى ينفرد بذكر أشياء عن التلمسانى ، لم يرد ذكرها عند غيره ؛ ولكن شتَّان ما بين المرتين ! ففى ترجمته لابن النفيس ، بالغ ابن فضل الله العُمَرى فى ذكر فضائل الرجل ، ولم يورد فى الغَضِّ من شأنه إلا خبرًا واحدًا مفاده أن ابن النفيس كان قليل البصر بأمور العلاج - وهو الخبر الذى ظهر لنا تهافته بأدلة كثيرة ! - وفيما عدا ذلك فبقية الأخبار تمتدح فضائل ابن النفيس العلمية والذهنية . وعلى العكس تمامًا ، جاءت ترجمة العفيف التلمسانى فى (مسالك الأبصار) فباستثناء شهادة ابن فضل الله العمرى بجودة شعره ، جاءت كل الأنباء حاطّة من شأنه ، ولما كانت ترجمة

(١) تقع الترجمة فى الجزء السابع من مخطوطة (مسالك الأبصار) المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٩ / تاريخ - وقد نقلها د. بول غليونجى كاملةً فى آخر كتابه عن ابن النفيس (سلسلة أعلام العرب) ص ١٨٦ وما بعدها .

ابن النفيس فى مسالك الأبصار منشورة مشهورة [1] ، فسوف نورد هنا نص ترجمة التلمسانى التى لا نعتقد أنها نُشرت من قبل ، نوردها لنرى (كم) الأخبار التى يذكرها عنه ابنُ فضل الله العُمَرى و (كَيْف) الحكايات العجيبة التى يقصها عنه .. ولنتأمل فى الأسلوب البديع الذى يترجم به المؤلف للتلمسانى :

ومنهم العفيف التلمسانى ، وهو سليمان بن علىّ .. رجلٌ قُلَّب وسحابٌ ممطرٌ خُلَّب ، يباشر مرةً الخِدَمَ[2] ويثابر مرةً على التخلُّق بالندم ، ووقتًا حرصًا ووقتًا زهدًا ، وآونةً صَاباً وآونة شهدًا .

يتطوَّر فى هذا كله على غير نظام ، ويتنقل فى أحواله جميعها من غير استعظام ، مختلف الأحوال مؤتلف الأقوال ، يجيد الشِّعر لا لكلفٍ ولا نوال ، ويطوف بالطلل لا لـرَدِّ جوابٍ ولا سؤال ، يكلف بليلى ولا ليلى وأترابها [3] ، ويهيم بجَـزْوى ولا جَـزْوى ولا ترابها ، صَّرح بهواه المقيَّد الجمال المطلق ، وبرح به الحب ولا حِبٌّ يُعرف ولا مليح يعشق ، وإنما هى أسماءٌ سَمَّاها وأشياءٌ لا يدرك مُسَمَّاها ، وأمورٌ ادعى أنها الحقيقة[4] وهى الباطل ، وقد خَيَّلَتْه - لا بل خَتَلَتْه - وقال: إنها الطريقة[5] ، وسلكها جاهلاً لا يخبر أرضها فقتلته ، سلك طريقة القوم[6] بزعمه فأخطأها، واستسقى تلك السُّحُبَ فما قصد إلا أبطأها ، وظنَّ أنها المعارف وهى النُّكُر .. وَجَدَ فى زجاجة أهل الاتحاد[7] نفثةً شربها وحده ، وبقى فى خمارها حتى نـزل لحده . وتُحكى عنه ، سامحه الله ، أمورٌ متناقضة ، وأحوالٌ متعارضة ؛ وتمسُّكٌ بباطل ، وتنسُّكٌ من حُلية عاطل ، وتهتُّكٌ لا يليق بعاقل ، ولا يقبل عثرة ناقل ؛ هذا إلى ارتكاب عظايم ، واحتقاب حرايم ؛ لا

---

(١) انظرْ الهامش السابق .

(٢) أى أنه كان يخدم السلاطين ويتولى الوظائف العامة .

(٣) الإشارة إلى الرموز التى استخدمها التلمسانى فى شعره .

(٤) الحقيقة : مصطلح صوفى يقابل الشريعة .

(٥) أى طريقة الصوفية .

(٦) القوم : الصوفية والأولياء .

(٧) مذهب القائلين باتحاد الله والخلائق (العالم) فى وحدة تامة .

يزعـه وازع ولا ينزعه عن قبح فعـلاته نازع قليل المبـالاة لمحذور الفضائح ، ومحظـور القبائح ، والإصرار على المآثم الشنيعة والمحارم المخالفة للشريعة .

وبعد هـذه (الأوصاف) التى خلعهـا ابن فضل الله العُمَرى على العفيف التلمسـانى ، راح يحكى عنه من عجـائب الحكايات مـا لا يمكن تصديقه ولا يتمكّن البـاحث من تحقيقه ، بل يُتَشَكّك فى تصديقـه ! ثم يعاود ذكر (الأوصاف) فيقـول عن التلمسانى : ويُحكى عنه من هذا ومثله ، من سقوط الغَيْرة وعدم النخوة وقلة المبالاة ، وتساوى الخير والشر لديه والمدح والذم عليه ؛ ما تقشعرُّ منه الجلود وتعقم بمثله أمُّ الدهر الولود .. وكان على هذا كلّه ، وسرعة انجذابه فى يد مُضِلّـه ؛ أديب دهره ورقيب التخـوم على دُرّه . إلا أنه خلط شهـده بالسُّمِّ النـاقع ، وبنى بيوته فى القفار البلاقع .. إلخ [1].

هذه الحدة فى تناول سير الأعلام ، ما بين إعجاب مفـرط وانتقاص مدهش ، بالإضافة إلى الكثير من (الحكايـات) التى جمعها ابن فضل الله العُمَرى وهـو يترجم للأعلام - خـاصةً من كانوا قريبى العهد بعصره - وذلك الأسلوب الأدبى البديع الذى كُتب به (مسالك الأبصار).. كل هذا كان وراء اهتمامى بالكتاب ومؤلفه .

* * *

مؤلف (المسالك) وفقًـا لما اتفقت عليه المصادر ، هو : شهاب الـدين أبو العباس أحمد ابن يحيى بن فضـل الله بن مجلى بن دعجـان بن خلف .. بـن عمـر بن الخطـاب ، القـرشى ، العدوى ، الدمشقى ، الشافعى ؛ المعروف بابن فضل الله العمرى . ولدسنة ٧٠٠ هجرية،وتوفى ٧٤٩ هجرية دون أن يكمل الخمسين من عمره [2].

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ٧/ ٣٩٩ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمته فى :

الـدرر الكامنـة ١/ ٣٣١ - شذرات الـذهب ٦/ ١٦٠ - النجـوم الزاهـرة ١٠/ ٢٣٤ - معجم المؤلفين ٢/ ٢٠٥ - Brockelmann II 176 - 205/2

درس ابن فضل الله علوم عصره بالقاهرة ودمشق ، فسمع الحديث النبوى من كبار المحدِّثين آنذاك ، وأخذ الأدب عن والده وعن شهاب الدين محمود وشمس الدين ابن الصائغ الكبير وأبى حيان وابن الزملكانى والوادعى ، وتعلَّم فنون اللغة العربية على يد كمال الدين بن قاضى شُهْبة ، وقرأ الأحكام الصغرى على ابن تيمية ، والفقه عن برهان الدين الفَزَارى .. ويستلفت النظر فى قائمة شيوخ ابن فضل الله ، أنه درس على يد الفقيه الحنبلى المجاهد ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم ، تقى الدين ، المتوفى سنة ٧٢٨ هجرية) وأن ذلك كان فى شبابه المبكر - إذ توفى ابن تيمية وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، مما يعنى أنه درس على يده قبل ذلك ؛ لأن ابن تيمية قضى السنوات الأخيرة من عمره مشتغلاً بالجهاد الذى يعوق عن التدريس - وقد كان ابن تيمية يهاجم الصوفية بعامة والعفيف التلمسانى بخاصة ، حتى أنه كان يسميه (الفاجر التلمسانى !) فالراجح أن ابن فضل الله تأثر برأى شيخه ابن تيمية فى العفيف التلمسانى ، ولذلك انتقصه فى (المسالك) هذا الانتقاص الشديد . ومع ذلك ، فنحن نعتقد أن ابن فضل الله كان ميالاً لحشد الحكايات السائرة عن أعلام الرجال وهو يترجم لهم وقد مَرَّ علينا من قبل ما رواه عن البيطار من حكايات عجيبة [1] .

ونعود لسيرة ابن فضل الله ؛ فنراه بعد أن استكمل درس الفنون والعلوم المتاحة فى عصره ، يبزغ نجمه فى سماء الوقت ، ويشتهر أمره بين الرجال . يصفه العَسْقلانى بأنه « كان يتوقَّد ذكاءً، مع حافظةٍ - ذاكرة - قوية ، وصورة جميلة ، واقتدار على النظم والنثر ، حتى كان يكتب من رأس القلم - فورًا - ما يعجز عنه غيره فى مدة ، مع سعة الصدر وحُسْن الخُلُق وبِشْر المحيّا[2] » . وقد أَهَّلته هذه الصفات لتولى المناصب العامة ، فصار كاتب الإنشاء بمصر ، وناب عن والده فى وظيفة (كاتب السر) بمصر ، وكان يقرأ البريد للسلطان ؛ ثم وقعت له مع السلطان واقعة .

---

(١) راجع ما ذكرناه عند الكلام عن ابن البيطار ومخطوطته : قانون الزمان .

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٣٣٢ - وقد ذكر ابن العماد شيئًا آخر ، إذ وصف ابن فضل الله العمرى بأنه : كان قوى النفس وأخلاقه شرسة (شذرات الذهب ٦/ ١٦٠) .

كان السلطـان الناصر ينـوى إسناد منصب (كـاتب السِّرِّ بدمشق) إلى علم الـدين ابن قطب الدين ، وهو رجل نصرانى ، فلم يـرض ابن فضل الله العمرى وحط من شأن علم الدين عند السلطـان ، فلم يلتفت الناصر إليه .. فـواجه السلطان بكـلام غليظ وقام بين يده غـاضبًا فقال : إنى خدمتك على حرام ! فغضب السلطان عليه ، وأبعـده وصادر أملاكه وحدَّد إقامته بمنزله . فالتمس الـرحيل إلى الشام ، فتحركت حفيظة السلطان الناصر ضـده مرة أخرى وأمر باعتقـاله ، وهنـا زاد بعض الكُتَّاب الطين بلـةً ، وزعم أن ابن فضل الله حين كان كـاتبًا للسِّرِّ ، زوَّر توقيعًا .. فأمر السلطان باعتقاله وقطع يده ، فقطعت (.. صفحةٌ أخرى من كتاب العلاقة الدامية بين المثقف والسلطة فى تاريخنا العربى) .

وقضى ابن فضل الله العُمَـرى عامًا فى الاعتقـال ، مقطوع اليـد ، ثم أُفرج عنـه سنة ٧٤٠ هجرية ، واستدعاه الناصر وأخذ عليه عهدًا وأرسله إلى دمشق ليتولى كتابة السِّرِّ - مرة أخرى ! - فظل هنـاك عـامين يشغل ذلك المنصب ، لكنـه قُبض عليـه سنـة ٧٤٣ طُلب إلى القـاهـرة لمحـاكمته على الشكـايات الكثيرة التى قُـدِّمت فيه ، فشفع فيـه أخوه عـلاء الدين ، فعـاد إلى دمشق معزولاً .

وفى سنـة ٧٤٩ هجـريـة خرج ابـن فضل الله العُمَرى مـن الشام قـاصـدًا الحج ، وكـان الطاعـون منتشرًا ، فماتت زوجته فى الطريق فدفنهـا فى القدس ، ثم استكمل طريقـه إلى مكة ، لكنـه ما لبث أن أصيب بحمـى شديـدة ، جعلته يلفـظ أنفاسـه الأخيرة وهـو يقف بعرفـة مع الحجيج .. خاتمة طيبة بعد حياة حافلة ! .

وترك ابن فضل الله مجمـوعة من المؤلفات التى حفظ الـزمان لنا نسخها الخطيـة ، لكننا لم ننشر شيئًـا منها ، فمن ذلك : التعـريف[1] بالمصطلح الشريف (مخطـوطاتـه بمكتبات : دار الكتب المصرية ، ليبـزج ، الأسكوريـال) النبذة الكـافية فى معرفـة الكتابـة والقافيـة (ليبزج)

---

(١) ويُعرف أيضًا بعنوان : عرف التعريف .

مختصر قلائد العقيان (دار الكتب المصرية) رسالة تشتمل على كلام جُملى فى أمر مشاهير مماليك الفرنج عُبَّاد الصليب فى أيام نور الدين زنكى وأواخر دولة المماليك .. تلك هى مؤلفاته التى ذكرها بروكلمان فى موسوعته (تاريخ الأدب العربى) وذكر له العسقلانى وابن العماد : فواصل السَّمَر فى فضائل آل عمر .. وهو كتاب فى أربع مجلدات . أما حاجى خليفة ، فقد ذكر لابن فضل الله هذه المؤلفات السابقة ، وأضاف عليها :

- نفحة الروض .
- صبابة المشتاق (ديوان مدائح نبوية) .
- سفرة المسافر .
- ذهبية العصر (فى أخبار وأشعار أهل القرن الثامن) .
- دمعة الباكى ويقظة الساهى .
- الدعوة المستجابة .
- حُسن الوفاء لمشاهير الخلفاء .
- تذكرة الخاطر [٢] .

* * *

أما أشهر مؤلفات ابن فضل الله العُمَرى ، فهو كتابه الموسوعى الذى يقع فى ٢٧ مجلدًا (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) والذى يعد من روائع التراث العربى . وصفه ابن العماد بأنه « كتاب جليل ما صُنِّف مثله » وقال عنه ابن شاكر الكتبى: « كتاب حافل ما أعلم أن لأحدٍ مثله » وقال جورجى زيدان :

---

(1) Brockelmann II 175,176.

(٢) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، ص ٣٨٥ - ٦٦٨ - ٧٥٦ - ٧٦١ - ٨٢٩ - ٩٩٢ - ١٠٧٠ - ١٩٦٨ .

« مسالك الأبصار » .. موسوعة ضخمة فى بضعة وعشرين مجلدًا مخطوطًا ، من الكتب الهامة فى الأدب والتاريخ والجغرافية والتاريخ الطبيعى وغيرها ، منه أجزاء متفرقة فى مكاتب أوروبا ، لكن أحمد زكى باشا استحضر منه نسخة كاملة من مكتبتى أيا صوفيا وطوبقبو بالأستانة فى ١٦ جزءًا كبيرًا ، صفحاتها ٩٣٨١ ، وهو من حيث مواضيعه .. يقسم إلى قسمين: الأول فى الأرض ، أى الجغرافيا وما يلحقها ، والثانى فى سكان الأرض ، ويقسم هذا إلى ما يتعلق بالحيوان الناطق وغير الناطق ؛ فبحث فى الأجزاء الأولى منه ، فى التاريخ الطبيعى والجغرافية وما يتبع ذلك من مسالك الممالك والرياح وعجائب البر والبحر ومواقع مشاهير البلاد ، وخصوصًا مملكة مصر والشام والحجاز وترتيبها ونظامها ، واختص وأفاض فى منازل العرب كما كانت فى زمانه ، وأفاض فى وصف سكان الغرب وسكان الشرق ، وترجم رجالهم فى شكل التفاضل بين البلدين فأتى على تراجم الأطباء والعلماء والفقهاء وسائر رجال العلم والسياسة والإدارة فيهما ، وهو باب كبير ، ثم نظر فى غير الناطق والجماد ، وبحث فى العلوم الطبيعية كالمعادن والحيوان والنبات ، وتوسع فى وصف الطيور وسائر الحيوان . وقسم التاريخ حسب الأمم والبلدان على اختلاف الزمان والأصقاع إلى سنة ٧٤٤ ، هجرية ، ودقّق فى تواريخ المغول والهنود والأتراك والأكراد ، فضلاً عن الأمم الأخرى » .

ويقول الدكتور / محمد زكريا عنانى فى مقال له بعنوان « لماذا تبقى مسالك الأبصار دون تحقيق ؟ » : إن هذه الموسوعة تمثل الطابع الموسوعى بمعناه الشامل المستوعب الدقيق .. فإذا تركنا الإطار العام إلى ما هو أخص وأدق ، وجدنا أن الموسوعة نابضة بالوعى والجدة والدقة ، فمن أمثلة ذلك تناول المؤلف للبرهنة على أن الأرض كروية ، ولحركات الأفلاك وتقسيم الأقاليم ، وآراء العلماء فى الكواكب الثابتة والمتحركة وأبعاد الأرض ، خاصةً آراء هرمس وبطليموس والإدريسى ، وانتهى ابن فضل الله العمرى إلى أن الأرض « غير صادقة الاستدارة » وتناول الجبال ومنابع النيل ، وسَجَّل جهود المسلمين فى هذا المجال ، كما تحدث عن الآثار المبنية كالكعبة والمسجد النبوى وقبة الصخرة والهياكل والأهرامات والأديرة .. والرجل - ابن

فضل الله - يخوض فى التاريخ وفى الجغرافيا وفى الفلك وفى البحار والرياح والمعتقدات ، بل ويخوض فى أسماء التراب والعقار والرمال وصفاتها ، فتبهرك هذه الغزارة فى المادة ، والحصر والترتيب ، فإذا انتقل إلى مواد الأدب والتراجم ، وجدت الدربة والذوق والوعى الشامل لتاريخ الأدب وروائع النصوص ، ثم تجد مع عديد من المواقف الرأى والتمحيصَ والفكر الوهَّاج المستنير .

والمدهش ، أن جهود ابن فضل الله العمرى لم تقتصر على تدوين وتأليف هذه الموسوعة الهائلة ، بل له بالإضافة إليها عدة مؤلفات ! .

* * *

وهناك قدر كبير من النسخ الخطية لكتاب (مسالك الأبصار) وقد كان بدء الالتفات إليها - كالعادة - من جهة المستشرقين لا العرب ! فقد بدأ الاهتمام بالكتاب بعد أن لفت إليه الأنظار ، المستشرق الفرنسى « كاترمير » سنة ١٨٣٨ ، ثم قام شيخ العروبة « أحمد زكى باشا » بنشر الجزء الأول منه فى القاهرة سنة ١٩٢٤ .. الجزء الأول فقط .

وعاد المستشرقون لاهتمامهم بالكتاب ، فنشر المستشرق الألمانى « كلاوس لش » الباب الثانى من القسم الخاص بممالك جنكيزخان ، وصدر هذا الجزء سنة ١٩٦٨ فى مدينة فِسْبادن الألمانية .. والجزء الخاص بمملكة مصر والشام والحجاز واليمن فى زمن المماليك ، نُشر مرتين ! الأولى بعناية أيمن فؤاد سيد وأصدره المعهد الفرنسى بالقاهرة .. والثانية بعناية المستشرقة دوروتيا عرافولكس ، وأصدرته فى بيروت ! النشرة الأولى لهذا الجزء صدرت سنة ١٩٨٥ ، والنشرة الثانية لنفس الجزء صدرت سنة ١٩٨٦ بعد عام واحد .. ومع هذا ، فلا تزال أجزاء الكتاب الأخرى ، التى تصل بعد تحقيقها إلى قرابة الخمسين مجلدًا ، مخطوطة لم ينشر منها شىء! وهذه واحدة من المفارقات الهزلية فى واقع تعاملنا مع التراث العربى .. كتاب كهذا يظل حتى اليوم - بكل أجزائه - مخطوطًا ، ثم ينشر جزء صغير منه مرتين فى عامين متتالين ؛ فهل بعد ذلك فوضى ! .

ولاشك فى أن صـدور هذه الموسـوعة فى أجـزاء متفرقـة ، من الأمور التى ينبغى للعـرب المعاصرين أن يخجلوا منها .. فإذا كان إصدار هـذا الكتاب اليوم قد يكلِّف العرب بعض المال وبعض الجهـد ، فإن الكثير من المال ومن الجهـد ، يضيع من العرب المعـاصرين فيما هـو أقل منفعة من الاهتمام بالتراث العربى .. بل ، فيما هو تافه وجالب للخزى والعار .

بسم الله الرحمن الرحيم على الله توكلت

ثم لم يبق الا ذكر الشعر بالجانب الغربي

واول ما نبدا به منهم ابن سعيد، وهو المتاخر المجيد، المنتصر لجمعهم، والمقتصر على تحسين صنعهم، من اول المايه الرابعه، وساقهم الى زمانه في المايه السابعه، مرتبا على المبين، منظما لهم نظم العقد الثمين، واول ما قال اني اذكر ما صورته شعرا المغرب من اول الديار المصريه الى البحر المحيط، والجاهليه وما بعدها الى المايه الرابعه عطلة مما هو من شروط هذا الكتاب، ثم ذكرهم على الترتيب، وادخل مصر في قسم المغرب لسوء حظها العجيب، وقد زدنا على من ذكر ابن سعيد اضعافا مضاعفة ممن اهملهم اذ كان كتابنا هذا ولله الحمد على غير نمطه، ولا على حد مشترطه بل بينهما بعد المشرقين، وناى ما بين الخافقين، ولعل جملة كتاب المغرب تاليف ابن سعيد ومن قبله لا تجي حجمه قدر السدس، ولا فوايده الا دون السبع، هذا الى ما تضمنه كتابنا من علوم جمه، وامور مهمه، وتراجم اعيان هم الناس، وسير من شيت منهم واستطرد في الفيافي بما لا نخلّ به الا المنصف ولا نزيد فيه الا قول المحق لا المتعصب، وقد جعلنا المصريين في اخر الجانب الغربي منفردين على راياته وتراه، وعلى ما قضي به عليها سابق القدره و سوء الحظ الذي لا ينفع معه الحذر، فاما نحن اهل الغرب ممن ذكر ابن سعيد

[illegible marginal note]

[illegible marginal note]

تراجم شعراء المغرب

أول الجزء ١٧ من مخطوطة باريس

(المكتبة الوطنية ٢٣٢٧)

بخط المؤلف

فاولهم احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم الاموي مولاهم
جده سالم مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل ابو عمر صاحب كتاب العقد
وهو عقد كله جوهر ومعدن لا انه لما عنه اظهر ما غاص ما غالى
فيه الناس ولا شح بما نظر عليه لمن زانه بل حلى عقده اليمني عقد
من الذهب وحاجبه حصباء على رضف
الذهب وقد استقدته ابن سعيد شعرا المغرب في المرقص والمطرب
وقال ــــــ هو بالاندلس امام ادبائها وفارس شعرائها واذكر
من شعره قوله

يا ذا الذي خط العذار بخده خطين هاجا لوعة وبلابلا
ما كنت اقطع ان لحظك صارم حتى رايت بعارضيك حمائلا

وقوله وقال انه الذي لما سمعه المتنبي حكم له بانه شاعر الاندلس وهو

يا لؤلؤا يسبي العقول انيقا ورشا بتعذيب القلوب رفيقا
ما ان رايت ولا سمعت بمثله دررا يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه ابصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

ومن شعره قوله

الا انما الدنيا غضارة ايكة اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال الا فجائع عليها ولا اللذات الا مصائب
وكم سخنت بالامس عين قريرة وقرت عيون دمعها الان ساكب

توفي في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ومولده سنة ست واربعين ومائتين

الورقة الثانية من الجزء ١٧

زهدا واونة صابا واونة تهتكا يتضور في هذا كله على غير نظام ويتنقل
في احواله جميعها من غير استعظام مختلف الاحوال متلون الاقوال
عيل السعر لا الحبيب ولا النوال ويطوف بالطلل لا بذي حواب ولا سوال
كالف بليلى ولا لبنى ولا اترابها ويهيم بحزوى ولا حزوى ولا كثب
صرح بهواه المقيد الجمال المطلق ويرتج به للحب ولا حبيب ثم ولا مليح
يعشق وانما هي اسماء سماها واشيا لا يدرك مسماها وامور ادعى
انها الحقيقة وهي الباطل وقد تخيله لا بل تخيله وقال انها طريقة
و سلكها جاهلا لا يخبر ارضها فضلته سلك طريقة القوم بزعمه
فاخطاها واستسقى تلك السحب فما قصد الا ابطاها وظن انها المعارف
وهي النكر والسكر شراب القوم فزيد في السكر وجلى في زجاجة
اهل الاتحاد نقيه شربها وحق وبقى في خمارها حتى بان الحين وتخالجه
سامحه الله امور متناقضه واحوال متعارضه وتمسك بباطل وتنسك
من حليه بعاطل ويهتك لا يليق بعاقل ولا يقبل عن ذى نائل هذا الى
ارتكاب عظائم واجتناب حرائم لا يرعه وازع ولا ينزعه عن قبح فعاله
نازع بلبل المسالة بمحذور الفضائح ومحظور القبائح والاصرار على مأثم
الشنيعه والمحارم المخالفه للشريعه وحكى لي شيخنا شهاب
الدين ابو الثناء محمود قال سمعنا ه قصدناه في جماعة من الادباء فطرقنا
عليه الباب اذن لنا من داخل الدار بصوت رخيم كانه صوت امراه فدخلنا
اليه فرايناه قد خضب يديه ورجليه ولبس ثياب النساء عليه [illegible]

ترجمة العفيف التلمسانى فى المخطوطة



صورة قضبان الكرم

مخطوطة بلدية الإسكندرية ٣٣٥٥/ج

كُتبت أوائل القرن التاسع الهجرى

نهاية الإدراك في دراية الأفلاك

للشيرازي

فى فصل سابق تحدثنا عن العلاَّمة نصير الدين الطوسى (المتوفى ٦٧٢هجرية) باعتباره أحد العلامات المهمة فى تاريخ العلم العربى الإسلامى ، خصوصًا فى مجالى الرياضيات والفلك ، وقلنا هناك : إن الطوسى بعد أن بنى أعظم المراصد الفلكية فى عصره ، مرصد مراغة ، جمع فيه من علماء الفلك جماعةً من الفلكيين الذين تتلمذوا فى الفلك والرياضيات على يديه ، وعلى يد هؤلاء التلامذة امتدت مدرسة الطوسى الفلكية فى القرن الثامن الهجرى .. وقد كان من أهم رجال هذه المدرسة : الشيرازى .

هو قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الفارسى الشيرازى ، ولد فى شيراز سنة ٦٣٤ هجرية ، وتوفى فى تبريز سنة ٧١٠ هجرية ؛ بعد حياة حافلة بالعلم [١].

وهناك خلاف فى اسمه الأول ، بين (محمود) و (محمد) .. فهو فى طبقات الشافعية [٢] وفى بعض مواضع من كشف الظنون [٣] : محمد ؛ وفى بقية المراجع وأغلب المواضع من كشف

(١) جمع عمر كحالة (معجم المؤلفين ١٢/ ٢٠٢) مصادر الشيرازى ، فى : الأسنوى : طبقات الشافعية ٢/١٣٥ ، كتاب التراجم ١/١٢ ، مخطوطة الظاهرية رقم ٤٦١٦ / عام - طاهر الجزائرى : التذكرة ١/٣٢ مخطوطة الظاهرية رقم ٤٩ - ابن حجر : الدرر الكامنة ٤/ ٣٣٩ - ابن رافع السلمى ص ٢١٩- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣ - أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٤/ ٦٥ - السيوطى : بغية الوعاة ص ٣٩٠ - حاجى خليفة : كشف الظنون ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٦٨٤ ، ١٢٣٥ ، ١٤٧٧ ، ١٦٩٥ ، ١٧٦٣ ، ١٨٥٣ ، ١٩٨٥ - الشوكانى : البدر الطالع ٢/ ٢٩٩ - الخوانسارى : روضات الجنات ٢١٤ - طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ١/ ١٦٥ - جول رووانيت : تاريخ الموسيقى العربية ص ٢٣- رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى ص ١٩٩ - فهرست الخديوية ٥/ ٢٢٥ - الزركلى : الأعلام ٨/ ٦٥ - محمد أسعد طلس : الكشاف ص ٢٤ - كتبخانة ولى الدين ص ١٢٣ - كوبرلى زاده ٥/ ٥٦ - البغدادى: إيضاح المكنون ١/ ٢٥٠ - كونتش : فهرس المخطوطات المصورة ٣/ ١٠٧ - هدية العارفين ٢/ ٤٠٦ .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية ٦/ ٢٤٨ .

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون ص ٣٩٢ .

الظنون[1]: محمود ! وقد أدى ذلك بعمر كحالة أنه ترجـم للشـيرازى مرتين ، الأولى تحت اسم (محمد بن مسعود) والأخـرى تحت اسم (محمود بن مسعود) ولقد استفـاض فى الترجمة الثانية أكثر من الأولى[2]! .

وبعيدًا عن هذا الخلاف اليسير فى الاسم الأول للشيرازى - حيث يتضح أن (محمد) هو محض تصحيف وقع فيـه البعض - تتفق المصادر والمراجع على أنـه نشأ فى بيت علم ، فكـان لأبيـه وعمه اشتغـال بـالطب ، فقـرأ عليهم المعارف الطبيـة ، وتلقـاها أيضًـا من زكى الـدين البركشائى (أو : الركشـاوى) وشمس الدين الكتبى ؛ كان ذلك فى شبابـه المبكر .. وقد عمل الشيرازى فى ابتـداء أمـره طبيبًـا بمستشفى شيراز ، لكنـه مـا لبث أن تـاق لـدراسـة الفلك والرياضيات ، فسـافر إلى مراغة كى يدرس على نصير الدين الطـوسى ، حتى يُقال: إنه لم يفته شىءٌ من علوم الطوسى ، ولم يبق له حاجة علمية عنده[3].

وبعدما استكمل الشيرازى تحصيل العلوم ، تنقل فى ديـار الإسلام ؛ بل إنه زار بلاد الروم - حيث أكرمه حاكمها - ومصر ، ثم استقر فترة بسيواس وملطية ، وتولى هناك منصب القضاء كما تولى بعض المناصب الدبلوماسية ، وعمل سفيرًا لبعض الحكام . ويبدو أنه أقام فترة بمدينة (قـونيه) حيث أخـذ التصـوف وسمع كتاب (جـامع الأصـول ، للترمـذى) من شيخ قونيـه الشهير ، تلميذ ابن عربى وربيبه : صدر الدين القونوى .

واستقـر الشيرازى أخيرًا ببلاد المشرق ، واستـوطن تبريـز التى تـوفى بها . وكان امبراطـور المغول (غازان) يعظمه ويصله بالأموال ، حتى إن دخله السنوى بلغ ثلاثين ألف درهـم ؛ كان لا يدخر منها شيئًا ، بل ينفقها جميعًا على تلامذته كمعونة لهم على طلب العلم .

---

(١) راجع ترجماته المذكورة فى الهامش الأول من هذا الفصل .
(٢) عمر كحالة : معجم المؤلفين ، الجزء الثانى عشر ص ٢٠٢ ، ٢٠٢ .
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤/ ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

وكان الشيرازى شغوفًا بالموسيقى محبًّا للشطرنج [1]. يصفه ابن حجر بأنه : كان كثير المخالطة للملوك ، متحرزًا ؛ وكان ظريفًا مزَّاحًا لا يحمل همّاً ، ولم يغيِّر زى الصوفية ، وكان يجيد اللعب بالشطرنج ويديمه حتى فى أوقات اعتكافه .. إذا صنَّف كتابًا ، صام ولازم السهر ، ومُسَوَّدته مُبَيَّضة[2] ، وكان يخضع - يتواضع - للفقراء[3] ، ويلازم الصلاة فى الجماعة ، ويتقن الشعبذة ويضرب بالرباب ، ويورد الهزليات - النكات - فى دروسه ، كثير الشفاعات ؛ وكان بحرًا من بحور العلم ، وأجود علومه الرياضيات ، وكان أحد أذكياء العالم ، لقبه عند الفضلاء (الشارح العَلاَّمة) .. وكان فى الاعتقاد على دين العجائز [4]، يخضع للفقهاء ويوصى بحفظ القرآن ، إذا مُدح يخشع ، وكان يقول : أتمنى أن لو كنتُ فى زمن النبى ﷺ ، ولم يكن لى سمع ولا بصر ، رجاءَ أن يلحظنى بنظره .. وكان ذا مروءة وأخلاق حسان ومحاسن ، وتلامذته يبالغون فى تعظيمه [5].

وللشيرازى ، على ما يصفه ابن حجر ، صفاتٌ تبدو متناقضة . فهو متصوفٌ زاهدٌ من جهة ، ومن الجهة الأخرى ظريفٌ مَزَّاح يلقى النكات فى دروسه . وهو متدين كثير الخشوع والاعتكاف ، لكنه - أيضاً - محبٌّ للفنون يضرب الرباب ويصحب الشطرنج فى خلوة اعتكافه، ولا أدرى كيف ؟ فالشطرنج لا يلعبه الواحد منفردًا ، بل لابد من خصم ملاعب له ، فهل كان الاعتكاف جماعيًّا ! وهو يخالط الملوك ويجالس الصوفية .. مع أن الصوفية كانوا دومًا يحذورن من مخالطة الملوك . وهو بارع فى العلوم ، محب لتلاميذه ، مُغدق عليهم ، ومتفنِّن فى نفس الوقت فى اللهو « لا يحمل هَمَّ الدنيا » ويتقن الشعوذات ويُحكى عنه أن صفىَّ الدين المطرب غَنَّى له فمنحه ألفى درهم .. فهل هى صفات متناقضة ، أم هو التنوع الكبير فى

---

(١) معجم المؤلفين ١٢/ ٢٠٢ .

(٢) يقصد أنه كان لا يراجع ما يكتبه ويضعه فى صورته النهائية مرة واحدة .

(٣) يقصد : الصوفية .

(٤) يقصد أنه كان يبتعد عن الخوض فى قضايا الدين ويقبله كمسلَّمات .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤/ ٣٤٠ .

الشخصية الإنسانية التى لا تخلو فى عموم البشر من سمات تتنوع حتى درجة التناقض ؟ وهل يمثل الشيرازى « حالة فريدة » بين علماء الإسلام ، أم أننا تعودنا على صورة العلماء جادين إلى درجة التجهُّم ؟ وهل هذه هى الصورة الحقيقية للعلماء ، أم أن المؤرخين احتفظوا فقط بالصورة الجادة لهم مع إسقاط الجانب المَرِحِ من حياتهم ؟! تلك تساؤلات تدعو للتأمل .

وترك الشيرازى مجموعة كبيرة من المؤلفات (تتنوع) بين أكثر من تخصُّص ، ففيها التفسير والطب والفلك والفلسفة والتصوف والمنطق . وقد ذكر لـه حاجى خليفة وكارل بروكلمان هذه المؤلفات :

- شرح حكمة الإشراق ، للسُّهْرَوَرْدى (فى التصوف)
- فتح المنان فى تفسير القرآن (= تفسير العلامى) يقع فى أربعين مجلدًا .
- حاشية على كتاب (الكشَّاف عن حقائق التنزيل ، لجار الله الزمخشرى - فى التفسير) يقع فى مجلدين .
- مشكلات التفاسير .
- شرح مفتاح العلوم ، للسكَّاكى (= مفتاح المفتاح) .
- شرح مُنتهى السؤل والأمل فى علمى الأصول والجدل ، لابن الحاجب .
- شرح التذكرة فى علم الهيئة ، للطوسى .
- غرة (درة) التاج فى الحكمة .
- شرح حكمة العين للكاتبى القزوينى .
- فعلتُ فلا تلم ! .
- شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا .
- مشكل الإعراب .
- رسالة فى إثبات الواجب (الله) .
- رسالة فى النار الفارسية .

- الزيج الجديد الرضوانى .
- الزيج السلطانى .
- رسالة فى حركة الدحرجة .
- شرح كليات كتاب القانون لابن سينا .

أما أشهر مؤلفات الشيرازى ، فهما كتابان فى الفلك : التحفة الشاهية فى الفلك .. نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك . وكلاهما لا يزال فى نسخه الخطية ، كبقية مؤلفات الشيرازى التى لم يُنشر منها حتى اليوم صفحةٌ واحدة ، وأظن أن الشيرازى نفسه لم تكتب عنه إلى اليوم صفحةٌ واحدة فى بحث علمى معاصر ! .

* * *

نالت كتب الشيرازى الفلكية من القدماء اهتمامًا كبيرًا ، فقام علاء الدين القوشجى والسيد الشريف الجرجانى بشرح كتاب (التحفة الشاهية) وقام سنان باشا بشرح (نهاية الإدراك) . ومما يشهد باهتمام العلماء القدماء بالكتابين ، ذلك الاعتناء الكبير بنسخهما ، حتى توفرت لهما نسخ خطية كثيرة - لم نهتم نحن بها ! - فقد ذكر بروكلمان من مخطوطات (نهاية الإدراك) هذه النسخ الخطية : مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٥١٧/٨ ، مخطوطة المكتب الهندى بلندن رقم ٧٦٩٣ ، مخطوطة مانشستر رقم ٧٥١/ ن ، مخطوطة مكتبة سليم أغا رق ٣٨١ ، مخطوطة مكتبة كوبرلى زاده رقم ٩٥٧/ ٧ ، مخطوطة مكتبة فايز بك رقم ١٣٤٩ ، مخطوطة مكتبة داماد إبراهيم رقم ٨٥١ ، مخطوطة مكتبة لا له لى رقم ٢١٤٥ ، مخطوطة مكتبة ينى جامع رقم ٢٢١/ ١١ ، مخطوطة طبقا بو سراى رقم ٣٣٣٣/ ٤ ، مخطوطة الموصل رقم ٧١ ، نسخة أخرى بالموصل رقم ٢٣٥ ، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٢٥ ، مخطوطة مكتبة الأصفية رقم ١٢١٤ / ١١ ، مخطوطة مكتبة بنكيبور رقم ٢٠٦٠ / ١ .. إلخ . وإذا تأملنا فى هذا القدر من النسخ الخطية ، لاتضح لنا مقدار اعتناء العلماء المسلمين بالكتاب من جهة ، ولاتضح لنا - من الجهة الأخرى - أن أغلب هذه المخطوطات محفوظ الآن فى مكتبات أوروبا!

فقد تسربت النسخ الخطية إلى مكتبات العالم أيام الاستعمار ، وسطا المستشرقون عليها كما سطوا على غيرها ، فأودعوها جميعًا فى مكتبات بلادهم على غفلة من أصحابها الوارثين .. وهكذا صار تراثنا المخطوط ، اليوم ، ملكًا لغيرنا لا نطمح أن نسترده .

* * *

وحديثنا عن المخطوطة فيما يلى ، نعتمد فيه على النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة كوبرلى زاده باسطنبول ، تحت رقم ٩٥٧ ، وهى نسخة جيدة ، مزدانة برسوم هندسية دقيقة .. وتبدأ هذه النسخة بما يلى :

« يقول أحوج خلق الله إليه ، محمود بن مسعود الشيرازى ، ختم الله له بالحسنى ؛ أما بعد حمد الله فاطر السموات فوق الأرضين عبرة للناظرين المتوسمين ومزينها بزواهر الثوابت والمتحيرين (يقصد : الكواكب المتحركة) إلهامًا لدقائق صنعه فيها قلوبَ المستنصرين ، والصلاة على سيد الأولين والآخرين محمد ، وآله الطيبين الطاهرين . فإنى قد كنت برهةً من الزمان ، عازمًا على أن أحرِّر لنفسى ، ولسائر الإخوان ، فى علم الهيئة .. » .

وعلى عادة المؤلفين العرب فى كل التخصصات ، نرى الشيرازى وهو يؤكد فضل تخصُّصه، ويجعله أشرف العلوم ! ويقرِّر ذلك بقوله : « إن شرف العلم ، إما بِكون معلوماته ثابتةً باقية غير متغيرة ، أو بِكون الطرق المؤدية إليها (أى : إلى المعلومات) طرقًا يقينية مبرأةً عن شوبٍ بمظنون ، أو بكثرة فوائده ؛ وهذا العلم الذى نحن بصدده قد اجتمع له الفضل من هذه الجهات كلها .. » ثم يصف كتابه بأنه : « رسالة مغنية عن غيرها ، مشتملة على زبدة المبسوطات المؤلفة ، ولباب المجموعات المصنفة فى تركيب الأفلاك ، ومحتوية على ملخص ما وصل إليه ومحصل ما انتهى عنده منتهى الإدراك ، بحيث تكون تبصرةً للمبتدى وتذكرة للمنتهى ، بل عمدة لأولى الأبصار وغاية لذوى الأفكار » .

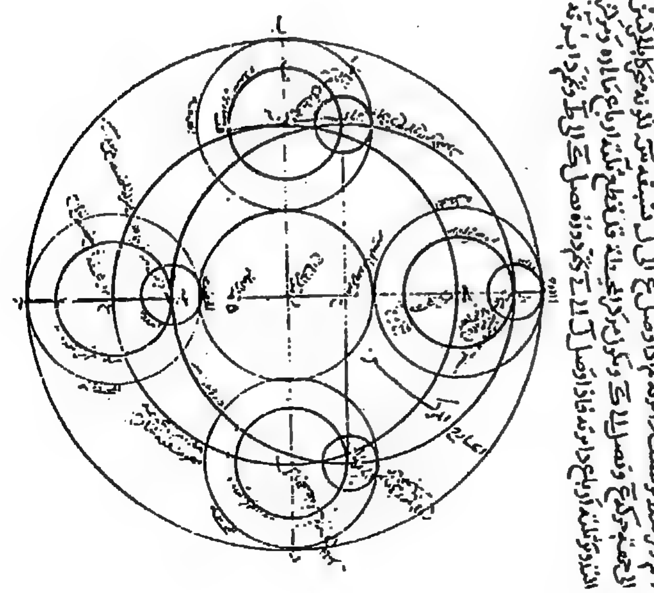
وقد أهدى الشيرازى كتابه – كما جاء فى المقدمة – إلى بهاء الدين محمد الجوينى ، قائلاً :

« رأيتُ أن أجمع الكتاب المذكور برسمه ليكون باقيًا طول الدهر كاسمه .. إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً » وإهداء العلماء العرب مؤلفاتهم إلى الولاة والوزراء وسائر الحكام ، أمر كان شائعًا فى القرون الماضية ، وهناك عدد لا حصر له من المخطوطات تشهد بذلك ، منها ما هو مثبتٌ للإهداء فى العنوان ، مثل « الذخيرة الخوارزمية » التى أهداها البيرونى للسلطان خوارزم شاه ، ومنها ما يثبت الإهداء فى المقدمة كمخطوطة الشيرازى التى نتحدث عنها . . وهذا الأمر - فى مجمله - يشهد بالاتصال الوثيق بين العلماء والحكام فى القرون السابقة ، فقد أولى الحكام عنايتهم الكبيرة للعلم والعلماء ، فكان افتخار أحدهم وشهرته ، بقدر رعايته لأهل العلم والأدب .. وهى مسألة استغنى عنها حكام اليوم بوسائل الإعلام ! .

ونعود للمخطوطة ، فنرى الشيرازى وهو يضيف أنه ، حين شرع فى تأليف « نهاية الإدراك» أشار إليه صديقه محمد بن عمر البذخشانى بضرورة أن يضم للكتاب شيئًا من الأرصاد الفلكية وكيفية استخراج حركة الثوابت والمتحركات فى الفلك ، وهو ما يعرف عند العرب بعمل « الأزياج » .. وأن تكون الألفاظ سهلة ظاهرة ليس فيها غموض ولا انغلاق ! يقول الشيرازى : فتلقيت مرسومه وأسعفت مأموله ، جمعًا بين المصلحتين واستزادة للعنايتين .

لكن الشيرازى يبالغ فى تقدير قيمة كتابه مبالغة كبيرة حين يذكر فى وصف الكتاب ما نصه : ولما كان هذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، ولا آتيةً أو شريدةً إلا سخرها وأدناها ، لاشتماله على نهايات أفكار الأولين من المتقدمين والمتأخرين . إلخ » وهى - لا شك - ثقة كبيرة فى الذات ، واعتداد كبير بالنفس ؛ ولا نستطيع أن نحكم على هذه الثقة وهذا الاعتداد ، إلا بعد نشر الكتاب محققًا ، وبحث موقعه ومكانته فى تطور علم الفلك .





بعض الرسوم الهندسية

والجداول الفلكية

فى مخطوطة الشيرازى

بسبب الاقبال والادبار اما الوهني حركته مقدار يعني تقارب المنطقتين بعد بحركة الميل
لحتى كثيرا زال عنه هذا الفساد واما الاختلاف في الحركة الثانية فان الذي يلزم لو ارتسمت
من كل نقطة معينة من منطقة البروج كراس السرطان مثلا الصغيرة المذكورة على ما توهموا لكن
لا ارتسام دائرة تامة موازية لمنطقة الوسطاني من كل نقطة معينة منها استحيل ارتسام
الصغيرة منها وكذا الاختلاف لحركة الثانية للوهاد يا مقداره في حد مركب حركتي الثامن والوسطاني
… من ان في تحت حركة الوسطاني الحال التوالي والى ما بعد ان … الى التوالي
فان قيل هي ارتسام الصغيرة المذكورة لكن يرتسم من النقط الغير المتناهية
التي يقوم كل منها في كل آن مقام راس السرطان شكل الاهليلجي يقوم مقام قطره الاصغر
مقدار ثمان درجات من الجانبين وهو منتصف هذا القطر على محيط منطقة الوسطاني
ومقام قطره الاطول تقريبا قوس من منطقة الوسطاني يقع من الآن بالاقطاب
اذا تحرك … حركة الوسطاني … ومنها اذا تحركت … ولان راس
السرطان يتقدم ويتأخر بقدر قطره الاطول وكذا

نقاط البروج والمعدل تختلف فتنتقل
اربابه البروج عن محاذاة …
وتعود الى ما كانت قبل تمام الدور
ويلزم منه الاقبال والادبار
على ما ذكر منه الاختلاف
الحركة الثانية قلنا
اما صورة الشكل الاهليلجي
فهو تصور في غاية الحسن
على ما يظهر من هذا الشكل
واما استلزام الاقبال
والادبار على ما ذكروا
وهو ثمان درجات
واستلزامه اختلاف الحركة الثانية فممنوع

صفحة من المخطوطة

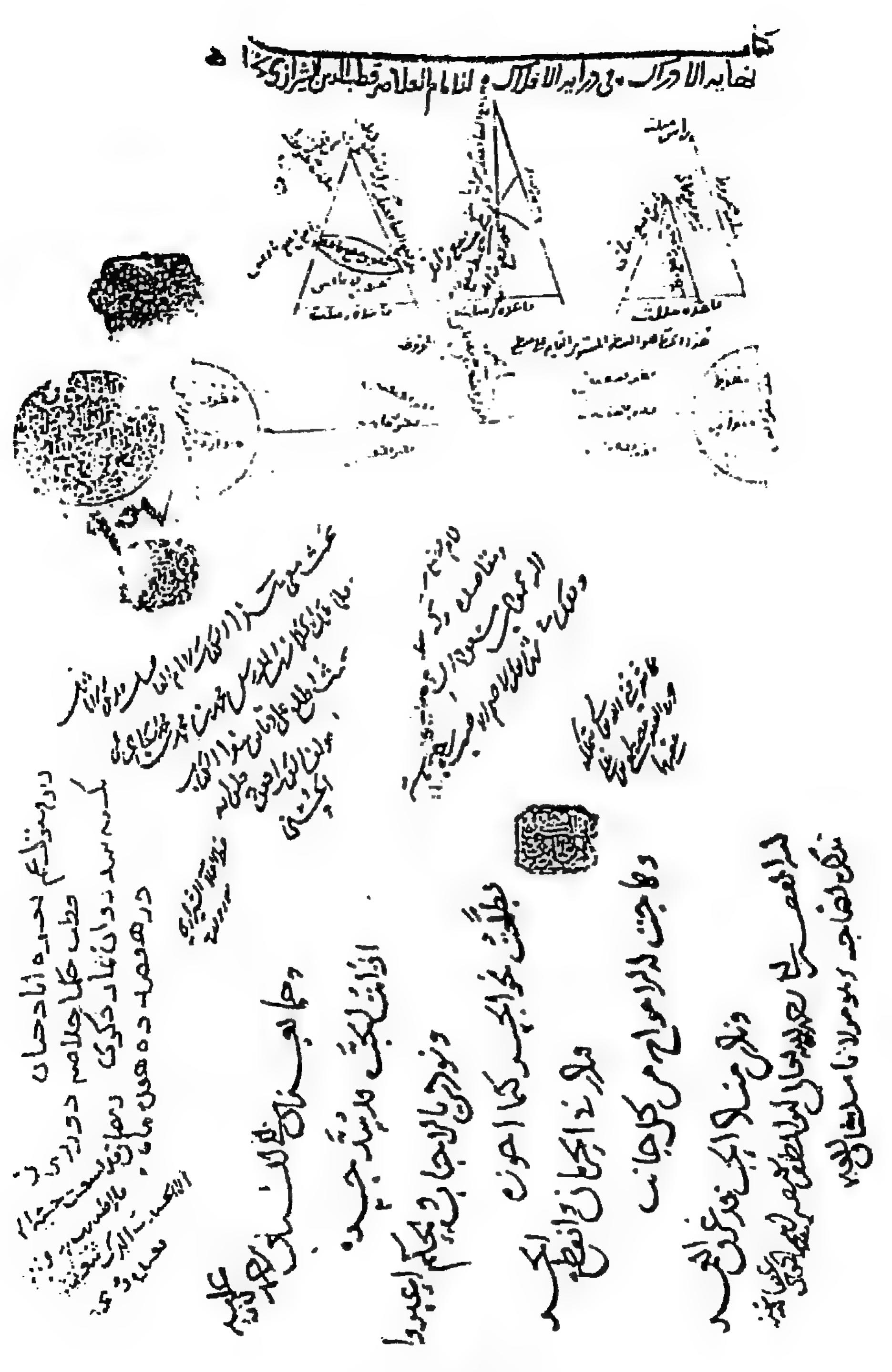
(شكل الأهليلج)

بسم الله الرحمن الرحيم رب أنعمت فزد
يقول المحتاج خلق الله إليه محمود بن مسعود
الشيرازي ختم الله له بالحسنى

أما بعد حمد الله فاطر السموات وفوق الأرضين عبرة للناظرين المتوسمين
ومزينها بزواهر الثوابت والمتحيرين الهاما للذاهبين صنعه فيها قلوب المستبصرين
والصلوة على سيد الأولين والآخرين محمد وآله الطيبين الطاهرين فإني قد كنت
برهة من الزمان عازما على أن أحرر لنفسي ولسائر الإخوان في علم الهيئة التي فاز بالسعادة
عالمها وانغمس في الشقاوة جاهلها لكونه أشرف العلوم لأن شرف العلم إما بكون
معلوماته ثابتة باقية غير متغيرة أو بكون الطرق الموصلة إليها طرقا يقينية مبرأة عن
شوب مظنون أو بكثرة فوائده وهذا العلم الذي نحن بصدده قد اجتمع له
الفضل من جهاته كلها لثبات موضوعاته على حسن نظام وأتم دوام على ما لا يخفى
وكثرة فوائده على ما لا يحصى ووثاقة براهينها لكونها عددية أو هندسية لا سبيل
فيها إلى خلاف براهين الطبيعي والإلهي ولهذا لم يرج اتفاق الحكماء فيهما ووافقت
هي أمثالها من الفنون الجمة لما استند لها من العلوم الحكمية بجمع رسالة
مغنية عن غيرها مشتملة على زبد المبسوطات المؤلفة ولباب المجموعات المصنفة
في تركيب الأفلاك ومحتوية على ملخص ما وصل إليه ومحصل ما انتهى عنده منتهى
الإدراك بحيث تكون تبصرة للمبتدي وتذكرة للمنتهي بل عمدة لأولي الأبصار
وغاية لأذكياء الأفكار وكانت العوائق شاغلة إياي دونه حائلة بيني وبينه
إلى أن استسعدت بعد آونة من الدهر وملاوة من العصر وقد ضيق بنفسي
مضض العناء ونبهها خطوب معضلة الدواء ولم يكن من نعم الأماني إلى قلبي
سبيل ولا للسلو لمحنتها هادية دليل بالاتصال ثانيا إلى عالي جناب من هو
خلاصة الدهر ونخبته وصفوة العصر وزبدته أعني تبع حضرة من هو
للزمان ميمنته ولأهله مجنته ومن الجلال بهاؤه وبهجته ومن الكمال
تفصيله وجملته شجرة ظاهرها حسن وباطنها تقي وروضة أمر وطاعته مني
فماضر الأوحدية [illegible] لقد طاب منها الأصل والفرع مجتنى

المقدمة

الورقة الأولى من المخطوطة


كتاب نهاية الادراك في دراية الافلاك للامام العلامة قطب الدين الشيرازي

مخطوطة نهاية الإدراك

صفحة العنوان

الوُرَيْقَاتُ فِي المَنْطِقِ

لابن النفيس

لابن النفيس مكانةٌ خاصة فى تاريخ العلم العربى ، بل الإنسانى على وجه العموم .. وله فى نفسى تقديرٌ عظيم ؛ فقد انشغلت به وبتراثـه طيلة السنوات التسع الماضية ، وأبحرتُ كثيرًا فى جملة مؤلفاته التى تقع فى آلاف الصفحات ، ويضمها قرابة مائة مجلد - المطبوع منها ثمانية ، والباقى مخطوط - فكنت ألمس عن قرب ، عبقرية الرجل المتجلية فى أعماله المطبوعة والمخطوطة ، وأتأكد مع الأيام من أننا نظلمه كثيرًا حين نقصر التعريف به على أنه ، فقط : مكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل هارفى ، فالحقيقة أن لابن النفيس اكتشافات أخرى ، ونظريات لا تقل أهمية عن اكتشافه للدورة الدموية الصغرى ، بل والكبرى .. وللأمر تفصيلٌ يأتى .

ويزداد إعجابنا بابن النفيس حين نتعرف إلى الواقع شديد الاضطراب الذى عاش فيه - على نحو ما سنعرضه بعد قليل - ومع ذلك لم يقعد به هذا الواقع عن مواصلة جهده العلمى الجبار .. ولعلها تكون حُجَّة لنا اليوم ، نواجه بها المُثَبِّطين المهووسين بترديد عبارات مثل : ليس هذا زمن الإبداع العربى .. ليس فينا فيلسوف عظيم .. لا فائدة من أى اجتهاد .. وغير ذلك من الأقاويل التى بلغت منتهاها على لسان أستاذ معاصر ، قال : إن أقصى ما نطمح إليه اليوم، هو أن نكون (سوبر ماركت) لأفكار الغرب ، ولا داعى لأية محاولات إبداعية ! على مثل هذه الأقاويل ، حسنة النية أو خبيثتها ، نرى ابن النفيس حُجَّة مبطلة تدفعنا للعمل - كما عمل هو - رغم أنف أحوال الزمان .

وربما كان إعجابى بابن النفيس وتقديرى له ، وراء اختيار مخطوطته هذه لتكون موضوع الفصل الأخير من الكتاب ، فيكون ذلك مسك ختامه واختتامه .وهى مخطوطة فى المنطق ،

فلعلنا بها نستشعر أهميـة المنطق والتفكير المنطقى فى خضم هذه الفوضى المعـرفية التى تشملنا اليـوم ، أو نُشمل بها ! وعلى أى حال ، فإن الترتيـب الألفبائى لعنـاوين فصـول / مخطوطـات الكتاب ، قد جـاء بمخطوطة (الوريقات) فى هذا الموضع الاختتـامى .. فلنبدأ الآن فى الكلام على المنطق ، ثم نلقى الضوء على ابن النفيس ومخطوطته .

* * *

كـانت الحضــارات القـديمــة تستنـد - ولا شك - للمنطق ، لكن الفضل يــرجع إلى الفيلسـوف اليونـانى العظيم أرسطـو (أرسطا طـاليس) فى بيـان مبـاحث المنطق واستقلالـه كمعرفة خاصة مستخلصة من عصارة العقل الإنسانى الذى كان قد بلغ قمة تطوره آنذاك عند أرسطو .. كان أرسطو يقسم المعرفة الإنسانيـة إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم منها ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام ، كالتالى :

أولاً : العلوم النظرية Theoretical التى تضم الرياضياتMathematics والطبيعة Physicsوما بعد الطبيعة Mitaphysics.

ثانيًا : العلوم العمليةPracticalوتضم الأخلاق Ethics والسياسة Politics والاقتصاد Economy .

ثالثًا : العلوم الشعرية Poetical وتضم الموسيقىMusic والشعر Poetryو العمارة Architecture .

وبالإضافة إلى هـذه الأقسام الثلاثية ، وضع أرسطو مجموعـة من الأبحاث التى لا تدخل ضمن مباحث أحد العلوم .. بل هى آلة كل العلـوم ، وأسماها أرسطو (الأورجانون) وسميت بعده بالمنطق Logic. ويضم أورجانـون أرسطو ، أو مجموعـة كتبه المنطقيـة ، ست كتب رئيسية هى :

١ - كتاب المقولات Categories ويعالج التصورات الأساسية .

٢- كتاب التأويل Interpretation ويهتم بتحليل القضايا والأحكام .

٣ - التحليلات الأولىThe First Analytical ويتناول عملية القياس .

٤ - التحليلات الثانية The Second Analytical ويعالج عملية البرهنة .

٥ - كتاب الجدل Topics ويعرض للبرهان الاحتمالي .

٦ - كتاب تفنيد الأغاليط Sophistical Refutations ويدرس الرد على الحجج السفسطائية والمغالطات[١].

ومع أن أرسطو كان يعرف المنطق المادى الاستقرائى Inductive Logic الذى يعتمد على حصر الوقائع الجزئية وإصدار حكم عام عليها جميعًا ، إلا أنه كان أكثر اهتمامًا بالمنطق الصورى Formal الذى يركز على صورة الفكر واتساق المقدمات والنتائج المستخلصة منها ، دون اعتناء كبير بمادة الفكر وصدق النتيجة فى الواقع التجريبى .. ففى القياس الأرسطى يمكن أن نقول :

كل العرب أحرار	= مقدمة كبرى
كل المصريين عرب	= مقدمة صغرى
∴ كل المصريين أحرار	= نتيجة

هذا القياس يعتبر صحيحًا من وجهة نظر المنطق الأرسطى الصورى ، ولا يقدح فى ذلك حقيقةُ أن كل العرب ليسوا أحراراً فى الواقع الفعلى ، ولا كل المصريين أحرار .. لكن أرسطو لا يأبه بصحة النتائج فى الواقع التجريبى الفعلى ، وإنما يهتم بصحة (صورة) القياس واستنباط النتيجة من المقدمتين بعد استبعاد الحد الأوسط (عرب) منهما[٢] . بعبارة أخرى ، كان أرسطو

---

١) د. ماهر عبد القادر : المنطق ومناهج البحث (دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٥) ص ١٢ .

(٢) بخصوص المنطق الأرسطى ، يمكن الرجوع إلى :

- د. على سامى النشار : المنطق الصورى (منشأة المعارف - الإسكندرية)
- د. عبد الرحمن بدوى : المنطق الصورى والرياضى (النهضة المصرية - القاهرة) .
- نقولا ريشر : تطور المنطق العربى ، ترجمة د. محمد مهران (دار المعارف - القاهرة) .
- روبر بلانش : المنطق وتاريخه ، ترجمة خليل أحمد خليل (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر -بيروت)
- د. محمدمهران : مدخل إلى المنطق الصورى (دار الثقافة - القاهرة) .

يبحث عن النتائج فى الـذهن لا فى الواقع ، فى الصـورة لا فى المادة ، فى الاتساق لا فى الخبرة .. وكأنه قـد استوعب كل المعارف فى ذهنـه ، ولم يبق له إلا توليد المزيـد من المعرفة ممـا هو مخزون أصلاً فى العقل ! ولسوف يُهاجم منطق أرسطو بعد ذلك هجـومًا شديدًا ، ويوصف بأنه منطق عقيم لا يؤدى إلى تطوير المعـرفة ولا يؤدى إلى جديد . لكن المناطقـة المعاصرين سوف يعودون مرة أخـرى إلى بنية المنطق الصورى الأرسطى ليضعوهُ فى إطـار رمزى يتخذ الشكل الـرياضى ؛ يقول الـدكتور مـاهر عبـد القادر : حرص أرسطـو على دراسة المنطق الصـورى بطريقـة دقيقة جادة، وأما المنطق الاستقرائى فقد تضاءل الاهتمام به نظرًا للجاذبية الخاصة للمنطق الصورى ، ولاهتمام أتباع أرسطو وشراحه بالأفكار الأرسطية المتعلقة بالمنطق الصورى ؛ كما حرص مناطقة العصـور الوسطى على دراسـة الفكـر من حيث صورتـه ، ولم يظهـر الاهتمام بدراسـة الجانب المادى (الاستقرائى) من المنطق إلا فى مطلع العصر الحديث مع أبحـاث فرنسيس بيكون ؛ ثم حـدث أن تطور العلم فى شتى فـروعـه ، وجرت محاولات علميـة من جـانب المناطقـة وعلماء الرياضيات ، ابتداءً من القرن السابع عشر ، لربط المنطق بالرياضيات ، وفى نهاية الأمر تُوِّجت كل تلك المحـاولات بكتاب مبـادىء الريـاضيات Principia Methematica الذى أصـدره برتـراند رسل وألفـرد نورث هوايتهـد فى الأعوام ١٠-١٩١٣ فى ثلاثـة أجزاء بـات المنطق فيها يرتـدى ثوب الرياضيـات وأصبحت الرياضيات لا تنفصل عن المنطق ، وفقـدت النقطة التى ينتهى عندها المنطق وتبـدأ منها الرياضيات ؛ وهنا اكتمل نمو المنطق الـرياضى بعد صراع مع التقليد[١].

تلك هى - باختصار - مسيرة المنطق فى العـالم الغربى ، وهناك مسيرة أخرى للمنطق فى تراثنا العربى الإسلامى .

* * *

عرف العرب المسلمون منطق أرســطو مع فجـر حضـــارتهم ، تلك الحضارة التى كانت (الترجمة) إحدى دعاماتها الأولى ، فحين بدأ العرب ترجمة علوم السابقين عليهم - بلاد الشرق

---

(١) د. ماهر عبد القادر ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

ومصر واليونان -- كان من الطبيعى أن يترجموا المنطق ، إذ كـان اهتمامهم بالعلوم ، والمنطق هو : آلـة العلوم .. وهكـذا يمكن القول : إن انشغـــال العـرب آنذاك بـالمنطق ، لم يكن باعتبـــار المنطق (علـم) أو (فن) مستقلاً بذاته ، وإنما لاعتباره بمثابة (مقدمة) للعلوم .

وفى بيت الحكمة ببغداد ، تلك المؤسسة التى رعاها الخلفاء العباسيون ، قام أشهر مترجم فى تـاريخ الإسلام (حنين بن إسحـاق) بتشجيع من المأمون بن هـارون الرشيـد ، بترجمة جميع كتب أرسطـو المنطقية ، وقـد كانت بعض هـذه الكتب قد تُـرجمت قبل ذلك ، لكنها تـرجمات ضعيفـة غير كاملـة كتلك التى أنجـزهـا حنين بن إسحاق .. ثـم قام المسلمـون بترجمة شروح المنطق التى دوَّنها كبـار شُرَّاح أرسطو من أمثـال تلميذه وخليفتـه ثيوفـراسطوس ، والإسكنـدر الأفروديسى ، وفرفوريوس الصورى ، وثامسطيوس .

وظل الاهتمام العربى / الإسلامى بالمنطق يتسع ، حتى جـاء القرن الرابع الهجرى ليكون للمنطق منذ ذلك الحين كيانه المستقل فى المحيط المعرفى ، لا بـاعتباره مقدمةً لازمة لكل علم ، فحسب ، وإنما كعلم خاص له رجاله[1] ومدارسه وطرقه المتعددة .

ومع استقـرار المنطق ، كعلم ، بين أصنـاف العلوم عنـد العـرب ؛ كانـت هناك مـواقف متباينة من منطق أرسطو ، واختلف فيه أعلام العلماء بين مؤيد ومعارض ، واشتهرت مع الأيام بعض العبارات ، مثل قول مؤيدى المنطق : لا يوثق بعلمه من لم يدرس المنطق[2] .. ومنها قول المعارضين : مَنْ تمنطق فقد تزندق ! والمجـال هنا يضيق عن سرد حجج المؤيدين والمعارضين ، وهو على كل حـال خلافٌ طـواه الزمان ، ولم يعـد قائماً بحـال ، بل إن المنطق ذاته تطـور اليوم تطورًا كبيرًا ولم يعـد فى الصورة الأرسطية القـديمة .. ولذا سنكتفى هنـا بذكر تعـريفات المنطق المشهورة عن أعلام الإسلام :

---

(١) أمثال : السجستانى ، متى بن يونس ، الآمدى ، الأبهرى .. إلخ .

(٢) تُنسب هذه العبارة للغزالى (حجة الإسلام ، أبو حامد محمد بن محمد ، المتوفى ٥٠٥ هجرية) .

* ابن سينا : المنطق هو الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدق به .. وهو الصناعة النظرية التى تعرفنا من أى الصور والمواد يكون الحدُّ الصحيح الذى يُسمَّى بالحقيقة حدًّا ، والقياس الذى يُسمَّى بالحقيقة برهانًا .

* الفارابى : المنطق هو علم القوانين التى تهدينا إلى معرفة الصدق والكذب فى الكلام ، وتحوطنا من الخطأ والزلل فى المقولات .

* الساوى : المنطق هو قانونٌ صناعى عاصم للذهن من الزلل ، مميزٌ لصواب الرأى عن الخطأ.

* الغزالى : المنطق هو القانون الذى يميز صحيح الحد عن غيره ، فيتميَّز العلمَ اليقينى عمَّا ليس يقينيًا ، وكأنه الميزان أو المعيار للعلوم كلها[1].

ومع أن الحضارة العربية الإسلامية كانت أقرب إلى الأخذ بالمنطق الاستقرائى ومنهجه التجريبى ، وابتكر فقهاؤها طريقة القياس الأصولى ؛ إلا أن الاهتمام بالمنطق الصورى الأرسطى - ونظرية القياس بالذات - ظل ممتدًا طوال قرون الإسلام ، ولا نكاد نجد مرحلة تاريخية واحدة تخلو من إسهامات منطقية .. حتى فى القرون الأخيرة . وقد لخَّص الدكتور على سامى النشار ، مسيرة المنطق الأرسطى فى العالم الإسلامى ، بل مسيرة (المنطق) عمومًا ، حين اختتم بحثه الرائد « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام » بقوله : انتقل المنطق الأرسطاليسى - الأرسطى - ومعه بعض العناصر غير الأرسططالية إلى العالم الإسلامى منذ فجره ، وسرعان ما عرض المسلمون للمشكلة التى عرض لها الأوروبيون المحدثون ، وهى : عمومية هذا المنطق وكليته ؛ هل هو قانون عام يجب التسليم به ، أم نستطيع أن نجد فى أسسه وعناصره من الضعف والأخطاء ما يخرجه عن أن يكون قانونًا كليًا ؟ رأينا نحن أن معظم مفكرى الإسلام لم يقبلوا المنطق الأرسطاليسى ، كلٌّ من وجهة نظره ، ثم وضع كل فريق من هؤلاء المفكرين عناصر منطقية مبتكرة يمكن أن نعتبرها مذاهب منطقية كاملة .. والعلة الحقيقية لنقد

(١) انظر : د. على عبد المعطى ، المنطق ومناهج البحث العلمى (دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ص٢١)

المسلمين للمنطق الأرسططاليسى ، أن هذا المنطق يقوم على المنهج القياسى الذى هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفى والفكرى ، والمنهج الاستقرائى هو المعبر عن روح الإسلام ، وبواسطة هذا المنهج الإسلامى الاستقرائى نستطيع أن نفسر عداوة الإسلام للفلسفة ، لأنه إذا كان الإسلام يتطلب المنهج الاستقرائى التجريبى وينكر أشد الإنكار المنهج البرهانى القياسى ، استطعنا أن نفسر بسهولة عدم نجاح الفلسفة فى الإسلام ، واعتبار ما يدعونهم « فلاسفة الإسلام » أو الشراح الأرسططاليسيين كالكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، وغيرهم ، مجرد امتداد للروح الهللينية - اليونانية - فى العالم الإسلامى .. و إننا لنعلم أن فرنسيس بيكون قام بعد ذلك بشرح المنهج الاستقرائى ، ثم بحث فيه جون ستيوارت مل Mill محتذيًا حذو العرب ، آخذًا لكل ماتوصلوا إليه ، مرددًا عباراتهم وأمثلتهم .. المسلمون إذن هم مصدر الحضارة الأوروبية القائمة على المنهج التجريبى [1].

ورأى الدكتور النشار جدير بالنظر والاعتبار ، ونحن نوافقه فى أن الاستقراء والمنهج التجريبى عند العرب كان مقدمة مهمة بالنسبة لأوروبا والحضارة الغربية ، لكننا نخالف أستاذنا النشار فى أشياء ، منها : إن الإستقراء كمنهج كان موجودًا لدى اليونان وعند أرسطو أيضًا ، ومن بعده الرواقيين .. وإن العرب اهتموا بالاستقراء كمنهج للعلوم الطبيعية ، لكنهم أيضًا اهتموا بالمنطق الأرسطى الصورى القياسى بنفس الدرجة .. وإنه ليس صحيحًا أن (روح الإسلام) استقرائية تجريبية فحسب ، فهناك أيضًا السمة الصورية القياسية النظرية.. هذا إن صح ذلك التعبير الغامض : روح الإسلام ! فالحضارة الإسلامية شهدت تنوعًا وثراءً لا يمكن معهما إهدار وجهة نظر لصالح وجهة نظر أخرى .. وأخيرًا : إنه ليس صحيحًا ما يقال عن « عداوة الإسلام للفلسفة » اللهم إلا إذا اعتبرنا إنتاج اليونان هو « كل الفلسفة وجوهرها » وهذا اعتبار مردود ، فلكل حضارة فلسفتها وحكمتها ؛ ورفضُ المسلمين للفلسفة اليونانية لا يعنى رفضهم للفلسفة من حيث هى محبةٌ الحكمة ورؤيةٌ لله والعالم

(١) د. النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، الطبعة الثالثة (دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٤) ص ٣٥١ وما بعدها .

والإنسان والانشغال بقضية الموت .. وغير ذلك من مفاهيم الفلسفة العامة ، أعنى الفلسفة من حيث هى ،لا من حيث تجلياتها اليونانية بالذات .

بقى لنا بعد ذلك ، أن نرى جانبًا من الاهتمام الإسلامى بالمنطق الصورى الأرسطى ، متمثلاً فى جهد عالم علاَّمة كان مجال تخصُّصه الأول هو الطب - أحد العلوم الطبيعية ذات المنهج الاستقرائى[1] - لكنه اهتم أيضًا بعلوم أخرى من بينها (المنطق) .. فإلى ابن النفيس ومخطوطة الوريقات .

* * *

لا يسعنى الحديث عن ابن النفيس بغير إسراف ، فقد كتبتُ عنه مئات الصفحات ؛ ومع ذلك فسوف نحاول الإيجاز ، ونقتصر على ذكر الضرورى من التعريف به :

هو علاء الدين على بن أبى الحرم القَرَشى الدمشقى المصرى الشافعى ، المعروف بابن النفيس[2] . ولد سنة ٦٠٧ هجرية بقرية قرب دمشق اسمها (القَرَش) وإليها نسبته ، ونشأ بالشام ودرس الطب هناك على يد عمران الإسرائيلى المتوفى ٦٣٧ هجرية ومهذب الدين الدخوار المتوفى ٦٢٨ هجرية ، ثم وفد إلى مصر وظل بها حتى وفاته : يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٧ هجرية .

فى القاهرة اشتهر ابن النفيس ونال مكانة كبيرة بين معاصريه ، وظل يترقى فى المناصب حتى صار (رئيس أطباء مصر) وكانت له مشاركة فى عدة علوم غير الطب ، كالفقه واللغة والنحو والحديث النبوى .. والمنطق .

---

(١) بخصوص المنهج الاستقرائى عند ابن النفيس ، انظر كتابنا : رسالة الأعضاء (تحقيق) ، ص ٤٨ .

(٢) راجع : شذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٤٠١ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٧/ ٣٧٧ - طبقات الشافعية للسبكى ٥/ ١٢٩ - البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٣١٣ - معجم المؤلفين لكحالة ٧/ ٥٨ - Brockelmann : Giesch. 2,900

وقد عاصر ابن النفيس أحداثًا جسامًا ، وشهد زمنًا مضطربًا غاية الاضطراب ، ففى غضون سنوات حياته الثمانين ، حدث : انهيار الدولة العباسية وسقوط بغداد واستباحتها على يد المغول - سنة ٦٥٦ هجرية - وتهديدهم لمصر بعد اجتياح الشام ، تزايد الحملات الصليبية على الشام ومصر ، زحف ملك النوبة على جنوب مصر ، اشتداد الصراع على السلطة بين المماليك وانتهاء دولة بنى أيوب وقيام دولة المماليك البرجية ، انتشار الأوبئة فى مصر والشام .. لكن مصر فى عصره : استطاعت أن تلاقى تلك المصادمات وتخرج قوية ؛ فقد كسرت شوكة المغول فى عين جالوت ، وردَّت هجوم ملك النوبة جنوبًا والصليبيين شمالاً ، وأسرت لويس التاسع فى المنصورة ، وشفيت من وباء سنة ٦٧١هـ الفتاك ، وأقامت العمائر والمساجد والقصور والقلاع حتى صارت القاهرة : حاضرة العالم الإسلامى .. ولقد عاش ابن النفيس بالقاهرة وعايش كل ما ذكرناه ، وعانى ما عاناه معاصروه من واقع اجتماعى مضطرب ، ونزاع سلطوى لا يهدأ ، ومخاوف وانتصارات[1] .. ولم يشغله ذلك عن الاشتغال بالعلم والتأليف ، فكانت له تلك المجموعة المتنوعة من التآليف[2] :

١ - الأسباب والعلامات (كتاب مفقود) .

٢ - بغية الطالبين (مخطوط).

٣ - جامع الدقائق (مفقود) .

٤ - الحكمة (مفقود) .

٥ - رسالة الأعضاء (مطبوع) .

٦ - رسالة فى أوجاع الأطفال (مفقود) .

٧ - الرسالة الكاملية = فاضل بن ناطق (مطبوع) .

٨ - الشامل فى الصناعة الطبية (مخطوط يقع فى ٨٠ مجلدًا) .

٩ - شرح أبيذيميا - الأوبئة - لأبقراط (مخطوط) .

---

(١) مقدمة تحقيق « رسالة الأعضاء » ص ١٦ .

(٢) انظر تناولنا التفصيلى لهذه المؤلفات فى مقدمة « المختصر فى علم أصول الحديث النبوى » ص ٩ : ٨٢ .

١٠ – شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا (مفقود) .

١١ – شرح الأهوية والمياه والأماكن لأبقراط (مفقود) .

١٢ – شرح التشريح لجالينوس (مخطوط) .

١٣ – شرح تشريح القانون لابن سينا (مطبوع) .

١٤ – شرح تقدمة المعرفة لأبقراط (مخطوط) .

١٥ – شرح التنبيه للشيرازى فى فقه الشافعية (مفقود) .

١٦ – شرح فصول أبقراط (مطبوع) .

١٧ – شرح الكتاب الثالث من القانون لابن سينا (مخطوط) .

١٨ – شرح كليات القانون (مخطوط) .

١٩ – شرح مسائل حنين بن إسحاق = ثمار المسائل (مخطوط) .

٢٠ – شرح معالجات القانون (مخطوط) .

٢١ – شرح معانى القانون (مخطوط) .

٢٢ – شرح مفردات القانون (مخطوط) .

٢٣ – شرح الهداية فى المنطق لابن سينا (مفقود) .

٢٤ – طريق الفصاحة فى النحو (مفقود) .

٢٥ – كتاب فى الحَمَّام (مفقود) .

٢٦ – كتاب فى اللغة (مفقودة) .

٢٧ – الكتب الأصولية (مفقودة) .

٢٨ – كتب حفظ الصحة (مفقودة) .

٢٩ – الكتب الموسيقية (مفقودة) .

٣٠ – المختار من الأغذية (مطبوع) .

٣١ – المختصر فى علم أصول الحديث النبوى (مطبوع) .

٣٢ – مفتاح الشفاء فى طب العيون (مخطوط) .

٣٣- مقالة فى النبض (مفقود) .

٣٤- المهذب فى الكحل المجرب (مطبوع) .

٣٥- مواليد الثلاثة (مفقود) .

٣٦- الموجز فى الطب (مطبوع) .

٣٧- الوريقات فى المنطق (مخطوط) .

* * *

قبل الدخول إلى مخطوطة (الوريقات) التى هى المخطوطة المنطقية الوحيدة الباقية من أعمال ابن النفيس فى المنطق - إذ شرحه لكتاب الهداية مفقود - تستوقفنا عبارة مهمة وردت فى مسالك الأبصار ؛ يقول ابن فضل الله العُمَرى : وكانت لابن النفيس معرفة بالمنطق ، وصَنَّف فيه مختصرًا ، وشَرَحَ الهداية لابن سينا فى المنطق ، وكان لا يميل فى هذا الفن إلا إلى طريقة المتقدمين كأبى نصر - الفارابى - وابن سينا ، ويكره طريقة الأفضل الخَوَنْجى والأثير الأبهرى[1] .

فما هى طريقة الخونجى والأبهرى التى كرهها ابن النفيس ؟ نحن نعلم أن الأوائل من أمثال الفارابى وابن سينا نظروا للمنطق نفس النظرة الأرسطية التى تجعل منه آلة للعلوم ومقدمة نظرية لابد أن تسبق كل علم ، لكن المتأخرين - فى القرن السابع الهجرى - من أمثال أفضل الدين الخَوَنْجى وأثير الدين الأبهرى جعلوا المنطق علمًا قائمًا بذاته وفنًّا له خصوصيته بين سائر العلوم والفنون . وعلى ذلك ، نفهم من عبارة ابن فضل الله أن ابن النفيس كان يعتبر المنطق مدخلاً للعلوم ، وليس علمًا قائمًا بذاته .. وذلك ما يتأكد فعلاً ، عند مطالعة مخطوطة الوريقات .

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٩٩/ مجاميع ، المجلد السابع ، ورقة ٢٢٨ .

لا توجد من (الوريقات) غير مخطوطة وحيدة فى العالم ، هى النسخة النادرة الجيدة المحفوظة بمكتبة بودليان بأكسفورد تحت رقم ٤٦٩ ، وتقع فى ٢٠٠ ورقة من القطع الكبير (الورقة صفحتان) وهى غير مؤرخة ، وإن كانت حالتها تدل على أنها ربما تعود لعصر المؤلف، وعليها تملُّك مؤرخ بسنة ١٠٤٤ هجرية ، مسجل على الوررقة الأولى بخط أحدث من خط النسخة .

ومن الورقة الأولى فى المخطوطة نعرف أن لابن النفيس مختصرًا فى المنطق بعنوان (الوريقات) وهذه المخطوطة هى (شرح الوريقات) فابن النفيس يبدأ بما يلى : قال الفقير إلى الله تعالى ، على ابن الحرم القرشى المتطبب ، هذا كتابٌ شرحتُ فيه كتابى الذى عُرف بكتاب الوريقات ، ولأجل تقرير مباحثه ، افتقرتُ فيه إلى استعمال البراهين قبل تحقيقها ؛ ورتَّبته على مقدمة وتسعة كتب ، على ترتيب ذلك الكتاب . (يقصد : الوريقات) .

وتشتمل المقدمة على ثلاثة فصول ، تتناول : بيان الحاجة إلى المنطق - حَدُّ المنطق ومنفعته وأقسامه - بعض الشكوك على المنطق وحلّها .. وكأن ابن النفيس فى الفصل الثالث من المقدمة يدفع الهجوم على المنطق ، فنقرأ :

الفصل الثالث فى ذكر شكوك وحلها ، الشَّكُّ الأول : لو كان المنطق يميِّز بين صحيح الحَدِّ والقياس من فاسده ، لما غلط المنطقى ، لكنَّا نراه يغلط كثيرًا حتى فى المنطق نفسه . الشَّكُّ الثانى : المنطق إما أن يكون بجملته فطريًّا أو بجملته مكتسبًا ، أو بعضه فطريًّا وبعضه مكتسبًا؛ والأول باطل ؛ لأنه يلزمنا فى تعلُّمه كُلفة - مشقة - والثانى يحوج إلى منطق آخر ، والثالث إن كان البعض الفطرى منه كافيًا فى اكتساب المجهولات وجب أن لا يحصل فى الباقى منه غلط ، وأيضًا فليُستغْنَ عن ذلك الباقى ، وإن لم يكن كافيًا احتيج فى الباقى إلى

---

(١) تدل هذه العبارة بما عليها من سمات التواضع ، على أن النسخة التى بين أيدينا نسخة عتيقة كتبها المؤلف أو أملاها على بعض تلاميذه .. أما النسخ المتأخرة فتبدأ عادة بقول الناسخ : قال العالم العلامة ، البحر الفهامة الإمام الرئيس علاء الدين بن النفيس .. إلخ .

منطق آخر ، الشَّكُّ الثالث : إن جماعة اكتسبوا علومًا ولم يحتاجوا إلى منطق ، ولولا ذلك لكان الناس قبل ظهوره جُهَّالاً بالعلوم النظرية .

الجواب .. عن الشك الأول : كون المنطق يميز بين الصحيح والفاسد من الحد والقياس ، لا يمنع غلط المنطقى إذا لم يراعه ، كالنحوى إذا لم يراع أصول النحو فإنه قد يلحن - يخطىء فى الإعراب - وعن الثانى : أنه إذا وقع فى البعض النظرى من المنطق غلطٌ لِمَنْ لم يراع البعض الفطرى ، ولو روعى حَقَّ المراعاة لم يقع غلطٌ ، وإنما احتيج إلى البعض النظرى لتكون طرق الكسب - المعرفة - كثيرة ، فيكون الوصول إلى المطلوب سهلاً ، وعن الثالث : إنَّا لا ندَّعى أن الذهن لا يكفى فى إصابة الحق ألبتة ، بل ندَّعى أنه قد لا يكفى .. فلا يحصل الوثوق إلا بالمنطق .

ثم تتوالى أبواب الكتاب وأقسامه ، فتقع فى تسعة (كتب) منها ما ينقسم إلى فصول كثيرة، ومنها مالا ينقسم . وأوّلها (كتاب إيساغوجى) الذى ذكرنا فى فصل سابق أنه مقدمة لمنطق أرسطو وضعها فرفوريوس ؛ يقول ابن النفيس عن إيساغوجى :

هو كالمدخل إلى هذه الصناعة - المنطق - فلذلك قُدِّم ؛ وإنما افتقرنا إلى الكلام فى الألفاظ، لأن بين اللفظ والمعنى علاقة ، ولذلك إذا فكرنا فى معانٍ ، لابد وأن نتخيل لها ألفاظًا تتميز بها ، حتى كأن المفكر يناجى نفسه ، ولذلك يختلف المعنى باختلاف اللفظ ، بل باختلاف هيئة اللفظ ، فإن قولنا: « ضرب زيدٌ عمرًا » مغاير فى معناه لمعنى قولنا: « ضرب زيدًا عمرو » فوجب على المنطقى مراعاة اللفظ المطلق غير مقيد بلغة قوم إلا فيما يقل .

والكتاب الثانى هو (قاطيغو رياس)[1] أو المقولات ، ويبدأ ابن النفيس بقوله : ليس هذا الكتاب من المنطق ، إذ لا نظر للمنطقى فى الحقائق الوجودية ، وإنما ذكره المعلم - أرسطو - لتكثر عند المتعلّم الأمثلة ، فاقتدينا به .. والكتاب الثالث (بارير ميناس) أو العبارات ،

---

(١) وضعنا هنا عناوين الكتب بحسب رسمها فى المخطوطة ، وقد ذكرناها على وجهها الصحيح ورسمها فى الإنجليزية المعاصرة بأول هذا الفصل .

ويتناول الألفاظ المركبة فى جمل وأقسام الجملة والقضية ، ويتوقف عند (القضية الشرطية) بوجه خاص ، وهى القضية التى يعرف المشتغلون بالمنطق - اليوم - أهميتها ، إذ هى الأساس الذى يقوم عليه المنهج الاستقرائى ، وهى الأساس الذى قام عليه المنطق الرياضى المعاصر (اللوجستيقا) حين نظر إلى القضية الكلية على أنها قضية شرطية متصلة ، بينما القضية الجزئية هى فى الحقيقة قضية شرطية منفصلة ، فإذا قلنا: (كل العرب أحرار) فذلك يعنى (إذا كان س عربى ، فإن س يكون حرًّا) وهو ما يعبَّر عنه فى المنطق الرياضى المعاصر بصيغة : س عربى يتضمن أن س حر .. أو($x\ g \supset x\ F\cdot$) والقضية الجزئية (بعض العرب أحرار) تعنى أنه يوجد فرد واحد على الأقل من العرب يكون حرًّا ، يعنى (إذا كان س عربى فمن الممكن أن يكون س حرًّا) وصيغتها المعاصرة : $x\ g\ x\ F$.

والكتاب الرابع من الوريقات هو (أنولوطيقا الأولى) أو القياس ، وفيه يتناول ابن النفيس أشكال القياس وضروب كل شكل وهيئة المقدمات والحدود والنتائج .. والكتاب الخامس (أنولوطيقا الثانى) أو البرهان ، وفيه يقول ابن النفيس : سُمِّى هذا الكتاب بالبرهان وإن كان فى الحقيقة كتاب الحَدِّ والبرهان ، لأنهما يبينان فيه ، إلا أن المقصود فيه بالذات هو البرهان ، لأن المقصود فى العلوم بالذات هو التصديق بأحكام الأشياء ، والغرض من هذا الكتاب هو إفادة الطرق الموقفة على التصديق اليقينى .

ثم يأتى كتاب (طوبيقا) أو الجدل ، ويعرض ابن النفيس عبر فصوله لماهية الجدل ومفاهيمه المتعددة ، حيث يوضِّح أن الجدل هو : التسلُّط بالخطاب المشتمل على قوة فى الإلزام لقطع الخصم ، ثم يتناول الغرض من الجدل والمطالب الجدلية المختلفة وكيفية الاحتيال فى القول ، بالإضافة إلى عملية القدح فى الحدود والمقدمات .

والكتاب السابع (سوفسطيقا) أو المغالطات والسفسطة ، وفى بدايته يقول ابن النفيس : فى منفعة هذا الكتاب ؛ كما أن الحق الحَقَّ يُتعلَّم ليُعتقَد ، والخيرُ يُتعلَّم ليُستعمل ، كذلك الباطل يُتعلَّم ليُحترز منه ؛ كما يتعلَّم الطبيب السموم والأشياء الضارة ليجتنبها ويحترز عنها .

ويلى ذلك كتاب (رطوبيقى) أو الخطابة وما يخص المتحدِّث منها .. ثم ، أخيرًا ، الكتاب التاسع (قطوريقى) أو القياس الشعرى الذى يقول فيه ابن النفيس : القياس الشعرى فائدته الحثُّ أو القبض بالتخييل ، من غير اعتبار صدق ؛ حتى لو استُعمل فيه الصادق اليقينى ، لم يكن ذلك شعرًا من جهة ما هو صادق ، بل من جهة تخييله ؛ فالتخيُّل من الشاعر بمنزلة الإقناع فى الخطابة واليقين فى العلوم .

كتاب سوفسطيقا وكتاب ريطوريقا

في الخطابيات والجدل والمغالطات

469

وغير ذلك والله أعلم

كتاب شرح

[illegible]

[illegible]

للشيخ عفا الله عنه

كتاب [illegible] في المنطق

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

101.

Robertus Huntingdon.



غلاف المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقير الى الله تعالى علي بن ابي الحرم القرشي المتطبب

هذا كتاب شرحت فيه كتابي الذي عرف بكتاب

الوريقات ولاجل تقرير مباحثه افتقرت فيه الى استعمال

البراهين قبل تحقيقها ورتبته على مقدمه وشعبه كتب على

ترتيب ذلك الكتاب وانا اسل الله التوفيق والعصمه

وهذه المقدمه تشتمل على فصول الفصل

الاول في بيان الحاجه الى المنطق العلوم المشهوره

الحاجه اليها معلومه الا المنطق فرأينا ان نبتدي ببيان وجه

الحاجه اليه لاشك ان العلوم تحصل للنفس كمال وشرف

وذلك مطلوب فبنا حاجه الى تكميل نفوسنا بالعلم والعلم

على قسمين علم علمي والغرض منه العلم بالحق لذات العلم به

وعلم عملي والغرض منه العلم بالخير للعمل به وكلاهما يكمل ان

النفس باعتبار قوتها النظريه وبالعمل بالخير تكمل النفس باعتبار

قوتها العمليه وايضا كل علم فاما تصور واما تصديق لان

الورقة الأولى

هيئته أو لبلاغته أو لقوة صدقه وإن لم يكن يلزمه المطلوب

فإن القائل إذا كان قوله ظاهر الصدق أذعن له وخصوصاً إذا

روعي الوزن وحسن النظم وخصوصاً إذا كان النغم موافقاً

ولذيذاً وإذا قلنا في فنون المنطق ما يليق بهذا الكتاب

فلنختمه مستعينين بالله وحده تم الكتاب بحمد الله وعونه

والصلاة على محمد [illegible] وعلى آله والسلام

الورقة الأخيرة

أهـم المراجـع

أولاً : المطبوعات :

١- إبراهيم بن مراد : بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب (دار الغرب الإسلامى - بيروت ١٩٩١) .

٢- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا (دار الحياة - بيروت ١٩٦٥) .

٣- ابن البيطار : الجامع فى الأدوية المفردة (طبعة بولاق ١٢٩١ هجرية) .

٤- ابن البيطار : تفسير كتاب ديسقوريدس ، تحقيق إبراهيم بن مراد (دار الغرب الإسلامى - بيروت ١٩٨٩م) .

٥- ابن تيمية : شرح كلمات من فتوح الغيب ، ضمن (جامع الرسائل) تحقيق د. محمد رشاد سالم (دار المدنى - جدة) .

٦- ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر = تاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق ١٢٨٤ هجرية) .

٧- ابن خلّكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (طبعة بولاق ١٣٢٩هجرية) .

٨- ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول نشرة الأب أنطون اليسوعى (دار الرائد العربى - بيروت ١٩٨٣) .

٩- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية ١٩٣٨) .

١٠- ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥٠هجرية) .

١١- ابن سناء الملك : دور الطراز فى عمل الموشحات ، تحقيق د/ جودت الركابى (دمشق ١٩٤٩م) .

١٢- ابن سينا : القانون فى الطب (طبعة بولاق) .

١٣- ابن كثير : البداية والنهاية (مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٥٨ هجرية) .

١٤- ابن النديم : الفهرست ، تحقيق / رضا المازندرانى (دار المسيرة - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م) .

١٥- أبو ريان(د.محمد على): الفكر الفلسفى فى الإسلام (دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٨م) .

١٦- الأصفهانى (أبو الفرج) : الأغانى (طبعة بولاق)

١٧- بدر (د. عبد الرحيم) : مقدمة ، محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس ، جامعة الأردن (دار الفكر - بيروت ١٩٩١م) .

١٨- بدوى (د. عبد الرحمن) : مؤلفات ابن خلدون (دار المعارف بمصر ١٩٦٢م) .

١٩- بل (ألفرد) : مادة « ابن خلدون » بدائرة المعارف الإسلامية .

٢٠- البيرونى (أبو الريحان) : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة (عالم الكتب - بيروت) .

٢١- الجاحظ : البيان والتبيين (القاهرة ١٣٦٧هجرية) .

٢٢- الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، تاريخ الجبرتى (مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة) .

٢٣- جران (بيتر) : الجذور الإسلامية للرأسمالية ، ترجمة محروس سليمان (دار الفكر للدراسات والتوزيع والنشر - القاهرة ١٩٩٢م) .

٢٤- جعفر (د. عبد الوهاب) : البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه (دار المعارف ١٩٨٩م) .

٢٥- الجيلانى (عبد القادر) : الفتح الربانى والفيض الرحمانى (مطبعة البابى الحلبى - القاهرة) .

٢٦- الجيلانى (عبد القادر) : فتوح الغيب (مطبعة البابى الحلبى - القاهرة) .

٢٧- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (دار الفكر - بيروت) .

٢٨- الحلاج : الطواسين ، نشرة ماسينيون (باريس ١٩١٣م) .

٢٩- الخضر حسين (محمد) : الرحلات (المطبعة التعاونية - بيروت) .

٣٠- الخوانسارى : روضات الجنات فى أخبار العلماء السادات ، تحقيق أسد الله إسماعيليان (طهران ١٣٩٢ شمسية !) .

٣١- الذهبى : سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة - بيروت) .

٣٢- الرازى (فخر الدين) : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين (مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة) .

٣٣- رمضان (أحمد) : الرحلة والرحالة المسلمون (دار البيان - جدة) .

٣٤- الـزركـان (محمـد على) : عبد الرحمن الصوفى وأسلوبه فى التأليف . (محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس) .

٣٥- الـزركلى (خير الـدين) : الأعلام (بيروت) .

٣٦- ســارتون : تاريخ العلم : ترجمة لفيف من الأساتذة (دار المعارف بمصر ١٩٧٠) .

٣٧- السـبكى : طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية - القاهرة) .

٣٨- السـخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (دار الحياة - بيروت) .

٣٩- الشامى (د. صلاح الدين) : الرحلة عين الجغرافيا المبصرة (منشأة المعارف - الإسكندرية) .

٤٠- صـاعـد الأنـدلسى : طبقات الأمم ، نشرة لويس شيخو (بيروت ١٩١٢م) .

٤١- الطائى (د. أحمد فاضل) : أعلام العرب فى الكيمياء (الهيئة المصرية العامة للكتاب - الألف كتاب) .

٤٢- طـاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، تقديم كامل بكرى وعبد الوهاب أبو النور (القاهرة ١٩٦٨) .

٤٣- الطـاهـر (على جـواد) : الطغرائى (مكتبة النهضة - بغداد ١٩٦٣م) .

٤٤- الطـوسى (نصير الـدين) : تلخيص المحصـل ، نشـرة طـه عبد الـرؤوف سعد (مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة) .

٤٥- عاشور (د. سعيد عبد الفتاح): مصر والشام فى عهد الأيوبيين والمماليك (دار النهضة العربية - بيروت) .

٤٦- العسـقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (حيدر آباد - الدكن ١٣٥٠ هجرية) .

٤٧- العسـقلانى : ذيل الدرر الكامنة ، تحقيق د/ عدنان درويش (معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٩٩٢ م) .

٤٨- العسيلى (كـامل جميل) : مخطوطات فضائل بيت المقدس (عمان ، الأردن ١٩٨٨م) .

٤٩- عطية (د. أحمد عبد الحليم) : دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب (دار الثقافة - القاهرة ١٩٩١) .

٥٠- على عبـد المعطى (دكتـور) : المنطق ومناهج البحث العلمى (دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٤) .

٥١- عناني (د. محمد زكريا) : ديوان الموشحات الأندلسية (دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية) .

٥٢- غليونجي (د. بول) : ابن النفيس (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة أعلام العرب)

٥٢- غليونجي (د. بول) : البغدادى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة أعلام العرب) .

٥٤- عيسى (د. أحمد) : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (دار الرائد العربى - بيروت) .

٥٥- غريب سيد أحمد (دكتور) : تاريخ الفكر الاجتماعى (دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٨م) .

٥٦- (د. حسين محمد) : أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة - الكويت) .

٥٧- القادرى (إبراهيم حلمى) : مدارج الحقيقة فى الرابطة عند أهل الطريقة (الإسكندرية ١٣٨١ هجرية) .

٥٨- القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء (دار الآثار - بيروت) .

٥٩- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢ هجرية) .

٦٠- كحالة (عمر) : معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربى - بيروت).

٦١- كونيتش (باول) : آثار الصوفى (محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس) .

٦٢- مال الله (على) : أدب الرحلات عند العرب فى المشرق (مطبعة الإرشاد - بغداد) .

٦٣- ماهر عبد القادر (دكتور) : المنطق ومناهج البحث (دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٥) .

٦٤- ماهر عبد القادر (دكتور) : دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى (دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩١ م) .

٦٥- مايرهوف (ماكس) : من الإسكندرية إلى بغداد ، مقالة ترجمها د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه : التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية (وكالة المطبوعات - الكويت) .

٦٦- المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر (القاهرة ١٢٨٢ هجرية).

٦٧ - المقدسى (ابن غانم) : تفليس إبليس (دار أنوار القرآن - مكتبة نجمة الحسين ، الأزهر ١٩٧٨م) .

٦٨- مرحبا (د. عبد الرحمن) : الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب (منشورات عويدات - بيروت ١٩٨٥م) .

٦٩- منتصر (د. عبـــد الحليم) : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمـه (دار المعارف - القاهرة ١٩٧١م) .

٧٠- مـــــؤنس (د. حسين) : ابن بطوطة ورحلاته (دار المعارف - القاهرة) .

٧١- نجيب (نـــــاجى) : الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق (دار الحكمة - بغداد) .

٧٢- النشـار (د. على سـامى) : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام (دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٤) .

٧٣- نللينـو (كـارلو ألفونسـو) : علم الفلك ، تاريخـــه عنـد العرب فى العصـور الوسطى (الـدار العربية للكتاب - بيروت ١٩٩٣) .

٧٤- هـــونكـــه (د. زيجريـــد) : شمس العرب تسطع على الغرب (دار الآفاق الجديدة - بيروت) .

٧٥- اليــــــافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر من حـوادث الزمان (حيدر آبار - الدكن) .

٧٦- يـــاقـــوت الحمـــوى : معجم الأدباء (دار إحياء التراث العربى - بيروت) .

٧٦- يـــاقـــوت الحمـــوى : معجم البلدان (دار صادر - بيروت) .

ثانيًا : المخطوطات :

٧٨- إبـــراهيم حلمى القـــادرى : محو الشبهـات (مخطـوطـة مكتبـة السـادة القـادريـة النيـازيـة بالإسكندرية) .

٧٩- ابن أبى صادق النيسابورى : شرح فصول أبقراط (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .

٨٠- ابن البيطـــــار : قانون الزمـان فى تدبيرالإنسان (مخطوطة بمكتبة جـامعة أو بسالا - السويد) .

٨١- ابن البيطـــــار : رسـالـة فى التـداوى من السمـــوم (مخطـوطـة دار الكتب المصريـة بالقاهرة) .

٨٢- ابن خلـــدون : لباب المحصل (مخطوطة الأسكوريال - أسبانيا) .

٨٣- ابن التلـــميذ : المغنى فى الطب (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .

٨٤- ابن الصبـــــاغ الجذامى : الديوان (مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط - المغرب) .

٨٥- ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . (مخطوطات : دار الكتب المصرية بالقاهرة - المكتبة الوطنية بباريس - مكتبة البلدية بالإسكندرية) .

٨٦- ابن ميمون : عنوان الحق وبرهان الصدق (مخطوطة جامعة اسطنبول - تركيا) .

٨٧- الأبهري : الإفادة والتبصير (مخطوطة كوبريلى زاده - تركيا) .

٨٨- أحمد الدمنهوري : عين الحياة فى استباط المياه (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

٨٩- أحمد الريشي : كفاية التعليم فى معرفة وضع التقاويم (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .

٩٠- البغدادي : شرح تقدمة المعرفة (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .

٩١- بنو موسى بن شاكر : الدرجات المعروفة (مخطوطة نور عثمانية - تركيا) .

٩٢- الحسن السنجاري : هداية الرامى إلى الأغراض والمرامى (مخطوطة أحمد الثالث - تركيا).

٩٣- الحسين الطغرائي : جامع الأسرار (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

٩٤- خالد بن يزيد : ديوان فردوس الحكمة (مخطوطة كوبريلى زاده - تركيا).

٩٥- الزهراوي : التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوطة خدابخش بتنه - الهند).

٩٦- الشيرازي : نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك (مخطوطة كوبريلى زاده - تركيا) .

٩٧- الشيزري : جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام (مخطوطة جامعة ليدن - هولندا).

٩٨- عبد القادر الجيلاني : جلاء الخاطر فى الظاهر والباطن (مخطوطة جامعة القاهرة - المكتبة المركزية) .

٩٩- عبد الوهاب الحسيني : الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس (مخطوطتى : عارف حكمت بالمدينة المنورة - مكتبة الدولة ببرلين).

١٠٠- عز الدين المقدس : منتخب فى مصايد الشيطان وذم الهوى (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .

١٠١- عز الدين المقدسي : الشجرة لإظهار الثمرة (مخطوطة مكتبة البلدية بالإسكندرية) .

١٠٢- لاجين الحسامي : تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين (مخطوطة نور عثمانية - تركيا) .

١٠٣- محمد بن حوقل : صورة الأرض = المسالك والممالك (مخطوطة مكتبة أحمد الثالث - تركيا) .

١٠٤- محمد بن لاجين الحسامى : بغية القاصدين فى العمل بالميادين (مخطوطة مكتبة الفاتح - تركيا).

١٠٥- محمد بن لاجين الحسامى : بنود الرمح (مخطوطة المكتبة الأحمدية بحلب - سوريا).

١٠٦- محمد بن منكلى : الأدلة الرسمية فى التعابىء الحربية (مخطوطة آيا صوفيا - تركيا) .

١٠٧- محمد بن منكلى : الحيل فى الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب (مخطوطة أحمد الثالث - تركيا) .

١٠٨- مجهول : الروضة الغَنَّاء فى أصول الغناء (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط - المغرب) .

١٠٩- مجهول : مختصر غبطة الناظر فى ترجمة الشيخ عبد القادر (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط - المغرب) .

١١٠- مجهول : تفريج الكروب فى تدبير الحروب (مخطوطة الفاتح - تركيا) .

١١١- مدين القوصونى : قاموس الأطباء وناموس الألباء (مخطوطتى : دار الكتب المصرية بالقاهرة - المكتب الظاهرية بدمشق).

١١٢- مرضى الطرسوسى : تبصرة أرباب الألباب (مخطوطة أحمد الثالث - تركيا).

١١٣- موفق الدين بن المطران : بستان الأطباء وروضة الألباء (مخطوطة مكتبة مجلس الشورى طهران) .

١١٤- نصير الدين الطوسى : تحرير المجسطى (مخطوطة أحمد الثالث - تركيا) .

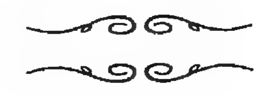
١١٥- النواجى : عقود اللآل فى الموشحات والأزجال (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) .

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

116- Brocklmann : Gieschichte der Arabeschen Litteratur, Sup. Lieden .

117- De Slar : Catalogue des manuscrtis arabes .

118- Sarton : Introduction to History of Seince.



ملحق

أصـــداء الكـــتاب

فى الصحافة العربية

كان لصدور الطبعة الأولى من هذا الكتـاب ، أصداء أكاديمية تمثلت فى اهتمام الباحثين بما اشتمل عليه **التراث المجهول** من مخطوطـات ، فقام الدكتور عباس سليمان – مـن جامعة الإسكندريـة – بنشر مخطوطة ابن خلدون « لبـاب المحصل » ويعمل حاليًا على نشر مؤلفات نصير الـدين الطوسى.. وهنـاك أمثلـة أخرى على تلك الاستجـابـة (الأكاديميـة) لما طرحـه الكتاب ، بيـد أن الأصداء الأوسع انتشـارًا للكتاب ، كـانت فى الصحافـة المصرية والعـربية ، حيث أُحسن استقبـال الكتاب ، وسـال مداد الكُتَّاب حـوله .. وبـالإضافـة إلى العديـد من الإشارات الخبرية عن الكتاب ، نشرت مجموعة من المقالات عن **التراث المجهول** انتقينا منها هذه المقـالات الأربع لإيرادهـا هنا ، إحياءً لتقليـد عربى قـديم ، هو إلحاق تقـريظات الكتب بأواخرها .

* * *

* تراث يوسف زيدان

* محمد مستجاب[1]

التراثيون نوعان : واحد يقودك لعالم التراث فيجعلك تكره أهلك وتكره اليوم الذى فكرت فيه أن تقرأ شيئًـا من التراث ، ونوع آخر يقودك فى رفق عصرى ، ويسير أمـامك مضيئًا لجوانب من التراث واسعة ومتألقة ، حتى تكاد تـرفض أن تعود للمعاصرة ، بل وتكتشف أن التراث هو الروضـة اليانعة التى تحرك العقل والوجـدان ، وهو القوة الكـامنة حول تحرير الفكـر الإنسانى الحقيقى فى كل العصور .

من الطراز الثانى يوسف زيدان ، والذى اعتقـدت لأسباب وهمية كثيرة : إنه عجوز يريح شيخوخته فى ظل التراث محتميًا بالماضى مـن تدابير وأعاصير الحاضر ، وأن هذا الشيخ يوسف زيدان (انظـر لتركيب الاسم ذاتـه) أفنى عمره فى الكتب الصفـراء فى استعداد تام لكـل فكر عصرى ، وهكذا غرر الزمن بى حتى التقينا فى الإسكندرية من أسابيع ، شاب أنيق لم يستشرف الأربعين ، واضح المعـاصرة فى المظهر واللسـان واللمحـات الذكيـة الجادة (التى لا تخلـو من إيحاءات ساخرة) ، بعـدها وعندما عكفـت على كتابه المتفرد : التراث المجهـول – إطلالة على عـالم المخطوطـات – ازددت ارتياحًـا وحبًا ، لماذا ؟؟ لأن يـوسف زيـدان قال فى مقـدمة هـذا

---

(١) جريدة أخبار الأدب ٢٥/ ١٢/ ١٩٩٤ .

الكتاب (وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم انعدام الخطة المنهجية للتعرف به) ، وذلك لأنه بعد انقضاء الفترة النشطة فى نشر التراث ، أيام كانت مطابع بولاق الرائدة تخرج أمهات الكتب التراثية ، ومنها دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد ، والجمعيات العلمية العربية والاستشراقية ، وأعلام الرجال المتحمسين للتراث ونشره ... صار نشر التراث اليوم عملاً تجاريًا لدى دور النشر ، دعائيًا لأصحاب الأغراض ، غثا لدى المرتزوقين من متأخرى المحققين ، رديئًا فى ثوب طباعته ، ويستثنى يوسف زيدان القليل مما أصاب به هذا الحكم ، لأن الغالب الأعم هو فوضويات نشر التراث ، واستخدام هذا النشر فيما لا يحرر العقل من ربقة هيمنة للثقافة الصفراء عليه .

وكتاب التراث المجهول يكشف عن اجتهادات الأجداد فى المجالات العلمية المختلفة ، اجتهادات فيها الكثير من الصواب ، وفى بعضها الكثير من الخطأ بحكم روح العصر المنتمية إليه ، لكنك - فى كل الحالات - لا تمنع نفسك من الإحساس الدافق بالسعادة والحبور (إلى حد المرح والسرور المعلن) ، اقرأ ما يكشفه الدكتور يوسف زيدان فى مخطوطة طبية لابن المطران (توفى فى القرن الثانى عشر أى منذ ثمانية قرون) عن آرائه وعلاجاته للبرقان واختلاط الذهن الدائم بالحمى والصداع (انظر الصداع فى وضع عظام الرأس فإنها كثيرًا ما تكون مسفطة أو حادة أو مستطيلة ، وكثيرًا ما تحدث هذه الأوضاع سيلان المواد من الأذنين أو من العينين) ، وإلى ذلك من حكايات عن كيفية تشريح قلب حيوان (فى بيت يكون هواؤه حارا) وعلاج الناصور وكيفية اقتلاعه جراحيًا .

ثم تتتالى المخطوطات المجهولة طبية ، وفلكية ، وفنون عسكرية ، وكيميائية ، وصوفية ، وأدبية ، وتاريخية ، وفى أصول الغناء ، وفى صورة الأرض ، وفى الفلسفة والمنطق ، وغير ذلك من صنوف المعرفة ، يعرض لها يوسف زيدان فى ود صريح وكشف صريح ، يساعده على ذلك ثقافة واسعة وشاملة ، درس خلالها وكشف عن أغوار الماضى وقدرته الفائقة على إدراك فوضى ثقافة الحاضر ، متمثلة فى ١٧ كتابًا بين محقّق ومؤلَّف ، منذ عام ١٩٨٧ أى قبل حصوله على الدكتوراه فى الفلسفة الإسلامية من جامعة الإسكندرية ١٩٨٩ وحتى الآن .

وأعرف أن كثيرين ارتادوا هذا الحقل غير هذا الباحث ، لكنه سيظل أكثرهم بشرًا وتفتحًا ، وتألقًا أيضًا .

* التراث المجهــول

* سعد القرشى[1]

فى كتابه الجديد (التراث لمجهول) يتساءل الدكتور يوسف زيدان : هل التراث مجهول ؟

والإجابة الأقرب إلينا ، بعد طول الحديث والكتابة (عن) التراث ، مع التوصية باستبعاده أو دراسته أو استئناس أو نفيه أو محاكمته ، هى : لا .

إلا أن المؤلف يؤكد ، بالأدلة ، أن تراثنا لا يزال مجهولاً ، بحكم الواقع الإحصائى ، وبحكم الوعى به ، وبمنطق التعامل معه ، وبحكم اغترابنا عنه .. حيث مَرَّ التراثُ العربى « بمنحنيات كثيرة وارتفع وانخفض مع معدلات التحضُّر ، ولم يعرف ثبات الأحوال ، لكنه لم ينقطع .. حتى جاءت الحملة الفرنسية ، ومن بعدها الاستعمار ، فَلَوَت أعناق الأجيال الجديدة - بقوة - بعيدًا عن تراثها المتصل ، موجهةً لها - بنفس القوة - نحو سياق الحضارة الغربية المعاصرة ، فكان ما كان من تقسيم لدول الإسلام وفقًا لأغراض الغرب ، وتحقير التراث » .

وبهذا الكتاب ، تبدأ دارُ الأمين نشر سلسلة « تراثنا » ويقع الكتاب ، الذى اختار له المؤلف عنوانًا فرعيًا هو (إطلالة على عالم المخطوطات) فى ثلاثين فصلاً ، فى شتى العلوم والفنون والمعارف الإنسانية ، بهدف تقريب التراث منا ، أو تقريبنا إليه .. كما يهدف أيضًا ، من وراء ذلك ، إلى وضع نموذج سابق ، لعله يجعلنا نعيد النظر فى طريقة التعامل مع الحضارة الغربية المعاصرة .



(١) الأهرام المسائى ٢٩/١١/١٩٩٤ .

* التراث المجهـــول

* شـــوقى جلال[1]

هذا كتاب من طراز فريد طالما تطلع إليه القارئ أو المثقف الواعى . إنه نموذج يهدف إلى تيسير ثقافة الماضى ، ومحاولة لاستعادة بعض الذاكرة الاجتماعية التى طمستها أحداث التخلف والتحلل داخل المجتمعات العربية والإسلامية ، وأحداث الاستعمار الوافدة من الخارج . إنه ببساطة وإيجاز كما يقول المؤلف : محاولة علمية جادة ، صادقة ومضنية فى آن واحد ، من أجل الوعى بالماضى وفهم الحاضر واستشراف المستقبل .

الكتاب يحمل عنوان « التراث المجهول - إطلالة على عالم المخطوطات » ؛ صدر عام ١٩٩٤ ضمن سلسلة « تراثنا » وهى سلسلة جديدة بدأت إصدارها « دار الأمين للنشر » - القاهرة . والمؤلف هو الدكتور يوسف زيدان أستاذ التصوف الإسلامى بجامعة الإسكندرية . له أكثر من سبعة عشر كتابًا ما بين تأليف ودراسة وتحقيق .. تشكل فى مجموعها ملحمة ثقافية علمية الطابع والهدف تشهد لصاحبها بعمق الفكر ، وأصالة الجهد ، وعلمية المنهج ، ونزاهة الغرض ، وموضوعية التناول وصدق الحب لفنه وتخصصه .

إن عالم التراث والمخطوطات يبدو على ألسنة عامة المثقفين نوعًا ن عالم الغيب . يسرفون فى الحديث عنه ولا يحيطون بشىء من علمه فهم غرباء عليه فكرًا ونقدًا ودراسة وتحليلاً ، وهو غريب عنهم حجبته قرون الجهالة والاستبداد والجمود الفكرى فاستحال إلى أسطورة سقط عنها العقل والوعى الإنسانى المبدع . وبعد أن كان على أيدى أصحابه فى عهود الازدهار الفكرى منارة هادية لحركة المجتمع وقوة دافعة لزخم ثقافى ثرى خصب ، وإسهامًا إنسانيًا حضاريًا جعل أبناء أوروبا يرددون المثل السائر فى العصور الوسطى « كلما اتجهت جنوبًا اقتربت من منهل العلم والحضارة » .. بعد هذا كله أصبح التراث عبارة غائمة ، وتعويذة كليلة ؛ وأضحت المخطوطات كلمة يعز على المثقف العام أن يعقل مدلولها . ونادرًا ما نجد مثقفًا عامًا اكتحلت عيناه بأحد المخطوطات ، تأمله بفكره واستعاد ذكريات عن أمجاد الماضى وظروفه وأسبابه .

---

(١) مجلة أكتوبر السنة ١٩ - العدد ٩٦٣ - الأحد ٩ أبريل ١٩٩٥ .

لهذا كله يصحبنا المؤلف فى كتابه هذا ذى القيمة الرائعة فى رحلة ممتعة تمتد إلى كافة جوانب التراث العربى والإسلامى ليقدم على طول صفحاته التى جاوزت ثلاثمائة وخمسين صفحة ثلاثين مخطوطة من ذخائر تراثنا المجهول المنزوى فى الخزائن الخطية ، انتظرت عقودًا بل قرونًا الباحثين ليستخرجوا الدُّر المكنون فيها ، وليستبينوا الشروط الوجودية للإبداع ، وهي التى تكشف فى مجملها عن العبقرية العربية فى تجلياتها المتعددة ، وتثير الكثير من القضايا المتعلقة بمفاهيم التراث وتصحح جملة أفكار خاطئة استقرت فى وعينا المعاصر دون سند علمى .

لماذا التراث المجهول ؟

ولكن لماذا عنوان « التراث المجهول » ؟ يقول المؤلف ذلك لأن إحصاء ما نُشر من تراثنا – محققًا أو بدون تحقيق – ومقارنته بما لم يزل مخطوطًا ، وبما ضاع مع الزمان ؛ يدل على أن نسبة المنشور المعلوم من التراث لا يزيد على خمسة بالمئة من مجموع التراث ، أو أقل من ذلك .. ثم يضيف « وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم الوعى به .. وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم منطق الإلغاء والتغييب ، هذا المنطق الذى ساء وأباد النظرة الموضوعية للتراث .. وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم اغترابنا عنه .. وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم انعدام الخطة المنهجية للتعريف به .. على هذا النحو صار التراث مجهولاً ، وعلى ذلك اخترتُ عنوان الكتاب .. فهل سيظل التراث كذلك ؟ » .

ويقع الكتاب فى ثلاثين فصلاً ، متباينة الطول حسب مقتضيات التعريف بالنص ومؤلفه ، وما يدور حولها من أفكار . وتهدف جملة فصول الكتاب إلى إلقاء نظرة عامة على التراث من خلال الجمع بين مخطوطاتٍ من شتى العلوم والفنون . ومن ثم جمع الكتاب بين دفتيه تعريفًا وعرضًا موجزًا قيمًا ووافيًا بثلاثين مخطوطة فى فنون مختلفة : كالطب والفلك والكيمياء وعددها أكثر من مخطوطات أخرى وردت فى الكتاب عن المعارف الدينية والأدب والتصوف .. وغلبة العلوم لا تأتى انحيازًا بل استيفاءً لنقص شائع نظرًا لأن الاهتمام منصب دومًا على التراث الدينى حتى ظن البعض خطأً أن التراث هو ما تضمنته الكتب الدينية دون سواها .

ومن ميزات هذا الكتاب نادر المثيل أن بعض الفصول تتعرض لأمورٍ لم تُطرح من قبل ، وفيها من التراث المخطوط مالم يكتب عنه قبل ذلك سطر واحد ، ومن الشخصيات التراثية مَنْ طواهم الزمان وسها عنهم المعاصرون .

والإطلالة على المخطوطات تعنى أن نتعرف على الكثير من ذخائر التراث العربى المنزوى فى الخزانات الخطية، يشكو الإهمال ويتهدده الفقر وتتصرف فيه يد الزمان، ونعنى كذلك أن نعى التراث وعيًا موضوعيًا علميًا وأن نتمكن من قراءة التراث قراءة صحيحة تكشف عن حقيقة تكوين العقلية العربية الإسلامية، ونتلمس ملامح شخصيتنا الحضارية وأن نفهم الماضى من حيث هو ظاهرة وجودية مشروطة، ونبرأ من مرض الرجعى أو الحنين إلى السلف فكرًا وعصرًا وحياة وكأننا نتشوق إلى الانسلاخ عن أسباب وشروط وجودنا .. وإنما الحياة امتدا وتجدد فى إطار الفعالية الإبداعية المتنوعة .

وفصول الكتاب مرتَّبة على حسب التسلسل الألفبائى لعناوين المؤلفات الثلاثين، وأغلبها مؤلفات مخطوطة لم تنشر من قبل . وحتى تكتمل متعة الرحلة لتكون متعة ذهنية وبصرية معًا زان المؤلف كتابه بعديد من اللوحات المصورة التى تعرض صفحات من المخطوطات يكتمل معها الإحساس بالمعايشة الحية؛ كما استهل الكتاب بحوالى ست عشرة لوحة ملونة هى مجموعة من النماذج المزخرفة بديعة التلوين والتأطير المذهب والخطوط العربية المختلفة . وهذه مجموعة انتقاها المؤلف من نوادر المخطوطات القرآنية أراد بها أن تكون للقارئ وقفة تأمل مع جماليات التراث العربى قبل الدخول فى رحلة الفصول الثلاثين .

ويورد لنا المؤلف فى ختام كتابه ثبتًا بالمراجع ثم قائمة بأسماء المخطوطات ومؤلفيها إن وجدوا نظرًا لأن بعضها لمؤلفين مجهولين، وتضمنت قائمة المخطوطات العناوين التالية التى نذكرها كمثال :

— محو الشبهات (مخطوطة مكتبة السادة القادرية النيازية بالإسكندرية) لصاحبها إبراهيم حلمى القادرى .
— شرح فصول أبقراط (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) لصاحبها ابن أبى صادق النيسابورى .
— قانون الزمان فى تدبير الإنسان (مخطوطة بمكتبة جامعة أوبسالا - السويد) لصاحبها ابن البيطار .
— رسالة فى التداوى من السموم (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) لصاحبها ابن البيطار .
— لباب المحصل (مخطوطة الأسكوريال - أسبانيا) لصاحبها ابن خلدون .
— المغنى فى الطب (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) لصاحبها ابن التلميذ .
— الديوان (مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط - المغرب) لصاحبها ابن الضباع الجذامى .
— مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . (مخطوطات : دار الكتب المصرية بالقاهرة - المكتبة الوطنية بباريس - مكتبة البلدية بالإسكندرية) لصاحبها ابن فضل الله العمرى .
— عنوان الحق وبرهان الصدق (مخطوطة جامعة اسطنبول - تركيا) لصاحبها ابن ميمون .
— شرح تقدمة المعرفة (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة) لصاحبها البغدادى .

— نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك (مخطوطة كوبريلى زاده - تركيا) لصاحبها الشيرازى .
— صورة الأرض = المسالك والممالك (مخطوطة مكتبة أحمد الثالث - تركيا) لصاحبها محمد بن حوقل .
— الروضة الغَنَّاء فى أصول الغناء (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط - المغرب) صاحبها مجهول .
— تحرير المجسطى (مخطوطة أحمد الثالث - تركيا) لصاحبها نصير الدين الطوسى .

صفوة القول إن هذا الكتاب ، حسب رؤية المؤلف ، دعوة للقارئ العام كى يتعرف على الجوانب الرحيبة فى التراث .. وللمثقف المعاصر كى يتفكر فى القضايا المطروحة بين الثنايا .. وللمحققين الجدد كى يقبلوا على نشر نصوص تراثية جديدة .. وللدارسين المتخصصين كى يتعمقوا فيما تضمنه المتن من موضوعات ، ونضيف إلى مقولته ولكى يتزودوا جميعًا بحس صادق لمعنى وموضوع التراث ، ولكى يزدادوا جميعًا عن ثقة ووعى اعتزازًا بتاريخهم المجهول الذى ظلمناه بجهلنا به وتقاعسنا عنه ، ولكى تمتد جهودنا بحثًا وتنقيبًا وتأويلاً إلى تراثنا فى جميع الأحقاب الحضارية منذ فجر الوعى الإنسانى فى هذه المنطقة الموصوفة بحق بأنها مهد الحضارة .. نرفع عن تراثنا ظلمًا وغبنا ، ويكون لنا فى نهضتنا بفهمنا العلمى الإبداعى ساعد وأيد .



التراث المجهول (إطلالة على عالم المخطوطات)

عرض : مهدى بندق[1]

« إننا كأمة قد تعاملنا طوال عصورنا التاريخية مع تراثنا بمنطق الإلغاء والتغيب » هكذا يستخلص المؤلف هنا حصيلة تجربته فى تحقيق مخطوطات التراث العربى . فهو عاشق للتراث وله سبعة عشر كتابًا ما بين التأليف والتحقيق . والكتاب الذى بين أيدينا كرسه لتحقيق ونشر ثلاثين مخطوطة نادرة أغلبها لم ينشر من قبل .

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة يحدد فيها غاية البحث ومنهاجه مؤكدًا خطأ « الانتقائية » التى درجنا عليها أنظمةً وأفرادًا فى تعاملنا مع تراثنا الغنى ، فالبلاد التى تتعامل مثلاً بالمذهب السلفى تنكر من كُتب التراث إلا ما كان متصلاً بابن تيمية وسائر الحنابلة ، ونضيف نحن إلى قوله والأشعرية بوجه عام بتراثها الكلامى الذى يتوسط ما بين المعتزلة وبين أهل السنَّة . بينما

(١) مجلة العربى - العدد٤٤٥ - ديسمبر ١٩٩٥ .

يرى المؤلف أن البلدان التى تدّعى التقدمية لا تتعامل إلا مع التراث الاعتزالى . وحتى الأفراد من الباحثين لا ينجون من هذه الانتقائية المتعسفة ، فإذا أعجب باحث بابن رشد رأيته يخاصم الغزالى ، بل ويطالب الناس بألا يقرأوه بل ربما سُرَّ إذا رآهم يلعنونه ! والنتيجة فيما يرى المؤلف أننا نجهل تراثنا فى مجمله ولا نعرف عنه إلا ما نرغب فى معرفته بحكم ميولنا الثقافية أو بحكم ما يراد لنا من قِبَل المؤسسات الثقافية المهيمنة على تعليمنا وتربيتنا وهى مؤسسات محدودة بحدود البراجماتية والمذهبية فيما نرى أيضًا . بيد أننا نود لو أن مؤلفنا يفرق بين معرفتنا الضرورية لمجمل التراث وبين نقدنا الضرورى أيضًا ، ذلك أن أحدًا لا يمكنه أن يقبل فكر « الجبرية » من السُّنَّة أو بالأكثر فكرة « الكسب » من الأشاعرة وفى نفس الوقت يصادق على غايات المعتزلة التى تستهدف التركيز على حرية الإرادة الإنسانية .

وينعى الدكتور يوسف زيدان - فى مقدمة كتابه المهم هذا - غياب الخطة المنهجية للتعريف بتراثنا من حيث إن نشر هذا التراث فى الآونة الحالية لم يعد يخضع إلا لللاعتبارات التجارية أو الدعائية ! ويطالب ملحًا بإنشاء هيئة عربية متخصصة تتولى مهام نشر التراث وتحقيقه . وهو ما يدعونا إلى تساؤل جديد حول طبيعة هذه الهيئة المقترحة - مادام الوطن العربى منقسمًا على نفسه - وكيف ستنتصر لهذا الاتجاه أو ذاك إذا كان مبدأ الانتقائية سيظل هو الحاكم بيننا .. فأما إذا أخذ برأى يوسف زيدان القائل إن التراث كله يشكل وحدة واحدة لا تفاضل فيها بين جزء وجزء ، لكنا قد انتصرنا لمبدأ الاستمرار الثقافى ، فهل ينطبق هذا على عدم الانقطاع المعرفى وتظل قضايا الفتنة الكبرى كالمنزلة بين المنزلتين وقدم القرآن أو حدوثه والجبر والاختيار هى نفسها قضايانا المعاصرة ؟ أو ترانا سنقبل فحسب من تراثنا ما هو حى وصالح للتفاعل مع قضايا عصرنا مخلفين غير ذلك وراء الظهور وعندئذ نعود مرة أخرى إلى مبدأ الانتقاء الذى ينعيه علينا د. يوسف ؟

أسئلة مهمة تنتظر حوارًا واسعًا بين مثقفى الوطن العربى من حيث إنه قد آن لنا حسم هذا الخلاف والانطلاق بعده إلى بناء حضارة عربية إسلامية جديدة لا تنقطع عن تراثها بالطبع وإنما ترتكز على ما هو إيجابى فيه مضيفة إليه المبدع والجديد .

وتتصل رؤية المؤلف للتراث بمنهاجه فى تصنيف وترتيب المخطوطات ، فمادام الحب البالغ درجة العشق هو رائده فى التعامل مع المادة العلمية المتوافرة لديه ، فإن مؤلفًا لا يسبق غيره ولا يتميز عنه سواء من حيث القيمة العلمية أو الشهرة أو التقدم زمانًا أو التأخر . الكل

سـواسية كأسنـان المشط ، فـابن النفيس لا يسـبق مـؤلفًـا مجهولاً ، وابن خلـدون على مكانتـه الرفيعـة يتأخر فى العرض داخل الكتاب عـن مؤرخ تلميذ لابن حجر العسـقلانى هو الشيخ عبد الـوهاب بن عمر الحسـينى ، وحتى لم يشـفع لابن خلدون أنه توفى فى نفس العـام الذى ولد فيه الحسينى .. لكن المنهج الصارم عند مـؤلفنا هو الذى دعاه إلى ترتيب المؤلفين التراثيين - داخل كتـابه - وفقًـا للترتيب الأبجـدى متسقًا فى ذلك مع رؤيتـه « العـادلة » لكل أعضـاء المؤسسة التراثيـة دون تفضيل لأحد . بل وربما قـاده العدل يرافقـه التبصر إلى إنصاف مـؤلفينا المجهولين . ذلـك أنه حين يُنصف مـؤلفنا العربـى « المجهول » فإنـه بذلك إنما يـؤكد فكـرته الأساسيـة التى تقول إن تـراثنا مظلـوم ومغيب إلى درجة الإلغـاء .. وأى إلغاء وأى تغييب وأى ظلم أشد من تجاهل اسم المبـدع برغم روعة إنتاجـه وبديع أعماله ؟! ولكى يزيـدنا د. يوسف شجنًا على شجن نراه يذكرنا بأن حجم ما نعرفه من تراثنا المحقق والمنشور لا يزيد على خمسة فى المائة من مجمـوع الإنتاج التراثى ! وهي حقيقـة صادمـة ومروعـة ومستفزة فى آن . ولأن يـوسف زيدان يعلم أن الغوص فى أعماق اللج التراثى أمر ليس سهـلاً على القارئ المعاصر فإنه ينتهج نهج الطبيعة ذاتها حين تغرى النـاس على التقدم إلى المياه العميقة بتدرجهـا من رمال الساحل إلى التوسط ثـم إلى ما هو أبعـد .. فتراه يقدم مخطـوطات صغيرة الحجم فى أول الكتـاب يتبعها بمخطوطات متوسطة الطول منتهيًا إلى الثالثة الأطول والأعمق .

شرح تقدُمة المعرفة للبغدادى :

مخطوطة طبيـه كاتبها هو الطبيب المسـلم موفق الدين عبد اللطيـف البغـدادى المتـوفى سنة ٦٢٩ هجرية تعد وثيقة مهمة من وثـائق الاتصـال بين العرب واليونان القديمـة ، فكتاب « تقدمة المعرفة » ألّفه أبقراط أول من دون الطب فى التاريخ اليونانى ، وهو بمنزلة « المدخل إلى العلـوم الطبية » بلغـة عصرنـا . ونظرًا لطـابعه الاختصـارى فلقـد راح الأطباء فى كل العصـور يحاولون شرح فقراته وتأويل مقاصده أو التعليق عليـه إعجابًا أو نقدًا . وممن عمدوا إلى نقده فى قرننا العشرين فيلسوف البنيوية الأشهـر ميشيل فوكوه حيث يقول : « إن اضمحلال الطب قد بـدأ مع أبقراط لأن الطب الحقيقى كـان يكمن فى العلاقـة المباشرة والخاصـة بين آلام المريض وأوجاعه الذاتية وبين ما يخفف عنـه آلامه .. فما يصلح لعلاج المريض بداء المفاصل لا يصلح لمريض آخـر يعـانى نفس الـداء ، لكن التـدوين جعل من التشخيص أمـرًا عـامًـا وجعل من العلاج أمـرًا عامًا كذلك » فكأنما ميشيل فـوكوه يعترض على جعل الداء بنية وكـذلك الدواء .

وأما البغدادى فلقد أخذ يشرح كتاب أبقراط قائلاً : إن طريقته هى طريقة التحليل بالعكس وإن من مبادئه الأساسية قولـه : دع الطبيعة تعمل عملها حيث ينبغى ألا يتعود الجسم الكسل مكتفيًا بـالأدوية ومغتنيًا بها عن الطبيب الداخلى للجسم . وهـو مبدأ يتناقض مع رؤية فـوكوه «الشاعـرية» كما يسميهـا يوسف زيـدان . والحقيقة أنـه لا تناقض فى رأينـا بين مطلب فـوكوه ومذهب أبقراط إلا إذا اعتبر الطبيب المعالج أن القاعدة العـامة تلغى الحالة الخاصة المعروضة للعلاج وهو أمر لا يسأل عنه أبقراط ولا شارحه البغدادى .

عن « تحرير المِجَسْطى » . مخطوطة فلكية :

كتـاب « المجسطى » هــو كتـاب بطليمـوس الأشهـر « التصنيف الضخم للحسـاب » وكلمة Megal تعنى « الضخم » ترجمها العرب بمعنى العظيم وحرفوها فونوطيقيًا إلى «مجسطى»، وأما تعبيرهم « تحرير » فالمقصـود به المراجعة والتدقيق وإصلاح الأخطاء . ولقـد قام عديد من الفلكيـين العــرب بهـذه المهمة بالنسـبة لكتاب بطليموس منهم جـابر بن الأفلح الأشـبيلى وعبـد الـرحمن الصوفى . أمـا المصلح الأشهـر فهـو العـلامة نصير الـدين الطـوسى صـاحب المخطوطـة التى يعرض لها كتـابنا . هـذا العلامة الطـوسى عاصر سقـوط بغداد ٦٥٦ هجـرية واعتقل بقلعة الموت على أيـدى طائفـة الإسماعيلية وتوفى عـام ٦٧٢ هجرية بعـد حياة حـافلة بالنشاط العلمى والسياسى من بينها بنـاؤه لأكبر مرصد فلكى فى القرون الوسطى . لكن الأهم أن العلاَّمـة الطوسى هو الـذى ساهم – بنقده لكتـاب المجسطى – فى وضع الأسـاس العلمى لكوبـرنيكوس الـذى يعد صاحب الانقـلاب الفلكى على نظام بطليمـوس . فمن المعروف أن النظام البطليموسى كـان يعد الأرض مركز الكون واعتبر أن الشمس وسـائر الكواكـب السيارة تـدور حـول هذا المركـز (الأرض) ، إلى أن جـاء كـوبرنيكـوس وأثبت أن الأرض والكـواكـب السيارة هى التى تدور حـول الشمس ، وما كان له أن يفعل لولا اطـلاعه على الانتقادات التى وجهها الطوسى إلى نظام بطليموس .

تفريج الكروب فى تدبير الحروب :

مخطوطة كتبها مـؤلف مجهول هو فى الغالب أحد تلامـذة المؤلفين العسكريين الكبار ممن عـرفهم العصر المملوكى من أمثـال محمـد بن منكلى الناصرى نقيب الجيش فى زمن السلطـان الأشرف ، وعبد الله بن ميمون مـؤلف كتاب « الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ ماهـر نحرير » ومرضى بن على الطرطوسى ، والحسـن السنجارى ومحمد بن لاجين . ولا ندرى لماذا سقط اسم

مؤلف المخطوطة الرجل الذى تدل مقدمته على أنه كان من أصحاب الملق والنفاق (يعدد ثلاثين لقبًا للسلطان فرج بن برقوق المُهدَى إليه المخطوطة) وكذلك لأن مقدمته تدل على قربه من مكتبة السلطان ومعرفته لما فيها من نقص فى أبواب المعرفة . على أية حال لقد كانت مخطوطة مزجاة إلى السلطان فرج الذى أساء إلى الرعية وكان أقرب إلى الجنون منه إلى العقل حتى أنه حين قتل بيد السلطان شيخ المحمودى لم يحزن عليه أحد ، ولم يتوقف عنده ابن حجر العسقلانى فى « ذيل الدرر الكامنة » إلا بسطرين قائلاً : « ذكر من مات سنة خمس عشرة وثمانمائة (هجرية طبعًا) فرج بن برقوق الملك الناصر بدمشق » .

فأما المخطوطة ذاتها فإنها تقع فى ١٥٢ ورقة ، ناسخها هو أبو الفضل بن عبد الوهاب السنباطى وهى موجودة فى مكتبة الفاتح باسطنبول . ومتنها استعراض لفنون الحرب وأنواع القتال ونصائح للسلطان (بصفته القائد الأعلى للجيوش) ولأمير الجند (بصفته القائد العام). فهى توجيهات استراتيجية ومحاورات تكتيكية وربط جيد بين السياسة والحرب تذكرنا بتعبير كلاوزفيتز الشهير : إن الحرب هى سياسة بوسائل عنيفة والسياسة حرب بوسائل غير عنيفة ، لكن مؤلفنا ذا النزعة الشاعرية والصوفية يرى غير ذلك إذ يعلق - نعنى يوسف زيدان - على نصيحة المؤلف المجهول للسلطان : « لا تقاتل ما وجدت إلى الحيلة والخديعة سبيلاً » بقوله : (وتلك قاعدة ميكيافيلية) ثم يخلص إلى أن فرج بن برقوق لم يستمع إلى النصائح الخاصة برعاية الرعية فلقى مصيره المحتوم وهو دون الرابعة والعشرين فاستحق التجهيل والتهميش من المؤرخين .

جامع الأسرار للطغرائى :

الكاتب هو الشاعر فخر الكتَّاب أبو إسماعيل بن على ولقبه الطغرائى بمعنى صاحب الطغرة (بلغة عصرنا مقدمة الرسائل متضمنة البسملة) فكان الشاعر يجيد كتابتها بخط جميل ، وفضلاً عن كونه وزيرًا أيضًا فلقد وضع عدة مؤلفات فى الكيمياء بينها الرد على ابن سينا فى إبطال الكيمياء ومنها أيضًا هذا المخطوط « جامع الأسرار » ومن المؤسف أن يموت هذا العَلَم مقتولاً بأمر السلطان محمود السلجوقى عام ٥١٥ هجرية .

ولأن العرب كانوا مشغولين بتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب (السيمياء) ، فإن تلك المحاولات كانت خليقة بأن تعلمهم الكثير عن تركيب العناصر وتفاعلاتها وخصائص التركيبات المصنوعة . ومخطوطة كتاب « جامع الأسرار » تفصِّل هذا كله ، ولكنها تحرص على أن

تظل الأسرار بين أيدى التلامذة دون العامة ، فتراها تستخدم الرموز وتحرّض على الكتمان والصمت ولهذا فهى تنتهى بقول المؤلف بالعبارة الشهيرة التى طالما استخدمها الفلاسفة « وهذا الكتاب مضنون به على غير أهله » . إنها واحدة من مخطوطاتنا التراثية التى تكشف عن جوانب فى العقل العربى مطلوب منه أن يتجاوزها لكى يصبح العلم متاحًا لأبناء الأمة دون تمييز أو تفرقة بين خاصة وعامة .

جلاء الخاطر فى الظاهر والباطن :

صاحبها هو الباز الأشهب وغوث الأعظم القطب الكبير الصوفى عبد القادر الجيلانى المتوفى عام ٥٦١ هجرى ، وله ديوان (حققه مؤلف كتابنا يوسف زيدان ونشره بالقاهرة عام ١٩٩١ ميلادى) وله كتاب « الغنية لطالبى الحق » فى معرفة الآداب الشرعية ، فأما المخطوطة التى يعرضها كتابنا فهى واحدة من مخطوطات القطب الكبير التى تسجل مجالس وعظه وإرشاده ، وقد أشار إليها المستشرق الألمانى بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » . ومن بديع الأقول فيها ما ينصح به الجيلانى العلماء قائلاً : « يا عالِم لو كان عندك ثمرة العلم وبركته لما سعيت إلى باب السلاطين فى حظوظ نفسك وشهواتها ، العالِم لا رِجلان له يسعى بهما إلى أبواب الخَلق ، والزاهد لا يدان له يأخذ بهما أموال الناس ، والمحب لله لا عينان له ينظر بهما إلى غيره .. » ويقول لطالب الدنيا : « أنت أعمى . كيف تقود غيرك ؟ » . وهكذا تمضى المخطوطة تكشف عن بلاغة الإمام وعن عالم من الصفاء الروحى إلى درجة أن ابن العماد يصف صاحبها فى (الشذرات) قائلاً معددًا فضائل الإمام : لقد تاب على يده معظم أهل بغداد وأسلم معظم اليهود والنصارى .

ديوان ابن الصباغ الجذامى :

صَبٌّ صبابته شهودْ   وقتله فيكم مباحْ

مناهُ لو أسعف التمنى   من كاسره جبر الجناح

هذه الموشحة اللطيفة المعانى الرقيقة أسلوبًا ونظمًا لا تزال ضمن ديوان صاحبها بخط يده موجودة بالخزانة الملكية بالرباط ، نشر بعضها الدكتور محمد زكريا عنانى رئيس قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية فى كتابه « ديوان الموشحات الأندلسيَّة » ، وحقق الدكتور أحمد السنوسى بعض الأشعار الأخرى لهذا الشاعر الرقيق ابن الصباغ الجذامى الذى قتله أعوان

أبى دبوس أيام الخليفة المرتضى (دولة الموحدين) عام ٦٦٥ هجرية ، ولعل فى إشارات يوسف زيدان إلى هذا الشاعر ما يحفز لنشر ديوانه كاملاً .

الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس :

مخطوطة تاريخية ضمن خمسين مخطوطة نشرها الدكتور كامل جميل العسيلى فى كتابه الصادر بالأردن بعنوان « مخطوطات فضائل بيت المقدس » ، بينما يذكرها أيضًا السخاوى فى موسوعته « الضوء اللامع » ناسبًا إياها إلى صاحبها الشيخ عبد الوهاب بن عمر الحسينى الدمشقى الشافعى المتوفى ٨٧٥ هجرية ، فهو زميل السخاوى وتلميذ ابن حجر العسقلانى . وقد اعتمد الحسينى فى مخطوطته على مراجع كثيرة أهمها كتابات ابن عساكر والقاضى هبة الله والفزاوى والزركشى وصلاح الدين العلائى ، والسيوطى الذى مدح الحسينى كثيرًا لدقته فى وصف بيت المقدس بدءًا من أسماء المساجد وقصة بناء المسجد الأقصى ، إلى فتح عمر ابن الخطاب للمدينة ونهيه المسلمين عن دخول كنائسها ، إلى ذكر بناء مسجد عبد الملك ابن مروان .. إلخ والمخطوطة محفوظة بمكتبة الدولة ببرلين تحت رقم ٦٠٩٨ كما ذكر بروكلمان .

ويعقب المؤلف يوسف زيدان على ذلك قائلاً : إذا كانت القدس اليوم أسيرة فى يد إسرائيل ، فإن مخطوطة فضائل بيت المقدس أسيرة فى يد ألمانيا .

الوريقات فى المنطق لابن النفيس :

هذا هو مكتشف الدورة الدموية الصغرى والكبرى صاحب المؤلفات العديدة ذات التنوع والثراء ما بين طب وأحياء إلى فقه وحديث إلى لغة ونحو إلى منطق . هو علاء الدين على ابن أبى الحرم المعروف بابن النفيس المتوفى سنة ٦٣٧ هجرية بالقاهرة حيث كان يتولى منصب كبير أطباء مصر . والوريقات فى المنطق مخطوطة ليس منها فى العالم سوى نسخة وحيدة نادرة محفوظة بمكتبة بودليان بأكسفورد ، وهى مكونة من ٢٠٠ ورقة من الحجم الكبير والورقة الواحدة صفحتان ، مشتملة على مقدمة وتسعة كتب . وتشتمل المقدمة على ثلاثة فصول يتبين منها تفضيل ابن النفيس لطريقة الفارابى وابن سينا على طرائق معاصريه ، لأن الفارابى وابن سينا اعتبرا المنطق مدخلاً للعلوم بينما حاول المعاصرون لابن النفيس أن يجعلوه علمًا قائمًا بذاته . فابن النفيس يريده - أى المنطق - أن يكون آلة للعلوم ومقدمة نظرية ضرورية لكل علم حتى يتم به الانضباط المنهجى .

وبعد المقدمة تتوالى أبواب الكتاب التسعة منها ما يشتمل على فصول ومنها ما لا ينقسم.

وأما صاحب كتابنا « التراث المجهول » فيدير حوارًا ذاتيًا حول ابن النفيس وحول « وريقاته » مؤكدًا أن حياة ابن النفيس وإنتاجه فى ظل مناخ سياسى عاصف واضطراب كاسح (سقوط بغداد على أيدى التتار وهجمات الصليبيين على مصر والشام وزحف ملك النوبة على جنوب مصر ..) إنها هما أبلغ رد على من يرفعون راية التشاؤم والاستسلام فى أيامنا هذه إزاء النكبات المتتالية علينا . وكيف لا ونحن لا نخرج لنا مما نحن فيه إلا بشحذ الهمم واستنهاض العزائم لبث التفكير المنطقى فى مجمل حياتنا اليومية ومنظومات سلوكنا الاجتماعية .

وبنفس الروح الغيورة على التراث والحريصة فى آن على استكمالنا لنهضتنا المعاصرة ، يناقش يوسف زيدان أستاذه د. على سامى النشار فيما أورده بكتابه « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام » معارضًا إياه - بمناسبة تعليقه على مخطوطة ابن النفيس - فيما ذهب إليه النشار من أن العرب رفضوا الفلسفة والمنطق واتخذوا من الاستقراء وحده منهاجًا للبحث العلمى . ذلك لأن العرب اهتموا أيضًا بالمنطق وبالفلسفة كما اهتم اليونانيون من قبل بالاستقراء بجانب المنطق والفلسفة . وهو يرفض تعبير د. النشار « إن المنهج الاستقرائى هو المعبر عن روح الإسلام » لأن هذا التعبير غامض ، ولأن الحضارة الإسلامية عرفت تنوعًا وثراء يستحيل مع تلك المعرفة أن يقصر على سمتها لونًا واحدًا من ألوان التفكير .

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار :

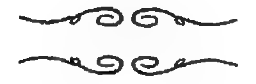
مخطوطة هائلة الحجم والقيمة .. تقع فى سبعة وعشرين مجلدًا وتعد من روائع التراث العربى فهى موسوعة بمعنى الكلمة وصفها ابن العماد قائلاً : « كتاب جليل ما صنف مثله » . كتب عنها د. محمد زكريا عنانى مقالاً موجعًا بعنوان « لماذا تبقى مسالك الأبصار دون تحقيق ؟ » . وكان الدكتور أحمد باشا زكى قد استحضر منها نسخة كاملة من مكتبتى آيا صوفيا وطوبقبو بالأستانة . وهو كتاب فى التاريخ الطبيعى والجغرافيا ومواقع البلاد وتراجم العلماء والفقهاء ورجالات الحكم ، وبحوث فى العلوم الطبيعية كالحيوان والنبات والمعادن ، ثم قسم للتاريخ البشرى حتى سنة ٧٤٤ هجرية فضلاً عن دراسات فى الفلك والمعمار والعقائد وعلوم الدين والآداب واللغة .

ولقد نشر المستشرقون بعض أجزاء هذا السفر الموسوعى ، ولم ينشر العرب إلا الجزء الخاص بمملكة مصر والشام والحجاز واليمن فى زمن المماليك .

وينعى المؤلف « يوسف زيدان » علينا - نحن العرب المعاصرين - تكاسلنا عن نشر تلك الموسوعة كاملة مذكرًا بأننا ننفق الكثير من المال والجهد فى ميادين أقل جدوى بل وربما كانت بلا جدوى . ولعلنا نضيف صوتنا إلى صوته منبهين إلى أننا ندخل عصر الثورة المعلوماتية (وهى ثورة أخطر من كل الثورات السياسية) ونحن مزودون بكنوز من العلم والمعرفة لكنها لا تزال مطمورة ، فلماذا لا نستخرجها الآن وقبل كل شىء لننطلق بها إلى عالم الغد المنفتح على كل ألوان الثقافات والحضارات الإنسانية ، يأخذ منها ويعطيها ويعيد إنتاجها بالتواصل والتفسير والتأويل ؟ . هكذا فعلت أوربا فى عصر نهضتها حينما ابتعثت تراثها الهيلينى والهيلينستى. وهكذا ينبغى أن نفعل نحن بجانب ما نتفاعل به مع إبداع العصر.

* * *

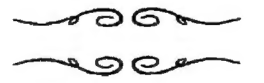
وبعد .. فإن أصدق تعبير يمكننا أن نختتم به عرضنا لذلك الكتاب المهم والمفيد هو تعبير رائد علم الاجتماع شيخنا عبد الرحمن بن خلدون الذى يقول فيه : إن معرفة التراث هى العلم بكيفيات الواقع وأسبابها .



الفهـــرس

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



المؤلـــف

* دكتور يوسف محمد أحمد طه زيدان، ولد بسوهاج فى ٣٠/٦/١٩٥٨ ونشأ بالإسكندرية ودرس بها حتى حصوله على دكتوراة فى الفلسفة الإسلامية سنة ١٩٨٩، مدرس بكلية الآداب بدمنهور - جامعة الإسكندرية، عضو : اتحاد كتاب مصر - الجمعية الفلسفية المصرية الجمعية العالمية لتاريخ الطب بباريس .. مقرر لجنة العلوم الاجتماعية بهيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية .

كتب الدكتور / يوسف زيدان

١ - المقدمة فى التصوف، لأبى عبد الرحمن السلمى (تقديم وتحقيق)

الطبعة الأولى : مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ١٩٧٨ .

الطبعة الثانية : دار الجيل بيروت ١٩٩٧ .

٢ - عبد الكريم الجيلى فيلسوف الصوفية (تأليف) .

الطبعة الأولى : الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة أعلام العرب) ١٩٨٨ .

الطبعة الثانية : دار الجيل بيروت ١٩٩٣ .

الطبعة الثالثة : دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥ (طبعة خاصة لطلاب جامعة الإسكندرية) .

٣- الفكر الصوفى عند عبد الكريم الجيلى دراسة مقارنة (تأليف) .

الطبعة الأولى : دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٨ .

الطبعة الثانية : مكتبة مدبولى بالقاهرة ١٩٩٦ .

الطبعة الثالثة : دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧ .

٤ - شرح فصول أبقراط لابن النفيس (دراسة وتحقيق) .

الطبعة الأولى : دار العلوم العربية ببيروت ١٩٨٨ .

الطبعة الثانية : الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة ١٩٩٠ .

٥ - شعراء الصوفية المجهولون (تأليف) .

الطبعة الأولى : مؤسسة الأخبار بالقاهرة ١٩٩١ .

الطبعة الثانية : دار الجيل ببيروت ١٩٩٦ (طبعة مزيدة منقّحة) .

٦ - ديوان عبد القادر الجيلانى (دراسة وتحقيق)

الطبعة الأولى : مؤسسة الأخبار بالقاهرة ١٩٩١ .

الطبعة الثانية : دار الجيل ببيروت ١٩٩٧ .

٧ - ديوان عفيف الدين التلمسانى (دراسة وتحقيق)

مؤسسة الأخبار بالقاهرة ١٩٩١ .

٨ - قصيدة النادرات العينية للجيلى ، مع شرح النابلسى (دراسة وتحقيق) دار الجيل ببيروت ١٩٨٨ .

٩- الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر (تأليف)

الطبعة الأولى : دار الجيل ببيروت ١٩٩١ .

الطبعة الثالثة : دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥ (طبعة خاصة لطلاب جامعة الإسكندرية) .

١٠ - عبد القادر الجيلانى ، باز الله الأشهب (تأليف)

دار الجيل ببيروت ١٩٩١ .

١١- رسالة الأضاء ، لابن النفيس (دراسة وتحقيق)

الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة وبيروت ١٩٩١ .

١٢- المختصر فى علم أصول الحديث النبوى ، لابن النفيس (دراسة وتحقيق) .

الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة وبيروت ١٩٩١ .

١٣- المختار من الأغذية ، لابن النفيس (دراسة وتحقيق) .

الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة وبيروت ١٩٩٢ .

١٤- شرح مشكلات الفتوحات المكية ، للعبد الكريم الجيلى (دراسة وتحقيق) .

دار سعاد الصباح بالقاهرة ١٩٩٢ .

١٥- فوائح الجمال وفواتح الجلال ، لنجم الدين كُبْرى (دراسة وتحقيق) .

دار سعاد الصباح بالقاهرة ١٩٩٣ .

١٦- التراث المجهول ، إطلالة على عالم المخطوطات .

الطبعة الأولى : دار الأمين بالقاهرة سنة ١٩٩٤ .

الطبعة الثانية : دار الأمين بالقاهرة سنة ١٩٩٧ .

١٧- فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (١٧٠٠ مخطوطة) الجزء الأول .

معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٩٤ .

١٨- فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الثانى) .

معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٩٥ .

١٩- نوادر المخطوطات بمكتبة بلدية الإسكندرية .

برنامج الأمم المتحدة للتنمية U.N.D.P / الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية ١٩٩٥ .

٢٠ - فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى (١٤٥٠ مخطوطة) الجزء الأول .

معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٩٦ .

٢١ - فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى الجزء الثانى .

معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ١٩٩٧ .

٢٢ - فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى الجزء الثالث .

معهد المخطوطات العربية بالقاهرة (تحت الطبع) .

٢٣ - فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (٥٠٠ مخطوطة) الجزء الأول : المخطوطات العلمية .

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية ١٩٩٦ .

٢٤ - بدائع المخطوطات القرآنية بالإسكندرية.

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية ١٩٩٦ .

٢٥ - التقاء البحرين (نصوص نقدية) .

الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة وبيروت ١٩٩٧ .

٢٦ - فهرس مخطوطات أبى العباس المرسى (الجزء الأول) .

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية ١٩٩٧ .

٢٧ - حى بن يقظان (أربع صيغ تراثية) .

الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة : الفلسفة والعلم ١٩٩٧ .

تحت الطبع :

* المتواليات : دراسة ونصوص فى التصوف .
* المتواليات : دراسة ونصوص فى تاريخ العلوم .
* المتواليات : دراسة ونصوص فى المتَّصل التراثى / المعاصر .
* المتواليات : مقالات فى الإشكاليات الزائفة .
* خطوط مشاهير الإسلام (تأليف) .
* الوريقات فى المنطق لابن النفيس (تحقيق ودراسة) .

❑ ❑ ❑